



جيفرى ماوسايف ماسون

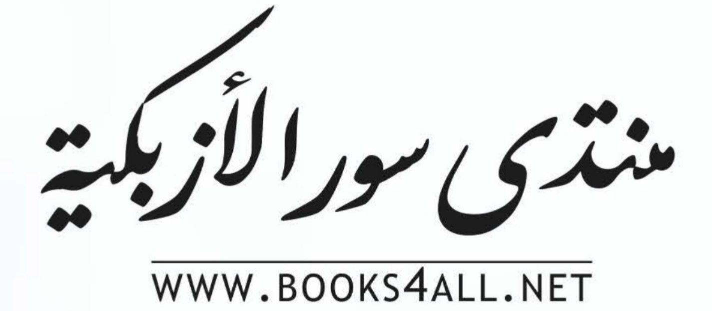
سوزان ماكارثى

حين تبكى الأفيال

الحياة الوجدانية عند الحيوانات

ترجمة : إبراهيم محمد إبراهيم

مراجعة : محمد زاهر المنشاوى


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

جيفرى ماوسابيف ماسون

سوزان ماكارثى

حين تبكى الأفيال

الحياة الوجدانية عند الحيوانات

ترجمة

إبراهيم محمد إبراهيم

مراجعة

محمد زاهر المنشاوى



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٠

Jeffrey Moussaieff Masson
Susan McCarthy

When Elephants Weep

The Emotional Lives of Animals

فهرس المحتويات

مقدمة الطبعة العربية

مما لا شكك فيه أن الإنسان يتميز عن غيره من المخلوقات بالعديد من المميزات لعل أهمها العقل، مما دفع الإنسان إلى التمادى فى سيادته وإعلان تفوقه وتميزه على غيره من الحيوانات فى كل شيء تقريباً. وهذا زعم كاد يرسخ حتى فى الدوائر العلمية، حتى إن الإيمان به دفع بعضهم إلى القول: "ما أنكره هو عدم السماح لنا بالاستفادة من تفوقنا واستخدام الحيوانات ومعاملتها بأفضل طريقة تلائمنا".

ولكن هذا الكتاب يعلن الحرب على غرور الإنسان ويتغلغل فى العالم من حولنا، سعياً إلى دحض وإبطال بعض مزاعم البشر بالتفوق المطلق على الحيوان، حيث يقول المؤلف: "قد تكون للحيوانات خبرات انفعالية يصعب التعبير عنها أو صياغتها فى ألفاظ، غير أن هذا لا ينفى كونها مشاعر حقيقية. ورغم الحاجز اللغوى الذى يشترك فيه الإنسان مع الحيوان، إلا إنهما يشتركان فى القدرة على الإحساس بالغالبية العظمى من المشاعر"، ويقول فى فقرة أخري: "لقد دأب البشر على رفع شأن بعض المشاعر بزعم أنها تنزلنا منزلة متفردة بين الحيوانات، فزعموا أن البشر وحدهم هم الذين يشعرون بانفعالات نبيلة مثل الرحمة، والحب الصادق، والإيثار، والشفقة، والعطف، والإجلال، والشرف والتواضع".

وينجح الكتاب فى إثارة دهشتنا حين يتحدث عن وقائع حقيقية أثبت الحيوان فيها قدرته على الحب والعطف، بل التبنى والدفاع عن المظلوم ضد الظالم وأحياناً

القــدرة على التحاور، سواء بلغة الإشارة مع بعض قرود الشمبانزى أو بالكلام مع البــبغاوات. وأكــاد أجزم أن الاستمرار في جهود البحث فى هذا المجال كفيل بأن يكشــف لــنا الكثير مما خفى عنا فى هذا العالم، وضمين بأن يجعلنا نحنى رءوسنا تواضعاً أمام العلم وقدرة الخالق التى لا نعلم عنها إلا القليل.

ولعــل قراءتــنا للكتاب تجعلنا نحسن معاملة الحيوانات ونعاملها بحب، فهى قادرة على مبادلتنا هذا الحب كما أن تاريخها معنا يجعلها جديرة به، فهى كانت ولا تزال خيــر مُعين للإنسان على قضاء حوائجه فى حله وترحاله وغذائه وحراسته، وكما يقــول الكــتاب فــإن الاعــتراف بكــل ما سبق "يوجب مراعاة بعض الالتزامات الأخلاقيــة" وإن "الــتجاهل العلمى المتعمَّد لعالم انفعالات الحيوان يبدو على وشك التلاشى".

محمد زاهر المنشاوى

مقدمة المؤلف

يعـــتقد أغلب الناس أن الحيوانات ممكن أن تشعر بالتعاسة وأنها تحس بمشاعر أساســية كالســعادة، والغضب، والخوف. كما أن الإنسان العادى غير المتخصص عــلى استعداد للاعتقاد بأن لدى كلبه أو قطته أو ببغاء العائلة أو حصانها مشاعر. بل هم لا يؤمنون بذلك فحسب، وإنما توجد أدلة على ذلك يرونها بأم أعينهم.

وكل منا بإمكانه أن يروى قصصاً عجيبة حول الحيوانات نعرفها جيداً. غير إنه توجــد فجوة واسعة بين الرأى الشائع وما تراه العلوم الرسمية فى هذا الموضوع. فمعظم العلماء المحدثين ــ ولاسيما من يدرس منهم سلوك الحيوانات ــ يتجاهلون هذه القصص تحت تأثير دراساتهم الجادة ومعاييرهم الصارمة.

ولكــن تجاربى مع الحيوانات دفعتنى إلى الاهتمام بانفعالاتها ــ وبعضها يبعث عــلى الصــدمة كمــا يؤثر البعض الآخر فى المرء تأثيراً كبيراً ــ وبالمقارنة مع البشــر الذيــن يغلقون صدورهم ولا يمكن سبر أغوار مشاعرهم، تتصف مشاعر أصدقائى من الحيوانات فى بعض الأوقات بالوضوح والصفاء والنقاء، خاصة تلك التى تحيا فى الطبيعة.

فىعام ١٩٨٧، قمت بزيارة إحدى محميات الحيوانات فى جنوب الهند، والمعروفة بمــا تحــتوى عليه من أفيال برية. وفى وقت مبكر، ذات صباح، بدأت السير مع إحــدى صديقاتى للتريض فى الغابة. وبعد مسيرة ميل تقريباً صادفنا قطيعاً يتكون مــن عشــرة أفيال ضخمة. وبعد أن وقفت على مسافة كافية، أخذت أقترب، حتى توقفت على بعد حوالى عشرين قدماً. فنظر نحوى فيل ضخم وهز أذنيه.

ولـــم تكن لدى فكرة عن أن هذه الحركة ما هى إلا تحذير، لفرط جهلى بالأفيال. ولمـــا كـــنت أنعم بما ينعم به الجهلة من نعيم، ظننت بأن الوقت قد حان للتواصل معهـــا، وكـــأنى فى إحدى حدائق الحيوانات أو أطالع قصة مغامرات فى الأدغال. وبمـــا أنى تذكرت بيتاً من الشعر باللغة السنسكريتية يُستخدم لتحية الإله الهندوسى جنيشـــا، الـــذى يـــتخذ لنفســـه شكل الفيل، صحت منادياً: "بوه، جاجيندرا" وتعنى: "تحياتى إليك يا ملك الأفيال".

وأصـــدر الفيـــل صـــوتاً عاليا كالنفير، فظننت للحظة أن هذه الصيحة هى رده للـــتحية. وعندئذ، نجحت استدارته الخفيفة المفاجئة النشطة، وهجومه المرعب فى اتجاهى فى شفائى من أى وهم يصور لى أنه يشاركنى تخيلاتى عن الأفيال.

وأُصـــبت بالذعر الشديد حينما رأيت حيواناً يزن طنين يهرول نحوى. ولم يكن لماحـــاً أو يشبه الفيل جنيشا الموجود فى القصص. فاستدرت وعدوت عدواً شديداً، إذ إنى أدركـــت أنـــنى معـــرض لخطـــر حقيقى وشعرت أن الفيل يكاد يلحق بي. (وعـــرفت، فيما بعد، مما سبب لى هلعاً شديداً، أن الأفيال تستطيع العدو أسرع من البشـــر وبســـرعة قد تصل إلى ثمانية وعشرين ميلاً فى الساعة) فجريت نحو فرع شـــجرة باسقة، بعد أن قررت أنى سأكون فى مأمن إذا قفزت فوق شجرة واختبأت. غير إنها كانت شديدة الارتفاع. فدرت حولها واندفعت وسط الأعشاب العالية وجاء الفيل يعدو، وهو يصدر صوتاً لا يحمل سوى نبرة التهديد وأخذ يدور حول الشجرة فى مطاردة على مسافة قريبة. إذ من الواضح أنه كان راغباً فى أن يرانى صريعاً بعـــد أن يطرحـــنى أرضاً بخرطومه ثم يسحقنى. فأحسست أنه لم يبق لى على قيد الحياة سوى لحظات، مما جعلنى أسقط من فرط الخوف تقريباً. وأتذكر أنى فكرت فيمـــا بيـــنى وبين نفسى: "كيف أمكنك أن تكون على هذه الدرجة من الحمق بحيث تقترب من فيل متوحش؟" فانزلقت وسقطت وسط العشب المرتفع الذى أخفانى عن الفيـــل، الذى توقف ثم رفع خرطومه وأخذ يتشمم الهواء، باحثاً عن رائحتي. ومن حســـن طـــالعى أن بصـــر الأفيـــال ضعيف إلى حد ما. وأدركت أنه يجدر بى ألا أتحرك.

وبعـــد بضـــع لحظـــات مرت طويلة، استدار بعيداً وجرى فى اتجاه آخر، باحثاً عـــنى. وفى الحال، استجمعت نفسى بهدوء، واتخذت طريقى، ببطء، مرتعشاً عائداً

إلى حيث كانت صديقتى المرتعدة تقف وهى تشاهد الحادث بأكمله مقتنعة بأنها سوف تشهد نهايتى. ولو كان لدى أية معرفة أولية بالأفيال، لأمكننى أن أتجنب الخطر على حياتى. ذلك أن قطيعاً يضم أفيالاً صغاراً يكون متأهباً، بصفة خاصة، للخطر، فالأفيال لا تحب أن يغزو أحد أرضها، ونشر الآذان يُعتبر تحذيراً مباشراً. ولم يكن اللقاء فى حد ذاته، سوى انعكاس لأمنيتى بأن فيلاً متوحشاً يود لقائي. وقد أخطأت عندما ظننت أن فى إمكانى أن أتواصل مع فيل غريب فى ظل هذه الظروف. غير أنه أفهمنى بوضوح شديد: أنه غاضب، ولذا كان على أن أغادر المكان. وأظن أن هذا التفسير واقعى.

أما مشاعر البشر فهى على النقيض من مشاعر الحيوان، شديدة الغموض فى غالب الأحيان. فأنا على سبيل المثال، أشعر بانفعالات حادة فى الأحلام ــ كالغضب والحب والغيرة والراحة، أو الإحساس بالنجاة والغوث، والفضول والرحمة ــ بدرجة من الحدة تفوق مثيلاتها فى يقظتى. فإلى من تنتمى هذه الانفعالات؟ هل هى تخيلاتى الخاصة لمشاعر ما؟ فالانفعالات فى الحلم لا تكون تجريدية: فأنا أحس بحب غير عادى نحو أناس أشعر نحوهم، فى الواقع بالحب، لكن ليس إلى هذا الحد. وباعتبارى محللاً نفسياً سابقاً، أعتقد أن هذه هى مشاعر كنت قد كبتُّها، بشكل ما، فى يقظتى، ولم أتمكن من النفاذ إليها حقاً سوى فى أحلامى. فافترضت نظرياً أن هذه المشاعر كانت حقيقية، وإن كان بينى وبينها حجاب. ذلك أن المشاعر كانت دائماً موجودة، لكنها لم تتمكن من الوصول إلى حيز الشعور سوى فى لحظات معينة حين كان جزء منى بدون حراسة ــ نائماً ــ ولابد بشكل ما من خداع الأنا لدى حتى تعبر هذه المشاعر عن نفسها، فهى موجودة تنتظر بنقائها وصراحتها، وجاهزة كى تخرج. أليس من الجائز أن تكون لدى الحيوانات القدرة على التوصل، بشكل أفضل، لهذا العالم اللاشعورى وهو العالم الذى نحرم منه ذاتنا فى اليقظة، إلى حد كبير؟ ثم تأتى مسألة مشاعر الآخرين. هل هناك ما هو أكثر تشويقاً وإثارةً مما يشعر به الآخرون؟ وهل هم يشعرون بنفس الأشياء التى أشعر أنا بها؟ لقد كان من الصعب على أن أكتشف ذلك عن طرق التحدث أو القراءة. أما إنشاد الأغنيات والقصائد أثناء السير فى الغابات، فإنه يستدعى مشاعر معينة أحياناً تكون غريبة ومعقدة بحيث يصعب

شـرحها، بل شاذة، وغالباً ما تكون حادة إلى درجة تستعصى على الفهم. ولطالما تساءلت عن مصدر هذه المشاعر وسببها وبماذا يمكن تسميتها.

أثـناء دراسـتى للتحـليل النفسى فى الجامعة، اكتشفت أن المحللين لا يهتمون بالانفعـالات والعواطـف بالقدر الكافي. أو لنقل أنهم قصروا اهتمامهم على تفسير مدلول انفعال أو عاطفة ما بالنسبة للنفس، أو قصروا اهتمامهم على مناقشة ملاءمة عاطفة ما أو عدم ملاءمتها. أما أنا، فكنت أظن أن الملاءمة تصنيف فئوى سخيف. ذلـك أن العواطـف ببساطة شيء موجود. وأنها لا تأتى بالأمر. فهى مثل ضيف غـامض يصعب تقييده. وأحياناً كنت أظن أن إحساسى بشيء ما لا يدوم إلا لثانية، أو كسـر مـن الـثانية، ثم يغيب هذا الإحساس ويستحيل استرجاعه. وأحياناً كنت أسـتيقظ، فى منتصف الليل، وأتذكر شعوراً شعرت به ذات مرة وأشعر بشيء من الافتقاد.

ويـزعم التحـليل النفسى أنه يتناول المشاعر ولا سيما العميق منها. فالمحللون النفسيون لا يعنون بجوهر الشخصية أو تفكيرها أو أدائها بل ما تشعر به. وبالتالى فـإن المقياس يكاد يكون فكاهياً فالمعالجون يسألون الشخص: "ماذا تحس تجاه هذا الشـىء أو الشـخص أو الموقف؟" غير أن هذا السؤال يبدو جوهرياً جداً وتصعب الإجابـة عـليه. فنحن غالباً لا نعرف الرد ـــ ومن ثم تأتى الفكرة التى ظهرت فى أعمـال فرويد الأولى والتى تتناول الانفعالات اللاشعورية التى لا نتمكن من النفاذ إليها. لذا فإن **أول هدف للتحليل النفسى هو تحويل اللاشعورى إلى شعورى عملاً عـلى إبـراز المشـاعر إلى حيز الإدراك، ودفع الأفكار الدفينة إلى السطح.** لكن مسـألة الانفعالات التى نشعر بها فى الأحلام قليلة الحظ من الدراسة فى علم النفس فى الماضى والحاضر.

لذلـك فإن ما جذبنى فى سلوك الحيوانات هو إمكانية نفاذها بسهولة إلى مستقر انفعالاتهـا. إذ يـبدو لى إنـه لا يوجـد حيوان واحد مضطر لأن يحلم كى يشعر بالعاطفة. فالحيوانات تُظهر مشاعرها باستمرار. وإذا أغضبتها لا تتردد فى إظهار ذلـك. وإذا أدخـلت السـرور على قلب قطة، فإنها (تخرخر) تعبيراً عن السرور، وتحك جسدها فيك، فهل هناك كائن يستطيع التعبير عن رضائه كالقطة؟ أما الكلب، فيـلف ذيله ويبدو شعوره حين يراك أكثر صدقاً من شعور أى إنسان، فمن ذا الذى

يمكن أن يعبر عن سعادته كما يعبر الكلب؟ وهل يمكن أن يبدو أى كائن فى سكينة البقرة؟ أم أن هذه التصورات مجرد إسقاطات بشرية؟

حين كنت طفلة، كانت لدى بطة كانت تعتقد على ما يبدو أنى أمها. فكانت تتبعنى فى كل مكان، وحين ذهبنا فى إجازة، عرض أحد الجيران أن يعتنى بها. وعند عودتنا، سألت بلهفة عن حال بطتى فأجاب "لذيذة" ومنذ ذلك اليوم صرت نباتياً. ومازلت لا أتحمل فكرة أن آكل شيئاً له عينان. إذ كان ذلك الحادث شديد التأثير فى نفسى.

إنى أحب الكلاب، فلقد كان واضحاً دائماً، بالنسبة لي، أنها تحيا حياة وجدانية حارة. وحين أقول: "كلا، يا ميشا، لا تمش بعيداً الآن"، يمد الكلب أذنيه مصغياً وكأنه يقول: "هل صحيح أنك لا تريدنى أن أبتعد؟" وحين أقول: "آسف يا ميشا" فإن الكلب كان يتمدد باسترخاء على الأرض، إذن لا شك هناك فى أن كلبى الأصيل كان يحس. تماماً كما لا يوجد أى شك فى شدة فرحه حين كنت أقول: "وهو كذلك، أحضر سلسلتك، فلسوف نخرج للتنزه". كان لا يوجد أى شك فى السرور الكامل الذى كان ميشا يشعر به أثناء النزهات، وبهجته فى التسابق، ومطاردة أوراق الشجر، وعودته بسرعة مضاعفة، ثم انسلاله داخل الغابة ثم عودته خلفى ثم أمامى. كذلك رضاه حين كنا نعود إلى المنزل، ونشعل ناراً للتدفئة، وأجلس كى أقرأ، وهو يجلس مسترخياً بجانبى، ووجهه مستند إلى ركبتي، كل هذا كان ظاهراً. ولما أخذ يتقدم فى السن، ولم يعد قادراً على السير بنفس القوة، كنت أراه كما لو كان يستعرض مشاهد حياته المبكرة فى مخيلته. فهل هناك حنين للماضى لدى الكلب؟ حسناً، ولم لا؟ لقد كان داروين يعتقد فى إمكان ذلك.

ففى كتابه، التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوان، تجاسر تشارلز داروين على أن يتصور الحياة الواعية عند الكلب: "ولكن هل يمكننا الجزم بأن الكلب العجوز الحاد الذاكرة والقوى التخيل إلى حد ما، كما يبدو من أحلامه، لا يتأمل مطلقاً فى مباهج الماضى عندما كان قادراً على المطاردة؟ وأن هذا قد يكون شكلاً من أشكال الوعى الذاتى" بل إنه تساؤل يبعث على التفكير بدرجة أشد ويطرح السؤال التالى: "من الذى يمكنه أن يحدثنا عن شعور الأبقار عندما تتحلق وتنظر باهتمام إلى رفيقة تحتضر أو احتضرت فعلاً؟" ولم يكن داروين متردداً فى

ارتياد مناطق تتطلب مزيداً من البحث.

وثمة سبب آخر دفعنى للبدء فى التفكير بشىء من العمق فى انفعالات التجربة الشائعة وأعنى بها، زيارة حديقة الحيوان. فكلنا رأى النظرة الحزينة البائسة على وجه إنسان الغابة (قرد من أعلى سلالة أقرب ما تكون إلى الإنسان) وشاهد الذئاب وهى تخطو بعصبية جيئة وذهاباً، والغوريلات وهى تجلس بلا حراك فى حالة يأس ظاهر، ولعلها فقدت الأمل تماماً فى أن تعود حريتها إليها فى أى وقت.

أما الكتاب الذى كان حجر الزاوية فى تفكيرى فى انفعالات الحيوانات فهو كتاب دونالد جريفين المسمى (مسألة وعى الحيوان). لقد أشار هذا الكتاب، الذى تعرض عند نشره لهجوم شديد فى المحافل الفكرية، إلى احتمال وجود حياة فكرية للحيوانات، وتساءل ما إذا كان العلم يتناول قضايا الوعى والإدراك لديها بشكل منصف. ورغم أن جريفين لم يحاول استكشاف انفعالات الحيوانات إلا إنه أشار إليها باعتبارها مجالاً جديراً بالبحث. ولما كان الكتاب مقنعاً ومثيراً للفكر، فلقد أثار شهيتى إلى قراءة كتاب مماثل له عن انفعالات الحيوانات، غير أنى علمت أن الكتابات العلمية الحديثة تكاد تخلو من بحث واحد عن الحياة الانفعالية للحيوان. فما سبب ذلك؟ قد يكون من بين الأسباب أن علماء الحيوان يعتبرون **الأنسنة (أى خلع صفات إنسانية على كائنات غير عاقلة)** ضرباً من ضروب التجديف العلمى. فهم لا يقنعون باعتبار انفعالات الحيوانات مجالاً غير جدير بشرف الدراسة، بل إنهم يذهبون إلى أن الألفاظ المعبرة عن الانفعالات لا يجوز انطباقها على الحيوانات.

فما سبب الخلاف فى مناقشة الحياة الداخلية للحيوانات، وقدراتها الانفعالية، وما تشعر به من فرح، وخيبة أمل، وحنين إلى الماضى، وحزن؟ لقد كتبت جين جودال، حديثاً، عن عملها مع الشمبانزى تقول: "حين تجرأت، فى أوائل الستينيات على استخدام ألفاظ مثل الطفولة والمراهقة، والحالة المزاجية، واجهت كثيراً من النقد. بل واتهاماً بجريمة هى الإيحاء بأن قرود الشمبانزى لديها شخصية". إذ كنت أخلع سمات إنسانية على حيوانات غير بشرية، وهكذا أصبحت متهمة بارتكاب

ضرب من أسوأ ضروب الأنثروبومورفية أو الأنسنة Anthropomorphism.(*)

ونظراً لتعطشي لمعرفة انفعالات الحيوانات، بشكل منهجي، اكتشفت أن الكتاب الذى كنت أريد قراءته لم يُكتب بعد، ولذلك شرعت فى البحث عما كُتب عن حيوانات معينة.

أول الذين اتجهت إليهم بالسؤال، الباحثون المهتمون بدراسة حيوانات الدرفيل، فسألتهم عن الحياة الانفعالية لهذا الحيوان، والسبب فى ذلك هو مدى البهجة التى تظهرها الدرافيل عند أداء لعبات معينة، وابتكار لعبات جديدة من إبداعها بشكل يوضح وجود مُكون انفعالى متطور ومُحكم. وقمت بزيارة مركز عالم البحار الأفريقيه، فى الولايات المتحدة بالقرب من بيركلى بكاليفورنيا لمقابلة ديانا ريس، وهى من أهم الباحثات فى الدرافيل. وأطلعتنى على درافيلها الأربعة الكبار فى صهريجها النظيف وكانت جميعها، تنظر إليها بوضوح وتساؤل، وترافب حركاتها، وهى متلهفة أن تأتى إليها فى الماء، وتلعب معها.

وأعجبنى الظن بأن الدرافيل سعيدة، وأنها تحب المكان الذى تعيش فيه. ولما سألتها عن ذلك، قالت، أجل إنها تأكل وتتناسل وتتمتع بصحة جسدية جيدة. كما تستمتع بالألعاب التى تبتكرها لها كجزء من البحث الذى تقوم به. فأومأت بالموافقة. ولكن هل هذه هى السعادة؟ وتذكرت ما قاله جورج آدمسون زوج جوى آدمسون ومؤلف (ولد حراً Born Free) فى سيرته الذاتية، إذ قال: "الأسد لا يكون أسداً لو اقتصرت حريته على أن يأكل وينام ويتناسل. إذ إن من حقه أن يكون حرا فى اختيار فريسته واقتناصها والبحث عن رفيقته والعثور عليها والقتال دفاعاً عن أرضه والتشبث بها، والموت فى البرارى حيث وُلد. أى ينبغى أن يتمتع بنفس الحقوق التى نتمتع بها..".

وحين ظننت أن الخبراء الذين يدرسون الحيوانات أو يتعاملون معها يمكن أن يقدموا ملاحظات بصفة شخصية دون تدوينها فى مقال علمي، توجهت بالسؤال إلى

(*) مصطلح يعني: إضفاء الخصائص الإنسانية على ما هو غير إنسانى وتوجد فى كثير من المعتقدات الدينية، ومن المعتقد أنها كانت عاملا فى عبادة الطبيعة.

دارسـين مشـهورين آخرين لسلوك الدرافيل عن خبرتهم بالنسبة للانفعالات التى تعبرعـنها الدرافيـل. إلا إنهـم لـم يكونـوا على استعداد للتأمل أو الإدلاء بأية ملحوظات. فقال أحدهم: "لست أدرى ماذا تعنى الانفعالات". وأحال آخر الأمر إلى باحـثاته الجامعيات، موحياً بأن هذا الموضوع دون كرامته العلمية أو (الرجولية) نوعـاً مـا. غير أن أفعال هؤلاء الدارسين كانت تتناقض مع أقوالهم. لقد احتضن أحدهم الدرفيل الذى قُدم له كجائزة فى لحظة عاطفية واضحة، بالنسبة للباحث على الأقـل. أما الآخر فيكاد لا يغادر معمله إلا ليلاً، إذ صار شديد الارتباط بما أسماه "موضوعاته". وكانت لدى الخريجات العديد من القصص عن العاطفة التقليدية بين الباحثين والدرافيل، بل وحتى بعض الدرافيل الطليقة، لذ فإنه من الصعب التصديق أن هؤلاء العلماء يرتبطون بمشاعر فياضة نحو مخلوقات يعتقدون فعلاً أنها عديمة الإحسـاس مـن الـناحية العاطفية ولا تستطيع أن ترد عليهم أو تستجيب لهم بأية طريقة.

وعـلى أية حال، كيف يمكن لأى شخص أن يُجزم بأن الحيوان لا يشعر بشىء طالمـا أن المسـألة لم تُبحث قط؟ والاستنتاج بأن الحيوان ليست لديه مشاعر أو لا يسـتطيع أن يشـعر، دون إجراء أية دراسة، يعنى أننا نحكم بناءً على حكم مسبق، وانحياز غير علمى، باسم العلم.

وليسـت هـذه هى المنطقة الوحيدة التى يتشبث العلماء فيها بأفكار جامدة غير عـلمية. ومـا عليـنا سـوى أن نتذكر الفترة الطويلة التى أنكر أثناءها المحللون النفسـيون حقيقـة الإساءة إلى الأطفال جنسياً. وقد كان الإنكار موجوداً حتى قبل اهتمام فرويد به بزمن طويل، غير أن استنتاجه، الذى لم يثبته بالدليل وهو أن هذه الإسـاءة ليسـت شيئاً شائعاً، أسهم فى إخفاء هذه الظاهرة إلى أن فضحت الحركة النسائية حقيقة انتشارها.

وأثـناء بحـثى عن معلومات عن كيفية تعامل المدربين مع انفعالات الحيوانات الـتى يستخدمونها فى عروضهم، اتصلت بمدير العلاقات العامة فى "عالم البحار" بسـان دييجـو. فأخـبرنى بصراحة تخلو من أى تهذيب، أنه لا يوافق على الظن بوجود عواطف لدى الحيوان، ولن يسمح لعالم البحار بأن يكون له أية صلة ببحثى لأنـه "تفـوح منه رائحة الأنسنة". لذلك كنت مندهشاً حين رأيت العروض هناك،

حيث شاهدت الحوت القاتل والدرفيل يتدربان على التلويح لبعضهما البعض، والتناطح، ونثر الماء على المتفرجين. ذلك أنها كانت تتدرب كالبشر ـ بل بمعنى أدق، تتدرب مثل البشر الذين يُجبرون على الانحناء والاستعباد خدمة لأهداف تجارية استغلالية.

ويناقش علم النفس المقارن، حتى اليوم، السلوك الملاحظ للحيوانات وكذا الحالات البدنية للحيوان وتفسير هذه الحالات باعتبارها شيئاً موجوداً، ولكنه يستحى من مناقشة الحالات العقلية التى ينطوى عليها هذا السلوك بشكل لا يتجزء عنه. وعند دراسة مثل هذه الحالات، ينصب الاهتمام على الجانب المعرفى لا العاطفى. كما تسعى النسخة الحديثة من علم الإيثولوجيا، أى علم سلوك الحيوان، مع ما فيها من إصرار على التمييز بين الأنواع، إلى اللجوء لتفسيرات وظيفية وسببية بدلاً من الشروح الانفعالية لتفسير السلوك. وتتركز التفسيرات السببية فى نظريات "السببية النهائية". فالحيوان يتزاوج لأن هذا يزيد من نجاح التكاثر وليس لـ "سببية التقارب" ـ أى وقوع الحيوان فى الحب. ومع أن كلا التفسيرين ليس من الضرورى أن يستبعد أحدهما الآخر، إلا إن أحد أشهر أعلام علم سلوك الحيوان كونراد لورينز تحدث بثقة عن وقوع الحيوانات فى الحب، أو انحدارها خلقياً أو شعورها بالحزن ولكن هذا المجال لا يزال ينظر إلى الانفعالات عند الحيوانات وكأنها لا تستحق الاهتمام العلمى.

ورغم دخول الدراسات المعملية إلى عالم الحيوان خاصة فى الستينات، فإن المسافة التى تفصلنا عن عالم مشاعر الحيوان ازدادت بعداً وكانت هذه المسافة البعيدة فى صالح العلماء الذين يجرون تجارب مؤلمة على الحيوانات وهم يظنون أن الحيوانات لا تشعر بأى ألم أو معاناة أو يعتقدون ـ على الأقل ـ بأن حجم الألم والمعاناة اللذين تحسهما الحيوانات لا يقتربان مما يحسه البشر، بحيث لا يؤخذان فى الحسبان ولا يدعوان إلى نبذ التجارب. كما أن العائد المادى المهنى من إجراء التجارب على الحيوان يفيد، على الأقل، فى تبرير جزء من المقاومة لفكرة وجود حياة انفعالية معقدة عند الحيوان وأنه لا يكابد الألم فحسب، بل ويتمتع بعواطف أكثر سمواً، مثل الحب، والرحمة، والإيثار وخيبة الأمل، والحنين إلى الماضى. ذلك أن الاعتراف بمثل هذا الاحتمال يوجب مراعاة بعض الالتزامات

الأخلاقيـــة. فإذا كان بمقدور الشمبانزى مثلاً أن يعانى من العزلة أو السقم العقلى، فبديهى أن استخدام هذه القردة فى تجارب تكون فيها منعزلة أو تتوقع الألم فى كل يـــوم يصـــبح عملاً خاطئاً. وأقل ما يؤدى إليه ذلك، هو خلق قضية تستدعى جدلاً جاداً، وهو جدل لم يكد يبدأ.

إن بعــض أحدث الأعمال التى تهتم بعالم الحيوانات اليوم تُعنى باستخدام اللغة، والوعى بالذات، وغير ذلك من القدرات المعرفية، حتى أن التجاهل العلمى المتعمد لعــالم انفعــالات الحيوان يبدو على وشك التلاشى. وتستمد الموضوعات المتعلق بالمعرفة والوعى جاذبيتها من كونها أكثر سهولة من حيث اختبارها كما أنها أعلى مقامــاً من تلك الموضوعات المتعلقة بالانفعالات. فمن المؤكد أن الذكاء عنصر ذو بريق غير أن الحيوان، شأنه شأن الإنسان، ليس من الضرورى أن يكون ذكياً حتى تكــون لديــه مشاعر، كما أن المعطيات في مجال انفعالات الحيوانات لم تأت من العمــل فى المعامل بل من الدراسات الميدانية. وبعض الباحثين الكبار فى عصرنا هــذا بــدءاً من جودال إلى فرانس دى وال، يتحدون، من آنٍ لآخر، الفكر المحافظ ويســتخدمون ألفاظاً مثل الحب والمعاناة فى وصفهم للحيوانات، وهم يعتمدون فى ذلــك على مكانتهم المرموقة فى مجالهم العلمي. غير أن هذه الجوانب من عملهم، تــتعرض للــتجاهل نسبياً ويصبح استخدام مثل هذه الألفاظ من قبل الباحثين الأدنى منهم مرتبة بمثابة مخاطرة مهنية.

وهــناك أدلــة تبشــر بحدوث تغيير هام حيث كتبت سو سلفيج رامباو، العالمة بمركــز يركس بريميت بأطلنطا ــ جورجيا، مؤخراً في مقدمة كتابها (لغة القِردَة) "مــن الممكن عند النظر إلى هذا الوجه المختلف اختلافاً طفيفاً (تقصد وجه القردة)، أن تقرأ انفعالات القردة بنفس اليسر والدقة التى نقرأ بها الانفعالات والمشاعر على وجوه غيرها من الكائنات الإنسانية. وهناك قليل من المشاعر التى لا تشترك القردة معنا فيها، فيما عدا ربما كراهية الذات. فمن المؤكد أنها تكابد الألم، بل وتعبر عن الكـــرم والفـــرح والشعور بالذنب والندم والاحتقار وعدم التصديق والذعر والحزن والدهشـــة والرقة والولاء والغضب وانعدام الثقة والحب. وقد نتمكن، يوماً ما، من إثــبات وجــود مثل هذه الانفعالات عصبياً. وحتى يأتى ذلك اليوم، فلن يفهم مدى عمــق الشــبه بيــن القردة والإنسان، سوى أولئك الذين يعايشونها ويتفاعلون معها

بنفس القدر الذى يعيشون به أبناء جنسهم.

إن معرفتنا بأحاسيسنا توضع فى الاعتبار بشكل ما فى تقرير مدى التشابه بين شعورنا وشعور الحيوان. وربما كان هذا أحد أساليب أخرى، بل وقد لا تكون أفضلها. ولكن هل نواحى التشابه أو الاختلاف بين البشر والحيوانات هى القضية الوحيدة، أو حتى أهم القضايا؟ من المؤكد أننا نستطيع تدريب أنفسنا إلى درجة التعاطف مع أنواع أخرى من الكائنات وتصور تبادل هذه العواطف معها، ونستطيع إذا ما تعلمنا البحث السليم فى ملامح الوجه والإيماءات والسلوك، وحركات الجسد أن نكون أكثر انفتاحاً وأشد حساسيةً. فنحن فى حاجة إلى استثارة ملكاتنا التخيلية وتنميتها إلى أبعد مما وصلت إليه الآن: أن نلاحظ الأشياء التى لم نتمكن من ملاحظتها من قبل على الإطلاق. ولسنا فى حاجة إلى التقيد بالنقاط التى وردت فى المراجع، أى بما تمت كتابته بالفعل، أو بالإجماع بين العلماء. فماذا نخسر لو قفزنا بخيالنا كى يتسع فهمنا وتمتد آفاقنا بشكل أكثر رحابة.

لقد قررت أن أستكشف ما كُتب عن الحيوانات فى الدراسات العملية، حتى أتحقق مما إذا كانت هذه الكتابات تنطوى على معلومات ضمنية عن انفعالاتها ولو كانت لا تشتمل على مناقشات صريحة حول هذا الموضوع. ولكن، وحتى الآن، لا يوجد عالم بارز أجرى معالجة متواصلة لانفعالات الحيوانات. ونأمل لصالح الحيوانات والبشر، على حد سواء، أن يقتنع العلماء بالنظر بقدر أكبر من الجدية إلى مشاعر الحيوانات التى تشاركنا الحياة فى هذا العالم.

وفى هذا الكتاب محاولة، لأن أُبين أن الحيوانات من جميع الأنواع، تحيا حياة انفعالية معقدة. إذ بالرغم من أن كثيراً من العلماء يؤمنون بأن الحيوانات التى لاحظوها لديها عواطف، إلا إن القليل منهم هم الذين كتبوا فى هذا الموضوع. ولهذا السبب، قمت أنا وشريكتى فى تأليف هذا الكتاب بتنقية قدر ضخم من الكتابات العلمية، بحثاً عن الدليل غير المعترف به. ولقد عوّلت كثيراً على قائمة طويلة من الشهادات التى صدرت عمن يملكون الخبرة وعلى الأخص، تلك التى أدلى بها العلماء الذين قاموا بدراسة الحيوانات فى الطبيعة ميدانياً. وحرصت على العمل الذى قام به علماء معروفون، حتى يدرك من يشكُون فى هذا الموضوع أن الأدلة تأتى من مَعِين واسع من الدراسات الدقيقة للحيوانات فى بيئات مختلفة.

وتبين هذه الدراسات الميدانية ما آمن به دائماً غير المتخصصين: وهو أن الحيوانات تحب، وتعاني، وتصرخ وتضحك، وتخفق قلوبها عند ترقب شيء، كما تهوى من اليأس، وتحس بالوحدة، والحب، كما تشعر بخيبة الأمل، والفضول. كذلك فإنها تنظر إلى الماضى فى حنين، وتترقب السعادة فى المستقبل. ولا ينكر أحد ممن عاشوا مع الحيوانات أنها تشعر. غير أن كثيراً من العلماء ليس لديهم سوى الإنكار، ولهذا السبب حاولت أن أتناول ما يقلقهم بمزيد من التفاصيل التى تزيد عما هو ضرورى بالنسبة للشخص العادى. فمن يملك حيواناً مدللاً يقول: "هذا واضح".أما العالم يقول "هذا زعم خطير" ومن هنا، فإن هذا الكتاب يحاول سد الفجوة بين المعرفة التى تتوافر للشخص الشغوف بمراقبة سلوك الحيوانات دون حكم مسبق أو تحيز، والعقلية العلمية التى تأبى أن تغامر بالدخول فى تلك المنطقة الانفعالية.

لقد تجنب الكثير من العلماء التفكير فى مشاعر الحيوانات لأنهم قد أُرهبوا من أن يتهمهم أحد بالأنسنة وهذا شيء واقعي. ولهذا السبب، نظرت بعناية فى هذه القضية. ذلك أننا، إذا ما استطعنا أن نتخلص من هذه القضية باعتبارها نقداً زائفاً، لأمكن لدراسة انفعالات الحيوانات أن تتقدم على أساس علمي، متحرر من أى خوف لا أساس له.

كما حاولت أن أنظر بموضوعية فى آراء علم الحيوان المستمدة من نظرية "النشوء والارتقاء" وأسأل: متى تكون هذه الآراء مؤيدة لتفسير الحياة الانفعالية الحقيقية التى تظهرها الحيوانات، ومتى ترفضها؟

وقد تندهش أثناء قراءتك، من السلوك العاطفى الذى يظهر على بعض هذه الحيوانات، مثل: الفيل الذى يحتفظ بفأر كحيوان مُدَّلل، وأنثى الشمبانزى التى تنتظر عودة طفلها الذى مات بالفعل، والدب الذى غلبته نشوة مشهد الغروب، والجاموسة التى تتزلج على الجليد، وذلك الببغاء الذى يعنى ما يقول، وأنثى الدرفيل التى تخترع ألعابها بنفسها ــ ووسط كل هذا ستشعر بالدهشة من العلماء الذين يرفضون الاعتراف بما يكون واضحاً لديك.

وفى ختام هذا الكتاب، سوف أناقش بعض الخيارات الأخلاقية التى تنبع من فهم

دقيق لانفعالات الحيوان. إذ سنكون قد رأينا أن الحيوانات تحس بالغضب والخوف والحب والفرح والخجل والرحمة والوحدة إلى درجة لن تجدها إلا فى صفحات الروايات أو القصص الخرافى(*) الذى يتناول الحيوان. وقد يؤثر هذا، ليس فقط على طريقة تفكيرك فى الحيوان، وإنما أيضاً على كيفية معاملتك له. وكلما زادت ثقتى فى أن للحيوانات مشاعر عميقة، ازداد غضبى وحنقى لمجرد التفكير فى إجراء أى نوع من التجارب على الحيوانات. فهل فى إمكاننا تبرير إجراء هذه التجارب ونحن نعرف ما تشعر به الحيوانات وكيف تقاسى هذه الألوان من العذاب؟ وهل يمكننا الاستمرار فى أكل الحيوانات ونحن نعرف أنها تعانى؟ فنحن نشعر بالذعر حين نقرأ، ولو على صفحات إحدى الروايات، عن بشر يقتلون بشراً لكى يبيعوا أجزاءً من أجسادهم. مع أن الأفيال تُذبح كل يوم، من أجل الحصول على العاج، وحيوان وحيد القرن من أجل قرونه، والغوريلا من أجل أيديها. وكلى أمل، فى أنه حين يبدأ البشر فى تفهم مدى إحساس هذه المخلوقات، أن تتزايد صعوبة تبرير هذه الأفعال القاسية.

جيفرى موسايف ماسون

خليج هاف مون: أبريل، ١٩٩٥

(*) مثل كتاب كليلة ودمنة، وقصص الشاعر الفرنسى لامارتين.

الفصل الأول

دفاعاً عن الانفعالات

في مكان ما في الهند، تبحث إحدى إناث الدرفيل النهري عن رفيقها. حتى ترقد بجانبه، تحت مياه نهر الجانجز المظلمة. وهي ليست بحاجة إلى الرؤية. فتلك الدرافيل تجد كل ما تريده وتحتاج إليه عن طريق الإنصات إلى صدى الصوت. وفوقهما، في الجو، يحلق طائران من طيور الكركي، في رحلة العودة من الصين شرقاً إلى سيبيريا غرباً حيث نشأتهما. وينظر طائرا الكركي بعيونهما الذهبية، إلى أسفل وهما يحلقان فوق الدرافيل بنحو ميل. ماذا يحملان في قلبيهما، أو ماذا في قلب الدرافيل؟ ورغم بعدهما عنا تماماً، إلا إن حياتهما بما فيها من اضطراب ورضى ليست بعيدة عن تصورنا. فحين يخرج الدرفيل من الماء الموحل أو حين تمد طيور الكركي رقابها أثناء التحليق، يملؤنا شعور مفاجئ بالألفة، ذلك لإدراكنا بأننا نشترك معهما في ميراث من الانفعالات. فهي تشعر كما نشعر، مهماً كانت صعوبة معرفة حقيقة شعورها.

وبعد بداية مبشرة من ١٢٠ عاماً مضت، حين استكشف داروين هذا الحقل من المعرفة في كتابه، (التعبير عن الانفعالات عند الإنسان والحيوان) اعترف قليل جداً من العلماء بانفعالات الحيوان وبحثوا فيها أو على الأقل تأملوها. فما أشد القوى التي قاومت مجرد التسليم بإمكان وجود انفعالات في حياة الحيوانات حتى بدا هذا المبحث وكأنه مشين للسمعة، بل ومن المحرمات (تابو) تقريباً! وتحتوي الكتابات العلمية على الكثير من الملاحظات، والروايات والطرائف التي توحي بالانفعالات التي قد تشعر بها الحيوانات أو تعبر عنها، أو على الأقل، تدعو إلى المزيد من البحث في مثل هذه الإمكانية. غير أن أول الغيث قطرة.

لقد رأى ج. ج. رشبي، وهو مشرف على الأفيال، في تنزانيا (التي كانت تُعرف بتنجانيقا، في ذلك الوقت) ثلاثاً من إناث الفيل وفيلاً صغيراً وسط العشب الطويل.

ولمـــا كان مكلفاً بالعمل على ألا يزيد عدد الأفيال، فقد أطلق الرصاص على إناث الأفيـــال – وجـــرح الفيل الذى لم يكتمل نموه جرحاً طفيفاً. ومما أغضبه، أنه رأى فجـــأة فيـــلين صغيرين كانا مع إناث الأفيال، غير أنهما كانا مختفيين بين العشب. فتحرك نحوهما وهو يصيح ويلوّح بقبعته، آملاً أن يعيدها إلى القطيع الأكبر، حيث يمكـــن أن يتبـــناهما الأفيال الآخرون. وكان الفيل الجريح مغشياً عليه وعاجزاً ولم يكن يدرى إلى أين يتجه. غير أن الأفيال التى كُتب عليها اليتم، بدلاً من أن تهرب، التصقت به، وسندته وقادته بعيداً عن مكمن الخطر.

إن الـــرعب والشـــجاعة والـــرحمة – وغيـــر ذلك من الأمور التى سُجلت عن الحيوان – إذا دُرست منهجياً، يمكنها أن تمدنا بأدلة عن عالم من التجربة الانفعالية العميقـــة عند الحيوان، غير أنه يبدو أن هذه الأمور لا تحتل سوى مكان صغير فى الكـــتابات العلمية التى ترفض الأحداث التى لا تحدث سوى مرة واحدة باعتبارها "طـــرائف" رغم عدم وجود سبب يدعونا إلى تجاهل الأحداث النادرة. وحين يكون مـــن الممكن جمع أمثلة أخرى أو تكرار الأحداث النادرة، وهذا نادراً ما يتم، حيث يواجـــه العـــلماء اتهاماً بـــ "استخدام الأدلة القائمة على الطرائف" وهو اتهام لاذع. وهـــو مـــا حـــدث عندما استشهد العلماء بقدرة قردين من الشمبانزى على استخدام الرموز، للوصول إلى تراكيب غير عادية أو رهيبة من الرموز.

وتصـــف ســـو ســـلفيج رامباو، إحدى كبريات الباحثات، مثل هذه الأشياء التى تحـــدث تـــلقائياً بأنهـــا "أهم أنواع البيانات المتوافرة لدينا"؛ غير أنها تلاحظ "أننا قد تجنبنا وصف هذه الأشياء فى تقاريرنا المنشورة".

وممـــا لا شك فيه أن هذه الطرائف تشكل حواجز فى وجه العلماء، بما فى ذلك عـــدم القـــدرة على التحكم فى الظروف المحيطة بالحدث ونقص التوثيق واستحالة إجـــراء إحصائيات لحادثة تحدث مرة واحدة. وعند تسجيل حادثة ما تسجيلاً دقيقاً، فى موقـــف محـــدد مـــثل تراكيب الرموز التى يستخدمها شيرمن وأوستين (أسماء لقـــردين مـــن القـــردة العليا) فإن طبيعة الحادثة من حيث إنها تحدث مرة واحدة، تســـتبعد استخدامها فى رأى الكثير من العلماء، بسبب قلة التوثيق، وكذلك استحالة تكرار الحادثة.

ويؤمن العلماء بمصداقية الأدلة التجريبية بصورة تفوق التجربة الشخصية؛ ولكن هذا الرأى يبدو تعسفياً أكثر منه منطقياً. وترى جين جودال أن تردد العلم فى قبول أدلة مبنية على الطرائف مشكلة خطيرة، بل إنها مشكلة تلقى بظلالها على النشاط العلمى ككل "لقد أخذت دائماً أجمع الطرائف، لأنى وجدتها على درجة قصوى من الأهمية" غير أن معظم العلماء يحتقرون من يبنى على الطرائف؛ قائلين: أوه ما هذه إلا طرائف!!

فما الطرائف؟ "إنها وصف دقيق لحادثة غير عادية" وتروى لنا قصة مساعدة باحث فى أحد المعامل أُسندت إليها مهمة تسجيل استجابة أحد أنواع القردة للإناث، التى عُولج بعضها بالهرمونات أو أُزيلت مبايضها. "أخبرتنى ... أن أكثر ما استحوذ على اهتمامها هو إحدى كبار الإناث التى قامت بمراقبتها فى الحالات المختلفة، وبعد إزالة مبايضها وجدت أنها فى كل الظروف، كانت أكثر الإناث شعبية. غير أنها لم تكن سوى قردة واحدة، فتم تجاهل ذلك. إذ لابد من وجود الملايين من الملاحظات، بالمعنى الحرفى للكلمة، فمثل هذه الملاحظة لم تجد طريقها قط إلى التسجيل والكتابة". ومن شأن ملاحظات كهذه أن تقدم أرضية ثرية وموحية للتحليل والمزيد من البحث، غير أن هذا لا يحدث. وبينما يمكن وصف مثل هذه الأحداث دون استخدام كلمات توحى بظلال الانفعالات، إلا إن مثل هذا الوصف الضعيف ليس بالضرورة أكثر دقة.

ويعرِّف هذا الكتاب الانفعالات بأنها خبرات ذاتية، مثل ذلك الشيء الذى يشير إليه الناس حين يقولون: "أشعر بالحزن"، أو "إنى سعيد"، أو "أشعر بخيبة الأمل"، أو "أفتقد أبنائي". ولا يمكن التمييز بين الانفعال والشعور، أو العاطفة والوجدان أو ما يسميه العلماء "الأثر"، أما الحالة المزاجية فتشير إلى شعور يدوم إلى وقت ما أكثر طولاً. وهذه الكلمات تشير، ببساطة، إلى حالات شعورية داخلية، أو إلى شيء يتم الإحساس به.

الاستحالة العملية لتجاهل الانفعالات

إن معظم الناس الذين يعملون مع الحيوانات عن كثب، مثل مدربى الحيوانات، يصدقون أن الحيوانات لديها انفعالات، وهذا بالنسبة لهم أمر واقع. فالقصص التى

يــرويها الذين يعملون مع الأفيال، على سبيل المثال، توضح أن من يتجاهل الحالة المــزاجية لــلفيل إنما يفعل ذلك على حساب سلامته. وتعبر الفيلسوفة البريطانية، ميرى ميدجلى عن ذلك بقولها:

من الواضح، أن الفيَّالة (سائقى الأفيال) قد تكون لديهم معتقدات كثيرة زائفة عن الأفيال لميلهم إلى الأنسنة، بمعنى أنهم يفسرون بعض الجوانب الظاهرية فى سلوك الفيــل بالاعتماد على النمط البشرى وهذا غير ملائم. غير أنهم إذا ما أخطأوا فهم المشــاعر الأساســية اليومية- أى بالنسبة لإحساسهم ما إذا كان فيلهم مسروراً أو غاضــباً أو خائفــاً أو مســتثاراً أو متلهفاً أو متعَباً أو شاكياً أو حانقاً - فلن يجدوا أنفسهم بدون وظيفة فحسب، بل غالباً سيفقدون حياتهم أيضاً وببساطة.

إذ مــا لــم تتوافر لدى المدرب نظرة ثاقبة فى شعور الحيوان، فلن يلقى تدريب الفيــل ســوى القــلِيل من النجاح. ويقول بعض المدربين، أنهم يعملون مع بعض الحيوانات بشكل أفضل من غيرها لأنهم يفهمون مشاعر ذلك النوع أو ذلك الحيوان عــلى نحــو أفضل. فلقد وجد مدرب السيرك جانثر جيبيل وليلمز فروقاً فردية فى انفعــالات النمور التى كان يعمل معها: "لا يمكن تدريب كل نمر على القفز وسط دائرة من النار. فحين أُدخلت هذه الحيلة فى حركات النمور كان علىّ أن أبحث عن عــدد من بين العشرين نمراً التى كنت أعمل معها فى ذلك الوقت، لا تخشى النار. ولم تكن هذه بالمهمة السهلة، ذلك لأن معظم النمور تأبى أن تقترب من اللهب".

ويقــول ميك ديل رو، مفتش التدريب فى مشروع الكلاب المرشدة للكفيفين فى ســان رافــائيل بكاليفورنيا: إن الخوف من ارتكاب خطيئة الأنسنة يمكن أن يعيق مدرب الحيوانات "كلما ازددت انفتاحاً فى محاولتك أن تقرأ ما بداخل الكلب، ازداد تركيــزك وفهمته بشكل أفضل". وحين سُئل المدربون عما إذا كانوا سيستمرون فى الرغــبة فى العمل مع الكلاب لو كانت تخلو من الانفعالات، شعروا بالفزع لمجرد الــتفكير فى ذلــك. وأجــابت كيــتى فينجر: "ربما لا أود ذلك، لأنى أظن أن تفهُّم الانفعــالات يُعــدُّ جــزءاً من التعامل مع الكلاب - كحبها واحترامها" وصاح ديل روس متعجــباً: "كلا، لا سبيل إلى ذلك. فماذا يبقى لو لم تكن لديها انفعالات؟" إن مــثل هذا التعرُّف الانفعالى يُعتبر محل خلاف فى الملاحظة العلمية المباشرة. غير أن التساؤل عما يمكن أن يحس به المرء لو حل محل الحيوان تساؤل مفيد، فمعظم

العــلماء الذين يعملون مع الحيوانات فى الحياة الطبيعية يخرجون باستدلالات قائمة عــلى الــتعرف الانفعالي، كى يجعلوا سلوك الحيوانات ذا معنى، كقولهم مثلاً: "لو أنى فقــدت توًّا أقرب رفاقي، فلن أحس، أنا أيضاً، بالرغبة فى تناول الطعام لبعض الوقت". لقد أثبت التفكير فى المشاعر أنه طريقة قيّمة للتفكير فى السلوك.

انفعالات الأَسْر – لا تهم

غالــباً مــا يُصرف الاهتمام عن انفعالات الحيوانات الأسيرة وكذلك الحيوانات المدلَّــلة، باعتــبارها خارج نطاق اهتمام العلم. والحجة فى ذلك هى أن الحيوانات الأســيرة تكون فى مواقف غير طبيعية، وأن ما تفعله الحيوانات المنزلية لا علاقة لــه بحقيقــة الحيــوان، وكأنها ليست هى أيضاً من بين الحيوانات. وبينما تختلف الحيوانــات المــنزلية حقــاً عن الحيوانات التى تعيش فى الطبيعة، فإن الحيوانات المــنزلية تختلف عن الحيوانات الأسيرة من حيث المعنى، فالحيوانات المنزلية هى الحيوانــات التى تأقلمت على الحياة مع الإنسان – أى تم تغييرها وراثياً. فالكلاب والقطــط والأبقــار تُعد حيوانات منزلية. لكن الحيوانات الأسيرة مثل الأفيال ليست كذلــك، فعبر الأجيال كان تدريب البشر للأفيال يتم عن طريق أسْرها من الطبيعة واستئناسها بدلاً من توالدها بمعرفة الإنسان أصلاً. وبما أن طبيعة الأفيال تظل بلا تغييــر، فــإن الملاحظــات التى تُسجل عن الأفيال الأليفة أو الأسيرة هى فى واقع الأمر، ذات علاقة وثيقة بالأفيال الطليقة.

وفى حيــن أن الحيوانات المستأنسة والحيوانات البرية قد لا تكون متشابهة، إلا إنــه بيــنها الكثير من الأشياء المشتركة، بحيث إن المعلومات المتوافرة عن أحدها يمكــن أن تكــون له علاقة بالآخر. فكما كتب عالم الأحياء الميدانى جورج شالر: "يســتطيع من يربى كلباً ويحبه أن يمدك بمعلومات عن وعى الحيوانات، أكثر مما يمكــن لعــالم السلوك الجالس فى المعمل أن يخبرك به". لقد درست عالمة الأحياء لــورى فــريم الكــلاب عــلى الطبيعة فى أماكن سُكْناها فى سرنجيتي، وخرجت بمــلحوظة محيرة وهى أن الكلاب المسيطرة (أى تلك التى يكون من حقها وحدها التناســل)، بــدت أقل استئناساً بكثير: "بدا لي، عن طريق الحدس، أنى أفهم "مايا" و"أباشــا". وأدركت أن ذلك سببه سلوكهما الفطرى الذى ذكَّرنى بالكلاب المنزلية. ولــيس هــذا معــناه أن كــلب أسرتى من النوع الهياب، بل على العكس فإنه كان

يهاجمنى حين كنت طفلة.ولكن طريقة مايا فى تحريك ذيلها كانت تذكّرنى بالسلوك الــذى يتوقعه الناس من حيواناتهم المدللة، وعادة ما يحصلون عليه. وعموماً، فإن الحيوانات المسيطرة شيء مختلف .. فنادراً ما رأيت أحدها يبتسم ابتسامة عريضة أو يهز ذيله. بل هى جادة وخطرة. فإذا ما قابلت "سيو" وأنا أسير على قدمّي، فإنى أصــعد فــوق أقــرب شجرة. أما مع مايا، فإنى أكون أكثر ميلاً إلى التربيت على رأســها وأن أقــدم لهــا قطعة من البسكويت". إن ما عَرفتْه من خلال خبرتها مع الكــلاب المستأنســة، ســاعد عــلى تدعيــم ملاحظاتهــا عن الكلاب فى الطبيعة بالمعلومات. ولا يُعد مجرد وجود الحيوانات المستأنسة والأسيرة فى (ظروف غير طــبيعية) سبباً وجيهاً لتناول الملاحظات الخاصة بها بدرجة أقل من الجدية. فالبشر أيضــاً يعيشــون فى ظروف غير طبيعية. إذ إننا لم ننشأ فى العالم الذى نعيش فيه الآن بمــا فيــه مــن مكافآت مرجوَّة ومتطلَّبات غريبة (مثل الجلوس فى حجرات الدراســة أو معــرفة الــزمن). ومــع ذلك، فنحن لا ننكر انفعالاتنا ونعتبرها غير موجــودة أو غير حقيقية، لمجرد أنها لا تحدث فى جماعات صغيرة من القناصين وجامعى الحَبّ فى سافانا أفريقيا حيث يُعتقد أن حياة البشر قد بدأت هناك. غير أننا عــلى الــنقيض مــن الحيوانات المنزلية. إذ يمكننا أن نكون بعيدين عن (مواطننا الأصــلية) ومــع ذلــك يمكننا أن نزعم أن انفعالاتنا حقيقية ومميِّزة لنوعنا من بين المخــلوقات. فلماذا لا يصدق نفس الشيء على الحيوانات؟ إذ ليس من الطبيعى أن يحيــا البشر فى السجن. غير أننا، إذا ما أودعنا السجن، وأحسسنا بمشاعر لا نحس بهــا فى المعتاد، لا يشكِّن أحد فى كونها انفعالات حقيقية. وقد يشعر حيوان ما فى إحــدى حدائق الحيوان أو آخر امتُلك كحيوان مدلل – بانفعالات، ربما لا يحس بها لولا هذا الظرف، غير أنها لا تقل صدقاً عما نشعر به إذا تشابهت الظروف.

لقد سافرت آن رازا، مؤلفة كتاب (حماية حقوق النمس) إلى كينيا لدراسة النمس فى الآكام لعدة سنوات، كى تكتشف ما إذا كانت ملاحظاتها عن النمس القزم الأسير قــد أوصلتها إلى أى شيء دقيق غن هذا الحيوان فى حالته فى الطبيعة. واكتشفت أن ســلوك جماعــات الــنمس الأسيرة فى أماكن واسعة محاطة كانت شديدة الشبه بسلوك النمس البرى (غير المحميّ) مع وجود استثناءين.إذ كان على النمس البرى الطــليق أن يــنفق وقتاً أطول بكثير فى جمع الطعام، ومن ثم يكون لديه وقت أقل

للعب والاندماج الاجتماعي. كما أن حركة الأنواع الأخرى كانت تؤثر تأثيراً قوياً على حياته. إذ كانت النسور والثعابين تفترسه لهذا كان ينفق وقتاً طويلاً فى الالتفاف حول الثعابين كى يدفع بها بعيداً. وكان يتشاجر مع النمس الأكبر ذى الطرف الأسود وعادة ما يتجاهل السحالى والسنجاب الأرضي، إلا إنه من آن إلى آخر كان يحاول اللعب معه. بمعنى آخر، كانت انفعالاته، إلى حد ما، محكومة بالفرص التى كانت تسنح بذاتها، ولكن حب الاستطلاع واللعب كانتا صفتين مشتركتين عند كل من النمس الأسير ونظيره الذى يحيا فى الطبيعة الحرة.

ومن ناحية أخرى، يمكن لظروف الأَسْر أن تغير بالتأكيد الطريقة التى تتصرف بها الحيوانات. ذلك أن أنثى البابون التى يحتفظ بها فى قفص تكوِّن بناءً هرمياً محكماً لا يشبه أى شيء قد نراه بين أفراد هذا النوع فى الحياة الطبيعية الطليقة.

نحن لا نزعم أن الأسر لا يغير الانفعالات والسلوك مطلقاً، وإنما نريد القول بأن كلاً من الحيوانات الأسيرة والطليقة يبدو لديها مشاعر، وأن مشاعر الحيوانات الأسيرة صادقة تماماً مثل مشاعر الحيوانات الطليقة، ولذلك فهى جديرة بالدراسة.

تَعقُّد الانفعالات

نادراً ما تظهر الانفعالات قائمة بذاتها ومنعزلة عن غيرها. ففى حالة البشر، يختلط الغضب بالخوف، والخوف بالحب، والحب بالخجل، والخجل بالحزن، فى مواقف خاصة. وقد تمر الحيوانات أيضاً بمزيج من الانفعالات. وربما تشعر أم أحد الدرافيل وهى تحمل ابنها الميت وتجوب به كل مكان لعدة أيام – بكل من الحب والحزن. ويصف "هوب ريدن" أحد صغار الأيائل (نوع من الظباء الضخمة فى أوروبا) وهو يحرس جسد أيل صغير آخر قتلته حيوانات القيوط (ذئاب من شمال أمريكا) بعد رحيل قطيع الأيائل، ومكوثه عدة أيام يظلل على الجسد، ويطرد الذئاب بعيداً بعدوانية، وهو يتشمم وجه الصغير الميت من وقت لآخر ويحك أنفه فيه. وبمرور الوقت (بعد أن نجحت الذئاب الأمريكية فى أكل جزء من الجسد) رحل الأيل الصغير، وربما كان قد شعر بالوحدة افتقاداً لبقية القطيع، أو ربما شعر بالغضب من تلك الأقياط (الذئاب الأمريكية). وقد يكون هابها، ولربما أُحس بالحب

نحو الصغير الميت. إن احتمال تعقُّد المشاعر وتعدُّد وجودها وصعوبة تفسيرها لا يعنى عدم وجودها.

فالحيوانــات ليست لديها نفس الانفعالات التى لدى الإنسان. وكما يختلف سلوك أنــواع الحيوانــات، فإن حياتها الشعورية قد تختلف أيضاً. وغالباً ما نتجاهل هذه الحقيقــة حين تُساق الحجج من أمثلة من عالم الحيوان. كأن يقولوا: "يتناسل الإوز مع فرد واحد مدى الحياة"، أو "طائر أبو الحناء(*) يركل صغاره خارج العش حين تبــلغ مــن العمر ما يمكنها من الاعتماد عل نفسها". "الكلب لا يستقر أو يُعين أنثاه على تربية الصغار – هذه طبيعته". وهذا الكلام، يفترض خطأ أن جميع الحيوانات متماثــلة وهكــذا يمكننا أن نخرج بنفس الاستنتاجات عن البشر. ولكن بينما يتناسل الإوز مــدى الحيــاة، فــإن الطيهــوج (من رتبة الدجاج) لا يفعل ذلك لأن ذكور الطيهوج تتناسل مع أكبر عدد ممكن من الإناث وتدعها لتربى الصغار وحدها. أما أنــثى الدجــاج التســمانية(**) الأصلية فتتناسل مع ذكرين، ويقوم الثلاثة بتربية الصــغار معــاً. وبينما ينبت الزيش لطائر أبى الحناء فى سن مبكرة، تظل طيور الكــندور (نسر أمريكى ضخم) مع أبويها لمدة سنوات. ويربى ذكور الذئاب وإناثها أطفالهما معاً. وغالباً ما تُحدث هذه الفروق لعبة صالونات فى علم اجتماع الحيوان يحاول فيها الناس أن يثبتوا نقاطاً خاصة بالسلوك البشري، بالإشارة إلى أحد أنواع الحيوانات يمارس نفس السلوك. فهم يريدون أن يعرّفوه باعتباره سلوكاً طبيعياً فى البشــر. غير أن الأنواع الحيوانية قد تختلف أيضاً فى مضمون انفعالاتها. فالدلائل الــتى تثــبت أن الأفيــال تشعر بالرحمة أو الحزن لا تعنى أن فرس النهر يشعر بالرحمة أو أن البطريق يحس بالحزن. فربما كانت تفعل ذلك وربما لا..

كمــا تختلف الحيوانات اختلافات فردية ولو كانت من نفس النوع. فبين الأفيال، عــلى ســبيل المثال، قد يوجد فيل خجُول وآخر جَسُور. وقد يكون أحدها عرضة لــنوبات الغضــب، بينما الآخر مسالم. حتى أن أحد الفيكتوريين علق على الأفيال العامــلة، فى رنجــون: بقولــه "هناك عمال راغبون فى العمل، وهناك متهربون،

(*) طائر صغير الحجم.

(**) التسمانية منسوبة إلى تسمانيا وهى ولاية فى الكومنولث الأسترالي.

وهناك أصحاب الطباع الحسنة وهناك القساة كالمسمار. وبعضها يمكنه أن يجر لوحاً من الخشب يزن طنين إلى الداخل، دون أنَّة واحدة، بينما يكون الآخر قوياً لكنه ليس على استعداد، فيثير ضجة رهيبة بسبب عِصى لا تزن شيئاً يُذكر بالمقارنة". وكتب ثيودور روزفلت عن الأنواع التى قنصها: "تختلف الحيوانات اختلافات فردية من حيث الشجاعة والشراسة تماماً كالإنسان .. فأحدها لا يمكن استفزازه جسدياً بحيث يظهر أية مقاومة، بينما يقاتل حيوان آخر حتى النهاية، ضد أى ظروف غير مواتية، دون أن ترمش عيناه بل قد يهاجم دون استفزاز. وقدامى القناصين، كفئة، ضيقو الأفق للغاية ويتشبثون بآرائهم جداً، وغالباً ما يلقون بالتعميمات بنفس الطيش والتهور الذى يتسم به المبتدئون".

آراء علمية وآراء غير متخصصة حول انفعال الحيوان

إن معظم الناس العاديين الذين لهم اتصال بالحيوانات يسلمون بسهولة بحقيقة وجود انفعال لدى الحيوان. وينشأ اعتقادهم من الدليل الذى تثبته حواسهم، كما ينشأ عن الاستنتاج المنطقي. فالشخص الذى يسمع الطيور وهى تهاجم قطة بالقرب من عشها عادة ما يصفها بأنها غاضبة. وحين نرى السنجاب وهو يهرب منا، نعتقد أنه خائف. ونرى قطة تلعق صغارها ونشعر أنها تحبها. وإذا ما رأينا طائراً يترنم بالألحان نفترض أنه سعيد.

وحتى أولئك الذين ليست لديهم سوى خبرة غير مباشرة بالحيوان، غالباً ما ينظرون إلى هذا باعتباره حالة انفعالية وشعوراً يعادلون بينه وبين شعور إنسانى مشابه. وفى هذا الخصوص، قد يكون وصف الشخص، غير المتخصص لحياة الحيوان أكثر دقة وبالتأكيد أكثر ثراءً من الوصف القياسى المنضبط الذى يضعه عالم السلوك، الذى لا يبذل جهداً للبحث فى انفعالات الحيوانات بشكل منهجى أو متعمق.

وبالرغم من القصور البحثى فى ميدان انفعالات الحيوانات ؛ إلا إن الاهتمام الحالى بحقائق حياة الحيوانات يزيد بكثير عن أى وقت مضى. إذ يشترك العاملون فى نطاق واسع من العلوم فى الوعى المتزايد بتعقُّد أفعال الحيوانات – المعرفية والإدراكية والسلوكية والفردية والاجتماعية – ويشتركون فى المقابل فى قدر أكبر

مـن الإحساس بالتواضع عند تناول المباحث المتعلقة بقدرات الحيوانان. إذ لم يعد البشـر على استعداد للحديث عشوائياً عن قدرات الحيوان ومواطن عجزه. ذلك أننا بدأنا الشعور بوضوح بعدم الدراية وإننا لا نزال فى بداية الطريق إلى المعرفة.

وبيـنما تُعتـبر دراسة الانفعال مجالاً راقياً، إلا إن أولئك الذين يعملون فيه هم عادة من علماء النفس الأكاديميين الذين يقصرون دراساتهم على انفعالات الإنسان. وينص المرجع الهام "معجم أوكسفورد لسلوك الحيوان"، فى معرض نصحه لعلماء السـلوك على أن "العالم يجدر به أن يدرس السلوك، بدلاً من محاولة الوصول إلى أى انفعال كامن". لماذا ؟ لأن المشاعر قد تكون وهمية أو يصعب قياسها، غير أن هذا لا يعنى عدم وجود مشاعر لدى الحيوان، أو أنها ليست مهمة.

فالبشـر ليسـوا دائمـاً عـلى وعى بمـا يشعرون به. كما أنهم، شأنهم شأن الحيوانـات، قد لا يستطيعون تجسيد مشاعرهم فى ألفاظ. وهذا لا يعنى عدم وجود مشاعر لديهم. ذات مرة فكر سيجموند فرويد فى احتمال أن يحب رجل امرأة طيلة سـت سنوات دون أن يدرى إلا بعد انقضاء سنوات متعددة. ومهما كانت رغبة هذا الـرجل قوية، فما كان ليستطيع أن يصوغ فى ألفاظ شعوراً لا يدرى بوجوده. وقد يـوحى ذلـك بالتناقض – ومبعث التناقض أن الأحاسيس هى شيء نشعر بوجوده عـلى مسـتوى الوعي. وكما قال فرويد فى مقال نُشر له عام ١٩٥١ تحت عنوان "اللاوعي": "من المؤكد أن من أساسيات الانفعال الوعى به".

ولكن مما لاشك فيه أنه من الممكن أن تكون "لدينا" مشاعر لا ندرى شيئاً عنها. وتحـتوى معاجم الطب النفسى على اصطلاح هو الأليكسيثيميا، لوصف حالة أناس معيـنين لا يستطيعون وصف المشاعر أو التعرف عليها ولا يتمكنون من تحديدها "إلا فى حـدود الأحاسيس الجسمية أو رد الفعل السلوكي، وليس من ربطها بأفكار مصـاحبة". مثل هؤلاء يعوقهم عجزهم عن فهم حقيقة المشاعر. ومن الغريب أن دراسـة سلوك الحيوان تؤدى إلى أن يتحول القائمون بها إلى عاجزين عن ترجمة المشاعر، أى مصابين بالأليكسيثيميا.

تعريف الانفعالات

يـتحدث المـنظِّرون النفسيون عن مجموعة من الانفعالات الإنسانية الجوهرية وهـذه الانفعـالات عامة وذكية كما تعتبر كامنة. وتشبه هذه الانفعالات الجوهرية الألوان الأولية الأساسية من حيث قدرتها على توليد الكثير من التنويعات، حتى أن أحد علماء النفس أعد قائمة تضم أسماء ١٥٤ انفعالاً، تبدأ من المقت إلى القلق. ولا يـتفق أصـحاب النظريات حول الانفعالات الأساسية. إذ قال رينيه ديكارت: توجد ستة انفعالات أساسية هي: **الحـب والكره والدهشة والرغبة والفرح والحزن**. بينما حصـر إيمانويل كانت الانفعالات في خمسة هي: الحب والأمل والتواضع والفرح والحـزن. وقام وليام جيمز بتعريف أربعة هي: الحب والخوف والأسى والغضب. وافـترض عـالم السلوك ج. ب. واتسون وجود ثلاثة انفعالات أساسية: هي: س، ص، ع. وهى تقريـباً مكافـئة **لـلخوف والغضب والحب**. أما أصحاب النظريات المحدثـون مـن أمثال: روبرت بلوتشيك، وكارول إزارد، وسيلفان تومكينز، فلقد تحدثوا عن ستة أو ثمانية انفعالات – وإن كانت مختلفة بعض الشيء عما سبق.

وتخـلو أحـدث القوائـم مـن الحب كأحد الانفعالات. إذ إن الكثير من العلماء يفضـلون أن يطـلقوا عـليه دافعاً، أو حافزاً، هذا لو أشاروا إليه أصلاً. إن جميع الانفعـالات موجودة فى هذه القوائم المقبولة والتى شاع استعمالها، ويعتبرها بعض الباحثين انفعالات ظاهرة عند الحيوانات.

وبالإضافة إلى الانفعالات المعروفة، ربما توجد غيرها من الانفعالات وتنويعات داخلها يشعر بها كل شخص من آن لآخر أياً كان مستواه الثقافي. ويمكن أن يكون تجميـع قوائم كاملة أمراً عشوائياً، حسب ما تشير إليه عالمة اللغات البولندية حين تذكـر أنـه فى بعض الحضارات غير الغربية، بين سكان أستراليا الأصليين مثلاً، يـلعب مفهـوم يشبه الخجل وإن لم يكن مطابقاً له، دوراً اجتماعياً من الواضح أن الـثقافة الغـربية تفـتقر إليه. وقد تتضمن الكلمة التى تصف ذلك الانفعال المفهوم الإنجليزى للـ"خجل" و"الإحراج" و"الحياء" و"الاحترام"، غير أنه يبدو من الوارد أن الشعور نفسه يمكن لشخص من ثقافة أخرى أن يتعرف عليه ولو بالتقريب.

لـــذا يجب الحذر عند قصر أى انفعال على جزء واحد من أنحاء العالم. ولنتذكر أن عـــلماء الأجناس كانوا حتى عهد قريب يعتقدون بوجود بعض الحضارات (من الواضـــح أنهـــا أدنى مرتبة) التى تخلو قائمتها من بعض الانفعالات الموجودة فى القائمـــة الكاملة؛ وبذلك لا يمكن أن تكون تلك الحضارات قد خبرتها. وبدا، عندئذ، أن البحث عن الوله أو تقدير الجمال والخضوع له بين قبائل تلال معينة غير مُجدٍ، أما الآن فإن تلك القوائم تشمل بين كشوفها النشوة الجمالية عند الدببة.

فى بدايـــة هـــذا القـــرن، صدر أحد النصوص الأنثروبولوجية (العظيمة) تحت عـــنوان **الوظـــائف العقلية فى الأنواع الدنيا**، كتبه ل. ليفى برول الذى كان أستاذاً بجامعـــة الســـوربون. إلا إن مثل هذا التحامل آخذ الآن فى الانحسار. إذ قد تكون القدرة على الشعور بجميع الانفعالات قدرة عامة. والأدب العظيم يوحى بأن حالات انفعاليـــة معيـــنة قـــد تكـــون عامـــة، أو على الأقل، أن القدرة على المرور بهذه الانفعـــالات تـــتخطى حاجـــز الحضارات، رغم أن الحضارات المختلفة والأفراد المختـــلفين قـــد يصـــفونها بشـــكل مختلف، أو يعلقون أهميات متغايرة على دقائق شـــعورية، فـــإذا جاز أن تعبر المشاعر الحضارات، كان من الوارد أن تعبر أنواع المخلوقات.

هـــذا الكـــتاب يناقش الانفعالات الإنسانية وفقاً لترتيب قبول الإنسان لها. والبشر عـــلى أتم استعداد للنظر فى إمكانية وجود انفعال الخوف لدى الحيوانات. أما الحب والحزن والفرح فتُعدُّ "أكثر نبلاً" ومن ثَمَّ يقل احتمال التسليم بها للآخرين، وبخاصة الحيوانـــات. ومع أن الكثير من الناس مستعدون تماماً أن يتحدثوا عن الغضب عند الحيوانـــات، إلا إن بعـــض مدربى الحيوانات المجربين يجادلون بأن الحيوانات لا تشـــعر بهـــذا الانفعال. لقد نتج عن المناقشة التى قامت بين علماء الاجتماع حول الإيـــثار إنكار واسع النطاق لإمكان وجود انفعال الرحمة لدى الحيوان. أما بالنسبة لـــلخجل والشـــعور بالجمال، والقدرة الإبداعية، والإحساس بالعدالة، وغير ذلك من القدرات المراوغة: فإنها جميعاً أبعد ما يمكن عن نسبتها إلى الحيوان.

وظائف الانفعال وفوائده

لماذا توجد المشاعر؟ إن معظم الناس من غير العلماء يجدون غرابة في هذا السؤال. فالمشاعر موجودة فحسب. وهي تبرر ذاتها بذاتها. كما أن الانفعالات تُعطي الحياة معنىً وعمقاً. وهي ليست بحاجة لتخدم أي غرض حتى تبرر وجودها. ومن ناحية أخرى، يقر الكثير من علماء البيولوجيا النشوئية بوجود بعض الانفعالات لدى الحيوانات، أساساً من أجل وظائف حفظ النوع، وهم في هذا على النقيض مع السلوكيين. فالخوف، بالنسبة للبشر والحيوانات، على السواء، يثير الدافع إلى تجنُّب الخطر، والحب ضروري للعناية بالصغار، أما الغضب فيهيئ المرء للصمود. غير أن حقيقة أن سلوكاً ما يلعب دوراً في حفظ النوع لا ينبغي أن تعني بالضرورة أن هذا هو السبب دون غيره في حدوثه. فهناك علماء آخرون قد أرجعوا هذا السلوك ذاته إلى الفعل الشرطي، وإلى الاستجابات التي تُكتسب بالتعلُّم. ومن المؤكد أن أنماط الأفعال المنعكسة والثابتة يمكن حدوثها دون شعور أو تفكير واعٍ. ففرخ النورس من عادته أن ينقر أية بقعة حمراء فوقه. ولدى الأب بقعة حمراء على منقاره، فينقر الفرخ منقار الأب، فيطعم الأب فرخه حين ينقر على منقاره. وهذا التفاعل ليس في حاجة إلى مضمون انفعالي.

وفي نفس الوقت، لا يوجد سبب يدعونا إلى القول بأن هذه الأفعال لا يمكن أن تنطوي على مضمون انفعالي. ففي حالة الثدييات ـ بما فيها البشر ـ ينسال اللبن تلقائياً حين يبكي صغير جديد. ولا يحدث هذا بتحكُّم إرادي، بل هو رد فعل انعكاسي. ولكن هذا لا يعني أن إطعام وليد جديد ليس فعلاً انعكاسياً لا يعبر عن أي مشاعر كالحب. فالبشر لديهم مشاعر ترتبط بسلوكهم ولو كانت مشروطة أو عكسية. غير أنه ما دامت الأفعال المنعكسة موجودة، وما دام السلوك الشرطي موجوداً على نطاق واسع، ويمكن قياسه وملاحظته، فإن معظم العلماء يحاولون شرح سلوك الحيوان دون أن يستخدموا شيئاً سوى هذه المفاهيم. فهذا أكثر بساطة.

وغالباً يلجأ الذين يعارضون التحدث عن الانفعال والوعي عند الحيوانات إلى مبدأ التقتير، أي استخدام أبسط شرح لظاهرة ما. إذ يقول لويد مورجان أحد السلوكيين: "لا يجوز تأويل أي فعل باعتباره نتيجة لممارسة مَلَكَة طبيعية راقية، إذا كان من الممكن تفسيره باعتباره ممارسة ملكة تحتل مكاناً أدنى في السلم

السيكولوجي". غير أن هذه القاعدة التى لا تعترف إلا بأبسط أو أقل تفاسير السلوك لا تصمد للهجوم. لأن تصنيف الملكات إلى عليا ودنيا يتضمن الكثير منة الافتراضات الخلافية. فالانفعالات تُعدُّ ملكات عليا دون سبب واضح، كما أن العالم ليس بالضرورة مكاناً شديد التقتير والشح. فكما أشار جوردون بيرجارت: "أن نشوء الحياة بواسطة الخلق أبسط من طرق الارتقاء غير المباشر".

لقد رفض الكثير من العلماء البحث فى أية قضية خاصة بسلوك الحيوان عدا قضايا رد الفعل والسلوك الشرطي، مفضلين أن يفسروا السلوك بطرق تتلاءم مع المنهج العلمي بأكبر قدر من اليسر. إذ ينادى العلم التقليدى الصارم بأن ما لا يمكن قياسه أو تجريبه بيسر لا يمكن أن يكون له أى وجود، أو أنه غير جدير باهتمام العلم. ولكن التفسيرات الانفعالية لسلوك الحيوان ليست بالضرورة بالغة التعقيد أو مستعصية على التجريب. كل ما هنالك أنها يصعب التحقُّق منها بالطرق المعتادة. ومن هنا كانت الحاجة إلى مناهج أكثر براعةً ورقياً. ومعظم فروع العلم قابلة للتوصل إلى نتائج تقريبية متتابعة لظواهر قد تبدو فى النهاية استحالة معرفتها، وذلك خير من تجاهلها تماماً.

لذة التفوق

تقدم البيولوجيا التشوئية مزيداً من الدعم للرأى القائل بأن الحيوانات أيضاً تحس. وهكذا، فإن أى شيء يؤدى إلى حفظ النوع تكون له قيمة انتقائية. وبإمكان الانفعالات أن تحفز سلوك النوع. فالحيوان الذى يخشى الخطر ويهرب قد يبقى فترة أطول من ذلك الذى لا يفعل ذلك، بينما قد يعيش حيوان آخر يدافع عن أرضه بشراسة فترة أطول وحياة أفضل. والحيوان الذى يحب نسله ويحميه قد يخلف أبناءً أكثر قوة. وقد يستمد الحيوان لذة من قدرته على العَدْو بسرعة، والتحليق بقوة، أو شق مجرى عميق. ولذة التفوق Funktionlust هى مصطلح ألمانى يُقصد به اللذة التى يستمدها المرء من إجادته لعمل ما ــ كاللذة التى تحس بها القطة عند تسلق إحدى الأشجار، أو تلك اللذة التى تستمدها القرود من التنقل بين فرع شجرة وفرع آخر. وقد تزيد هذه اللذة، أو السعادة، من ميل الحيوان للقيام بهذه الأفعال، كما تزيد من احتمال بقائه.

ولكن ليست جميع الأفعال التى تولدها الانفعالات لها قيمة حفظ النوع. فقد ينجب الحيوان العاشق مزيداً من النسل وبذلك يجعل من الحب شيئاً يُعينه على حفظ النوع، غير أن نفس الحيوان قد يعتنى أيضاً بالنسل المعوق أو الرفاق الذين ليست لديهم فرصة للبقاء، أو قد يعرض نفسه للخطر وهو يقيم الحداد على الموتى. وقد يتبنَّى صغار الآخرين، الذين لا ينقلون صفاته الوراثية أو جيناته. وهذه الأفعال لا تزيد من لياقته بل قد تنقص منها. وربما تقوم الحيوانات بأفعال معينة نتيجة لما تحس به، وليس ببساطة من أجل ميزة من ميزات حفظ النوع. ومع ذلك، يمكن أن تكون للمحبة قيمة من قيم حفظ النوع، ذلك لأن المحصلة النهائية ستكون ترك مزيد من النسل. وإذا حدث سلوك تكيُّفى ليس له ميزة حفظ النوع، فقد يعنى هذا أن السلوك ناتج عن انفعال أشمل وليس تكيُّفاً محدوداً. ويمكن للملاحظات المنهجية من هذا النوع أن ترقى بالتنظير فيما يخص الانفعالات، بل وتختبر وجودها.

فعند حدوث سلوك ينتمى فى المعتاد إلى سلوكيات التكيف فى حالة لا تنتمى إلى حالات التكيف، فإن الدافع إليه يكون، على الأرجح، الانفعال الأكثر شمولاً وليس التكيف بمعناه المحدود. ويلجأ علماء الأحياء غالباً إلى الإشارة إلى ميزة حفظ النوع كوسيلة لمسألة تنحية الانفعال. ويزعم العلماء أحياناً أن الطائر المغرد لا يغنى فَرَحاً، أو لأنه يشعر أن أنشودته جميلة، وإنما لكى يكسب أرضاً ويعلن عن لياقته لشركاء التناسل المنتظرين. وهكذا، فإن اعتبار غناء الطير سلوكاً عدوانياً أو جنسياً يقدم تفسيراً وراثياً لذلك السلوك. قد تعلن أنشودة الطائر عن حقوقه الإقليمية أو تجذب رفيقة، حقاً، غير أن هذا لا يعنى أن الطائر لا يشدو تعبيراً عن سعادته وإحساسه بجمال أنشودته. وكما يشير عالم الحياة البدائية فرانس دى وال "حين أرى زوجاً من الببغاوات يداعب كل منهما ريش الآخر برقة وصبر، فإن أول ما يخطر ببالى ليس أن ما يفعلانه وسيلة للمساعدة على توريث جيناتهما فهذا أسلوب مضلل للحديث لأنه يتحدث عن الحاضر، بينما تنسحب التفسيرات النشوئية على الماضى فقط". ويرى دى وال بدلاً من ذلك أن الطائرين يعبران عن الحب والترقب، أو التردد "علاقة ثنائية بحتة".

وبالمثل، فإن السلوك البشرى الذى يُنظر إليه باعتباره مساعداً على البقاء يقتصر غالباً على وجهة النظر تلك فحسب، كما يحاول أن يقنعنا أحياناً علماء

الاجتماع. فحين يتخذ أعضاء المجتمعات التى تتبع نظام الزوجة الواحدة أو الزوج الوحيد عشيقاً أو عشيقةً، فهم لا يقصدون عادة الوصول بفرص الإنجاب إلى أقصى حـد، عن طريق إضافة أنثى ولود إلى جانب الأنثى الأصلية أو سعياً إلى التناسل مـع ذكـور أفضل من الناحية الوراثية لصالح النسل. بل إن حقيقة الأمر هى أن العشـاق يحرصون على عدم الإنجاب من عشاقهم. كما أن استغلال الأطفال جنسياً لا قيمة له بالنسبة لحفظ النوع، ومع ذلك فهو أمر شائع. فإذا كان البشر يخضيعون للنشوء والارتقاء ولكن لديهم أيضاً مشاعر يصعب شرحها استناداً إلى نظرية البقاء وإذا كـانوا عرضـة لانفعالات لا ميزة لها، فلماذا نفترض أن الحيوانات يجب أن تتصرف بوحى من الاستثمار الوراثى وحده؟

المعيار المزدوج

مـن الواضـح، أننا كبشر، نطبق مقاييس على أنفسنا لا نطبقها على غيرنا من الحيوانات. فالبشر يهتمون بأن تكون لديهم انفعالات. والسبب المعتاد الذى يُقدم لهذا الوضـع هو أن المشاعر تعبر عنها اللغة. فحين يستخدم الناس كلمات مثل "أحبك" أو "لا يهمـنى ذلـك" أو "إنى حـزين"، فهم يعيشون جزءاً كبيراً من حياتهم طبقاً لتعبيرات عن مشاعر داخل أنفسهم أو داخل الغير. ورغم الاتفاق على نطاق واسع عـلى أن بعض الناس يكذبون فى التعبير عن مشاعرهم ليكسبوا ميزة معينة، وأن بعـض الـناس يخطئون فى فهم مشاعرهم، أو لا يعرفون حقاً ما يشعرون به، أو يعـبرون عـن مشاعرهم دون مصداقية، إلا إن قليلين هم الذين يشكّون فى وجود المشـاعر – مشـاعرهم أو مشاعر غيرهم. ويبدو أن وسيلة الفهم والتمييز الأولية هى القيـاس والـتقمُّص العـاطفي: فنحن نعرف أن لدينا مشاعر لأنها تؤثر فينا، والآخرون لديهم مشاعر، ويعبرون عن أشياء مشابهة، لذلك نعتقد أن لديهم مشاعر، أيضاً.

وهذه الطريقة فى التفكير لها نقائصها. فنحن نتعلم من واقع الخبرة الشخصية أن غيـرنا مـن البشر يمكنهم أن يشعروا بالعرفان لأنهم يقولون ذلك ويتصرفون بناء على ذلك. وهذا فى حد ذاته، قاصر عن إفادتنا عما إذا كان الأسد يحس بالعرفان. ومـن ناحيـة أخرى، فإنه حتى إذا ما احتمى البشر داخل بيئات ثقافية راقية، فهم يظلون إلى حد كبير من أنواع الحيوان، ويشبهون الحيوان فى العلاقة بين المكونات

الجسدية والنفسية للانفعالات. فبينما لا يمكن التدنى بالانفعالات إلى كونها مجرد مزيج من الهرمونات، مهما كان مدى ما تسهم به فى الحالات الانفعالية عند البشر، فهى تقوم بنفس الشيء أيضاً فى حالة الحيوانات. فمواد مثل الأوكسيتوسين والأبنيفرين والسيرتونين والتوستوستيرون ــ والتى يُعتقَد أنها جميعاً تؤثر فى أفعال الإنسان ومشاعره ــ توجد أيضاً فى الحيوان. ولقد أثبتت التفسيرات شديدة التبسيط والإخلال لسلوك الإنسان، والقائمة على تأثير الهرمونات أنها ليست خاطئة فحسب، بل مُضلِّلة؛ لذا يجب أن نُعنى بتجنُّب الوقوع فى نفس الخطأ عند تفسير سلوك الحيوان.

إن التأكيد على الاعتقاد الراسخ بأن الانفعالات ليست إلا نتاجاً بحتاً لقوانا العقلية البشرية المتفردة يجعل المداخل الفيزيقية لانفعالات الإنسان من أكثر المداخل بدائية، ففى المخ جهاز يُسمى الجهاز الطرفي، ويُعتقد أنه وسيط الانفعال، وهو أقدم ما اكتسبه الإنسان فى عملية النشوء، حتى إنه يُدعى أحياناً "المخ الزاحف" وهو أشبه بمعجزة بيولوجية. ومن وجهة نظر جسدية بحتة، فإذا كان البشر هم الحيوانات الوحيدة التى تشعر، فهل يمكن، إذن مثلاً، إثبات أن القطة تحب صغارها أو أن الصغار يحبون أمهم؟ لو أثبتت القياسات أن مستويات الهرمون ترتفع فى دم القطة حين ترى صغارها أو أن نشاطاً كهربياً يتغلغل فى أجزاء معينة من مخ القطة، فهل يُقبل هذا باعتباره دليلاً؟ ربما يقول الكثير من العلماء، رغم هذا: كلا، لا يمكن مطلقاً إثبات أن القطة تُحب. ومع ذلك، فإن أغلب المراقبين يعتقدون أصلاً أن القطة تحب صغارها، وذلك ببساطة من واقع سلوكها. ولكنهم لا يميلون إلى التصريح بذلك.

فهل يمكن أن تكون عبارة "واضح أن القرد حزين" لا تختلف كثيراً عن عبارة "واضح أن جون حزين"؟ إن كلمة واضح تعنى تأويلاً؛ إنها تشير إلى مفاتيح متفق عليها اجتماعياً لبيان الحزن. إن جون ينظر إلى الأرض لمدة ساعات ويتنهد. وكذلك يفعل القرد. وقد يرفض جون الكلام، وحين يُسأل عما يحس به، يشيح بوجهه عن محدثه. ولا نستطيع القول إنه غير حزين لأنه لم يصرح بذلك أو لو كان حزيناً لقال. من الممكن أن نكون على خطأ بالنسبة للقرد. ومن الممكن أن نكون على خطأ بالنسبة لجون أيضاً. وقد يكون إحساس جون مختلفاً تماماً ــ ربما

كـــان إحساســـه هـــو اللامـــبالاة، أو اليأس الوجودي. وقد نكون أسأنا فهم أفعاله، تعـــبيرات وجهه، أو الأصوات التى تصدر عنه. فكلمة "واضح" هى تعبير عن نوع الدليل الذى نظن أنه لدينا، غير أن دليلنا لا يمكن أن يكون قوياً بالنسبة للناس، كما لا يمكن أن يكون ضعيفاً بالنسبة لغيرهم من الحيوانات، كما افترضنا.

المفاتيح المراوغة للغة

يتمـــتع البشـــر بميـــزة الـــلغة، فـــهى أحد أكبر الفروق بين البشر وغيرهم من الحيوانـــات. فالحيوانـــات لا تستطيع أن تتحدث عن مشاعرها بطريقة يمكن للبشر فهمهـــا عـــلى وجـــه اليقين، مع أن حاجز اللغة بين البشر والحيوانات ليس حاجزاً مطلقاً. غير أن اللغة ليست دائماً نبراساً جديراً بالثقة يُهتدى به لمعرفة الشرور بين البشر. ذلك أن التأكيد اللفظى على الانفعال لا يثبت وجوده. كذلك، فإن العجز عن التعـــبير لفظياً عن انفعال ما ليس دليلاً على عدم وجوده. فبعض الكائنات البشرية المصـــابة بتخـــلف شديد لا يمكنها التعبير عن مشاعرها، ولا يعنى هذا عدم وجود مشـــاعر لديهـــا. فالصم يحسون. والبشر شديدو التعقيد والرقى من الناحية العقلية، يمكنهم أن يكذبوا عند التعبير عن مشاعرهم، أو يستطيعوا إخفاءها وقد تميز القدرة العقـــلية البشر عن غيرهم من الحيوانات، ولو من حيث الدرجة فقط، غير أنه حتى بين البشر، لا يوجد تعادل بين الذكاء والانفعال.

فاللغة جزء من الثقافة، ويبدو أن الثقافات فى أنحاء العالم تخلق كثيراً من أشكال الـــتمييز المماثلة بين الانفعالات وتشير إلى خبرات متشابهة. ولكن هل نستطيع أن نحـــس بانفعال لا تصوغ له ثقافتنا لفظاً أو تقدم أمثلة؟ لا شك فى أن هناك انفعالات قـــد بلغت قدراً من الرقى فى ظل إحدى الثقافات لم تبلغه فى ثقافة أخرى، غير أن هـــذا ليس معناه أن هذه الانفعالات لم تُختبر فيها جميعاً. وربما يكون من الصعب تعـــريفها أو التعـــبير عنها، آخذين فى الاعتبار اللغة التى نشأ المرء عليها، بل قد يكون من الصعب التفكير فى هذه الانفعالات، فضلاً عن نقلها لشخص آخر. ولكن المشـــاعر نفسها قد تتصف بآلية ذاتية معينة تمنع الإحساس بها. وبالمثل، قد تكون للحيوانات خبرات انفعالية يصعب التعبير عنها أو صياغتها فى ألفاظ، غير أن هذا لا يـــنفى كونها مشاعر حقيقية. ورغم الحاجز اللغوى الذى يشترك فيه الإنسان مع

الحيوان، إلا إنهما يشتركان فى القدرة على الإحساس بالغالبية العظمى من المشاعر.

من الأفكار المتميزة قديمة العهد أن البشر فقط هم الذين يفكرون ويشعرون لأنهم فقط القادرون على توصيل الأفكار والمشاعر عن طريق الألفاظ، سواء أكانت مكتوبة أم منطوقة. وكان ديكارت الفيلسوف الفرنسى فى القرن الثامن عشر، يعتقد أن الحيوانات " وحوش لا تفكير لديها" أى آلات تلقائية الحركة وكان يقول: "لا يوجد بشر مهما كانت درجة غبائهم وحماقتهم – بمن فى ذلك البلهاء – يعجزون عن ترتيب كلمات مختلفة معاً، مكونين منها جملة خبرية يجعلون غيرهم يعرف منها أفكارهم، بينما، من ناحية أخرى، لا يوجد أى حيوان آخر مهما بلغ من الكمال أو تحققت له الظروف المناسبة يستطيع أن يفعل ذلك ... ولا يرجع السبب إلى أن الحيوانات لا تتكلم كما نفعل، أو أنها تفتقر إلى الأعضاء اللازمة وإنما يرجع إلى أنها ليست لديها أفكار".

لقد عبر أحد المجهولين من معاصرى ديكارت عن هذه القضية بشكل صريح؛ إذ قام العلماء (الديكارتيون) بتنظيم عمليات ضرب للكلاب بلا مبالاة على الإطلاق، وسخروا من أولئك الذين أشفقوا على هذه المخلوقات وكأنها لا تحس بالألم. وقالوا إن الحيوانات مجرد ساعات حائط، وإن الصرخات التى تصدر عنها حين تضرب ليست سوى تلك الضوضاء الخفية التى تصدر عن (ياي) صغير تم لمسه، أما الجسد كله فيخلو من أى شعور. ودقوا الحيوانات المسكينة بالمسامير فوق ألواح من أقدامها الأربع، كى يقوموا بتشريحها لدراسة الدورة الدموية، التى كانت تشكل موضوعاً كبيراً من موضوعات الخلاف.

ورد فولتير قائلاً: إن تشريح الحيوانات فى التجارب العلمية أظهر على العكس أن الكلب لديه نفس أعضاء الشعور التى لدى الإنسان. وكتب يقول: "أجيبوني، يا من تظنون أن الحيوانات ليست إلا آلات، هل دبرت الطبيعة وجود كل هذه الأجهزة الشعورية فى الحيوانات لكى لا تكون لديها مشاعر مطلقاً؟" وفى موضع آخر، من كتاب "الفيلسوف الجاهل"، ينتقد فولتير ديكارت بقوله: إنه "تجرأ على القول بأن الحيوانات ما هى إلا آلات بحتة تبحث عن الطعام بينما لا تحس بالشهية، ولديها أعضاء الإحساس دون أن يكون لديها مشاعر، وتصرخ بلا ألم. وتبدى

السرور دون فرح، وتمتلك عقولاً دون أن يكون بها أبسط الأفكار، وهكذا، فهى نموذج مستمر للتناقض مع الطبيعة". وفى أوائل عام ١٧٣٨، تحدث فولتير عن المشاعر الإنسانية عند عالم الطبيعة الإنجليزى إسحق نيوتن وكيف أنه كان مقتنعاً، شأنه شأن الفيلسوف جون لوك بأن الحيوانات لديها نفس العواطف التى لدى الإنسان. وكتب فولتير: "كان يعتقد [نيوتن] أنه من التناقض الصارخ أن يؤمن المرء بأن الحيوانات تستطيع أن تشعر، ومع ذلك، يسبب لها المعاناة".

صحيح أن معظم الحيوانات ليست لديها بعد لغة للتحدث، يمكن للبشر أن يفهموها. ولكن هل العجز عن التحدث، فى نهاية الأمر يُعتبر مؤشراً مهماً على غياب المشاعر كما تصوَّر بعض الفلاسفة؟ إن العديد من قرود الشمبانزى وغيرها من القِرَدة العظمى لديها لغة إشارة أمريكية تشتمل على ما يزيد على مائة مفردة. وهى لا تتواصل مع البشر فحسب وإنما مع أفراد من نفس نوعها. أليس من اليسير جداً إذن افتراض أنها قد نقلت فى السابق، بعض هذه الأفكار ذاتها لغيرها من القرود عن طريق وسائل غير لغة الإشارة الحديثة لدى البشر؟ فهل كان عليها أن تنتظر مساعدة العلماء كى تفعل شيئاً كانت أصلاً قادرة على فعله؟ ولا يعنى عدم وجود رموز صوتية لدى الحيوانات أن تعيش بلا تواصل. وبعد الدهشة فى البداية، كان رد الفعل الغالب للمجتمع العلمى على القرود التى تتحدث بالإشارات هو التجاهل وعدم التصديق، سواء بالنسبة لأفراد معينة، أو النوع بأكمله. وإذا ما علمنا أن الأقوال التى صدرت عن القردة بخصوص الطعام واللعب قد هوجمت، فما بالك برد الفعل على القول بأن لديها مشاعر؟! ويزعم المتحاملون المتزمتون أن مشاعر الحيوان لا يمكن معرفتها لأن الحيوانات لا تستطيع أن تتكلم، وحتى لو تكلمت بلغة بشرية فسيكون الزعم هو أن ما تقوله لا يمكن أن يعنى ما يقصده البشر.

وحتى حين تتحدث الحيوانات بلغتنا، فالبشر لا يحملون ما تقوله محمل الجد. لقد تدرب أليكس، وهو ببغاء أفريقى رمادي، لمدة ١٦ عاماً، على يد عالمة النفس إيرين ببربيرج، الباحثة فى القدرات المعرفية للحيوان. ويُعدُّ أليكس واحداً من أندر الببغاوات التى تفهم معنى الكلمات التى تتكلمها. فهو يعرف أسماء خمسين شيئاً، وسبعة ألوان، وخمسة أشكال. كما يستطيع أن يعد حتى يصل إلى ستة أشياء ويحدد الشيء الأصغر بين شيئين. كما أن أليكس التقط الكثير من العبارات "الوظيفية". إذ

تعلم أن يقول : "سأذهب الآن" وهو ما يسمع الناس يقولونه فى معمل ببربيرج. وتقول ببربيرج: حين نوبخ أليكس قائلين: " لا، أيها الولد الشرير" ونخرج يفهم قولنا فى هذا الموقف، بشكل تطبيقي، ويناشدنا العودة بقوله: "آه! إنى آسف". "لقد تعلم أليكس أن يقول : إنه آسف عن طريق سماعه للناس يقولون ذلك وهو يعرف متى يقولها". هل يحس بالأسف؟ "إنه يعض ثم يقول: (آسف)، لكنه يعض مرة أخرى". تقول ببربيرج بلهجة عصبية إلى حد ما: "إنه لا يشعر بالندم" تماماً مثل كثير من الناس.

فها هنا حيوان يبدو أنه يعبر لفظياً عن حالة انفعالية – الأسف – غير أننا لا نصدقه، لأنه لو كان آسفاً حقاً على العض (كما يفهم هذا اللفظ)، فهل كان من الممكن أن يكرر فعلته مرة أخرى فى الحال؟ربما، وأياً كان الانفعال الذى يحس به أليكس، فإن لديه الدافع الكافى الذى يدفعه إلى تعلم كلمات بشرية للتعبير عن مشاعر بشرية – ربما لكى يجعل البشر رفاقاً يشعرون بالرضا عن الببغاوات. إذ قد لا يحس أليكس بالندم على إيذاء شخص ما. كما أن ببربيرج ليست لديها كلمة تعبر بها عما يريده أليكس منها. ولعلها لم تدرك أبداً ما يحس به أليكس. فالبشر لديهم نقص مذهل فى المفردات المعبرة عن الانفعالات الاجتماعية الإيجابية؛ ولكنهم ناجحون بلا داعٍ فى تسمية الانفعالات السلبية الفردية. أفلا يجوز وجود درجات للتقارب الاجتماعى والحب على قمم أشجار الغابة يعجز البشر عن التعبير عنها عجزاً يشبه عجز الأميين؟ لعل هناك شيئاً لابد أن نتعلمه.

التواصل دون لغة

فى السنوات القليلة الأخيرة، أشعل التواصل غير اللفظى بين البشر شرارة اهتمام بين الأكاديميين والمعالجين. إذ يمكن نقل الكثير من الحالات العقلية عن طريق الإيماءات بشكل أكثر ملاءمة من نقلها باللغة، كما توجد حالات أخرى تستعصى على اللغة اللفظية استعصاءً تاماً. فالمحاولات التى تُبذل لنقل المشاعر العميقة والمراوغة تجعل الجميع يحسون بعجزهم عن الكلام. وما الشعر سوى محاولة لنقل المشاعر، والحالات المزاجية، والحالات النفسية بل والأفكار التى يصعب فهمها والتى يبدو أنها تتحدى لغة النثر. وثمة مشاعر، فى الواقع، تستعصى

كلية على اللغة حتى لغة الشعر، ذلك أن مهمة الفنون الجميلة والتمثيل الصامت تبدأ حيث تنتهى مهمة الألفاظ.

وهناك بعض الشك فى أن البشر ينقلون الأفكار والمشاعر دون ألفاظ، بل هناك فى الحقيقة أدلة متزايدة على أن قدراً كبيراً من التواصل مع الآخرين يتم خارج نطاق الحديث اللفظي. وتماماً كما يتواصل البشر مع بعضهم البعض من خلال لغة الجسد والإيماءات والأفعال المعبرة، التى اتخذت شكلاً من خلال التمثيل الصامت والرقص، يجب النظر باهتمام للتعبيرات غير الكلامية المعبرة عما يشعر به الحيوان.

وتنقل الحيوانات المعلومات إلى الحيوانات الأخرى، وإلى من يراقبها من البشر عن طريق الوقفة أو الجلسة وما تصدره من أصوات وإيماءات وأفعال. ويبدو أن دراسة هذه الأنماط آخذة فى التحسن، إلا إنه حتى المتخصصون يمكن أن يقصروا نوعاً ما فى تفسير هذه المعلومات، ويصدق هذا بصفة خاصة على من لا يألفون هذا النوع من الحيوان أو ذاك. أما الحيوانات نفسها فهى أكثر قدرة بكثير على فهم تلك الإشارات، حتى فيما بين الأنواع المختلفة. وتعتقد إليزابيث مارشال توماس بأن الحيوانات أفضل فى قراءة إشارة البشر الجسدية من قدرة البشر على فهم لغة الحيوان الجسدية من أى نوع كان. "يمكن لنوعنا أن يتمكن من إرهاب الأنواع الأخرى ولكن هذا ليس لأننا مهرة فى التواصل؛ بل لأننا لسنا كذلك". ويشكو دى وال من أن القردة شديدو القدرة على قراءة لغة الإنسان الجسدية، بحيث يجعلون من يعملون معهم يشعرون بأنهم شفافون يسهل سبر أغوارهم.

وبعد أن قضى ديفيد مكدونالد خمسة عشر عاماً فى دراسة الثعالب الحمراء وتربيتها والحياة معها أصبح يفهم لغتها الجسمية. ويمكن أن يحكم، من مجرد نظرة سريعة، على ما إذا كان ثعلب ما سعيداً، أو مستثاراً أو عصبياً. ويكتب عنها بحرية واصفاً إياها بأنها مرحة أو غضوب أو خاملة أو وجلة أو واثقة أو راضية أو لعوب أو متواضعة. فخبرته بالثعالب مكّنته من توضيح لغة أجسادها بشكل يجعل من هم أقل خبرة بهذا الحيوان قادرين على فهمه. ولكن لأن انفعالات الحيوانات لا تحظى بالاحترام العلمي، فإن مكدونالد حين يناقش مسألة استمتاع الثعالب بالقتل، يتراجع، محذراً: "بفرض أنه يشعر بنفس انفعالات البشر.." وهو

يصف هذه المسألة بأنها "مستعصية فلسفياً"، ولكن بالنسبة لمعظم غير المتخصصين ليست أكثر استعصاءً من التساؤل عن وجود الانفعالات لدى غيرهم من البشر، بما فى ذلك السادية؟ .

فى أحد كتب كونارد لورنز (عام الإوزة الرمادية) نرى تعليقاً على صورة يقول "بعد أن عادت المياه لمجاريها بين "أدو" ذكر الإوز وسيلما أنثاه السابقة تحطم جوريـنمانز تماماً كما نرى فى هذه الصورة" ولا يستطيع أى شخص غير معتاد على معاشرة الأوز أن يرى ذلك. بل من الممكن أن تكون الإوزة سعيدة أو غاضبة. إذ ليس للإوزة ملامح متحركة، لذا يوجد القليل من تعبيرات الوجه العرضية. ويعرف لورنز، من واقع الخبرة الطويلة، لغة جسم الإوزة ويستطيع قراءتها. فجلسة جورينمانز ووضع رقبته تبين خضوعه وانخفاض روحه المعنوية. وفى موضع آخر، يصف لورنز جلسات الإوز وإيماءاتها، وأصواتها حين تعبر عن النصر أو الشك أو التوتر، أو الحزن أو السرور، أو التحفز، أو الاسترخاء أو الشعور بالتهديد. والمسألة هى أن الإوزة أو أى حيوان يمكن أن يكون كتلة ترتجف من فرط الانفعال. وقد تكون مشاعرها "مكتوبة على كل ملامح وجهها" وقد لا يحتاج الأمر من المرء، ليكون قادراً على قراءتها سوى التدريب. ولا يحدنا فى ذلك سوى الجهل، أو انعدام الاهتمام، أو الرغبة فى الاستغلال (مثل الرغبة فى أكلها). أو قد يعيقنا تركز أذهاننا فى الخوف من خلع صفات آدمية عليها، مما يسعب من التعرف على ما تشترك معنا فيه حيث توجد. وكأنه أمر إلهي، إذ كيف يمكن أن نكون آلهة لو كانت الحيوانات مثلنا؟

استكشاف المنطقة المحرمة

تبدأ المقاييس التى نعرف بها وجود الانفعالات عند الحيوانات بتلك التى يشيع استخدامها مع البشر. ولا ينبغى للمرء أن يطالب بدليل على إحساس الحيوان بالانفعال أكثر مما يطالب به فى حالة الإنسان – كما يجب السماح للحيوانات، شأنها شأن الإنسان، بأن تتحدث بلغتها الانفعالية الخاصة بها، وعلى من يشاهدها أن يفهم تلك اللغة. كما أن الانفعالات الإنسانية، تستعصى أيضاً على التفحُّص العلمى الدقيق. إذ لا يوجد فى الواقع، أى دليل علمى مقبول عند الجميع على المشاعر الإنسانية. فما يحس به شخص ليس موجوداً إطلاقاً عند شخص آخر.

وليس من المؤكد أن مشاعرنا قابلة للتوصيل، بل إن مسألة ما إذا كان أى شخص يفهم كل جوانب الحياة الداخلية لشخص آخر، تستحيل على المعرفة تماماً. فنحن نظن أننا نعلم أن الناس يحسون بالحزن، أو يعانون الوحدة، أو يملؤهم الفرح، غير أنه من الصعب معرفة خصوصية الحالة المزاجية لهذا الشعور أو ذاك. ربما لا نكون حبيسى عوالم خاصة من المشاعر، غير أن الحياة الشخصية لإنسان آخر، فى حدود تفرُّدها، تظل غاية فى الغموض.

إن تاريخ الشعوب الإنسانية التى يلعب فيها الخوف والغضب والحب والكبرياء والشعور بالذنب أى دور يُعتبر تاريخاً قاصراً إلى حد غريب. ذلك أن السِّيَر (التراجم) التى تخلو من الحزن والأسى، والحنين، قد تبدو غير واقعية. وحياة الإنسان العادى التى ليس فيها من يُحب أو يُحَبّ أو يريد أن يكون محبوباً، أو تلك التى لا يخشى أحد فيها شيئاً، أو التى لا يغضب فيها أحد ولا يُغضب أحداً، والتى يظل اليأس فيها بئراً عميقة لا يمكن سبر أغوارها، تلك القصص التى لا يفخر فيها أحد بأى شىء يقوم بفعله، وتلك التى لا يخجل فيها أحد من أى شىء يفعله أو يشعر بالذنب إذا ما فعل شيئاً ما، - تُعدُّ وصفاً غير واقعى وغير طبيعى بل تافهاً، ولا يمكن أن يكون معقولاً ودقيقاً. ويصح أن يُطلق عليه غير إنساني. كذلك، فإن وصف حياة الحيوانات دون وصف انفعالاتها سيكون على نفس الدرجة من عدم الدقة، والسطحية والتشويه وقد يجردها من اكتمالها بنفس العمق، لذا فمن المهم أن نفهم ما تحس به الحيوانات حتى يتسنى لنا فهمها فهماً سليماً.

الفصل الثانى

وحوش متبلِّدة

على مر التاريخ، اهتم البشر إلى حد كبير بتمييز أنفسهم عن الحيوان. فنحن نتكلم، ونفكر، ولدينا مَلَكة الخيال، كما أننا نتمتع بخاصية الترقُّب، كما أننا نتعبد ونضحك. أمـــا الحيوانـــات فلا تفعل ذلك! ويوحى الإصرار التاريخى على وجود فجوة بين البشر وغيرهم من الحيوانات بأنه يخدم حاجة معينة أو وظيفة خاصة. فلماذا نقوم، نحـــن البشـــر، مـــراراً بـــتمييز أنفسنا عن الحيوان؟ وما أهمية التمييز بين البشر والحيوان؟

وتنقســـم محـــاولات إرساء هذا التمييز إلى فئتين. أولاهما، أن الكثيرين يذكرون مشاعر الإنسان بصفتها شيئاً فريداً، وأهم نواحى هذه المشاعر أننا نتقاتل مع بعضنا البعض. فى هذه الحالات، يحاول الكاتب عادة أن يوحى لقرائه بنتائج أخلاقية، ففى القرن الأول الميلادى كتب بلينى الأكبر فى كتابه "التاريخ الطبيعي": "إن الأسود لا تقـــاتل بعضها بعضاً، كما لا تهاجم الحيَّات بنات جنسها، وكذلك القِرَدة فى أعماق الغابـــة لا تصـــب جـــام غضبها على بعضها. غير أن معظم المصائب التى تحل بالإنســـان يتســـبب فيهـــا اخوته من الإنسانية". وحين يقول لودوفيكو أريوستو فى أورلـــندو فوريـــوزو، عـــام ١٩٣٢: "الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يسبب أذى لـــرفيقه"، فـــإن هذا يُعدُّ أيضاً، بمثابة توبيخ آخر. كما زعم جيمس فرود فى كتابه أوقيانا، عام ١٨٨٦ "إن الحيوانات المتوحشة لا تقتل قط من أجل اللعب أو التسلية. فالإنســـان هو الوحيد الذى يعتبر تعذيب غيره من المخلوقات وموتها مصدر تسلية

فى حد ذاته"، وكتب بلن وليامز فى هذا القرن: "إن الإنسان ... هو ببساطة أكثر الحيوانات المفترسة رعباً بل إنه بحق، الحيوان الوحيد الذى يفترس أبناء نوعه بشكل منتظم". فى جميع هذه الأمثلة لا يُلاحظ على الحيوانات أنها بحاجة كالإنسان إلى من يحثها على التوقف عن قتل غيرها (عادة). فهذه الأمثلة يُقصد منها جعل البشر يخجلون بحيث تجعلهم يعرفون أنهم يأتون بتصرفات أسوأ من الحيوانات.

ثم الفئة الأخرى – وتكاد تكون الفئة الأكبر – والتى تشير إلى التناقض بين الإنسان والحيوان، فتتحدث عن ميِّزات إنسانية: مثل ما لدينا من ذكاء وثقافة وما لدينا من حس فكاهى وقدرة على البكاء. إذ زعم وليام هازليت فى القرن التاسع عشر أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يضحك ويبكي؛ لأنه الحيوان الوحيد الذى تصدمه الفروق بين ما تكون الأشياء عليه فى الواقع وما ينبغى أن تكون عليه". وفى قرننا، زعم الفيلسوف وليام إرنست هوكينج "أن الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى يتأمل فى الموت، وهو أيضاً الحيوان الوحيد الذى يظهر أية علامة على الشك فى سلامته".

ومثلما زعم بأن الإنسان ينفرد بالحس الفكاهي، والقدرة على فهم الفضيلة، وكذلك القدرة على صنع الآلات واستخدامها. ومرة أخرى نرى أن اهتمام المؤلفين بإثبات سبق تعليمى للبشر أشد من اهتمامهم بملاحظة الحيوانات أو فهمها.

ولقد أفادت المقارنات بين الإنسان والحيوان تاريخياً باعتبارها مصدراً ثرياً للتعليم الأخلاقى بالنسبة للفلاسفة الإنسانيين، خاصة أثناء الفترات التى كان التاريخ الطبيعى يصطبغ فيها بصبغة عاطفية ويُنظر إليه باعتباره نموذجاً يُحتذى. وكان بفون هو أكثرهم شاعرية، وهو متخصص فرنسى فى دراسة الطبيعة فى القرن التاسع عشر، حيث بدأ مقاله: "فى طبيعة الحيوان" بقوله: "إن الحيوانات لا تستطيع أن تفكر أو تتذكر، غير أن لديها مشاعر على درجة أرقى حتى من الإنسان". وكان بفون يعتقد بوجود ميزة فى الحياة الشعورية النقية عند الحيوان. كما كتب أن البشر يحيون حياة من اليأس الهادئ، وأن "معظم الناس يموتون حزناً". وعلى النقيض من ذلك: "لا تبحث الحيوانات عن الملذات حيث لا توجد أى منها، فهى لا تخطئ فى اختيارها أبداً ذلك أنها تسترشد بمشاعرها فحسب، ذلك أن رغباتها متناسبة دائماً مع قدرتها على الاستمتاع، فهى تشعر بقدر ما تستمتع ولا تستمتع إلا بالقدر الذى

تشعر به. من ناحية أخرى فإن الإنسان، فى سعيه لاختراع الملذات لا يفعل شيئاً سوى إفساد الطبيعة، كما أنه فى سعيه لافتعال المشاعر، لا يفعل سوى إفساد كيانه، ويحفر حفرة فى فؤاده لا يقدر شيء على ملئها فيما بعد". فينتهى الأمر به إلى التحدث عن "البعد غير المحدود الذى أوجده الكائن الأعلى بين الحيوان (والإنسان)".

كذلك لم تنجح هذه التعبيرات المعاصرة عن هذا التباين فى أن تصبح أكثر رسوخاً فى فهمها لواقع الحيوان، كما لم تلق مزيداً من الضوء على الحيوانات – أو البشر. إذ كتب ن. ك. همفرى حديثاً يقول: "لقد نشأ البشر ليكونوا أعلى المخلوقات الاجتماعية التى عرفها العالم. ذلك أن علاقتهم الاجتماعية ذات عمق، وتعقيد وأهمية بيولوجية، بالنسبة لهم، لا تدانيها أية علاقة بين الحيوان". وهذا القول يبدو غير مستساغ إذا نظرنا إلى قلة ما نعرف عن "علاقات الحيوانات الأخرى".

فما أقل ما نعرفه وما أكثر ما ندَّعى معرفته حتى إنه، حتى عهد قريب جداً، كان من المسلمات فى سلوك الحيوان، أن إناث البشر من بين جميع الإناث هن اللائى يشعرن بالشهوة. ففى تاريخ قريب من عام ١٩٧٩، أعلن عالم الأجناس دونالد سيمونز "أن الشهوة الأنثوية تُعدُّ خاصية قاصرة أساساً على نوعنا". وحين بحث العلماء المسألة بحثاً فعلياً على قرد المكاك(*) قصير الذيل، مع استخدام نفس المعايير الفسيولوجية المستخدمة مع البشر، بدا على إناث المكاك أنها بالفعل تحس بالشهوة. ويلاحظ عالم الحياة البدائية فرانس دى وال نفس الشيء على قرود البونوبو وهى (نوع من الشمبانزي)، وذلك من أدلة سلوكية. وكما هو الحال فى كثير من المظاهر التى تنطبق بصفة خاصة على أنثى البشر، لم ينظر الكثير من العلماء فى المسألة، بشكل منهجى على الإطلاق، ناهيك عن القيام بدراسات الملاحظة الميدانية اللازمة من أجل الوصول إلى إجابة. وربما سُر الكثير من العلماء من الذكور أن يروا أنه بينما كانت إناث الحيوان تسعى إلى الجنس أثناء

(*) المكاك: قرد أسيوى ويوجد فى شرق الهند.

دورة الشبق فقط (عند الحيوان) ومن ثَمَّ تمارس الجنس من أجل التناسل، فإن إناث البشر يردن الجنس طوال الوقت بسبب مقدرتهن الشهوية الفريدة.

مشاعر نبيلة

لقد دأب البشر على رفع شأن بعض المشاعر بزعم أنها تنزلنا منزلة متفردة بين الحيوانات. فزعموا أن البشر وحدهم، هم الذين يشعرون بانفعالات نبيلة، مثل الرحمة والحب الصادق، والإيثار والشفقة، والعطف والإجلال والشرف والتواضع. ومن ناحية أخرى، عزا الناس غالباً، ما يسمى بالانفعالات السلبية أو "الدنيا" إلى الحيوانات، مثل: القسوة، والتكبُّر، والطمع، والغضب، والغرور، والكراهية. ويبدو أنه عند التطبيق يحدث جرح لإحساسنا بالتفرُّد ولأحقيتنا بالنبل المتفرد فى حياتنا الانفعالية. ومن ثَمَّ يقوى حاجز النوع ليس من حيث السؤال عما إذا كانت الحيوانات تحس أم لا وإنما أيضاً، بم تحس. فهناك حافز كامن وراء عقلية "النحن والهم"، وهو الذى يدفعنا إلى تعريف أنفسنا بإثبات أننا لسنا مختلفين فحسب، وإنما مختلفون اختلافاً تاماً، بما فى ذلك الناحية الانفعالية.

ولكن لماذا يهتم الناس كل هذا الاهتمام بالتمييز بين الإنسان والحيوان؟ إذا ألقينا نظرة على الفروق التى يحددها البشر بين أنفسهم قد نحصل على إجابة جزئية. حيث عرفت الجماعات الإنسانية المسيطرة نفسها، منذ القدم، بأنها هى الأرقى بتمييز أنفسها عن جماعات تضعها فى مكانة فرعية أو دونية. وهكذا، فإن البيض يعرفون السود، جزئياً، باختلاف محتوى الجلد من الميلانين، ويتميز الرجال عن النساء بسمات جنسية أولية وثانوية. إذن، فإن هذه الفروق التجريبية تستخدم كما يبدو وكأنها هى ذاتها، وليست نتائجها الاجتماعية، هى المسؤولة عن السيادة الاجتماعية لجماعة ما على الجماعة الأخرى. وهكذا كان التمييز بين الإنسان والحيوان مجدياً فى وضع الإنسان على القمة. فالناس يعرفون أنفسهم باعتبارهم متميزين عن الحيوانات أو مشابهين لهم حين يكون ذلك مناسباً أو مثيراً، كى يحتفظوا لأنفسهم بحق السيطرة عليها. ومن المفترض أن البشر يستفيدون من معاملة الحيوانات بالطريقة التى يعاملونها بها – فيعذبونها ويحبسونها، ويستغلون قوتها العاملة، ويأكلون أجسادها، ويصرخون فى وجهها، ويمتلكونها كأدلة على

المكانـــة الاجتماعية. إن أى إنسان، أو من توافرت له حرية الاختيار، لا يحب أن يُعامل معاملة كهذه.

ويمكـــن العثور على أمثلة فاضحة للكثير من حالات التحيُّز هذه مع إيحاء ببعض تـبعاتها الاجتماعية فى المقال الذى كُتب تحت عنوان "الحيوان" فى دائرة المعارف الدينية والأخلاقية، التى أُعدَّت عام ١٩٠٨.

لقـــد جلـــبت الثقافة معها، أو ربما التعليم، إحساساً بالهوة الكبرى التى تفصل بين الإنســـان والحيوانات الدنيا .. ففى مراحل الثقافة الدنيا، سواء وجدت بين الأجناس التى تقل عن المستوى الأوروبي، ككل، أو الأقسام غير المتحضرة فى المجتمعات المتمدينة، فإن الفرق بين الإنسان والحيوانات ليس معرَّفاً بالقدر الكافى هذا لو كان معـــرفاً أساســـاً ... فالإنسان الهمجى .. يعزو إلى الحيوانات مجموعة واسعة من الأفكـــار المعقدة والمشاعر، ومجالاً من القوة والمعرفة أكبر مما تمتلكه الحيوانات بالفعل .. لذا؛ لا يكاد يوجد عجب فى أن اتجاهه نحو المخلوقات الحيوانية هو اتجاه نحـــو التوقير وليس التعالي. ولا يستطيع سوى الإنسان الأدنى، أى الإنسان القريب من الحيوان، أن يقدرها.

ويوجـــد تحـــليل للتـــبريرات الإنسانية لهذه الفجوة فى كتاب "نظرة إلى وفاة فى الصباح" وهو كتاب لطيف عن القنص تأليف مات كارتميل:

عـــند تقـــنين العلماء للحدود بين الإنسان والحيوان أظهروا ريباً كبيراً عند إعادة تعريف صفات يُفترض أنها فريدة كى يحموها من أن تتنازعها حيوانات أخرى مع الإنسان. تأمل ما يُفترض أنه مخنا الكبير. إذ يُفترض أن البشر يتمتعون بذكاء أَحَدّ مـــن ذكـــاء الحيوانـــات، لـــذا لابد أن لدينا أمخاخاً أكبر. غير أن الأفيال والحيتان والدرافيـــل لديهـــا، فى الواقـــع، أمخاخ أكبر من تلك التى لدينا، كما أن القوارض الصغيرة والقردة لديها أمخاخ أكبر نسبياً (فأمخاخها نسبتها مئوياً إلى أجسامها أكبر مـــن نســـبة أمخاخنا إلى أجسامنا) وبناءً على ذلك، فإن العلماء الذين يدرسون هذه الأشـــياء بذلوا جهداً جهيداً كى يعيدوا تعريف المخ، مقسمين وزن المخ عن طريق معـــدل التمثيل القاعدى أو دالة أُسِّية فى وزن الجسم لإيجاد مقياس يمكن بواسطته اعتـــبار أمخـــاخ الحيوانات أصغر من أمخاخنا. وهكذا يتضح أن الكِبَر الفريد للمخ

البشـــرى مسألة تعريف. وليس هذا هو المثال الوحيد على توظيف العلم فى تحقيق هدف السيطرة. فى كتاب "القياس الخاطئ عند الإنسان" وصف استيفان جاى جولد معالجة المعلومات بشكل واعٍ بالنسبة لحجم المخ بشكل يثبت أن الجماعة العنصرية الــتى ينتمى العالم إليها أكثر ذكاءً من الجماعات الأخرى. (هناك مثال مشابه على محاولــة تطويع العلم لخدمة التفرقة العنصرية فى كتاب مرى وهيرنشتاين الحديث المســمى "منحنى الناقوس" فهذا الدفاع القبيح يُعدُّ دليلاً كئيباً على أن الذكاء المقاس لا يضمن وجود الأفكار الذكية).

الآخرون المتبلِّدون

لقد كان افتراض نقص الشعور عند الحيوانات بمثابة مبرر كبير لإساءة معاملتها. ووصــلت هــذه المعاملة إلى درجة من التطرف الشديد حتى إن الحيوانات ظلت، لفترة طويلة، يُنظر إليها وكأنها لا تستشعر الألم سواء أكان جسدياً أم انفعالياً. غير أنــه حين يلحق الأذى بحيوان، بنفس الطريقة التى يلحق بها بشخص، فإن رد فعله عامة يشبه كثيراً رد فعل أى شخص. فهو يصيح، ويبتعد، ثم يفحص الجزء المتأثر مــن جســمه ويحاول تطبيبه ثم ينسحب ويستريح. والأطباء البيطريون لا يشكون مطــلقاً فى أن الحيوانــات الجريحة تستشعر الألم، لذا فإنهم يستخدمون المسكنات والــتخدير فى عمــلهم. إن المعيار الوحيد الذى يفشل فيه الحيوان فى إظهار الألم الجســدى بالطريقة التى يفهمها البشر هو المقدرة على التعبير عن ذلك الألم تعبيراً لفظيــاً. ومــع ذلك يقال إن السمكة فى الشبكة لا تتقلب من شدة الألم (أو الخوف) وإنمــا كرد فعل. ويقال، إن السرطان البحرى حين يوضع فى الماء المغلى أو تلك الكــلاب التى يُبتر جزء من ذيلها لا تحس بأى شيء. ويحاول كتاب ألمانى حديث أن يثــبت العكس فيقول: "فهمنا الفورى لهذه الإشارات يُعتبر دليلاً على أننا نشارك الحيوانــات الأخــرى فى التركيب المعقد لجهاز الإحساس بالألم". وحين يتم بحث الموضــوع عمــلياً، تكون النتائج التى يتم التوصل إليها متمشية مع التفكير السليم وبذا يكون ألم السمكة الظاهر وهى تتلوى علّى السنارة حقيقيا".

إن افــتراض الجماعة المسيطرة بأن الجماعات الخاضعة لها لا تشعر بالألم كان مبعث ارتياح لديها، حيث كان ذلك يعنى إساءة استخدامهم أو استغلالهم دون شعور بــالذنب أو اســتحقاق لــلعقاب. وتــاريخ التعصب زاخر بتأكيد أن الطبقات الدنيا

والأجناس الأخرى عديمة الإحساس نسبياً. وبالمثل، كان من المتبع في الجراحة، حتى الثمانينيات، في العمليات التي تُجرى على الأطفال استخدام عنصر يشل الحركة ولكن دون تخدير، على أساس الاعتقاد الذي ساد لوقت طويل بأن الأطفال الرضع غير قادرين على الإحساس بالألم. إذ كان يُظن، دون دليل، أن أجهزتهم العصبية غير ناضجة. والظن بأن الرضع لا يحسون بالألم يتناقض بشكل مباشر مع الصرخات التي تصدر منهم، ولا يمكن تصنيف مثل هذا الظن إلا باعتباره ضرباً من الأسطورة العلمية. كما كان من المبادئ الأولية في الطب البشري، التي لم يثبت زيفها إلا حديثاً، عندما أثبتت الدراسات أن الأطفال الذين لا يحصلون على معالجة للألم يستغرقون وقتاً أطول في الشفاء من الجراحة.

وامتد التعصب الفكري إلى إنكار وجود الانفعالات لدى الفقراء، والأجانب، وأولئك الذين نشأوا في ظل ثقافات غير مستنيرة أو الأطفال الذين لم يتعلموا الإحساس بشكل إنساني كامل. ويقال إن ابتسام الرضيع ليس إلا استجابة جسدية لوجود غازات في الأمعاء. فهو لا يبتسم استجابة للآخرين، أو من قبيل السعادة، وإنما استجابة لأحداث هضمية. ورغم أن البالغين لا يبتسمون عند حدوث اضطرابات في المعدة، إلا أن هذا الظن كان شائعاً ـــ رغم أن والدى الطفل كانا لا يصدقانه. إن الدراسات التي تثبت أن ابتسامات الأطفال لا تحدث عند التجشؤ أو الهز لمعالجة الهضم أو الانتفاخ لم تؤثر تأثيراً ملحوظاً على هذه الفكرة. فالكثير من الناس يشعرون بالرضى حين يظنون أن أحاسيس الأطفال ضعيفة أو منعدمة. فإذا كان من اليسير إنكار وجود حياة انفعالية لدى غيرنا من الناس، فما أيسر إنكار مثل هذه الحياة لدى الحيوانات!

الأنسنة

إن أعظم عائق في وجه العلم في مجال البحث في انفعالات الحيوانات الأخرى هو الرغبة المتطرفة في تجنب الأنسنة. وتعني الأنسنة خلع سمات بشرية مثل الفكر والشعور والوعي والحافز على ما هو غير بشري. فحين يقول الناس إن عناصر الطبيعة تتآمر كي تفسد رحلتهم الخلوية أو إن شجرة ما هي صديقة لهم، فهم بذلك يمارسون الأنسنة. وهناك القليل ممن يعتقدون أن الطقس يتآمر ضدهم، ولكن الأفكار الإنسانية عن الحيوانات أكثر انتشاراً وثباتاً. ففي خارج الدوائر

العلمية، من الشائع التحدث عن أفكار الحيوانات المدللة ومشاعرها وعن الحيوانات الجامحــة والحيوانات الأسيرة، غير أن الكثير من العلماء يعتبرون أن مجرد الظن بأن الحيوانات تحس بالألم من أشد الأخطاء المترتبة على الأنسنة.

وتُعـدُّ القطــط والكلاب أهدافاً أولى للأنسنة، بحق وبدون حق. فمن الشائع خلع أفكــار ومشــاعر بعيدة الاحتمال على الحيوانات المدللة. "إنها تفهم كل كلمة تقولها لهـــا" أو "إنـــه يرفع عقيرته بالغناء كى يبين مدى عرفانه". وبعض الناس يُلبسون حيوانــاتهم المدللة- رغم ترددها – الملابس ويعطونها هدايا لا تهتم بها أو ينسبون آراءهم للحيوانات. بل إن بعض الكلاب تتعلم مهاجمة أناس ينتمون لأجناس تختلف عــن أجناس مالكيها. ويبدو أن الكثير من محبى الكلاب يستمتعون بفكرة أن القطط مخــلوقات أنانيــة، وعديمــة الإحساس تستخدم مالكيها الموهومين بلا قلب، إذا ما قورنــت بــالكلاب المحبة الوفية الساذجة. وعلى أية حال، هناك غالبية من الناس لديهـــا آراء واقعية تماماً عن قدرات الحيوانات المدللة وصفاتها. وتعطى لنا تجربة الحيـــاة مـــع أحـــد الحيوانات، غالباً إحساساً قوياً بقدراته وحدوده، مع أنه فى هذا المجـــال أيضـــاً، كما يحدث حين يحيا الناس مع أناس آخرين حياة قريبة، قد تكون المفاهيم المسبقة أكثر إقناعاً من الدليل الحي، وقد تخلق الواقع الخاص بها.

فلنـــنظر إلى هـــذه الأقوال الثلاثة عن سلوك الكلاب: "إن براندى متضايقة لأننا نســينا عيد ميلادها" و"براندى تشعر بأنها غير مشاركة مع الأسرة وتريد انتباهك" و"بـــراندى تُظهـــر خضـــوعاً يدل على سلالتها الرديئة" يمكن اعتبار كلتا الجملتين الأوليــين مـــن النوع الذى يتسم بالأنسنة، أما الجملة الأخيرة فتُعدُّ من قبيل رطانة الإيـــثولوجيا، أى الدراســـة العملية لسلوك الحيوان. ربما كانت الجملة الأولى خطأ "أنسني" أو من المحتمل أنها إسقاط، فقد يتضايق المتحدث لو أن الآخرين نسوا عيد ميـــلاده ويفترض أن الكلب قد يحس بنفس الشعور، ولكن بالطبع، فإن فكرة معرفة الكـــلب بأعيـــاد الميلاد، فكرة سقيمة، فما أعياد الميلاد إلا فكرة مقحمة متكلَّفة. أما الجمـــلة الثالثة فتصف "إثوجرام"، أى جدولاً لسلوك الحيوان يعبر عن أفعال الكلب وتتجـــنب أى ذكر للتفكير أو الشعور. وهى بهذا تُعدُّ وصفاً ناقصاً، أى أنها تصف الأحداث وتتجنب شرحها عن عمد. مما يحدُّ من قدرتها على التوقع. والجملة الثانية تفسر شعور الكلب. ورغم احتمال عدم صحتها، إلا أنها لا تُعدُّ من قبيل الأنسنة لو

كانت الكلاب لا تستطيع أن تستشعر الإهمال ولا تستطيع أن ترغب في الاهتمام – وهو شيء يعرف مالكو الكلاب أنه غير حقيقي. وربما كانت، في النهاية، أفيد الجمل الثلاث.

ربما تكون الأخطاء المترتبة على الأنسنة أفدح ما يمكن عند التفكير في الحيوانات التي تعيش في الطبيعة أو البراري. فبما أن الناس يعيشون مع الحيوانات الأليفة، فإن النظريات الخاطئة الخاصة بسلوكها قد يثبت خطؤها مع سير الأحداث. ولكن بما أن اتصال الناس بالحيوانات البرية محدود للغاية، فإن النظريات الخاصة بها لا يمكن أن تصطدم بالحقائق، ونظل أحراراً في تصور الذئاب المفترسة، والدرافيل ذات القداسة، أو الغربان التي تتابع إجراءات البرلمان.

إن العلم يعتبر أنسنة الحيوان خطأ فادحاً، بل خطيئة. ومن الشائع في العلم أن تتحدث عن "اقتراف" خطيئة الأنسنة. وهذا الاصطلاح كان في الأصل اصطلاحاً دينياً، مشيراً إلى خلع هيئة أو خصائص إنسانية على الله – أي الخطأ الهرمي في التصرف وكأن ما هو إنساني، قد يكوِّن إلهياً، ومن ثَمَّ يكون التحدث عنه قابلاً للخطيئة.

في المقال الطويل عن الأنسنة في دائرة المعارف الدينية والأخلاقية، التي ظهرت في عام ١٩٠٨، يكتب المؤلف (فرانك ب. جيفونز) "إن الميل إلى إسباغ صفة شخصية على الأشياء (مثل الاستعارة) – سواء أكانت صفات حسية أم صفات فكرية – والتي توجد في الحيوانات وفي الأطفال أو الهمج هو أصل الأنسنة". وتستمر الفكرة في بيان أن البشر يصنعون آلهة على صورتهم. ويأتي أشهر مثال على هذا الميل من المؤلف الإغريقي زينوفانيس (القرن الخامس ق. م.). فهو يلاحظ أن الإثيوبيين يمثلون الآلهة باعتبارهم سود اللون، ويصفها أهل ثراقية(*) على أنها ذات عيون زرقاء وشعر أحمر "ولو أن الثيران والخيل .. لديها أيدٍ وتستطيع الرسم" لوصفت صورها للآلهة كثيران وخيول. واستنتج الفيلسوف لودفيج فويرباخ أن الله ما هو إلا إسقاطنا، على شاشة سماوية لجوهر الإنسان. في العلم تُعدُّ الخطيئة في حق البناء الهرمي هي خلع سِمات إنسانية على الحيوانات. وكما

(*) شعب قريب من بلاد الإغريق.

أن البشـــر لــم يستطيعوا أن يشبهوا الله، فإن الحيوانات، الآن، لا تستطيع أن تشبه البشر. (لاحظ من أخذ مكانة الله).

الأنسنة عدوى

يربى العلماءُ الشبابَ تربية مذهبية على أساس من فداحة هذا الخطأ. فكما يشرح عـــالم ســـلوك الحيوان ديفيد ماكفرلاند "كان عليهم دائماً التدرُّب تدريباً خاصاً على مقاومـــة غوايـــة تفســـير ســـلوك الأنواع الأخرى على أساس من آليات معرفتهم الســـلوكية العادية". ويشكو عالم السلوك جون س. كينيدى فى أحدث كتبه (الأنسنة الجديـــدة) مـــن أن الدراســـة العلمية لسلوك الحيوان موصومة منذ مولدها بأصلها المتســـم بالأنســـنة وهى مـــا زالت كذلك إلى حد كبير. وكان عليها أن تكافح حتى تتحرر من هذا الكابوس الجاثم عليها ومازال الكفاح مستمراً لم ينته. وتبقى الأنسنة مشكلة أكثر من كونها أى شيء آخر فى اعتقاد معظم السلوكيين الجدد ... ولو قُدِّر لدراســـة سلوك الحيوان أن تشب عن الطوق وتصبح علماً، فإن محاولة التحرر من أوهـــام الأنسنة عليها أن تستمر. وهو يأمل فى "السيطرة على الأنسنة ولو لم يكن من الممكن علاجها علاجاً تاماً. ورغم أنها قد تكون كامنة فى البرنامج الوراثى لنا ومكتسبة فى ثقافتنا، إلا أن هذا لا يعنى أن هذا المرض غير قابل للعلاج".

وقـــد لاحظ الفيلسوف جون أندرو فيشر: "أن استخدام العلماء والفلاسفة اصطلاح الأنســـنة اســـتخدام عـــارض غالـــباً، ويوحى تقريباً بإساءة أيديولوجية أقرب شبهاً بالاصـــطلاحات السياسية والدينية (الشيوعية والثورة المضادة) وكأنه لا يحتاج إلى شرح أو تعريف حين يستخدم فى النقد".

وفى عـــالم يسوده الرجال، اعتُبرت النساء بصفة خاصة، عرضة للتعاطف، ومن ثَمَّ الوقوع فى خطأ الأنسنة، والخلط. وبما أن النساء ظللن لفترة طويلة يُنظر إليهن باعتبارهن أدنى من الرجال لمجرد أن أحاسيسهن مزهفة أكثر مما ينبغي، فقد ساد الاعـــتقاد بأنهن سيغالين فى التعاطف مع الحيوانات التى يقمن بدراستها. وهذا من الأســـباب فى أن الذكـــور من العلماء لم يشجعوا عالمات الأحياء الميدانيات لفترة طويـــلة. فهن عاطفيات أكثر مما ينبغي، ويسمحن للانفعالات بأن تنحرف بالأحكام والمـــلحوظات. وكان هناك شعور بأن النساء أقرب من الرجال فى نسبة اتجاهات

انفعاليـــة لـــلحيوانات عـــن طريق إسقاط مشاعرهن الخاصة عليها، وبذلك تتلوث المعطيات. وهكذا تدخل الانحياز الجنسي للنوع في بيئة يُفترض أنها موضوعية.

فاتهام أحد العلماء بالأنسنة هو بمثابة توجيه نقد قاسٍ بعدم إمكانية الاعتماد عليه. ذلـــك أن هذا يُعدُّ خلطاً بين الأنواع، ونسياناً للخط الفاصل بين الذات والموضوع. ذلـــك أن خلع أفكار أو مشاعر على مخلوق يُعرف عنه عدم قدرته عليها، يمكن أن يصبح مشكلة حقاً. غير أن خلع انفعالات مثل الفرح والحزن على الحيوان لا يمكن أن يكـــون خطـــأ يوصف بالأنسنة، إلا إذا اعتقد المرء أن الحيوانات لا تستطيع أن تحـــس بهـــذه الانفعالات. ولقد اتخذ الكثير من العلماء هذا القرار، ولكن دون دليل يرتكـــزون عـــليه. وليـــس المقصـــود فى المقام الأول إنكار الانفعال، وإنما لأن الانفعالات تُعتبر شديدة الخطورة فى سياق الحديث العلمى ـــ فهو منجم من الذاتية ولا ينـــبغى الخوض فيه. ونتيجة لذلك، لا يجرؤ سوى العلماء البارزين المستعدين للمخاطرة بسمعتهم ومصداقيتهم على دخول هذه المنطقة. ولهذا قد يعتقد الكثير من العـــلماء بالفعل أن الحيوانات لديها انفعالات، ولكنهم ليسوا على استعداد للتصريح بهـــذا الاعـــتقاد وليســـوا على استعداد لدراسته أو تشجيع طلبتهم على بحثه. بل قد يقومـــون أيضاً بمهاجمة غيرهم من العلماء الذين يحاولون استخدام لغة الانفعالات. إن غير العلماء الذين يسعون إلى اكتساب مصداقية علمية عليهم أن يتوخوا الحذر، فقد قال أحد الإداريين فى أحد معاهد تدريب الحيوان المعروفة دولياً: "نحن لم نتخذ موقفـــاً ضـــد انفعـــالات الحيوان، لكنى واثق أنك إذا ما تحدثت إلى أى واحد منا، فســـيقول بالـــتأكيد الحيوانات لديها انفعالات، وإنما نحن كهيئة، حريصون على ألا نوصف بأننا نخلع على الحيوانات انفعالات غير موجودة".

المحرَّمات اللغوية

انطلاقاً من الاعتقاد بأن الأنسنة خطأ فادح أو خطيئة أو مرض، تزداد المحرمات فى الـــبحث بما فى ذلك القواعد التى تُفرض على استخدام اللغة. فالقرد لا يستطيع أن يكـــون غاضـــباً، إنه يظهر العدوان. ولا يشعر طائر الكركى بالعاطفة، بل هو يُظهـــر لياقـــة أو سلوكاً أبوياً. والفهد الصياد (شيتة) لا يخشى الأسد، بل هو يظهر ســـلوكاً هروبياً. ويتمشى مع ذلك، استخدام دى وال للفظ المصالحة فى الإشارة إلى قـــرود الشـــمبانزى الـــتى تتجمع بعد الإجماع على خطأ المعركة: ألن يكون أكثر

موضــوعية أن نقــول: "الاتصال الأول بعد الصراع"؟ ويستخدم هذا النمط اللغوى حرصـــاً على الموضوعية، حيث نجهد أنفسنا فى الهروب من التشابه والتماثل مع أى شعور بالألم عند مخلوق آخر رفضاً لذلك.

وفى مقابل هذه المحافظة العلمية، جادل عالم الأحياء جوليان هاكسلى بأن تصور المرء أنه فى موضع حيوان آخر، أمر مُبَرَّر علمياً وفى نفس الوقت مفيد للمعرفة. ولقد أدخل هاكسلى أحد أكثر السجلات خرقاً للعادة عن رابطة عميقة وعاطفية بين كائن بشرى ولبؤة طليقة تحت عنوان "حياة جون أدامسون البرية" كما يلي:

حيــن يترجم أناس مثل السيدة آدامسون (أو داروين فى هذا السياق) إشارات أحد الحيوانـــات أو حـــركاته باســتخدام مصـــطلحات علم النفس – كالغضب أو حب الاســتطلاع، والعطــف أو الغيرة – فإن عالم السلوك المتشدد يتهمهم بالأنسنة، أى بـــرؤية عقـــل الإنسان وهو يعمل من داخل جلد حيوان. فالمسألة ليست بالضرورة عـــلى هذا النحو. ذلك أن الدارس العلمى الحقيقى لسلوك الحيوان لابد أن يكون ذا عقـلية نشـــوئية. فما هو فى النهاية إلا حيوان ثديي. ولكى يقدم أكمل تفسير ممكن عـــليه أن يلجأ إلى لغة تنطبق على أمثاله من الثدييات كما تنطبق على إخوانه من البشـــر. ولابد لهذه اللغة أن تستخدم مصطلحات ذاتية ومصطلحات موضوعية فى الوقـــت ذاته. أى الخوف بالإضافة إلى الدافع للهروب، وحب الاستطلاع بالإضافة إلى الحافز إلى الاستكشاف، ورعاية الأم بكل مستوياتها ودرجاتها. وكل ما يصلح من مصطلحات سلوكية معقدة.

وحيـــن كـــتب هاكســـلى ذلك عام ١٩٦١، كانت حجته تتعارض مع تيار التفكير العلمى العام، ومازالت هكذا حتى اليوم. ويقدم لنا أليكس، الببغاء الأفريقى الرمادى مـــثالاً معاصـــراً حيث كان يدربه العلماء أو يختبرونه بالتنويع فيما يُطلب منه كى يتجنبوا أن يتذكر طلباً ما بالآخر، ولكى يبعدوا الملل عنه. وحين اعترض مراجعو أحـــد الأبحاث العلمية التى كانت قد قدمتها الباحثة أيرين ببربيرج للنشر فى إحدى الصـــحف العـــلمية ورفضـــوا استخدامها للفظة الملل، قالت معلقة: وجدت قاضياً يصـــرخ عاليـــاً فى وجهـــي. ولكنكم شاهدتم الطير، إنه ينظر إليكم وكأنه يقول: "ســـأذهب بعيـــداً". وهـــو يمضي! فقال القاضي، هذا لفظ أنسنة ليس له مجال فى صحيفة علمية ... ولكننى أستطيع أن أستخدم من مصطلحات رد الفعل ما تشاءون

وأزيد، ولكن فى النهاية سأجد أن الكثير من سلوكه من الصعب وصفه بطرق تخلو من الأنسنة.

ومـــا العيــب فى بحــث فكرة، تستند إلى الكثير من الملاحظات فى سياق بحث، ومفادها أن الببغاوات والبشر قد يشتركون فى القابلية للشعور بالملل؟

التسمية

لقــد كان من المحرمات لوقت طويل، فى دراسة سلوك الحيوان، أن يقوم العلماء بإطلاق أسماء على الحيوانات. وكانت الطريقة المستخدمة للتمييز بينها، أن يسموها مــثلاً الذكــر البالغ رقم ٣٦ أو الشاب الأخضر، ولقد قاوم معظم العاملين فى هذا الميــدان، عــبر الأجيــال، فكرة إطلاق أسماء على الحيوانات. وأنفقوا أيامهم فى مراقبة الحيوانات لتمييزها بأسماء لصالح البحث، مثل: ذو الأنف المنقط وذو الذيل الملطخ ومنهم من استخدم أسماء، مثل: فلو وفيجان أو كليو وفريدى ومايا.

وذهــب الــبعض إلى مذاهــب أكثر بعداً، فى أعمالهم المنشورة، من أجل تحديد شخصــية الحيوان، واستمر الآخرون فى استخدام الأسماء. ويقرر مونتجمرى أنه فى عــام ١٩٨١، رفــض عــالم الأنثروبولوجيا كولين تيرنبول أن يكتب ما يفيد استحسانه لكتاب ديانا فوسى (ملحوظات على غوريلات الجبال) لمجرد أنها أطلقت أســماء عــلى الغوريــلات. ومــن الأمور الأكثر شيوعاً ألا تطلق الأسماء على الحيوانــات فى المعامل، ربما لنفس السبب الذى يجعل المزارعين يتجنبون تسمية الحيوانــات الــتى يُنتظر ذبحها: فإطلاق أسماء العَلَم له أثر إنساني، ومن الصعب على المرء أن يقتل صديقاً.

ورفضــاً لــلرأى القائــل بأن تسمية الحيوانات تؤدى بالضرورة إلى خلع صفات إنســانية عليها، ذكرت سينثيا موس الباحثة فى مجال الأفيال، أن العكس هو الذى يحدث معها: فالناس هم الذين يذكرونها بالأفيال. "فحين أتعرَّف إلى فتاة تُسمى إيمى أو إميليا أو أليسون، ألمح بمخيلتى رأس تلك الفيلة وأذنيها".

لقــد تغيــر، تدريجيــاً، معيــار عدم استخدام الأسماء، خاصة بين دارسى الحياة البدائية، ربما نتيجة للأعمال البارزة التى قام بها الباحثون الذين أطلقوا أسماء على

الحيوانات التى كانت موضوعاً لدراستهم – واعترفوا بذلك. ولقد جادل بيكوف وجيمسون، وهما عالم بيولوجيا ميدانى وفيلسوف، بأن تسمية الحيوانات موضع الدراسة ليس أمراً مسموحاً به فحسب، وإنما هو شيء يُنصح به طالما كان التعارف يزيد من فرص التفهُّم. ومع ذلك، منذ عهد قريب لا يتجاوز عام ١٩٨٧، تلقى الباحثون الذين يدرسون الأفيال فى ناميبيا (حينذاك جنوب غرب أفريقية) من سلطات الحديقة تعليمات بأن يعطوا أرقاماً للحيوانات لأن الأسماء تعتبر مغالاة فى العاطفة. فإذا ما سلمنا بأن الأرقام أكثر تجريداً من الإنسانية عن الأسماء، فهل هذا يجعل الأمر أقرب؟ إذ يمكن أن يُعتبر إطلاق أسماء على الحيوانات، كالإشارة إلى شمبانزى بأنه فلو أو جيجان – عملية أنسنة، ولكن هذا يمكن أن يصح على الأرقام أيضاً. وليس من المتوقع أن يختلف تفكير قرود الشمبانزى فى نفسها عندما تسمى ف–٢ أو ج–٣، عنه عندما تسمى فلو أو جيجان.

ولا يعرف ما إذا كانت الحيوانات تطلق أسماء على نفسها أو تسمى بعضها البعض؛ ولكننا نعرف يقيناً أنها تتعرف على غيرها من الحيوانات كأفراد وتميز بينها. فما الأسماء إلا علامات يضعها البشر على هذه التمييزات. فقد تعرف حيوانات الدرفيل ذات الأنوف على بعضها البعض وتقلد صفيرها الخاص، وهو شيء قريب جداً من الاسم.

ولقد رصد العلماء ظاهرة مشابهة بين الطيور الحبيسة حين يُبعد رفيقها، ذلك أن الغداف (غراب أفحم) وطائر الدج (طائر مغرد) "كثيراً ما تصدر أصواتاً أو أنغاماً غنائية لم يكن يصدرها أساساً سوى الشريك أو الرفيق. وعند سماع تلك الأصوات، يعود الطائر الذى يحمل هذا الاسم على الفور، متى كان ذلك ممكناً" والقدرة على النداء على الرفيق باسم ما قد تكون أكثر فائدة للحيوانات التى تعيش فى الطبيعة. ومن الواضح أن بعض الحيوانات تستجيب استجابة عاطفية لتسميتها. ويكتب ميك تومكيز فى كتاب السنوات الأخيرة فى أحضان الطبيعة "إن السخرية من عادتى فى إطلاق أسماء على المخلوقات التى شاركتنى بيتى عبر السنين، لا تصدر إلا عن الجهلاء، وكذلك تسميتى للحيوانات الأخرى التى لم تعش معي. ولا يهم كثيراً ما هو هذا الاسم، طالما كان مقبولاً للأذن. وليس هناك أدنى شك فى أن الحيوان أو الطير ستختلف استجابته وسيصبح أكثر شعوراً بالثقة، عندما يُعطى اسماً".

فإذا كان إطلاق أسماء على الحيوانات التي يدرسها المرء يزيد من التآلف معها، فإن هذا قد يساعد على النفاذ إلى طبيعتها بدلاً من حجبها. إن الحقيقة الأساسية التي يتجاهلها الهجوم على الأنسنة هي أن الإنسان حيوان. فعلاقتنا بالحيوانات ليست تدريباً أدبياً على صياغة استعارات بليغة". وكما عبرت الفيلسوفة ميرى ميدجلى قائلة: "ليس معنى تفكير البعض فى الحيوان بسَفه ألا نعطى الموضوع الجدية التى يستحقها. فليس الحيوان أحد الأشياء التى يسلى بها الناس أنفسهم، مثل مضغ اللبان، والتزلُّج على الجليد، إنه المجموعة التى ينتمى الإنسان إليها. فنحن لسنا مجرد أشباه للحيوانات، بل نحن حيوانات". إن تصرف الناس على أساس أنهم مستوى آخر من الكائنات يختلف اختلافاً تاماً عن الحيوانات الأخرى، ينطوى على تجاهل للواقع الأساسي.

الأنسنة دون قصد حقيقى

إن أشد معارضى الأنسنة، يسلمون بأنها، غالباً تفيد فى التنبؤ بسلوك الحيوان. وعندما نتأمل فيما يشعر به الحيوان أو يفكر فيه، قد تزيد قدرتنا على الإسقاط والتنبؤ بما سيفعل، ومعدل نجاح هذه التخمينات يكون عالياً جداً. ورغم أن التنبؤ الناجح لسلوك الحيوان ليس إثباتاً على صحة تصورنا لتفكيره أو شعوره، إلا إنه اختبار قياسى للنظريات العلمية. وحتى جون س. كينيدى عالم سلوك الحيوان الذى يرى أن الأنسنة مرض، يتنازل مع ذلك بالاعتراف أنها طريقة مفيدة للتنبؤ بالسلوك. وهو يزعم أن الأنسنة تفيد لأن الحيوانات قد تطورت بحيث تسلك وكأنها قد فكرت وشعرت: "إن الانتخاب الطبيعي وليس اختيار الحيوان هو الذى يضمن "معقولية" سلوكه، على عكس ما نميل إلى القول به".

ومع أن كينيدى ينأى بنفسه عن "الافتراضات القائلة بأنها تحس وأن لديها نوايا... " إلا إنه يعترف بأن الاستبصار الوجداني(*) يمكن أن يكون ذا فائدة فى توليد الأسئلة والخروج بالتوقُّعات. وهكذا يمكن للمرء أن يتوقع أن أنثى الفهد الصياد، فى خوفها على صغارها، قد تجرى بالقرب من الأسد كى تبعده عنها. وفى ضوء صيغة كينيدي، لو أن أنثى الفهد الصياد فعلت ذلك، فهذا لا يعنى أنها تخشى على

(*) الاستبصار الوجداني: فهم سلوك الآخرين فى ضوء الخبرة الشخصية، Empathy.

حيـــاة أشبالها، وإنما يعنى أنها نشأت وتطورت بحيث تتصرف وكأنها تخشى على حيـــاة هـــذه الأشـــبال. ولا مانع من الاعتقاد بأن ترك مزيد من النسل هو السبب النهائى الذى يفسر سلوكها. ولكن لا يجوز التصور بأن الخوف على حياة الصغار هـــو السبب المباشر، وناهيك عن شعورها وهى ترى الأسد يمسك بهؤلاء الأشبال. فمـــا المستحيل فى معرفة ما تشعر به الحيوانات، مهما كان عدد الأدلة أو نوعها؟ ولمـــاذا تختـــلف الكيفية التى نعرف بها مشاعرها، عن الافتراضات الروتينية عن مشاعر الآخرين من البشر؟

الدفاع الأنوى(*)

مـــا لم تكن شخصاً آخر، لا توجد طريقة تعرف بها، عن يقين، ما يشعر به هذا الشخص، مع أن القليل من الناس، بمن فيهم الفلاسفة، هم الذين يفهمون الأنا (وهى الاعـــتقاد بـــأن الذات لا يمكنها معرفة أى شيء سوى الذات) على هذا النحو. ولا يسترشـــد الناس بالألفاظ فقط لمعرفة مشاعر الآخرين، وإنما يلاحظون السلوك ــ من إيماءات وتعبيرات على الوجه وفى العينين ــ ونمط الشخصية وتوافق جوانبها عـــبر الـــزمن. وتتأســـس الاســـتنتاجات على هذا، وتضع الأساس لقرارات الحياة اليوميـــة. فـــنحن نحب أناساً بعينهم، ونكره آخرين، ونثق فى البعض، كما نخشى الـــبعض الآخر، ونتصرف انطلاقاً من هذا الأساس. إن الاعتقاد بوجود العواطف لـــدى الآخـــرين ضرورى للحياة فى مجتمع إنساني. ويكتب ن. ك. همفرى يقول: "عـــلى حـــد علمى لا يوجد إنسان غيرى أياً كان، مر فى أى وقت بشعور مطابق تماماً لشعورى عند الجوع، ولكن مفهوم الجوع، المستمد من خبرتى الذاتية، يعيننى عـــلى فهـــم ســـلوك تناول الطعام عند غيري". وبخصوص مزاعم البشر بأنهم لا يعـــرفون ألـــم الحيوان، تحدثت ميدجلى عن الاتجاه الأنوى المفرط: "لو أن إحدى القائمـــات بالتعذيب اعتذرت عن أفعالها بادّعائها الجهل بالألم، على أساس أن أحداً لا يـــدرى شيئاً عن الأحاسيس الذاتية لغيره، فلن تستطيع بذلك أن تقنع أى جمهور مـــن المســـتمعين من البشر. وليس هناك ما يجبر جمهور العلماء على البحث عن

(*) الأنوي: أى لا يعرف الإنسان سوى نفسه ولا وجود لشيء غير الأنا، وأرى إمكانية استخدام هذا اللفظ.

استثناء من هذه القاعدة ..." ثم تحدد أساس الافتراضات البشرية بالتفوق الطبيعى الكامنة فى فكر الشخص الأنوي، حين تقتبس جزءاً من "فلسفة الأخلاق" التى كتبها الفيلسوف الهولندى بنيدكت دى سبينوزا فى القرن السابع عشر حين قال: "من الواضح أن القانون الذى يمنع ذبح الحيوانات ليس مبنياً على تفكير سليم بقدر ما هو مبنى على الخرافة الباطنة والشفقة الأنثوية. كما أن السعى العقلى وراء كل ما ينفعنا يعلمنا باستمرار ضرورة المشاركة مع إخوتنا فى البشرية، ولكن ليس مع الوحوش أو الأشياء التى تختلف طبيعتها عنا، بحيث تكون حقوقنا عليها هى نفس حقوقها علينا. كلا، فكما أن حق كل شخص تحدده طبيعته، أو سلطته، فإن حقوق البشر على الحيوان أعظم بكثير من حقوق الحيوان على البشر. ومع ذلك، فأنا لا أنكر أن الحيوانات تشعر، وما أنكره هو عدم السماح لنا بالاستفادة من تفوقنا واستخدام الحيوانات ومعاملتها بأفضل طريقة تلائمنا، لأن طبيعتها تختلف عن طبيعتنا كما أن انفعالاتها بالطبع مختلفة عن انفعالات البشر".

ولا يتعرض سبينوزا لمناقشة الكيفية التى عرف بها أن انفعالات الحيوان تختلف عن انفعالات البشر، كما لا يبين كيف يبرر هذا استغلال البشر لها وقتلهم وسلبهم إياها. إنه يقول ببساطة نحن أقوى منها. وإن القوة تصنع الحق. ويصل دفاع خوزيه أورتيجا عن القنص إلى نفس النتيجة، حين يصر على أن الضحية هى التى تطلب ذلك:

(فالقنص) هو علاقة تفرضها بعض الحيوانات على الإنسان، إلى حد أن عدم صيدها يتطلب تدخل إرادتنا الواعية المتعمدة ... فقبل أن يتبع القناص، أى قناص، الحيوانات تشعر داخل أنفسها أنها عُرضة للافتراس. وتشكل وجودها بأكمله على هذه الصورة. وهكذا فهى تحول أى شخص عادى يتحرك نحوها إلى قناص. والاستجابة الوحيدة المناسبة لكائن يعيش تحت هوس تجنب الأسر هى محاولة الإمساك به(*). وتكشف هذه الأنسنة الوهمية المبنية، بدورها، على نموذج بشري، وهمى أيضاً افتراضات ومصالح عميقة خفية. وتشبه مقدمة أورتيجا الموحية – بأن الكائنات التى يتم قنصها هى التى تريد ذلك – منطق الاغتصاب إلى حد كبير. فمن

(*) نص كلام أورتيجا.

الأعذار الشائعة عند المغتصبين أن النساء يطلبن الاغتصاب، ومن ثَمَّ تسعين وتتسببن فى انتهاكهن، ولا سيما حينما يحاولن بقوة تجنب ذلك. وثَمَّة دفاع مماثل عن الصيادين، هنا، فى سياق تبرير أَسْر الحيوانات بتسمية فرارها من الأسر "هوساً"؛ بمعنى أنها شديدة الرغبة فيما تفر منه بكل قوة.

وقد تتداخل أشكال أبسط من الأنسنة مع الملاحظة فتشوه الفهم. حيث كتب عالم الطبيعة السويدى فى القرن الثامن عشر، كارولوس لينيوس والذى وضع نظام تصنيف الكائنات الحية، عن الضفادع: "إن هذه الحيوانات البغيضة الكريهة ... تثير الاشمئزاز بسبب أجسامها الباردة، ولونها الشاحب، وهياكلها الغضروفية وجلدها القذر، واتجاهها العنيف وعيونها الحاسبة ورائحتها النفّاذة، وصوتها الخشن، وأماكن سكناها القذرة، وسُمها الشنيع". وجميع هذه الألفاظ انفعالية تشير إلى انفعالات شعر بها لينيوس حين رأى ضفدعاً. وما هى إلا إسقاط صرف. فليست "حاسبة" اصطلاحاً علمياً يمكن أن نصف به عين ضفدع. فهذه قطعة أدبية ــ ولا تصف إلا القليل فى العالم الطبيعي؛ ولكنها تنقل بقوة حالة العالم الذاتية.

خلع أدوار الرجل والمرأة على ذكر الحيوان وأنثاه

وثمة مشكلة أخرى من مشاكل الأنسنة وهى آراء البشر فى الجنس ــ وهى غالباً خاطئة كآراء البشر فى الحيوان ــ ورغم هذا، فإن هذه الآراء امتدت إلى الحيوانات. فأحياناً ينتظر الناس من ذكر الحيوان أن يقود القطيع أو أن يكون مسيطراً أو أكثر عدوانية حتى فى الأنواع التى يختلف فيها الواقع عن ذلك. إذ إن أحد البرامج التليفزيونية عن الطبيعة صور عائلة من الفهد الصياد فى الحديقة العامة الوطنية بتنزانيا. وكان الذكر الصغير يُدْعى تابو والأنثى تامو ومعنى هذين الاسمين باللغة السواحيلية المشكلة والعذوبة. والمرء يتوقع من العذوبة أشياء مختلفة عما يتوقعه من المشكلة. ومن المؤكد أن جملة "المشكلة تدور حول خيمتي" أكثر إيحاءً بالتهديد من جملة "العذوبة تتجول حول خيمتي".

ويميل علم الاجتماع إلى تشجيع أفكار الرجل المتحاملة على المرأة بالإصرار على أن هذه الأفكار سنة "الطبيعة"، أى أنها شائعة بين أعضاء مملكة الحيوان.

وكما ذكرنا سابقاً، يمكن للمرء أن يثبت أى شيء تقريباً عن طريق اختياره المقصود لفصيلة الحيوان، وليس من قبيل المصادفة أن المجتمع الإنسانى ظل لوقت طويل يُقارَن بمجتمع قرد الرباح (وهو قرد أفريقى وأسيوى ضخم قصير الذيل) رغم أن قرود الرباح أكثر ميلاً إلى تعدد الزوجات عن البشر بكثير، ورغم أنها لا تكوِّن ثنائيات جنسية فلا تكتفى بأنثى واحدة، ويبدو أن الفكرة "هى فرض قدر أكبر من عدم المساواة بين الجنسين على إناث البشر؛ وذلك عن طريق إقحام قالب يفترض أنه طبيعي".

ومن المشاكل الخطيرة التى تنشأ عن عقد المقارنات بين الحيوانات والبشر عدم كفاية معلوماتنا في الوقت الحاضر عن حياة الحيوان، وبخاصة فى المسائل الصعبة مثل دور التراث الثقافى فى تعلم الحيوان فى الطبيعة. فالأفيال، مثلاً، تتعلم من كبارها من الذى يجب أن تخشاه من البشر على أساس من تاريخ القطيع معهم. ويصف ميك تومكيز مشاهدته لنسر صغير فى الطبيعة وهو يتعلم كيف يطير ويقتنص ويقتل عن طريق العرض المتكرر لهذا من جانب والده، الذى كان من الواضح أنه يُبين للصغير ماذا يفعل بدلاً من الانشغال هو نفسه فى البحث عن فريسة. وهذا دليل على أن النسر الصغير لم يولد عالماً بذلك. إنه شيء ينتقل بالتعلُّم، أى عن طريق الثقافة. إنه شيء طبيعي، غير أنه يُكتسب بالتعلُّم، وكونه يُكتسب لا يعنى أنه غير طبيعي. واستعمال كلمة طبيعى لوصف الكيفية التى يفترس بها النسر الصغير يعنى ببساطة أن حيواناً شوهد وهو يفعل ذلك، والتمييز بين ما هو كامن وطبيعى من ناحية، وما هو ثقافى ومكتسب بالتعلم من ناحية أخرى، يفقد الكثير من قوته فى ضوء أحدث المشاهدات عما تُعلمه الحيوانات لبعضها البعض.

إن الدوران فى فلك الإنسان (أى تفسير كل ظاهرة فى الكون من زاوية إنسانية) هو بالفعل المشكلة الحقيقية الكامنة وراء الكثير من الانتقادات التى تُوجَّه للأنسنة. فلقد أدى وضع البشر فى مركز كل تفسير، أو ملاحظة، واهتمام وكذلك وضع الرجال المسيطرين فى وسط كل ذلك، إلى بعض أسوأ الأخطاء فى العلم سواء فى الفلك، أو علم النفس أو سلوك الحيوان. فالدوران فى فلك الإنسان يحول الحيوانات إلى أشكال أدنى مرتبة منه، وينكر ما هى عليه فى الواقع. فهو يعكس رغبة

محمومة لدى البشر فى أن يفرقوا بينهم وبين الحيوانات، لجعلها تأتى بعدهم فى الترتيب فرضاً لكى يحتفظ الإنسان بمكانه فى قمة الهرم الارتقائي، وسلسلة الغذاء. ففكرة أن الحيوانات هى كائنات أخرى مختلفة كليةً عن البشر، رغم الاشتراك فى الجد تحيد عن المنطق أكثر من فكرة أنها تشبهنا.

وحتى لو كانت لا تشبهنا، على الإطلاق. فهذا لا يجعلنا نتجنب دراستها لذاتها. ولقد أثار هذه النقطة ج. إي. ر. ستادون، حين قال: "يجب على علم النفس، كعلم من العلوم الأساسية، أن يتناول السلوك الذكى والتكيُّفي، أينما وُجد، بحيث يمكن دراسة الحيوانات فى حد ذاتها، لما يمكن أن نتعلمه منها عن طبيعة الذكاء وتطوره وليس كبدائل للإنسان أو آلات لحل المشكلات البشرية" وتبقى المعرفة التى نحصل عليها من مثل هذه الدراسة معرفة، سواء أسهمت أو لم تسهم فى حل مشكلات الإنسان.

الحيوانات فى صورة قديسين وأبطال

ومن بين الأنواع الأخرى من الدوران فى فلك الإنسان، إعطاء صورة مثالية للحيوانات رغم أن هذا النمط أقل تكراراً من الحطِّ من شأنها وتصويرها كشياطين. ذلك أن الحيوانات لديها جميع الفضائل التى يتطلع إليها البشر، فالاعتقاد بأن الحيوانات بريئة من جميع عيوبنا يُعدُّ دوراناً فى فلك الإنسان، لأن جوهر هذا الاعتقاد ينطوى على التأثر الشديد بسبل الإنسان الخبيثة والمقيتة التى يُستعان بالحيوانات لإلقاء الضوء عليها. وفى هذه الوصفة العاطفية، يُعتبر عالَم الطبيعة ساحة بلا حرب، ولا جرائم قتل، ولا اغتصاب، ولا إدمان، فالحيوانات لا تكذب أبداً ولا تغش ولا تسرق. والواقع يُكذب هذا الرأي. إذ لوحظ الخداع بين الحيوانات من الأفيال إلى الثعالب القطبية. والنمل يمتلك عبيداً. وقد تهاجم قرود الشمبانزى غيرها من الفرق من نفس النوع دون استفزاز وبنيَّة القتل. وتحارب جماعات من حيوان النمس القزم غيرها من الجماعات من أجل الأرض. ولقد وثَّق فريق بحث بقيادة جين جودال حالة سفَّاحى الشمبانزى "بوم" و"بلشن" اللذين قتلا وأكلا أطفال قرود شمبانزى آخر ضمن جماعتهما توثيقاً جيداً. كما شوهد إنسان الغابة (من أعلى أنواع القرِدَة) يغتصب غيره من نفس النوع. وحين ينضم ذكور الأسود فى مجموعة، فغالباً ما يقتل بعضها الأشبال الصغيرة التى هى صغار غيرها من

الأســـود. كما شوهد صغار الضباع والثعالب والبوم تقتل أقربائها الصغار وتأكلها. فليس كل شيء فى عملية الارتقاء يسير بين أبناء عمومتنا على هوى البشر. وعلى المـــرء أن يتعاطف مع رد فعل جين جودال على معاملة بعض الشمبانزى لحيوان مُسنّ، أقدامه مصابة بالشلل تماماً، وكان وحيداً منعزلاً وأحياناً يهاجمه أولئك الذين مـــازالوا أصــحاء. حيث أخذ يجر نفسه حتى اعتلى قمة إحدى الأشجار، أملاً فى جذب أصحاب كانوا ينظفون أنفسهم هناك، كى يقوموا بتنظيفه.

ومـــدَّ يـــداً لهم بصوت ينمّ عن البهجة على سبيل التحية. غير أنهم، حتى قبل أن يحـــدث أى اتصال تأرجحوا بسرعة مبتعدين، ودون نظرة ولو خاطفة إلى الخلف، بدأوا فى تنظيف أجسادهم فى الجانب البعيد من الشجرة. وجلس جريجور، العجوز بلا حراك، لمدة دقيقتين وهو ينظر نحوهم. ثم أنزل نفسه بجهد جهيد إلى الأرض. وبينما راقبته يجلس هناك وحيداً، اختلت نظرتى للقردة، وحين نظرت إلى من كانوا فوق الشجرة أصبحت أكره الشمبانزى أكثر مما مضى فى حياتى أو بعد ذلك. فمن الصعب النظر بطريقة رومانسية إلى فعل قبيح على هذا النحو.

لقـــد مر وقت طويل منذ كان كل شخص يطلق على الأسد ملك الحيوانات (فيما عدا فى أفلام والت ديزني)، غير أن الناس أخذوا حديثاً فى النظر بشكل رومانسى إلى الدرافيـــل واعتبارها أكثر ذكاءً وأكثر عطفاً ونبلاً، وكذلك أكثر ميلاً إلى السلم، وأفضل من البشر فى الحياة فى جماعات. وهذا يُعتبر تجاهلاً للحقيقة الموثّقة توثيقاً جيـــداً، القائلة بأن الدرافيل تستطيع أن تكون عدوانية تماماً. ولقد اكتُشف حديثاً أن بعـــض الدرافيـــل تقوم بالاغتصاب من آنٍ لآخر. ولكن قسوة الحيوان لا ترقى إلى مستوى قسوة البشر. إذ يُستبعد أن ينافس الاغتصاب بين الدرافيل الأرقام البشرية. ذلـــك أن إحدى الإحصاءات العشوائية الجديرة بالاحترام التى أُجريت عام ١٩٧٢، وجـــدت تقريباً أن نصف عدد النساء فى مدينة واحدة بالولايات المتحدة كُنّ ضحايا للاغتصـــاب أو محاولـــة الاغتصاب على الأقل مرة فى حياتهن. وقد تُساء معاملة الصغار نادراً فى الطبيعة. ولكن لا يوجد ما يُقارَن بما يزيد عن طفلة بين كل ثلاثة أطفال أُسيء إليهن جنسياً فى طفولتهن، كما تُبين دراسة أمريكية مهمة أجراها نفس الباحث فى عام ١٩٨٣.

الحَيْوَنة

إذا كـــان البشـــر قادرينَ على إساءة فهم الحيوانات بافتراض أنها أقرب شبهاً منا أكـــثر مـــن حقيقة الأمر، فهل من الممكن، أيضاً، للحيوانات أن تُسقِط عن طريق الخطـــأ مشـــاعرها علينا؟ أى هل تقترف الحيوانات ما يمكن تسميته بالحَيْوَنة بخلع صـــفاتها عـــلى البشـــر؟ فالقطـــة التى تحضر لإنسان قرابين من القوارض الميتة والســـحالى والطيور يوماً بعد يوم، بغض النظر عن تلقّى هذه الأشياء ببغض، إنما ترتكب الحيونة. ذلك أن هذا هو المعادل لتقديم الحلوى لقطة، كما يفعل الأطفال فى بعـــض الأحيان. إذ تكتب إليزابيث مارشال توماس فى كتاب الحياة السرية للكلاب: "حيـــن يهـــدد كـــلب يحمل عظمة إنساناً يراقبه، فإن الكلب يفترض بالفعل أن هذا الشـــخص يريد ذلك الشيء النتن المحمل بالقذارة، وهو لذلك يطبق قيم الكلاب، أو الكَلْبَـــنة". ولو قُدر لكلب أن يكتب تاريخ الجنس البشري، فإن بعض الصفات القيّمة ستُنفى عنا، تماماً كما يمكن أن يترك، بلا شك، ما نكتبه من تاريخ حضارة الحيوان الكثير من إنجازاتها الواضحة.

الفصل الثالث

الخوف والأمل والأحلام المفزعة

مـــن المســـتبعد تماماً أن يعترف علماء سلوك الحيوان بأن الرعب يمكن أن يزور الحيوانـــات فى أحلامها. غير أن تقريراً من دار الأفيال "الأيتام" يتحدث عن صغار الأفيال الأفريقية التى رأت الصيادين الذين يعملون بشكل غير قانوني، وهم يقتلون عائلـــتها وشاهدت الأنياب وهى تُفصل عن أجسادها. وإن هذه الحيوانات الصغيرة تســـتيقظ وتصرخ فى منتصف الليل. فهل يوجد أى شيء آخر يمكن أن يسبب هذه المخاوف الليلية إلا الذكريات فى كوابيس ناتجة عن صدمة عميقة؟

لقـــد أنفـــق عـــالم الأحياء الطبيعية البرية ليون روجرز عقوداً وهو يدرس الدببة الســـوداء، متتـــبعاً إياها خلال الغابات والمستنقعات. وتعلم كطالب فى الجامعة ما تعـــلمه عن الدببة السوداء من أستاذه ألبرت أريكسون. وفى أحد الأيام، عندما كانا يحـــاولان أخـــذ عيـــنة من الدم من دب برى تحت التخدير، استيقظ فجأة. ثم هاجم أريكســـون. ومـــا أدهـــش روجرز أن أريكسون أيضاً هاجمه. فاستدار الدب إلى روجـــرز. فقـــال له أريكسون: "هاجمه" فانقض روجرز، طائعاً، على الدب، الذى اســـتدار وفر بعيداً. ويقول روجرز: "كنت أتعلم أشياءً من شأنها أن تساعدنى على تفسير أفعال الدببة، فى حدود خوفها هى وليس فى حدود خوفي".

فمن بين الأخطاء التى يمكن أن تؤدى الأنسنة إليها هى أن نرى الدببة من خلال انفعالاتـــنا: فنحن نخشاها لذا نفهمها على أنها غاضبة وعدوانية. والخطأ المساوى العكســـى الـــذى يؤدى إليه الخوف من الأنسنة هو أن نرفض الاعتراف بأن الدببة

تحس بانفعالاتها الخاصة. لذا تعلّم روجرز أن يراقب الدببة فى حدود هذه الانفعالات. مكتشفاً أن الدببة أنفسها غالباً ما تكون خائفة. فتعلم ما يخيفها وتعلم كذلك كيف لا يخيفها. "ما إن بدأت فى النظر إلى الدببة فى حدود خوفها، وفسرت كل الأشياء التى كانت ترعبني، وفسرتها فى حدود خوف الدب، حتى أصبح من اليسير كسب ثقتها والبدء فى السير معها عن قرب شديد والنوم معها، وفعل جميع الأشياء التى عليك أن تفعلها كي ترى كيف يعيش الحيوان بشكل واقعى داخل عالمه". لقد تعلم روجرز أن يفهم الدببة البرية فهماً جعله يستلقى ليلاً على بعد بضع أقدام من عرينها، بل ويمسك بصغارها بيديه. وحين سُئل ما إذا كان العلماء يتجنبون عادة استخدام كلمات مثل الخوف والثقة فى وصف سلوك الحيوان، أجاب: "بلى، ولكنى أعتقد أننا نضل أكثر بسبب تجاهلنا لتلك الانفعالات، مما يحدث لو أننا أدخلناها فى اعتبارنا. فهذه انفعالات أساسية يشترك فيها الإنسان والحيوان".

ويبين وصفه لدب فزع فجأة كيف يتعلم البشر أن "يقرأوا" الدببة: "يمكنك أن تكون على مسافة قريبة جداً من دب وتجعل الأمور هادئة، إلى أن تحدث ضوضاءً ضئيلة غير محددة المصدر من مكان بعيد جداً فى الغابة. حينئذ تتوتر أعصاب الدب فجأة، ويصبح فى حالة انزعاج. فحين يحدث أى شيء يجعل الدب يأخذ نفساً عميقاً، وهى أول علامات الخوف لديه، ثم ترى أذنيه ترتفع، تحدثك نفسك "أنه يحسن أن تفسح للدب قليلاً، فلا تسد عليه الطريق، لأن هناك احتمالاً كبيراً أنه سوف يسحقك" ويقول روجرز بمرح: "إنه يشعر بالخوف من شيء آخر ويريد منك براحاً وسكينة وراحة كى يتعامل مع ذلك الشيء. وبعد أن أخبرتنى الدببة بلغة لا لبس فيها أن أبتعد فى ذلك الموقف، سرعان ما تعلمت".

الانفعال الأساسى

من بين جميع الانفعالات التى قد تشعر بها الحيوانات، يُعتبر الخوف هو الانفعال الذى يقبله المرتابون كما أنه من الانفعالات القليلة التى يبحث فيها علم النفس المقارَن. وأحد الأسباب فى ذلك هو أن الشعور بالخوف له ميزة ارتقائية واضحة. إذ يمكن أن يفيد الخوف كآلية لإطلاق السلوك الدفاعي. لذا، فإن قيمته لحفظ النوع واضحة لأى كائن عضوى قادر على الدفاع. فالخوف يمكن أن يدفع الحيوانات إلى الجري، والغطس، والاختفاء والصراخ طلباً للنجدة وإغلاق قواقعها ونفش ريشها

أو إبـــراز أنيابها. ولو أن حيواناً كان عاجزاً عن الدفاع، فلن يجلب الخوف له أية فائدة. غير أن تأثير الخوف معروف أيضاً بصلته بالبقاء؛ ذلك أن أفعال شخص أو حيـــوان مـــرتعد ليســت دائماً هي الأكثر حكمة. كما يحدث حين يجرى جندى فى ميدان القتال مرتعداً إلى داخل مرمى النيران.

كمـــا أن من السهل على الناس أن يعتقدوا أن الحيوانات تشعر بالخوف لأن هذا الانفعـــال هـــو مـــا يستخلصـــه البشـــر، غالـــباً، من الحيوانات، بل قد يستمتعون باستخلاصه. فساكن المدينة الذى لا تزيد خبرته عن زيارة حديقة الحيوان، لن يعدم أن يكـــون قد أخاف الطيور فجعلها تطير وهشّ الحشرات بعيداً، ورأى القطط تفر مـــن الكلاب، والكلاب تفر من الكلاب الأكبر منها وليس هناك ما يدعوه للشك فى أن الحيوانات تحس بالخوف.

وواضح أن الشعور بالخوف لا يحتاج إلى عقلية ذكية.فالعقل قد يُعينَ المرء على تـــبيُّن أســـباب أدق وأعمـــق تدعو للخوف، غير أن من هم أقل ذكاءً، رغم ذلك، يخـــافون أشـــياء كـــثيرة. وأولئك الذين يريدون الاعتقاد بوجود هُوَّة شاسعة تفصل الـــناس عـــن غيـــرهم من الحيوانات نادراً ما يخشون من الاعتقاد بأن الحيوانات تخاف. فقد لا يُسمى ذلك انفعالاً فى الحيوانات، على أية حال. وهكذا، فبينما تسمى المعاجم الخوف انفعالاً، قد يفضل علماء سلوك الحيوان تعريف الخوف الذى يظهر فى معجـــم أوكســـفورد لســـلوك الحيوان(*): "حافز تثيره بعض المثيرات الخاصة، وعادة ما يتسبب فى سلوك دفاعى أو الهروب".

صورة الذعر

مـــن السهل اقتفاء الآثار البيولوجية للخوف فى أى معمل. (فى الحقيقة ما السبب الـــذى يجعل حيواناً لا يخاف داخل المعمل؟) ذلك أن إحداث نبضة كهربية صغيرة في لوزة الحلق عند قطة (وهى جزء من الجهاز الطرفى بالمخ) يسبب التأهب، أما إذا أُحدثت نبضة أكبر فإنها ستؤدى إلى الأفعال والتعبيرات المصاحبة للذعر. ويفقد الفأر الذى أُزيلت منه اللوزة الخوف من القطط، بل يسير نحو إحداها إذا رآها. لقد قـــام الباحـــثون فى جامعة نيويورك بتدريب الفئران على توقّع صدمة كهربية حين

(*) The Oxford Companion to Animal Behaviour

تسمع نغمة، وأدهشهم أن اكتشفوا أن النبضات العصبية عند الفئران التى تعلمت أن تسمع النغمة كانت تذهب من الأذن إلى اللوزة بدلاً من أن تمر بالطريق المعتاد خلال القشرة السمعية. النظرية هي أن اللوزة تضيف أهمية انفعالية على بعض أشكال التعليم. وتبين دراسات أُجريت على الغدة الصمّاء أن هرمونات مثل الأبينيفرين والنوريبينفرين تساعد على تمرير رسائل الخوف. ويقول علماء الوراثة، إنه من بين كل عشرة أجيال من أصل واحد، يمكن إنتاج نوعين من الفئران من نفس الأصل، أحدهما يكون مصاباً بالخوف والآخر هادئاً.

غير أنه حتى علماء الأحياء يسلمون بأن الأعراض الفسيولوجية وحدها لا تعطى وصفا كاملاً للخوف. فلقد أعطى الفيلسوف أنتونى كينى المثل لشخص يخشى الأماكن المرتفعة ويتحاشاها بكل حرص، بمقارنته بمتسلّق للجبال جريء نسبيا. فقد نجح الشخص الذى يتجنب الأماكن المرتفعة فى فعل ذلك، ونادراً ما تظهر علامات فسيولوجية تدل على الخوف. أما متسلق المرتفعات الذى يتعرض مرات أكثر للمخاطرة، فيمكن أن تظهر عليه علامات كهذه مرات أكثر، ولكن لا يمكن القول إنه أكثر خوفاً من الأماكن المرتفعة. ولكن، قد يكون مفهوم "الخوف المضاد counter phobia" الذى توصل إليه المحلل النفسى أوتو فينيكيل ملائما جزئيا فى هذا الصدد. إذ تحدث عن أناس يسعون جهدهم إلى نفس الشيء الذى لا يخشون أكثر منه لأن الخوف شيء لا شعوري. وهكذا، فإن بعض متسلقى الجبال على الأقل يخشون المرتفعات ولكنهم لا يستطيعون الاعتراف بهذا الخوف لأنفسهم. ويُعدُّ سلوكهم نوعاً من المبالغة فى التعويض العميق، نوعا من خداع الذات الداخلى يُقصد منه جعل الشيء موضوع الخوف والانجذاب فى نفس الوقت مرنيا دائما. فهل هذا أشبه بالإكراه compulsion المعروف على تكرار الصدمات، سعيا إلى التغلب عليها؟

وقد لا يكون الخوف المضاد قاصرا على البشر. إذ تظهر الكثير من الحيوانات من الأنواع المفترَسة، اهتماما قائماً بموت حيوانات أخرى مثلها. وحين كان هانز كروك يدرس الضباع، فى سرنجيتى فوجئ من تكرار مراقبة حيوان النيتل(*)

(*) حيوان أفريقى برأس كالثور وقرنين معقوفين وذيل طويل.

والظباء التى انفصلت عن قطعانها لمشاهدة الضباع او غيرها من الضوارى وهى تفترس الحيوانات عن كثب، ويسمى هذا "سلوك الانجذاب" Behaviour of fascination، حيث الشعور بالانجذاب ولو كانت الضحية من نوع آخر. كما تبدى الحيوانات المفترسة اهتماما بالضوارى ويحلو لها أن تراقبها فى أحوالها العادية، بل وتتبعها. وحدث أن اندفع الفهد الصياد فجأة نحو جمهرة من الظباء كانت تراقبه وأمسك بإحداها، ولذا فان هذا السلوك له مخاطره. ويظن كروك أن هذا السلوك الخطر ينشر ميزة انتقائية إما لأنه مفيد لنوع الحيوانات المفترسة أن تراقب الضواري، فتمنع الكمائن، أو لأنها تتعلم معلومات قيّمة عن الضواري. إذ كتب ف. فريزر فى دراسته الكلاسيكية عن الغزال الأحمر قائلا: "من الملاحَظ على هذا الغزال حرصه على عدم السماح لأى شيء أو شخص بأن يغيب عن نظره إذا ظن أنه مصدر للخطر". وقد يكون ذلك أيضاً، مثلاً على ظاهرة "الخوف المضاد".

لقد قام داروين فى كتابه "التعبير عن الانفعالات فى الحيوان والإنسان" بدراسة منهجية للكيفية التى تبدو بها الحيوانات حين تكون خائفة. ووجد أن بعض أو جميع العلامات الآتية قد تظهر فى الحيوان أو الإنسان: ينفتح الفم والأعين وتتقلب العيون، ويدق القلب بسرعة، وينتصب الشعر، وترتعش العضلات، وتصطك الأسنان، وترتخى العضلات القابضة. وقد يتجمد المخلوق المذعور فى مكانه أو ينكمش. وتصدق هذه القواعد على مجموعة كبيرة من الأنواع. ومن المدهش، نسبيا، أن تعلم أن الدرافيل حين تكون مرتعدة، تصطك أسنانها ببعض ويظهر بياض أعينها أو أن قدم الغوريلا المذعورة ترتعش. فهذا السلوك المألوف فى الحيوانات البرية يذكرنا بقرابتها فى النهاية لنا. إذ كتب ميلفين كونر: "نحن بيولوجيا على وجه الدقة، وليس المجاز نشبه الأرنب، حين يأكل بنهم العشب الرطب فى الضوء الذى يسبق الفجر حيث تنتشر الشبورة، ثم يمضغ وصغيره يتشممه وقد بلله الندى وفجأة ينظر حوله بعنف".

وثمة أعراض أخرى للخوف قد تخص نوعاً بذاته أكثر من غيره.

ويقرر عالم الأحياء دوجلاس تشادويك، أن ماعز الجبل تفرد أذنيها وتسحب لسانها خلف شفتيها وتنكمش وترفع ذيلها. ويذكر تشادويك أن صغير هذا الحيوان

يــرفع ذيلـــه حين يريد إثارة الانتباه أو الرضاعة. ويستمر البالغ فى رفع ذيله حين يكـــون خائفاً. أما إذا كان الذيل مرفوعاً جزئياً، فيقول تشادويك إن هذا معناه: "إنى قلق" والذيل المنتصب كلياً يعني: "أنى مرعوب" أو قد يعنى "ساعدينى يا أمي".

ويلاحظ مربو الطيور وكذلك دى وال أن الببغاوات الرمادية الخائفة من وجودها فى محيــط جديــد قد لا تكتفى بالرفرفة بجناحيها بعنف لدى اقتراب البشر، وإنما تخفى رأسها فى ركن بعيد. ويعتقد دى وال، أن هذه الطيور ربما تظن، أن أحداً لن يــراها حيــن تفعل ذلك مثلها مثل النعام الذى قيل مرة إنه يخفى رأسه فى الرمل. غيــر أن هذا قد يكون من قبيل المبالغة فى تقدير حجم حمق الطيور. فالبشر الذين يغطون أعينهم أو يديرون وجوههم بعيداً عن المناظر المرعبة لا يعتقدون أن أحداً لا يــراهم. فربما كانت الببغاوات، مثل البشر، لا تتحمل منظراً ما يخيفها، أو أنها تحاول أن تمنع مشاعرها من أن تجتاحها.

ماذا يخيف الحيوانات

إن بعــض الأشــياء التى تخيف الخيل مفهومة جيداً، وذلك راجع إلى أن الناس عاشــوا وتعامــلوا معها لفترات طويلة. فهى قد تحس بالخطر إذا أحست بحركات غيــر مألوفــة أو سمعت كثيراً من الضوضاء أو شمت أية روائح، بالإضافة إلى الأخطـــار الواضحة مثل الضواري. كما أن الخيل غالباً ما تخشى من التغيير الذى يحــدث فى بيئــتها. بــل يبدو أن الخيول الجفولة تنزعج من تغيرات مُتخيَّلة: فقد يتسبب شيء مر به الحصان عدداً لا يحصى من المرات فى حرنه رغم عدم وجود أى تغييــر. كمـــا أن الشيء الذى يخيف أحد الخيول قد لا يؤثر إطلاقاً فى حصان آخــر، كما أن بعض الخيول نادراً ما تُظهر الخوف. وقد تخشى الخيول أيضاً من الذهـــاب إلى أمـــاكن لا تنمّ رائحتها عن وجود خيول بها من قبل. والحصان الذى يسعده أن يجر عربة خيل قد يرفض، أحياناً، أن يربط بعربة جديدة تماماً عليه.

وكذلـــك يـــلعب التاريخ الشخصى دوراً فى أصل الخوف بالنسبة لحيوان معين، يمكنه أن يتعلم أن يخشى شيئاً لم يكن يخشاه من قبل. ويُعبر عن هذا فى المعتقدات الشــائعة، فمــثلاً إذا التقطت عصا كى تخرج كلباً من مكان ما، تجده ينكمش خوفاً بــدلاً من ذلك، فإن أول فكرة تطرأ على ذهنك أن هذا الكلب ربما ضُرب من قبل.

وتكوّن الحيوانات تداعيات من الخوف مع أشياء قد أخافتها في الماضي. ويمكن إثارة الذكريات عن طريق التشابه، بل ربما عن طريق أفكار عابرة.

كما تتعلم الحيوانات الخوف لتتجنب الألم. ففئران المعامل تخشى الألم، وتتعلم الخوف من تلقّي صدمة كهربائية. والقيوط(*) يتعلم أن يخشى من الإصابة بكمية من شوك القنفذ الشائك في وجهه. وتتعلم القردة أن السقطة من مكان عال مؤلمة.

الخوف والدفاع عن النفس

من المنطقي أن تخشى معظم الحيوانات من مفترسيها. وقدرة هذه الحيوانات على التعرف على هذه الضواري وهي لم ترها تمارس الافتراس ليست واضحة دائما، غير أن الشيء الواضح هو رد الفعل. لقد رأى تشادويك، يوماً ما، قطة برية تتحرك ببطء إلى مأوى ماعز جبلية كبيرة. ووصلت إلى مكان مرتفع مسطح، بحيث صارت في موقع مثالي للقفز، ولكنها ترددت. ثم حددت الماعز مكان القطة البرية، وتراجعت إلى إحدى الزوايا. وبعد فترة وجيزة، تقدمت الماعز وضربت بقدميها في الأرض، وبدأت تتقافز في اتجاه القطة، وتدفع قرونها نحوها وأخذت القطة البرية تراقبها لفترة قصيرة، وتمد كفها من آن لآخر نحو الماعز، قبل أن تبتعد نهائياً. وبدا أن الماعز كانت في البداية خائفة من القطة البرية المفترسة لكنها فقدت خوفها، وصارت عدوانية. وكانت القطة البرية تحس بخوف متوسط من الماعز، مما جعلها لا تهاجم مباشرة ثم استسلمت بمرور الوقت.

وقد يكون من بين عوامل التعرف على الضواري الاستجابة الكامنة للعيون المحدّقة. وقد وُجد أن الطيور غالباً تهاجم البومة المحنطة لو كانت لها عينان. وتتجنب صغار الدجاج الأشياء التي لها عيون أو علامات لعيون على تلك الأشياء خاصة إذا ما كانت العيون واسعة، رغم أنها لم تر حيواناً مفترسا قط. وغالباً ما تفر الطيور البرية من خط التغذية إذا كان عليه تصميم يشبه العيون، وكلما كانت العيون واقعية، زاد ما تحدثه من ذعر.

ويبدو أيضاً أن الخوف من السقوط من الأماكن المرتفعة شعور كامن في الكثير

(*) ذئب يستوطن شمال أمريكا.

من الحيوانات. ذلك أن صغار الكثير من الأنواع (بما فى ذلك البشر) تُبدى الرعب حيــن تُواجه بمكان منحدر، أو صورة مقنعة لمنحنى حاد ولو كانت لم تسقط أو تر سـقطة مــن قــبل. وربما يظهر الخوف من المرتفعات، فى بعض الأنواع، بشكل أسهل من غيرها من الأنواع. إذ لا يمكن لمخلوق يعيش فى أماكن مرتفعة أن يبقى عـلى قيد الحياة، لو أنه أنفق وقتاً أكثر مما ينبغى فى الارتعاد من الخوف. غير أن ماعــز الجبل التى راقبها تشادويك أظهرت أيضاً علامات على الخوف حين كانت تـبحث عــن آثار أقدام على الشعاب شديدة الانحدار حتى بالنسبة لها، أو حين تبدأ صخرة غير ثابتة فى التزحلق تحت أقدامها مما ينبئ بسقطة.

ولقــد أظهــر دب صغير بُنّى سقط فى نهر مكنيل فى ألاسكا وحملته المياه إلى المســاقط، علامــات عــلى الخــوف – كالأذنين المشدودتين، والعينين المتسعتين المقلوبــتين. ورأته أمه يسقط غير أنها لم تبد انزعاجاً إنما تبعته حتى ابتعدَ مسافة كــبيرة، ولعلها لم تدرك أن ما هو آمن لها ليس آمناً له أو ربما أدركت أو أحست، انه لا يتعرض لخطر حقيقي. ونجح الدب الصغير فى الخروج بمفرده.

وحيد وتائه

تسبب الوحدة المخاوف لجميع الحيوانات الاجتماعية، وكذلك صغار معظم أنواع الحيوانــات. وأحيانــا يصــعب الفصــل بين الخوف من الوحدة والخوف من فقْد الجماعــة. إذ يَحــكى توماس بليدزو عن وينجنت، وهو دب بُنّى صغير يستوطن ضــفاف نهر مكنيل ويتصف بخجل شديد، فهو يخشى ظله بالمعنى الحرفى للكلمة. وتــدل مراقبــته أنــه كان يخاف من أن يُترك وحيداً، بل اعتاد على النداء "بشكل هيســتيري" فى كل مرة كانت أمه تذهب فيها لصيد السمك، ويستمر على ذلك حتى تعــود. ومــرة أخــرى، يجوز القول بأن وراء رد الفعل هذا تجربة سابقة. كما تم إطلاق درفيل من النوع الذى يشبه أنفه الزجاجة فى أحد الخلجان المجاورة لموطنه فى محميــة بحــرية فى المحيط الهادئ وكان يُدعى "كيكي" فما كان منه بعد فصله عــن رفاقــه في موقع لم يكن يعرفه من قبل إلا أن هاجمه الذعر، وأخذت أسنانه تصطك ببعضها وعيناه تدوران فى محجريهما.

ويقــرر العامــلون فى حدائق الحيوان أن الأفيال الأسيرة تكون عُرضة للإصابة

بأعـراض الموت المفاجئ أو "أعراض توقّف القلب"، وهو ما يحدث فى الكثير من الأحيـان مـع صغار الأفيال حين تُفصل عن جماعتها الاجتماعية، أو تُوضع فى مكـان مغلق وحدها. ويعزو جاك آدامز من مركز دراسة الأفيال، هذا إلى "الخوف القابض".

وكمـا تخـاف الخيـل من الاشياء غير المعتادة، ترتاب الببغاوات الأسيرة غير المستأنسـة، فى الـتغيُّرات الـتى تحدث فى محيطها. فبدلاً من أن تأكل من وعاء جديـد، تظل جائعة لأيام. وحتى عندما تكتسب الثقة وتتقبل الطعام من فرد معين، فـبإمكان الـتغيير فى الملبس أن يخلق لديها حالة من التحفُّز. كما قال أحد مربى الطيـور، إن جماعة من الببغاوات الحذرة دأبت على عدم تقبل الفول السودانى إلا مـن والـدة هذا المربى – ولا يحدث هذا إلا إذا كانت ترتدى مريلتها المعتادة. لقد نحـت اصـطلاح الخـوف مـن الجديد (النيوفوبيا) للتعبير عن الخوف من غير المـألوف. ويمكن للخوف من الجديد أن يُحدث ردود فعل شاذة عند الحيوان الذى تـربى فى ظـروف غير عادية. إذ قام "بيلى إريان سينج" أحد المهتمين بالمحافظة على الطبيعة، بتربية أحد صغار الضباع الذى كان يتيماً وكذلك أحد صغار النمور. كـان الضبع يشعر بالذعر عندما يلمح الدغل لأول مرة ويحتاج إلى تهدئته بصبر، ويؤخذ مراراً للتمشية فى الدغل، لإقناعه بأنه جدير بالزيارة.

وهـدَّ الـرعب كـيودي، وهو إنسان غابة رباه البشر منذ الطفولة، لدى أول مرة وقعت فيها عيناه على إنسان غابة آخر. إذ انتصب شعر جسده كله. وانكمش خوفاً واختفى خلف "والده" البشري. وتعلق به بشدة، حتى إنه أحدث علامات على حسده. أما إنسان الغابة ثابت الجأش الذى أخافه إلى هذا الحد، فقد تصادف أنه أمه.

ولقد وصف جيم كراملى مشاهدته نقطيع يتكون من مائتين من البجع عندما كانت تصـيح وهى تسـتريح فى أحد الحقول فى اسكتلندا. وبينما كان يرقبها، سرت فى القطيـع موجة من الانزعاج. ورفعت الطيور النائمة رؤوسها، ووقفت وهى تنظر نحو الغرب، غير أن القطيع استقر بعد ذلك. واسترخى البجع تدريجياً، ثم عاد فجأة إلى الهيـاج مـرة أخرى: وارتفعت جميع الرؤوس، ونادت على بعضها فى ذعر. وحدث ذلك ثلاث مرات قبل أن يفهم كراملى المتحير السبب وراء الاضطراب. إذ كـانت تمـر عاصـفة رعديـة وقد سمعها البجع قبل أن يسمع هو. فراقبها خلال

العاصــفة التى تلت ذلك، فرأى أن ومضات البرق لم تكن تُحدث ردود أفعال، غير أن كل قرقعة من قرقعات الرعد كانت ترهبها.

تعلُّم الخوف

كثير من الخوف يُكتسب بالتعلُّم. وهذا يتفق مع نظرية الارتباط الشرطى السلوكى الكلاســيكية التقليدية التى تتعلم بها الحيوانات، بما فى ذلك البشر، عن طريق ربط مــثيرات سلبية بأحداث معينة. ومن المهم الحذر من التفسير الجاهز للأشياء بأنها كامنة أو غريزية حين يكون من السهل تفسير اكتسابها بالتجارب العصبية، أو حتى تعــلمها بشــكل مــا عن طريق أعضاء آخرين من نفس النوع. وتلاحظ إليزابيث مارشـــال توماس بعض المخاوف الخاصة لدى أنثى كلب الإسكيمو والتي اكتسبتها كحيوانـــة بالغـــة. ذلك أن الصوت الصادر عن شيء يتحرك فى الهواء، كحبل أو عصا، يجعل كوكى تنكمش، وتصطك أسنانها، وينتصب شعرها. ووفقاً لما تقول به مارشال توماس: "إن حشرجة الكحول فى صوت إنسان" كانت لها نفس الأثر. ومن الممكـــن أن كوكى كانت تصدر فى رد فعلها عن الرائحة وليس الصوت، حيث إن الكحـــول يؤثر فى رائحة عرق البشر، ولكن فى كل الحالات، فلقد تعلمت أن تكون خائفة من السكارى. ومن الصعب تجنب التفكير فى أن سكيراً سبق أن ضربها. لقد اهـــتزت نظرية الارتباط الكلاسيكية حين تم الكشف عن أن بعض المثيرات يسهل بكـــثير ربطهـــا بـــالخوف عن غيرها من المثيرات. فالفئران سرعان ما تربط بين الطعـــام والمـــرض، وتتجنب أى طعام إذا مرضت بعد أكله. غير أنه من المستبعد تمامـــاً أن تربط بين الصدمة الكهربية أو الضوضاء المرتفعة والمرض، مهما كثر عدد المرات التى يزاوج فيها القائمون بالتجارب بين المثيرين.

وكـــثير من الناس يخشون الثعابين، أو العناكب التى لم تكن لهم معها أية تجارب ســـيئة على الإطلاق والتى نادراً ما يرونها. غير أنه، كما أشار مارتين سليجمان، هـــناك قـــليل جـــداً مـــن الناس الذين يعانون من خوف مرضى من المطارق، أو الســـكاكين، رغـــم أنه من الأكثر احتمالاً أن تصيبهم هذه الأشياء. ذلك أن الخوف يتبلَّد بسبب أُلفتهم لاستعمال هذه الأشياء استعمالات أخرى.

لقد تعلمت ماعز الجبل أن تخشى الأعاصير، أو الانهيارات الصخرية بل إنها تتخذ

أفعــالاً لــلمراوغة. فحين تسمع الماعز صوت انهيار الصخور فوق رؤوسها ترفع ذيولهــا، وتسحب آذانها إلى الخلف وتجرى باحثة عن مأوى يحمى رؤوسها إذا ما وُجــد أحــد هــذه المآوى فى مكان قريب. أما إذا لم يوجد، فهى تضرب بأرجلها وتتجمع حول بعضها وتضغط بأجسادها ملتصقة بالجبل. وبعض الماعز تتواثب فى آخر لحظة.

مخاوف بلا مُسمَّيات

لقــد جرب كل منا الخوف دون سبب ظاهر – أى الإحساس بأن مصيبة مجهولة تقــترب. وفى أحيان أخرى، يكون الخوف استجابة للإحساس بأننا على أرض غير مألوفة، مثل صغار الضبع والنمر عند "سينج". إذ نحس بأن شيئاً سيئاً قد يقع، رغم عــدم معرفتنا به. كما يمكن أن يوجد الخوف بدون شيء، أى الاهتزاز فى الروح المعنوية.

فى حديقة هوانج الوطنية فى زيمبابوي، تتم عملية تنقية للأفيال سنوياً. وأثناء هذه التــنقية، تجمــع الجماعــات العائــلية من الأفيال بواسطة الطائرات وتُوجّه نحو القناصــين الذيــن يطــلقون النار عليها جميعاً فيما عدا الصغار منها، التى تُجمع استعداداً للبيع. فتجرى صغار الأفيال حول المكان وتصرخ، باحثة عن أمهاتها. فى إحدى السنوات لاحظ أحد مرشدى الحياة البرية فى إحدى المجميات الخاصة، التى تــبعد تســعين ميــلاً عن الحديقة أن ثمانين فيلاً كانت قد اختفت من أماكن سكناها المعتادة فى اليوم الذى بدأت فيه التصفية أو التنقية فى هوانج. وعُثر عليها بعد ذلك بعــدة أيــام، متجمعة فى نهاية المحمية فى أبعد مكان عن الحديقة أمكنها الوصول إليه.

ولقــد اكتُشــف حديــثاً أن الأفيــال تستطيع أن تتواصل عبر المسافات بواسطة الــنداءات الــتحت صــوتية – وهى أصوات أكثر انخفاضاً من أن يستطيع البشر ســماعها. لــذا، ليس مما يدعو إلى الدهشة أن أفيال المحمية قد تلقت على ما يبدو رسالة مرعبة ما من أفيال هوانج. غير أنه ما لم يكن تواصل الفيال أدق بكثير مما تكهن به أى شخص حتى الآن، لما أمكن للرسالة أن تكون محددة تحديداً شديداً. إذ لابد أن أفيال المحمية قد علمت أن شيئاً سيئاً يحدث لأفيال هوانج، غير أنها لا تكاد

تعرف ما هو ذلك الشيء. ذلك أن موضع خوفها لم يكن مكتملا أو محددا؛ لكن الخوف كان حقيقيا.

الخوف على الآخرين

لا يخشى البشر على أنفسهم فحسب، وإنما من الممكن أن يخافوا على غيرهم. وهذا الشعور يقع فى حدود الاستبصار الوجدانى وهو شيء يُستبعد أن يسلم به الناس للحيوانات، أكثر مما يسلمون لها بانفعال الخوف. فبينما تتعدد أمثلة خوف الحيوانات على نفسها، تندر أمثلة خوف الحيوانات على غيرها. وغالباً ما يكون الموقف مُتبادَلاً: فالقرد الذى يُظهر علامات جسدية تدل على الخوف حين يشاهد أحداً يهاجم قرداً آخر قد يكون فى حالة خوف على نفسه كضحية ممكنة، بدلاً من الخوف على القرد الآخر أو بالإضافة إلى الخوف على نفسه أيضاً. وأوضح مثال على خوف الحيوانات على غيرها، كما قد نتوقع، يأتى من الوالدين اللذين يخافان على صغارهما. ويصف عالم الحياة البرية توماس بليدسو أفعال الياقة الحمراء، وهو مجرد اسم لدبة أم مخططة باللون البنى المائل للاحمرار اختفى صغارها أثناء صيدها لأسماك السلمون فى نهر مكنيل وهو مكان تجمُّع للدببة. فى البداية، نظرت إلى أعلى وأسفل ضفة النهر، ثم جرت نحو قمة الجرف المرتفع ونظرت هناك، وهى تجرى أسرع فأسرع. ووقفت على ساقيها الخلفيتين كى تتمكن من الرؤية إلى أبعد، وهى تدير رأسها حولها، وتلهث. وبعد بضع دقائق، تخلت عن البحث وعادت إلى الصيد. هنا يُعد سلوكها محيِّراً، وقابلاً لتفسيرات متنوعة، تتراوح من فَقْد الاهتمام (وهو ما يصعب على البشر فهمه) إلى الاعتقاد بأن صغارها لم يحدث لها مكروه. ومن الجدير ملاحظته أنه فى المرات التى كانت تختفى فيها صغار الياقة الحمراء من النهر، كانت تذهب دائماً مع إحدى أمهات الدببة الأخرى وعائلتها، وكانت فى الواقع، فى أمان. فحسب ما يقول بليدسو إنه فى إحدى المرات ظلت اثنتان من صغار الياقة الحمراء مع دبة أخرى لمدة ثلاثة أيام، قبل أن تتمكن الأم الأصلية من مقابلتهما وتستردهما.

ولا يخشى الوالدان من فَقْد صغارهما فحسب، وإنما يخافان من أن يُؤذَى هؤلاء الصغار. إذ إن بليدسو لاحظ دبة بنية أخرى، أماً كبيرة، فزعت حين أحب صغيراها الفضوليان أن يتحققا من مراقبيهما من البشر، فأخذت تسير وراءهما

وهى تصـــرخ بــنداءات تحذيرية إلى أن ترك صغيراها البشر وحدهم. ويقول لين روجــرز، الــذى يقوم بدراسة الدب الأسود الأصغر، إن هذه الدببة حين يواجهها الخطــر، فــإن أمهاتهـــا لا تكتفى بمجرد حث الصغار على صعود الأشجار ذات الجــذوع الناعمة وتشجعها على تسلُّق أشجار الصنوبر الأكثر خشونة، وهى أسهل فى تســلقها على الدببة الصغيرة. كما راقب بول ليهاوزن عدة أمهات للقطط كانت تســمح لصغارها بمطاردة الفئران، غير أنها كانت تتدخل إذا ذهبت القطة الصغيرة بعيــداً وراء الجــرذان. وحيــن جربت تلك القطط الصيد بعيداً عن أمهاتها أثبتت قدرتها على التعامل مع الجرذان.

كذلـــك، فــإن جــدات ماعز الجبل تحاول بخفة ونشاط منع أطفالها من السقوط ســقطات خطــرة أو قاتــلة. ووفقاً لما يقول به دوجلاس تشادويك، تحاول الماعز الكبيرة أن تبقى أسفل التل، من ناحية صغارها، سواء حين تتحرك الماعز الصغيرة حــول المكــان، أو حيــن تنام. ويبقى على الأمهات أن تراقب باستمرار خوفاً من جمــوح الصـــغار. ويقول تشادويك عن إحدى ماعز الجبل: "لقد أمكننى أن أصغى إليهـــا تبكي، بالمعنى الحرفى للكلمة، حين قفزت طفلتها قفزة صعبة، فاندفعت كى تلعقها وتتشممها حتى تحس بالأمان ثم تشجعها على الرضاعة". وتشبه صيحة الأم إلى حــد كــبير رد فعل البشر لدى رؤية شخص يسقط، كما تُعتبر مثلاً رائعاً فى الاستبصار الوجداني.

لقــد اعتاد آباء طيور الباز الجوَّال (نوع من النسور) على مهاجمة أحد أبنائه فى كــل مــرة كان يقترب فيها الصغير من المراقبين من البشر. وبمرور الوقت غيّر الطائــر الصـــغير سلوكه، متجنباً المراقبين بعد ذلك. ذلك أن خوف الأب على ابنه غيّر أفعال الطير.

وقـــد تخشى الحيوانات الاجتماعية على غيرها من أعضاء الجماعة. ذلك أن أحد مـــنْ يقومون بالتجارب قرر أن يبحث ردود أفعال بعض قرود الشمبانزى الصغيرة عـــلى رجـــل جريء وآخر غير جريء، فتجنب الشمبانزى ليا الرجل الجريء أما الشـــمبانزى ميـــمى فهاجمـــه فثنى "الرجل الجريء" أصابع ميمى إلى الخلف حتى صـــرخت فانضـــمت ليـــا لـــلهجوم، غير أنها توقفت حين لُكمت (وهذه هى مدنية الباحـــثين التجريبيين) وبعد ذلك كرست ليا جهودها لمحاولة جر ميمى إلى الخلف،

وذلك بالقبض عليها وجذبها بعيداً.

وفى إحـــدى جماعات الشمبانزى حبيسة الأقفاص بمعهد أوكلاهوما لدراسة الحياة الـــبدائية، أُصـــيبت إحدى إناث الشمبانزى بالخوف على طفلها بعد انتزاع أطفالها الســـابقين مـــنها فيما قبل، وأخذت تتوجس حين يقترب منها العلماء. وكذلك كانت تفعـــل قردة الشمبانزى الأخرى من نفس الجماعة فى الأقفاص المجاورة. فى هذه الحالـــة، عموماً، ليس من المعروف ما إذا كانت القرود الأخرى خائفة فعلاً، فلربما كـــانت عدائيـــة فحســـب. إذ تطرأ أحياناً المخاوف العميقة التى تحس بها حيوانات المعـــامل عـــند حيوانـــات لـــم تخضع قط للدراسة. ومن الممكن أن تكون الكارثة الأخلاقيـــة الـــتى ترتـــبت عـــلى بث مثل هذا الخوف من الشفافية، بحيث لا يمكن معرفتها بالتمحيص العلمي.

نطاق الخوف

إن الخوف فى أكثر حالاته اعتدالاً، أى القابلية للخوف، يمكن أن يُعرف بأنه حَذَر أو تـــأهُب، ومـــن الواضـــح أنه مفيد لبقاء النوع. فالدودة الحذرة تحس مقدم الطير المـــبكر وتهـــرب. وحين يشتد هذا الشعور، يصبح قلقاً، أى توتراً مؤلماً فى العقل. ولقد كسب أطباء النفس مالاً وفيراً من العجز الذى يصيب بعض الناس بسبب القلق الذى يشعرون به، بينما يرى آخرون أن قلقهم غير ضرورى أو مبالَغ فيه.

والخـــوف الشـــديد جداً، شأنه شأن الألم الشديد جداً، يؤدى إلى حدوث الصدمة. وإصـــلاح الصدمة له تعريف طبي، ولاشك فى أن الحيوانات تصاب بها. إذ يصف "هانـــز كـــروك" ما يشبه الصدمة فى حالة حيوان النيتل الذى ضيقت عليه الضباع الخـــناق. ونادراً ما تحاول هذه الحيوانات الدفاع عن نفسها عندما تصبح فى وضع لا يسمح لها بالتحرك. فهى تقف فى بقعة واحدة تئن بينما تمزقها الضباع.

قام عالم الحياة البرية تشادويك وزوجته بحصار ماعز الجبل باندروا، البالغة من العمر عامين فى دائرة من الإشعاع حول بقعة ملحية، وفى البداية، قامت بمحاولات حماسية للهرب. إذ حاولت أن تقفز خارج الدائرة، وضربت تشادويك بأحد قرونها، وعـــندما تمـــت الســـيطرة عليها وأُسقطت، حاولت النهوض مرة أخرى. وعندما عُصـــبت عيناها، أُصيبت بصدمة، وخارت قواها. ولم تجرح باندورا نفسها سوى

جرح خفيف فى أثناء ذلك الصراع، لذا يبدو أن رد فعلها كان نتيجة خوفها الشديد. (وبعد الإمساك بها، تمت إفاقتها بأملاح رائحتها نفاذة وأُطلقت دون ظهور أى آثار سيئة).

وفى أفريقيا أسقط أسد جاموسة، ولكنه لم يجرحها، ورقدت ببساطة على الأرض في حالة صدمة بينما أخذ الأسد (الذى ربما كان عديم الخبرة) يمضغ ذيلها. ويُعدُّ مثل هذا المثال دليلاً آخر على أن الخوف لا يؤدى دائماً إلى بقاء النوع.

شجاع كالأسد

إن الشجاعة تُعِدُّ أحياناً انفعالاً له صلة بالخوف. وللأسف، فإن هذه الشجاعة معَّرفة تعريفاً قاصراً عند البشر، لذا من الصعب البحث عنها فى الحيوانات. وفى الغالب تُعدُّ شيئاً ينطوى على الإقدام فى مواجهة الخوف، أى التغلب عليه أو تنحيته جانباً. ولكن هل يُعدُّ الفعل الخطير فعلاً شجاعاً إذا لم تكن تحس بالخوف وأنت تقوم به؟ أم أنه يُعد فعلاً شجاعاً لو كنت خائفاً فقط؟

يذكر هانز كروك العديد من الأمثلة التى طارد فيه الضباع بقرة وعجلاً من نوع الثيتل. وفى كل حالة، حين كانت الضباع تلحق بالعجل، كانت البقرة الأم تستدير وتهاجم الضباع، وتنطحها بشدة وكأنها تريد شق بطونها. ربما يُحسبَ هذا على أنه شجاعة. وبدون العجل تستمر البقرة من نوع الثيتل فى العَدْو. ومن المؤكد أن الخوف هو الذى يدفعها إلى الجري. من ناحية أخرى، فإن الإنسان فى موقف مواز، قد يصرِّح قائلاً: "كنت شديد الغضب حتى نسيت أن أكون مذعوراً". وربما تكون أُم الثيتل شديدة الغضب بحيث نسيت الخوف. فهل هذه شجاعة؟

فى برنامج تليفزيونى عن الطبيعة، تم تصوير الفهد الصياد (شيته)، وكانت اللبؤة تقتل عدداً من أشباله. وبينما كانت لا تزال هناك عادت أم الفهد الصياد. فلما رأت اللبؤة، لفَّت فى خط دائرى وترددت ثم اندفعت بالقرب من اللبؤة فأغرتها على مطاردتها. وكانت أطفال الفهد الصياد قد قُتلت بالفعل، وربما كان الفهد الصياد لا يعلم ذلك. إذ من الواضح، أن أم الفهد الصياد كانت تخشى من أن تقتل اللبؤة أطفالها كما خشيت من أن تهاجمها اللبؤة (الأضخم منها بكثير). ويبدو أن محاولتها لإبعاد اللبؤة ترقى إلى الفعل الشجاع. وبعد أن ذهبت اللبؤة، وجدت أم الفهد الصياد

جـــثث الأطفـــال، والتقطت إحداها، وحملتها بعيداً. وصُورت سينمائياً أثناء عاصفة مفاجـــئة وهى جالسة فى المطر، منحنية على جثة صغيرها. وحين توقف المطر، خطت بعيداً دون أن تلقى نظرة واحدة إلى الخلف.

تشارلز داروين أيضاً كان مهتماً بشجاعة الحيوان وروى القصة التالية:

منذ عدة سنوات، أطلعنى حارس بحدائق الحيوان على بعض جروح عميقة خلف عـــنقه كادت تندمل، وكان قد أُصيب بها، بينما كان راكعاً على الأرض تحت تأثير ضـــربات قرد الرباح العنيف. وكان القرد الأمريكى الصغير، الصديق الحميم لهذا الحـــارس، يعيـــش فى نفس المكان، وكان يخاف الرباح الضخم خوفاً رهيباً. ومع ذلـــك، مـــا إن رأى صديقه معرضاً للخطر حتى اندفع لإنقاذه، واستطاع أن يشتت انتـــباه الرباح بالصرخات والعض بحيث تمكن الرجل من الهرب، بعد أن تعرضت حياته لخطر كبير كما قال الجراحون.

وبالنســـبة لداروـيـــن، حينـــئذ، كان من الواضح أنه "مجرد" قرد أمكنه أن يكون صـــديقاً، بل صديقاً شجاعاً. ولهذا السبب انتقده عالم حديث نقداً شديداً بسبب "ميله لأنســـنة ســـلوك الحيوان". فقال: من المدهش قليلاً أنه (يقصد داروين) استطاع أن يجـــد دليـــلاً عـــلى جميع الخصال البشرية (فى الحيوانات) حتى السلوك الأخلاقى والشـــجاعة .. ويبدو أن بعض العلماء يسوؤهم من داروين من بين جميع الناس أن يروى حكاية عن قرد صغير يضع كل مستقبله الوراثى موضع المخاطرة من أجل خاطـــر عضـــو مـــن نوع آخر، لم ينشئ معه علاقة اعتماد فحسب بل والصداقة الحارة. فالعلماء لا يعجبهم أن يروا كلمات مثل الشجاعة والجسارة وهى تُطلق من جانب مؤسس نظرية النشوء والارتقاء على أحد القِرَدة.

وتشـــبه أطفـــال الأفيال الماعز الجبلية أو أشبال الدببة فى عدم خشيتها مما يعتقد الكـــبار بوجـــوب الخـــوف منه. إذ تذكر سينثيا موس التى تقوم بدراسة الأفيال فى كيـــنيا، أن الأفيال الصغيرة جداً على ما يبدو تكاد لا تخشى شيئاً. إذ إنها قد تصعد إلى عـــربة اللاندروفر الخاصة بها وتفحصها رغم وجود ركاب بها وهذا غالباً ما يـــثير الإزعـــاج لـــدى أمهاتهـــا وعماتها فتتصادم أجسادها ببعضها البعض. ومن الواضـــح أنهـــا تريد أن تدفع صغارها بعيداً، غير أنها من شدة الخوف لا تتجاسر

على الاقتراب كى تفعل ذلك. فتشرئب أعناقها وتخطو ببطء إلى الأمام وإلى الخلف أو تؤرجـــح إحـــدى الساقين. ومع الوقت وحين يخطو الصغير عائداً تجذبه الكبار إليها، وتتحسسه، وتشير إشارات تهديدية نحو المركبة.

احتياج ممكن للخوف

عـــندما تكبر الأفيال الصغيرة، من الوارد أن يتوافر لديها سبب للخوف من أشياء أخـــرى بالإضـــافة إلى الـــركاب داخـــل سيارات اللاندروفر. فالأشياء التى تسبب الخـــوف تظهـــر فى حيـــاة معظم المخلوقات. ولكن ماذا يمكن أن يُقال عن حيوان محاط بالحماية ومتمتع بالمأوى بحيث لا يجد ما يثير خوفه قط؟ ماذا يحدث لقدرته عـــلى الخـــوف؟ مـــن الممكن أن مخلوقاً كهذا سيشعر بالخوف على أية حال، وأن قدرته على الخوف تتطلب تعبيراً عن نفسها وسوف تنصَبُّ على أشياء عشوائية فى مظهرها.

وُلدت الغوريلا، كوكي، فى إحدى حدائق الحيوان، ونشأت فى بيئة حانية حامية. ولم تتعرض كوكو قط إلى مواجهة غوريلات أكبر منها، أو للضباع أو القنّاصة أو لأى شـــيء قد يبث الخوف فى قلبها. ومع ذلك، فإن لها مخاوف ـــ من القاطور(*) مـــثلاً، رغم أنها لم تر فى حياتها قاطوراً حقيقياً. وظلت لسنوات تتصرف تصرف الخائف من دُمَى القاطور ما لم تكن قد كُسر فكها السفلي. ورغم أنها لم تكن تخشى دميـــتها القاطوريـــة، إلا إنهـــا اعتادت أن تلعب معها ألعاب مطاردة. وفى إحدى المـــرات، هددت إحدى المساعدات بلغة الإشارة الأمريكية بأن قاطوراً يطاردها ما لـــم تعجّل بإعداد الغداء. كما بدت خائفة من حيوانات الإجوانة(**)، خاصة إجوانة مدللة كانت تراها كثيراً. ومع أن الإجوانة (الموصوفة بكونها سباتية أو غيبوبية) لم تقم بعمل أية حركات تهديدية نحو كوكو، إلا أنها اعتادت أن تجرى داخل حجرتها إذا ما خرجت الإجوانة.

ومن الممكن أن يكون خوف كوكى من السحالى وحيوانات القاطور خوفاً غريزياً

(*) تمساح أمريكى قوى الفكين.

(**) سحلية أمريكية ضخمة صالحة للأكل.

أو غريــزياً جزئياً، وربما قوى هذا الخوف لانعدام أى شيء آخر تخافه. وقد يكون الأمر هو أن الخوف مطلوب وأنه مهما كانت درجة الأمان والحماية التى يتمتع بها الطفــل، فإن مصاصى الدماء والرجال الذين يتحولون إلى ذئاب وكذلك المحركات الــنارية ســتفرض نفســها عــلى خياله بحيث تكون محلاً للخوف. وفى السنوات الأخيرة، بدا أن كوكى فقدت خوفها من حيوانات القاطور، ربما لأنها تلقت عشرات الهدايا من دمى هذا الحيوان بأشكال مختلفة. أما الشمبانزي، فيكي، التى نشأت بين البشــر فكانت تخشى التاربولين(*). وكان ذلك الخوف من الشدة بحيث يمكن منعها مــن دخــول الغرف الممنوع دخولها عن طريق تعليق قطع من هذا القماش على مقــابض أبواب تلك الغرف. أما واشو الشهير، فرغم عدم تأثره بالتاربولين، إلا إن الــتقارير ذكرت أنه يخاف من خرق إزالة الغبار. وموجا، وهو شمبانزى آخر من نفس الجماعة، لم يتأثر من قماش التنظيف إلا إنه وجد فواصل أوعية مكعبات الثلج مــن أســباب الفــزع، حتى إن الباحثين احتفظوا بهذه الأشياء فى أدراج خزانات، بحيــث يُســتفاد مــنها عند صعوبة السيطرة على موجا، بمعاقبتها بإخراج إحدى فواصــل المكعــبات وعرضها. كما أمكن جعل واشو وغيرها من الشمبانزى فى جماعــتها، تخشــى من كلب وهمي، فيما يُعدُّ استخداماً مهماً للخيال. ونشأ هذا عن جهــد لجعــل واشو الصغيرة السلسة الانقياد تستخدم الإشارة الدالة على كلمة "لا" عــدداً أكبر من المرات. ففى إحدى الأمسيات، نظر الباحث روجر فوتس من نافذة عــربة واشــو وأشــار إليهــا بأنــه رأى كلباً أسود ذا أسنان طويلة يأكل أطفال الشمبانزي. وسأل واشو هل تريد الخروج، فحصل على "لا" مؤكدة. وفى مناسبات أخــرى، حيــن كانت واشو تلعب فى الخارج ولا تريد الدخول، اعتاد الباحثون أن يقولوا إنهم رأوا الكلب الكبير الأسود قادماً – وكانت واشو تسرع بالدخول.

جزيرة اللاخوف

أحيانــاً تــحُيِّى الحيوانات، بلا خوف، مسافراً قادماً من جزر بعيدة. وبدلاً من أن تجــرى هذه الحيوانات الشجاعة نجد أنها تسير نحو الإنسان وقد تحدق البصر فى شــخص يتجه نحوها حاملاً شبكة أو بندقية. ويصف شيروين كارلكويست حياة هذا

(*) نوع من القماش المشمع.

البوم، الذى كان يقف في تكاسل وعيناه تُفتحان وتُقفلان. وكان هناك فى نفس المكان ثعبان يتلوى متزحلقاً فالتقطه كارلكويست. ولما كان الثعبان غير منزعج فإنه ألقى بنفسه على كتفيه وسمح له بحمله والتجول به طوال النهار. وفى نفس الأرخبيل، تمكن كارلكويست من أن يضرب جلود صغار الأفيال الراقدة على الشاطئ وبعض الطيور البحرية وهى ترقد على بيضها.

وفى مكان آخر، كان أحد الأنواع التى تعيش على الجزر، وهو الشكوالا (سحلية كبيرة) ــ من الثبات؛ لدرجة أنها غضَّت النظر حتى عن "ركلة معتدلة من حذاء أحد البيولوجيين".

توقف بعض علماء البيولوجيا الذين كانوا قد وصلوا إلى جزيرة غير مأهولة بعد رحلة مجهدة وأرادوا أن يستريحوا، فغاص أحد الباحثين فى نوم عميق بينما كان يستلقى على الشاطئ. فحط على قدمه أحد طيور النمنمة(*) بالجزيرة، وراح يتفحص رباط حذائه ثم يتمشى صاعداً على جسده، وتعلق بذقنه، ونظر ملياً وبعناية داخل كل من فتحتى أنفه قبل أن يستأنف الطيران؛ مما أدخل المرح على رفاق الزميل النائم. وتشيع هذه الجرأة وانعدام الخوف فى الأنواع التى تعيش على الجزر الصغيرة حيث تقل الضوارى أو تنعدم. ويزعم كارلكويست: "إن الإفراط فى التوجس عديم النفع بلغة التطور والنشوء. فإذا أنفق طائر الكثير من وقته وهو يفر من تحذيرات زائفة، فلن يتوافر له سوى أقل الوقت للتغذية وممارسة الأنشطة الجوهرية. وهكذا فإنه فى حالة غياب الضواري، قد يكون الحيوان غير الحذر نسبياً أكثر نجاحاً من الآخر دائم العصبية". ولا ندرى ما إذا كانت الأنواع الأليفة فى الجزر تشعر بمخاوف أخرى ــ كالخوف من الأماكن المرتفعة، أو الخوف من الماء ــ غير أن هذا الأمر يبدو وارداً. ذلك أن الكثير من الحيوانات لاقت حتفها فى هدوء بسبب انعدام الخوف. وما الأوك(**) العظيم والدودو(***) إلا أمثلة على الحيوانات التى اختفت؛ لأنها لم تفر من الجياع من البشر أو رفقائها من الحيوانات.

(*) طائر صغير جداً.

(**) طائر قصير العنق بحرى يعيش فى أشد الأجواء برودة فى نصف الكرة الشمالي.

(***) طائر منقرض أشبه بالحمامة وأكبر من الديك الرومي.

الوجه الآخر للخوف

لــو كـــان الخـــوف هو الشعور بأن شيئاً سيئاً على وشك الحدوث، لكان نقيضه الأمـــل، أى أن شيئاً جيداً على وشك الحدوث. بالنسبة للبشر فإن الأمل، شأنه شأن الخـــوف، يمكن ألا يكون مبنياً على أساس من التفكير أو النظرة العقلية أو المنطقية والـــرؤية. ومـــن بين السمات التى تجعل الحيوانات المدللة قريبة للنفوس هو أملها المحـــدود تماماً فى أن تُطعم، وفرحها البسيط غير المعقد إزاء هذا التطلع. فالكلاب تدور حول المكان في حالة ترقّب، والقطط تخرخر بصوت مرتفع وتحتك بالأشياء والناس أو غيرها من الحيوانات.

حيـــن صـــار "واشو" أكبر سناً، وضعت مولوداً تُوفّى بعد ميلاده بأربع ساعات، بســـبب عـــلة قلـــبية. وبعد ذلك بثلاث ساعات، وضعت مولوداً ثانياً وهو سيكوية. وكان هذا الصغير أيضاً معتل الصحة، وبالرغم من العناية الممتازة التى أولته إياها واشـــو، إلا إنـــه مات بسبب الالتهاب الرئوى وعمره شهران. ولما كان الباحثون عـــازمين عـــلى أن تقـــوم واشو بتربية الطفل، فقد بذلوا جهوداً مضنية لكى يجدوا بديـــلاً، وبمرور الوقت حصلوا على لوليس. وهى شمبانزى تبلغ من العمر عشرة أشـــهر. وبعـــد وفـــاة ســـيكوية بخمسة عشر يوماً، ذهب فوتس إلى مسكن واشو وخاطـــبها بالإشـــارة: "لـــدى طفـــل من أجلك" فاهتزت كل شعرة فى جسد واشو. وأظهـــرت علامـــات تـــدل على اللهفة الشديدة، إذ أخذت تصيح وتهتز وتقف على قدميـــن وتشـــير "طفـــل" عدة مرات. وقال فوتس: "ثم أشارت طفلي، فعرفت أننا سنواجه المتاعب".

وحيـــن عاد فوتس ومعه لوليس، تلاشت لهفة واشو على الفور. واستوى شعرها على جسدها كما كان ورفضت أن تلتقط لوليس، مشيرة بطريقة سلبية "طفل". غير أنـــه بعـــد مضى ساعة، بدأت واشو فى الاقتراب من لوليس، محاولة اللعب معها. وفى ذلـــك المساء، حاولت أن تجعلها ترقد بين ذراعيها كما كانت تفعل. ولم تنجح فى ذلك، فى أول الأمر، ولكن فى الصباح التالى كانتا ملتصقتين ببعضهما البعض، ومـــن ذلـــك الوقت أصبحت واشو أماً متفانيةً للوليس، التى اكتسبت بمرور الوقت، مفـــردات تصـــل إلى خمســـين إشارة من واشو وغيرها من قرود الشمبانزى فى الجماعـــة. ومن الواضح أن واشو كانت تأمل فى رؤية سيكوية حين أخبروها بأنها

سيكون لها طفل.

كـــان لودفيـــج فيتجنشتاين يعتقد أن الحيوانات قد تشعر بالخوف ولكنها لا تشعر بـــالأمل. وكـــتب فى الأربعيـــنيات: "يمكن للمرء أن يتخيل أن الحيوان غاضب أو خائف، تعيس أو سعيد، أو فى حالة من الإثارة. ولكن هل يمكن تخيل أن لديه أملاً؟ .... قـــد يظن الكلب أن سيده عند الباب. ولكن هل يستطيع أن يعتقد أيضاً أن سيده ســـيأتى بعد غد؟". ويزعم فيتجنشتاين بأن أولئك الذين تمكنوا من استخدام اللغة هم وحدهـــم الذيـــن يمكنهم أن يشعروا بالأمل. وهذا القول، ولا نقول الزعم، لم يتأكد فحسب حتى اليوم، وإنما لا يبدو أيضاً أن هناك سبباً وجيهاً للشك فى قدرة الحيوان عـــلى التخيل، بل قد يحلم أحلاماً عن المستقبل. قد تفتقر الحيوانات إلى لغة الأمل، غيـــر أن المشـــاعر الكامـــنة فى الأمل من المحتمل أن تكون مشتركة بين البشر والحيوانات على حد سواء. ذلك أنه إذا كانت الحيوانات تستطيع أن تتذكر الماضى وتحـــلم به، وإذا كان من الممكن إعادة بثّ الخوف فيها، فلماذا لا تستطيع أن تتخيل مستقبلاً وتعكسه بحيث يكون الخوف فيه غير ضروري؟

الفصل الرابع

الحب والصداقة

ذات مساء، فى الثلاثينيات، أحاطت مياه فيضان متصاعدة ماشوى وهى من الأفيال العاملة وصغيرها الذى يبلغ من العمر ثلاثة أشهر، وكان ذلك فى أعالى نهر تونجدوين فى بورما. فاندفع الذين يعملون مع الأفيال نحو النهر حين سمعوا الصغير يصرخ، غير أنهم لم يستطيعوا فعل أى شيء لنجدته، لأن الضفتين المنحدرتين كان ارتفاعهما يتراوح بين اثنى عشر وخمس عشر قدماً. وكانت أقدام ماشوى لا تزال راسخة فى قاع النهر، أما صغيرها فكان يطفو. فضمت ماشوى الرضيع إلى جسدها، فى كل مرة كانت تبدأ فيها الانجراف بعيداً، واستخدمت خرطومها كى تجر الصغير إلى الخلف ضد التيار. وسرعان ما سحبت مياه الفيضان الآخذة فى الارتفاع الصغير بسرعة فغاصت ماشوى إلى أسفل مجرى النهر لمسافة خمسين ياردة واستخلصت الصغير. وأسندت صغيرها على الضفة برأسها، ثم رفعته بخرطومها، وتراجعت إلى الوراء بقدميها الخلفيتين، ووضعته على أحد الشعاب الصخرية فوق مستوى المياه بخمس أقدام. ثم سقطت ماشوى مرة أخرى فى المياه الجارفة واختفت أسفل مجرى النهر.

فوجَّه المتعاملون مع الأفيال اهتمامهم إلى الصغير، الذى كان بالكاد يستطيع أن يتماسك فوق الشِّعْب، حيث كان يقف وهو يرتجف على بعد ثمانى أقدام إلى أسفل.

وبعد ذلك بنصف ساعة، نظر ج. هـ. وليامز، المدير البريطانى لمعسكر الأفيال، إلى الصغير ملياً وهو يتساءل كيف يستطيع أن ينقذه. عندئذ سمع: أكثر الأصوات التى سمعها فى حياته تعبيراً عن الحب. إذ عبرت ماشوى النهر واعتلت

الضـــفة وهى تشــق طريقها عائدة بأسرع ما أمكنها صائحة طوال الوقت – بزئير مُــتحدٍّ، فكــان هذا الزئير بالنسبة لطفلتها بمثابة نغم. إذ ركزت الأذنان الصغيرتان مصـــغية إلى الأصوات الوحيدة التى كانت تعنى شيئاً بالنسبة لها، أى نداءات أمها. وحيــن رأت ماشـــوى طفلتها آمنة على الجانب الآخر من النهر، تحول نداؤها إلى تــلك الغمغمــة التى يُعرف عن الأفيال أنها تُصدرها حين تكون مسرورة. وترك الفيـــلان حيــث كانـــا. وعـــند الصباح، عبرت ماشوى النهر، الذى لم يعد يموج بالفيضان، وكانت الفيلة الصغيرة قد أُبعدت عن الشّغب.

أنبل من أن تتصف به الحيوانات

يعـــتقد البشـــر، الذيـــن يُعَدون، فى نهاية الأمر، أول المخلوقات الاجتماعية أنهم يـــدرون ما الحب ويقدرونه تقديراً سامياً. ومع ذلك، فإن الكثيرين من المنظِّرين لا يعتبرونه انفعالاً. وإنما هو بالأحرى "دافع" شأنه شأن الجوع.

وســـواء أسُمى الحب دافعاً أم انفعالاً، فمن المحظور، فى معظم الدوائر العلمية، القول بأن الحيوانات تُحب. ولو كان وليامز من علماء سلوك الحيوان، لأحس بالقيد عـــلى اســـتخدام كـــلمة حـــب فى وصـــف تصـــرفات صدرت عن الفيلة ماشوى وصغيرتها. وربما كتب، بدلاً من ذلك، عن "الرابطة" بين ماشوى وصغيرتها. ولقد كتــبت عالمـــة الأحياء كاثرين روبرتس فى نقدها لكتاب هارى هارلو عن تجارب الحرمان تقول: "ألا يدرى أن حب البشر يختلف عن حب الحيوان من حيث النوع؟ ألا يعـــلم أن حب الأم البشرية يُعد فريداً لأن لديها فكرة مجردة عن الخير وأنه لهذا الســـبب يُعتبر الحب البشري، بخلاف الحب الحيواني، له بداياته فى أصل الوجود كـــرباط روحى بين الأم والطفل؟" فالحيوانات، بتعبير آخر، لا يمكنها أن تحب كما يفعل الناس لأن روابطها ليست روحية.

ويركـــز مـــنهج النشوء والارتقاء على قيمة البقاء الكامنة فى الحب ويضعه فى مرتبة أعلى من الصدق الانفعالي.إذ ذكر أحد الكتّاب الذين يكتبون للعامة أن هناك اتفاقاً ضمنياً عاماً بين الحيوانات على التناسل من أجل الحياة، وأضاف: "من المهم أن نتذكر ... أن هذه الحيوانات لا تُظهر حباً صادقاً وإنما هى لا تفعل سوى اتباع ما تمليه عليها جيناتها أو مورِّثاتها. فهى آلات لحفظ النوع، وأن مهمتها هى تكاثر

الجينات الخاصة بها فى وعاء الجينات. ولو أن ذكراً ما أحس أن شريكته يمكنها أن تُنشئ الصغار بدونه، فلسوف يختفى فى لمح البصر. غير إن هذا لن يكون هجراً كما نفهمه، ولسنا بحاجة للشعور بالأسف من أجل الأنثى. فكلاهما يتبع خطته فى اللعبة التى ستؤدى إلى أفضل وضع لجيناتهما – وهذا أسلوب تكيُّفى وبالتالي، جميل".

ومعظم الناس لا يقبل هذا كطريقة دقيقة للنظر إلى علاقاتهم العاطفية وأُسَرهم، أياً كانت نظرتهم العلمية للتزاوج بين البشر، ومع ذلك، لم يقرر أحد موضع الفارق فى هذه النقطة بين الحيوانات والناس. فهل أجمل "حب" بين البشر يكون هو ذلك الذى يسعى إلى توالد الجينات السائدة؟ كما أن وصفْ الحيوان، من ناحية، باعتباره آلة، ومن ناحية أخرى باعتباره كائناً قد يفكر ملياً فى أن "شريكته يمكنها أن تُنشئ الصغار بدونه" إنما هو أحد جوانب التناقض فى مثل هذا التفكير. وهذه الأقوال التى تلبس ثوب الموضوعية والتى تختزل تعقيد الحياة الداخلية فى حدود وظيفتها فقط، تتشابه مع بعضها تماماً. فلربما كانت للحب، أى الانفعال، قيمته فى حفظ النوع. وتحتج إليزابيث مارشال توماس بكلبين، ميشا، وماريا عندما تقول: قد يسود التحيز الشائع لفكرة أن الحب الرومانسي، مع مّا ينجم عنه من فائدة مثل الإخلاص، جنسياً، أو غير ذلك، ليس مفهوماً يمكن تطبيقه على الكلاب، وأن فعل هذا الشيء يُعدُّ من قبيل الأنسنة. وهذا غير صحيح. تماماً مثل أية قصة حب بين البشر، فإن قصة الحب بين ميشا وماريا تبين قيمة حفظ النوع الكامنة فى الحب الرومانسى. إذ ليست القوة التى جذبت روميو وجولييت بأقل قوة أو أهمية لو أنها حلت فى أنواع غير البشر، لأن قوة الرباط تؤكد للذكر أنه هو الأب وليس مجرد حيوان آخر، وأن كلاً من الوالدين فى حالة عقلية من التعاون حين يحين وقت تنشئة هؤلاء الأطفال. ورغم أن توماس لاحظت أن الانفعال يمكن أن يخدم أحد التبريرات العلمية العقلية، إلا أنها تعرضت لنقد بسبب استخدامها لكلمة حب بدلاً من كلمة رباط عند الكتابة عن الكلاب.

حب الوالدين للأبناء

يسبغ منهج النشوء والارتقاء عل حب الوالدين – مثل العناية بالصغار – قيمة كبيرة، كما أن حب الوالدين يسمح ببقاء المزيد من الصغار. فإذا قام الوالدان

بحماية صغارهما، يمكن للصغار النمو على نحو أفضل قبل أن يتعين عليها السعى على أنفسها. بل إن الرباح يمكنه أن يرث مكانة أمه فى الفريق، وتستطيع أنثى الدب الأسود أن تستعمل منطقة سيادة أمها وهى ما زالت فيها. فالحيوان الصغير يمكنه أن يتعلم طرقاً لحفظ النوع بينما هو لا يزال آمناً تحت حماية والده. وربما يعلمه الوالد بعض هذه الأشياء – وإن كان هذا لا يزال محل جدل.

وليست كل المخلوقات تحمى صغارها. فالسلحفاة تضع البيض فى الرمل وترحل. ومن المفترض أنها لا تتعرف على نسلها ناهيك عن أن تحبه. أما إذا كان هناك حيوان يضع البيض ويحرسه كما تفعل التماسيح، فلابد من وجود شيء يدفعها إلى أن تفعل ذلك، ثم يمنعها من أكل الصغار حين يفقس البيض، وليس من الضرورى أن يكون هذا هو الحب – بل قد تسببه آليات بسيطة مثل العزوف عن أكل البيض وصغار التماسيح. غير أن التعبير عن العناية قد يكون دليلاً على الشعور بالحب. كما أن التماسيح تفتش عن صغارها وتُخرجها من العش حين تفقس، وتحرس الرضَّع، وتحملها بين فكاكها وتستجيب بهمة لنداءاتها حين تكون فى ضيق. ويبدو أن إناث الفراش فى جنوب شرق آسيا تحرس بيضها وذلك بالوقوف فوقه. فربما يزيد هذا من فرصها فى البقاء. وعموماً، قد يستمر دور الأنثى أحياناً فى هذا السلوك إلى ما بعد الوفاة، حيث تستقر جثتها المتعفنة فوق كمية من البيض الذى لم يفقس بعد.

ولا تقنع أمهات العنكبوت الذئبة بالعناية ببيضها فحسب، وإنما تحمله فوق ظهورها. وقد يريد الوليد أن يتعلم مهارات فى الصيد. والأقرب احتمالاً أن الصغار تحتاج إلى حماية أثناء نموها. ويروى ج. ت. موجريدج قصة عنكبوت أمسكه من عارضة باب وقرر أن يحفظه فى الكحول. وكان يعلم أن العناكب تهتز وترتعش لوقت طويل بعد وضعها فى الكحول، وكان الاعتقاد حينئذ هو أن هذا رد فعل عكسي. فقد هز موجريدج العناكب الصغيرة من فوق ظهر الأم، وأسقط الأم فى الكحول. وبعد برهة حين اعتقد أن "حواسها قد ماتت" أسقط أطفالها الأربعة والعشرين أيضاً. ومما أثار الرعب فى قلبه أن أم العناكب مدت سيقانها وجذبت الأطفال تحتها، وظلت ممسكة بها حتى ماتت. وبعد هذه الحادثة، تحول موجريدج إلى استخدام الكلوروفورم.

هل يمكن لأنثى العنكبوت أن تحب أطفالها؟ أم كان وصولها إلى صغارها مجرد رد فعـل عكسي؟ ربما كان ذلك احتمالاً قائماً فى هذه الحالة، غير أن من الصعب تـأكيده. ففي وسع المرء أن يتخيل أن هناك غريزة عند العنكبوت للاقتراب تماماً مـن أى شـيء يشبه طفل العنكبوت. أو لعلها قبضت على أى أشياء تَصادَف أنها كانت تطفو فى الكحول. إن العنكبوت الذئبة يمكن أن تكون عطوفاً حتى على أبناء الغرباء من العناكب مثل عطفها نحو أبنائها. وقد يصاحب ذلك حالة انفعالية وقد لا يصاحبه.

هـل تحب أنثى العنكبوت بيضها؟ هذا شيء يشبِّهه الكاتب جون كرومبتون بحب صندوق من كرات البلياردو. فمن العسير بمكان أن ينفذ المرء ببصيرته داخل عقل العنكـبوت، إذ يستحيل ذلك تقريباً اعتماداً على معلوماتنا الحاضرة. ومع ذلك، فإن العـناكب قد تطورت بحيث تنتج سموماً معقدة وسوائل هضمية، وتنسج حرائر من أنـواع متبايـنة مـن ستة أنواع مختلفة من غدد الحرير،ويُعدُّ بناء نسيج للعنكبوت سـلوكاً بـالغ التعقيد. لذا، ففى إمكان المرء أن يجادل بأن العنكبوت ليس حقاً كياناً عضـوياً بسيطاً، وأن تطور حب الأم لديه يمكن أن يكون خطوة نشوئية أقصر من بـناء النسيج. وقد نعلم يوماً ما. فما عساه أن يكون الأمر لو اكتشفنا أنه حين ترى أنـثى العنكـبوت الذئـبة عـناكب صغيرة، يفيض جسدها بهرمون يرتبط وجوده بمشـاعر الحب فى الحيوانات الأرقى؟ وهل يكون ذلك دليلاً عل أن أنثى العنكبوت تحب صغارها؟ وماذا لو كان هذا الهرمون خاصاً بالعناكب؟ فهل يعنى ذلك أن هذا الشعور لم يكن حباً؟

حين نحاول أن نفهم الحياة الداخلية لمخلوقات تختلف عنا كل هذا الاختلاف، فمن المفيـد والدقيق ألا نفكر فى بناء هرمى بستوى الإنسان على قمته، وإنما فى نطاق واسـع مـن جماعات المخلوقات، فقد تكون للعنكبوت حياة داخلية ثرية مع فوضى من الانفعالات، بما فيها بعض الأشياء التى هى من الاختلاف بحيث يكون استخدام مجال انفعالنا كمقياس مجرد خطوة نحو الفشل.

وعلى الرغم من أن الخلاف حول إمكانية إحساس العناكب بالحب الأبوى ما زال حـاداً، إلا إنـه ليـس كذلك بالنسبة للحيوانات "الأرقى".ذلك أن سلوكها من التعقيد بحيـث إن صـرف الـنظر عـنه واعتباره نتيجة بحتة لأعمال الزجر، أو الردود

المنعكســة، أو أنماط الأفعال الثابتة يصبح بالتأكيد شيئاً غير كافٍ. فالعناية الأبوية تُعــرب عن نفسها فى إطعام الصغار وتنظيفها واللعب معها وحمايتها من الأخطار الخارجيــة ومــن انعــدام الخبرة لديها. وهناك ثدييات – حتى "البدائية" منها مثل البلاتيــبوس(*) وآكلات النمل ذات العمود الفقرى – تُرضع صغارها. وتكون الأم المرضــع عُرْضــة لــلخطر بشدة بشكل يجعلها نادراً ما تسمح لنفسها بأن تختلط بالحيوانات البالغة؛ مما يتناقض مع كثير مما تدعو إليه الغرائز الحمائية.

ولا تكون الثدييات الصغار فى حال أكثر أمناً سوى فى أعشاشها. وفى سلسلة من الــتجارب التقــليدية التى أُجريت على الفئران، وضع الباحثون أطفال الفئران فى أرضــيات أقفــاص. فاتضح أن أمهات الفئران، وفى بعض الحالات إناث الفئران اللاتى لم تنجب أطفالاً، أصبحت غيورة ومتحمسة لتخليص الأطفال وإحضارها إلى جحورهــا. إذ استطاعت اجتياز شبكة كهربائية، كى تصل إلى الأطفال وتخلص تلك التى لا تمت لهن بقرابة، بنفس السرعة التى تخلص بها أقربائها.

وإرضــاءً لفضول الباحثين فى رؤية المدى الذى يستمر فيه ذلك، عرضوا على فــأرة واحــدة ما لا يقل عن ثمانية وخمسين طفلاً فالتقطتها كلها واحداً بعد الآخر وكدســتها فى جحــرها "بــدا أن تلهُّف الأنثى ظل حتى النهاية كما كان فى بداية التجربة التى اضطررنا لإنهائها، إذ لم يكن لدينا المزيد من الصغار تحت تصرفنا". وهذا السلوك لا يدعم فرص بقائها.

وبالمثل حين يتسلق علماء الأحياء الشعاب كى يجمعوا طيور المور (وهى طيور بحرية تشبه البطريق) ذات المناقير السميكة، فإن معظم الكبار تطير بعيداً فى حالة من الذعر، غير أن قلة من الطيور القوية تثبت فى مكانها. والأفراخ المذعورة التى طــار آباؤها تبحث عن الكبار الباقين. فكما لاحظ علماء الطيور البحرية أنه "ليس مــن غيــر الشائع أن ترى طيراً يحاول عبثاً أن يؤوى عشرة أو أكثر من الأفراخ الصغيرة".

(*)البلاتيبوس: حيوان مائى ثديى من الحيوانات الأسترالية ويشبه منقاره منقار البطة.

وعلى النقيض من الفئران الغيورة المتحمسة والمور الذى لديه دافع، فإن أنثى الوعل (تيس الجبل) النوبى التى تحمل ثلاثة توائم بدلاً من اثنين يُقال عنها إنها ترفض أحد الأخشاف(*)، إذ إنه من المفترض أن أنثاه لا تستطيع أن تنتج لبناً يكفى لثلاثة، لذا فهى إذا احتضنتها جميعاً فلسوف تعانى الأطفال كلها من سوء التغذية. ويمكن أن يكون سلوك "قارب النجاة هذا" أيضاً صيغة من صيغ الحب المسئول أخلاقياً. وحين تموت معظم أشبال اللبؤة أو تُقتل، فقد تتخلى اللبؤة عن الشبل الأخير. ويرى بعض علماء الأحياء أنه من غير المناسب لها من حيث الطاقة أن تضع الجهد الذى كانت تبذله فى تربية عدد من الصغار الوليدة كله فى تنشئة شبل واحد فقط، حيث يمكنها أن تلد من جديد فى وقت أسرع إذا لم تفعل ذلك، وأن "غريزتها الاستثمارية" تدلها على ذلك. وماهية الإحساس الغريزى بالاستثمار وكيف يشعر به الحيوان وجوانب اختلاف هذا الإحساس عن الإحساس باتخاذ قرارات حرجة بدافع الحب نتيجة لقيود مفروضة، شيء غير واضح. والمعروف عن الآباء من البشر، أنهم يُقدمون على تصرفات مماثلة. ومن غير المعروف حتى الآن ماذا يدور فى عقل الوعل أو أنثى الغزال أو اللبؤة فى هذا الموقف.

فبينما تتقدم الثدييات فى العمر، يقوم آباؤها بتغذيتها. وبعض الحيوانات تترك الصغار ببساطة تسرق قطعاً من الطعام الخاص بها، بينما يُحضر الآخرون الطعام للصغار. وقد يبدأ طائر من طيور المحيطات بلفظ الطعام المهضوم جزئياً من أجل صغيره. وحين يصبح الصغير فى سن أكبر، ينتقل الوالد إلى إحضار سمكة كاملة يمسكها حتى يتمكن الصغير من القبض عليها جيداً. وبينما تتقدم أطفال الحيوانات فى العمر، فإن معظمها يلعب أحياناً مع الحيوانات الوليدة وأحياناً مع والديها. ومن الممكن أن تكون الحيوانات الصغيرة فظّة مع الكبار، وهذا أمر يعرفه أى شخص يلاحظ صغار القطط والكلاب. حيث علق علماء الأحياء الذين يدرسون الكلاب البرية فى أفريقيا بأنه حين تحضر الكلاب الطعام للأم وأطفالها التى تبلغ من العمر ثلاثة أسابيع، تكون الكلاب الصغيرة عدوانية أثناء أخذ نصيبها من هذا الطعام. فإذا أخذت أمها قطعة من اللحم كان الكلب الصغير يريدها لنفسه، نجده يخدش جانب

(*)الخشف: ولد الظبى.

وجههـا بأسنانه الحادة وهى تترك له قطعة اللحم. وكانت الصغار الأكبر سناً تتبع الكـلاب الـبالغة الـتى تقوم بالصيد وتستولى على جيف الفريسة، وأحياناً تعض مؤخرة تلك الكلاب كى تجعلها تسرع.

وتعد حماية الصغار من أهم مهام الوالدين. فالحيوانات الوليدة تكون صغيرة جداً وعاجزة عن الدفاع عن نفسها وتُعتبر وجبات مرغوبة بالنسبة للضوارى. وبعض الآبـاء يحمون صغارهم عن طريق إخفائهم. وفى أحيان أخرى يتحتم على الوالدين أن يقاتلا كى ينقذا صغارهما. وفى مثال شائع، شوهد أسد وهو يهاجم قطيعاً يتكون مـن سـت زرافـات. فجرى معظمها، إلا إن واحداً كان بطيئاً لأنه كان صغيراً. وحـاولت أمـه أن تدفعه كى يعدو أسرع ولكن حين رأت عدم جدوى ذلك، وقفت أمـام طفلها الصغير وواجهت الأسد. وبذلك كانت الأم عُرْضة لخطر كبير بما أن الأسـود تنجح مراراً فى قتل الزراف. فدار الأسد حول الزرافة، والتفتت الأم كى تواجهـه. وكلما اقترب، كانت تركله بساقيها الأماميتين. وبعد مرور ساعة، استسلم الأسد وذهب. وانضمت الزرافتان إلى القطيع مرة أخرى.

إن اسـتعداد والـدى الحيوانـات للقتال دفاعاً عن صغارهما شيء معروف تمام المعـرفة، بمـا أن البشـر هم دائماً مصدر التهديد. غير أن البشر من قوة التهديد بحيـث إن مثل هذه المواجهات نادراً ما تتطور إلى قتال فعلي. وآخر عش لكركى يـنعق وُجـد فى الولايـات المتحدة فى أيوا، حيث عثر عليه عالم الطيور وجامع الـبيض ج. و. بريسـتون الذى كتب يقول: "حين اقتربت من العش، جرى الطير عائداً بعد أن كان قد سار بعيداً إلى مسافة ما ... ناشراً جناحيه وذيله ومدلياً رأسه وكـتفيه بحيـث صـار عـلى مستوى الماء، ثم بدأ فى التقاط كميات من العصى والطحـالب ألقى بها إلى أسفل بطريقة متحدية، ثم نشر نفسه فوق الماء بهيئة تثير الشـفقة وأخـذ يتوسـل إلى أن أترك كنزه أى (بيضه) وهو ما لم أفعله، بل كان سـلوكى خالياً من الإحساس". ومن الممكن أن يكون هذا الكركى ذكراً أو أنثى بما أن كليهما يرقد على البيض.

وتحـاول الحيوانـات أيضـاً أن تنقذ صغارها من أخطار غير تلك المتوقعة من الضـواري، كما حدث فى حالة القطة التى لم تطأ الماء فى حياتها، غير أنها قفزت داخـل أحد حمامات السباحة كى تنقذ صغارها. وفى خليج هادسون مر المستكشف

بيتر فرويتشن بأسرة من ستة ذئاب، اثنين من الكبار وأربعة صغار. وكانت الذئاب تعوي. إذ إن أحد الصغار وقع فى فخ نُصب على كومة من الحجارة وُضعت فوق مخــبأ للطعام. فقلبت الذئاب الكثير من الحجارة الكبيرة وأخذت تحفر الأرض حتى جمدهـــا الجـــليد حول الحجر الذى نُصب فيه الفخ فى محاولة جاهدة لتحرير الذئب الصغير. وحين يحمى البشر صغارهم بهذه الطريقة نسمى هذا حباً. وبما أن الكثير مـــن الأمثلة التى تُساق تتحدث عن حب الأمهات، فيجدر بنا التأكيد على أن الحب الأبـــوى ظاهر فى بعض الأنواع. وتُقدِّر الإحصائيات نسبة العناية الأبوية المباشرة بعشرة فى المائة فى أجناس الثدييات. وتتراوح العناية الأبوية بين الاهتمام الضئيل إلى الـــتفرغ والعاطفـــة الشديدين للطفل. لقد وصف جيرالد دريل، أحد المحافظين عـــلى البيـــئة، مولد القشة ذى القمة القطنية (وهو قرد أمريكى صغير) فى حديقة حيـــوان جيـــرزي. إذ إنه ما إن وضعت الأم التوءم المعتاد من القِشة حتى أخذهما الأب وقام بتنظيفهما، وحملهما فى كل مكان يذهب إليه، كل منهما على أحد ردفيه ولم يكن يعيدهما للأم إلا من أجل الرضاعة. ومع نمو الصغيرين، اعتاد كل منهما عـــلى تـــرك جانبه كى يستكشف الأشياء بنفسه. وكان إذا أحس بوجود شيء يهدد أمـــنهما، اندفـــع بسرعة واختطفهما. ويتصرف آباء قرود القشة البرية من الأنواع المختـــلفة بنفس الطريقة. فهى غالباً تبذل المساعدة عند الولادة. ولقد شُوهدت قرود القِشـــة ذات الـــرؤوس الـــتى تشبه رؤوس الأسود وهى تقطع الثمار بين أصابعها للأطفـــال حيـــن تـــبدأ فترة الفطام. وآباء القرود البومية (نسبة إلى البوم)، وتُعرف أحيانـــاً بالقـــرود الليـــلية، هى أيضاً عادة ما تحمل رُضَّعها وتلعب معها وتشاركها الطعـــام. ونـــتيجة لذلـــك، فإن القرد البومى غالباً ما يجر الأم والأبناء الأكبر سناً ويصـــل إلى أشجار الفاكهة حين تكون قد نضبت جزئياً وتُرضع الأم الطفل وتعيده إلى الأب. إذ كـــان "ســـمادج" مضحكاً فى سعيه الدائب وتلهُّفه للعناية بأطفاله: من حيـــث اجتهاده كزوج. فقبل أن يأخذ قضمة لنفسه، كان يجمع أكبر كمية من الطعام يحمـــلها فكه، ويدسها بعناية فائقة عند الأم وايت بوز (ذات المخالب البيضاء). ثم يغـــنى غناءً خافتاً عذباً عند المدخل. فإذا لم تظهر الصغار، استخدم أنفه مثل عصا البلياردو كى يُدخل الطعام عبر المدخل إلى العرين

وحين كبر الأشبال، كانت طموحات سمادج تتركز فى أن يلعب معها وهو شيء لم تكــن الأم أو أخواتها لتسمح به دائماً. "كان سمادج يتسكع بين النباتات أملاً فى أن تــنام خالتهم (الآذان الكبيرة) وما إن تستغرق فى النوم، حتى يغنى بهدوء وصوت خــافت للصغار التى اعتادت أن تتسلً للًعب معه بخفة ونشاط. وسرعان ما يؤدى صــخبهما إلى صــراخ وضجيج يُوقظ الآذان الكبيرة فتوبخ سمادج بقوة". ويزعم نمــوذج التحــليل النفســى للمنافســة العدائية بين الآباء والأبناء أن هذا يمثل سُنّة الطــبيعة. إذ إن التحليل النفسي، شأنه شأن علم الاجتماع، جُلّ اهتمامه منحصر فى إثــبات الملاحظــات التى تؤيد النظريات الموروثة. وهناك ميل إلى تجاهل الأمثلة المضــادة: فالآباء من الحمار الوحشى (المخطط) تظل على علاقة جيدة مع الكبار مــن أبنائها التى تترك القطيع، بمرور الوقت، ولكن ليس لأنها طُردت، وإنما لأنها تــبحث عــن آخرين للًعب معها. وفى إحدى المرات، قرر الباحثون الذى يدرسون الحمار الوحشى البرى أن يضعوا علامة على أحد الذكور الذى كان ما يزال يعيش وســط قطيــع أبيه وهو فى الرابعة والنصف من عمره، وذلك كى يتتبعوا رحلاته التالية. ومما أحزنهم أن كمَّ المخدر الذى استخدموه لوضع علامة على الصغير قتله فجــاء الحمار العجوز إلى الجثة مراراً وحاول إيقاظه. وبعد ذلك، فى نفس اليوم، قضى الأب ساعات يهيم بين قطيع وآخر، وهو ينادى على ابنه.

ونــلمس العناية الأبوية المباشرة فى الكثير من أنواع الطيور، بما فى ذلك طائر الكيوي(*) ففى حالته يلقح الأب البيض ويربى الأفراخ دون عون من الأم.

وهــناك الكثير من الأمثلة الأخرى، فالقندس أو السمور(**) يلعب مع أبنائه والذئب الأب يــترك أبــناءه تداعب ذيله بأسنانها والأب النمس القزم يأخذ أبناءه معه لجمع العــلف – ويــبدو أنــه يحب أبناءه أو يستمتع بصحبتهم على الأقل. يبدو أن أبوى الحيــوان يتصرفان من قبيل الحب لأبنائهما بهذه الطرق وغيرها وأن المجادلة بأن هــذا الحــب لا يمكن مقارنته بحب البشر، كما يفعل الكثيرون من المنظِّرين، تُعدُّ

(*)الكيوي: طائر لا جناحى من نيوزيلندا.

(**) السمور: حيوان من القوارض سميك الفراء.

مــثالاً كلاســيكياً على ما يسميه روجر فوتس السترة المطاطية، التى تختلف فيها القياسات اعتماداً على ما إذا كان السلوك بشرياً أو غير بشري.

وعــند النظر فيما إذا كان من الممكن معرفة محبة القردة الأم لطفلها، من المفيد أن نسأل إذا كان من الممكن معرفة ما إذا كان الناس العاديون يحبون أطفالهم. إنهم يحــتاجون إليهــم ويعتنون بهم، يدغدغونهم ويداعبونـهم ويدافعون بكل ما أوتوا من قــوة عــنهم. ولكن هذا كله لا يُعدُّ دليلاً فى حالة القرد. وعلى عكس القرد، يمكن للــناس العاديين أن يقولوا إنهم يحبون طفلهم ولكن كيف يتسنى لنا أن نتبين صدق قولهــم؟ إذ فى نهايــة الأمــر، لا نستطيع أن نعرف، على وجه الدقة، ماذا يعنيه الآخــرون حين يتحدثون عن الحب. غير أننا، فى الحقيقة، عادة ما نكون على تمام التأكد من أنهم يحبون ذلك الطفل. وإذا ما رأينا والدين لديهما طفل لا يحبانه، نشعر بالصــدمة، ونحــس بالعار والغضب حين نسمع عن الإساءة للأطفال، ويرجع هذا جزئياً، إلى اعتقادنا أن علاقة الحب قد انتُهكت.

والحقيقــة أن معظــم الناس يعلمون، أن القرود والكلاب والقطط تحب صغارها. وقــد يصــدق معظم العلماء ذلك أيضاً رغم أنهم قد يترددون فى الاعتراف به فى وثيقــة علمية. ومع ذلك، قد يعارض مراقب متشكك قائلاً؛ إن القردة تتصرف مع طفــلها عــلى أســاس مجرد من الغريزة البحتة. أليس من الممكن أيضاً أن البشر العــاديين يتصــرفون بواقع الغريزة؟ هذا يتوقف على ما إذا كان الحب معرَّفاً بأنه غريــزة أم لا. وفى أى مــن الحالــتين، إذا ما سُمى الحب غريزة، فهل هذا يعنى انعدام وجود أى شعور بالحب؟

وعــلى الجــانب الآخــر من حب الوالدين، هناك حب الأبناء لوالديهم، إنه حب الشــاب أو الشــابة للوالدين وهو حب يصعب تحديده. إذ يمكن للمتشكك أن يجادل ببســاطة بــأن أى مظهر للارتباط من جانب أى حيوان بوالديه ما هو إلا مصلحة ذاتيــة، حــتى إذا لعقــت صغار النمور أمها أو جرت صغار الذئب لتحية والدها. وعــادة، لا تقاتل صغار الحيوانات كى تحمى والديها. ومع ذلك، حاول بول، وهو ربــاح مراهق، الدفاع عن أمه فى مواجهة حيواناتٌ رباح من كبار الذكور الضخام فى الجماعــة. ولم يُوفق تماماً، غير أن مراقباً علمياً شعر أنه خاطر بالكثير دفاعاً عــن أمــه.وكــثير من الحيوانات الشابة، حين تتقدم فى السن، تتردد جداً فى ترك

أسَــرها حتى يصبح لزاماً على والديها سحبها بعيداً. غير أن هذا وحده لا يمكن أن يثــبت أنها تحب والديها. إذ قد يُعزى هذا إلى خوفها من افتقاد الأمن أو ما اعتادت عليه من سكن وذهابها إلى أرض مجهولة. فالشمبانزى تظل عادة فى نفس جماعة أمهاتهــا. وتقضى الوقت معها، وقد تساعد القِرَدة الشابة أمهاتها فى العناية بالجيل القــادم. كذلك، فإن الأفيال تحيا فى قطعان أمومية مستقرة وتتعاون معاً بطرق غير عاديــة. وتقــوم خــالات الأفيــال بأدوار مهمة فى العناية بالأطفال. وفى إحدى مســتعمرات حيوانــات الرباح الأسيرة، أبعد القائمون بالتجارب الإناث بمجرد أن بــدأت عندها الدورة الشهرية بعد مولد طفل. وكانت أغلب الأطفال تبلغ من العمر ستة أشهر كما كانت لا تصحب الأمهات. فكانت الإناث الأخرى فى الجماعة تتولى رعايــتها. وكــانت الأمهــات الأصلية تعود بعد مرور سبعة أو ثمانية أشهر، إلى المستعمرة، غالباً تحت التخدير. وفى كل مرة كانت أنثى الرباح تُحمل فاقدة الوعى إلى الداخــل، كــان طفلها ينطق نداءات "الطفل التائه". وعند إعادتها إلى المحمية، كــان الطفل يعود إليها وتُستأنف علاقة الأم والطفل. وحيوانات الرباح عادة تفضل أن تحيا بمفردها، ومع ذلك قد يختار أحد الأطفال البقاء مع أمه البديلة.

وتصف جين جودال رد فعل أحد ذكور الشمبانزى ويُدْعى فلينت، (الصوان) تُوفِّيت أمــه فلُو، وهو فى الثامنة من عمره حيث جلس فلينت فوق جثة فلو عدة ساعات، وأخــذ يشــد يدهــا بين الحين والآخر. ومع مرور الأيام، ازداد إحساسه بالجمود العــاطفى كما أصابه الخدَر والتبلُّد. وثمة مثال جدير بالملاحظة حدث بعد وفاة أمه بثلاثة أيام، إذ شوهد وهو يصعد إحدى الأشجار، ويحملق فى عش النوم الذى كان يشــارك أمــه فيــه قبل ذلك بأيام قليلة. فازداد سكونه مع الوقت وتُوفِّى فى نفس الشــهر، ربما متأثراً بالتهاب فى المعدة. وكان استنتاج جودال العلمي: "ربما كانت الاضــطرابات النفســية والجســدية المرتــبطة بالفقد هى التى جعلته أكثر عُرضة لــلمرض". ويقتــبس سان مونتجمرى فهم جودال الجاف لنفس الفكرة بتعبير آخر؛ قائلاً: "لقد مات فلينت نتيجة للحزن".

التبنِّى

تظهــر مرونة حب الوالدين بين تلك الحيوانات التى تتبنَّى أطفالاً لا تنتمى إليها. ويقــوم الباحثون المختصون بدراسة الدببة السوداء بإقناع الإناث البرية بانتظام بأن

تتبنى الأشبال اليتامى. وقد اختطف الباحثون فى أفريقيا الحيوانات الصغيرة والشابة من نوع قردة الهمدراس وأطلقوا سراحها بالقرب من جماعات لا تمتُّ لها بالقرابة. وبــلا استثناء قامت حيوانات الرباح الشابة بتبنِّى هذه القردة الصغيرة والعناية بها فى حنان. وبصفة عامة، كلما كان الطفل أصغر، زادت إمكانية تبنِّيه.

بــل إن قــدراً أكــبر مــن المرونة فى حب الوالدين يظهر فى أمثلة تتبنى فيها الحيوانـــات صغار أنواع أخرى. ذلك أن القائمين بالتجارب الذين منحوا الفأرة الأم فرصة تبنى ثمانية وخمسين طفلاً استمروا فى منح الأمهات الفئران أطفالاً أخرى. كمـــا أنهـــا استنقذت قططاً صغاراً وحاولت منع القائمين على التجارب من أخذها خارج الجحر مرة أخرى. ولكن بما أن القطط الصغيرة تتلقى العناية من أم راقدة، وأمهـــات الفئران تقوم بالعناية أو التغذية من وضع الوقوف، لم تتمكن الفئران من إرضاع صغار القطط بالرغم من محاولاتها الدائبة لجعلها فى الوضع الملائم. ولما كـــان القـــائمون على التجارب راغبين فى معرفة المدى الذى يمكن أن يصل إليه ذلـــك، فقـــد جلبوا فردين من نوع صغير الحجم من الكتاكيت فحاولت الفئران "بكل لهفة ولعدة مرات" أن تأخذ هذه الكتاكيت فى جحورها. وازداد الأمر سوءاً؛ ذلك أن الكـــتاكيت "ارتفع صياحها وأخذت تتحرك بقوة" حين حاولت الفئران أن تمسك بها من رقابها وتجرها إلى بيوتها.

وتوجـــد بالطـــبع حـــالات لا حصـــر لهـــا لقطط أو كلاب قامت بتبنى الظربان الأمـــريكي(*) والخنازير الصغيرة اليتيمة، وكثيراً ما تُعرض صور لعائلات غريبة كهذه فى الصحف. وهناك قصة غير عادية لتبنٍّ غير معتاد دون تدخل من البشر.

فـــفى نوريـــبس هـــول، بالقرب من كرومر، مقر سير بكستون الراحل، أنشئت مســـتعمرة كـــبيرة للبـــبغاوات والمقاوات(**) وأُعِد منزل لها بالقرب من البيت فى معـــرض كـــبير للطيور، وبها حظائر كى ترقد فيها. غير أن الطيور، عادة، كانت تفضـــل الغابـــات ... ولا تحضر إلى البيت إلا وقت تناول الطعام، حيث كان يأتى طائـــر مـــع صـــغاره ذوات الـــريش المبهج لدى سماع صوت الملعقة على العلبة

(*) الظربان الأمريكي: حيوان ثديى نتن الرائحة.

(**) المقاوات: ببغاوات أمريكية ضخمة طويلة الذيل.

الصـــفيح الـــتى يُقدم لها فيها الطعام وهى ترفرف حول المكان، هابطة إلى مكان الإطعام فى مشهد تندر رؤيته فى إنجلترا. ولما كانت الحظائر، عملياً، مهجورة فى ذلـــك الوقت فقد حضرت إحدى القطط واتخذت منها مكاناً مناسباً لوضع صغارها فيه. وبينما كانت القطة الأم بعيداً تجمع الطعام، قامت إحدى إناث الببغاوات بزيارة للمكان عن طريق المصادفة، ووجدت القطط الصغار فى عشها، فتبنّتها على الفور وكأنها أبناؤها، ووجدها أحد رجال ليدى بكستون وهى تغطى أطفالها الأغراب التى تبنتها بجناحيها.

وثمـــة أنواع أخرى يبدو أنها لا تُتبنى كما يقول الباحثون، فإن صغير الثيتل الذى يضـــل عـــن أمه بين القطعان الكبيرة لن يتبناه أحد وسيهلك. وهذا يثير مسألة مدى تقديـــر الانـــتقاء فى الحب. وعندما يخفق الآباء فى تحديد انتماء أطفالهم إليهم من عدمـــه، يؤثـــر عليهم ذلك تأثيراً سيئاً. لكنهم لا يحبون أيضاً أن يُؤخذ عليهم سوء معاملة أطفال غيرهم. وما من سبب يرجح تناقض أى من الفعلين مع الحب الأبوى أكثر من الفعل الآخر، وإن كنا نُقدّر أحدهما أكثر.

طبع السمات

قـــد تشُب صغار الإوز والبط مرتبطة بأى مخلوق بعد الفقس بفترة طويلة بل قد تتـــبعه، ذلك أنها تصبح "مدموغة" بهذا المخلوق. وبهذا المعنى لا تولد البطة البرية لـــتحب البطة البرية دون سواها، وكذلك الحال بالنسبة للبطة النهرية الصغيرة. بل يبدو أنها تحب أى مخلوق يتبين أنه أول من اعتنى بها. بالنسبة للبطة البرية يكون هـــذا المخـــلوق عادة بطة برية أخرى وهذا يصح بالنسبة للبطة النهرية الصغيرة، غيـــر أنه من الشائع تعلُق البط البرى الذى يربيه البشر بوالديه البديلين. وكثيراً ما يُقـــال عـــن الحيوانـــات التى يربيها البشر: "إنه يظن أنه إنسان". أو لعله يظن أن الإنسان بط بري. وكلا الظنين يصور المرونة الكامنة فى حب الأبناء.

ويمكـــن أن يمـــتد الحـــب فيشمل أعضاء الأسرة الآخرين بالإضافة إلى الوالدين والأبـــناء. إذ وُجـــد أن أحد صغار الأفيال البرية شغوف بجدته تريزا شغفه بأمه. فكـــان كثيراً ما يرضع من ثدى أمه، ثم يذهب إلى تريزا التى تبلغ من العمر أكثر مـــن خمســـين سنة، ويقف معها ويتبعها. فى الكثير من أنواع الحيوان، من القندس

حــتى الشــق (قرد رشيق الحركة) قد تبقى الصغار مع والديها وتساعد فى تربية النســل الصغير. فغالباً ما يبقى القيوط الصغير مع والديه ويُعين فى تنشئة الصغار الجدد القادمين. ومن الواضح أن الترتيب الذى يُشار إليه بعبارة الأمومة الكاملة أو المجمعــة يفيد الوالدين، اللذين يحتاجان إلى كل عون يستطيعان الحصول عليه، فى عمــلية تنشــئة الصغار، كما أن هذا يفيد الصغار، التى تتمتع بعدد أكبر من الكبار التى تُعنى بها. فى بعض الحالات، يكون المساعدون أقرباء للوالدين، وليسوا أقرباء للصــغار. فــإذا ما قُتل الوالدان، يمكن للأقرباء الأقرب سناً أو العمات والخالات والأعمــام والأخــوال أن تــربى الصغار ما لم تكنٍ أصغر من اللازم. ففى إحدى مجموعــات الكلاب البرية فى السافانا الأفريقية، تُوفِّيت أم لتسعة من الصغارٍ حين كــان عمــرها خمسة أسابيع. وواضح أنها كانت قد بلغت من العمر ما يمكّنها من الــتحول إلى الطعام العادى (أى ليست فى حاجة إلى رضاعة) لأن بقية المجموعة، المؤلفة من خمسة ذكور، قامت بتربيتها بنجاح.

لقــد قام علماء أحياء النشوء بتحديد عدد من الطرق يفيد بها هذا السلوك الأقرباء والعمــات والأعمام. مع تجنُّب أى ذكر للشغف. فربما أتاح ذلك للأقرباء مزيداً من الوقــت لتعــلُّم مهــارات القنص. فإذا لم توجد أراضى قيوط متاحة، فستُعفى من ضــرورة الخروج، والقتال من أجل الحصول على واحدة من هذه الأراضي. كذلك فــهى تــزيد مــن فرص انتقال مورِّثاتها (جيناتها) من جيل إلى جيل، فى أطفالها الصــغار، وبــنات الأخوات والأخوات، وكذلك أبناء الإخوة والأخوات. ولكن من الممكن أيضاً أنها تحب أسَرها.

وتــبقى حيوانــات القيوط مع والديها عادة وتساعد على العناية بإخوتها الأصغر سناً. إذ رأى فرانسوا باتينود الذى كان يراقب القنادس الصغيرة، فى كندا، أن الذى يبــلغ ســنة من العمر يتولى تنظيف الرضَّع وجَلْب الطعام لهم. بينما تلزم الأسرة مســكنها طــوال فترة الشتاء. وفى أكثر من مناسبة واحدة، حين كان أحد القنادس الصــغيرة يسقط فى الماء عند مدخل المسكن، كان يلتقطه من يبلغ من العمر عاماً، ويحملــه بين ذراعيه إلى أرض المسكن الجافة. (فى إمكان القنادس أن تسير على أرجــلها الخلفية وتحمل الأشياء فى أرجلها الأمامية، بما فى ذلك القنادس الصغيرة

جـــداً)، وبعد ذلك كانت القنادس الصغيرة تلعب مع الصغار من إخوتها وتُعين على أداء أى جانب من الرعاية التى يقدمها الوالدان، اللهم إلا الرضاعة، بالطبع.

الحيوانات الاجتماعية

غالـــباً مـــا تتصرف الحيوانات الاجتماعية التى تعيش فى جماعات بطريقة ودية نحـــو الأعضاء الآخرين من الجماعة، ولو كانت من غير الأقرباء. فجماعات قرد الـــرباح أو قطعان الحمار الوحشى أو الأفيال ليست مجرد تجمهرات من الغرباء. وقـــد يـــتجاوز ذلك بكثير سلوك التسامح، وينطوى على نوع من الاحتياج. فالقرد الـــذى يُحـــبس وحيداً قد يعمل فى مقابل رؤية قرود أخرى معه، بنفس الهمة التى يعمـــل بهـــا قـــرد مـــا للحصول على طعام. فالحيوانات التى تعيش فى جماعات اجـــتماعية لديهـــا علاقات مع بعضها البعض، وبعض هذه العلاقات يكون عاطفياً. فاللـــبؤات قـــد تقوم بدور جليسات الأطفال لبعضها البعض كما تفعل، أحياناً، قطط المـــنازل. وتشكل جماعات قرد الرباح أحلافاً مع غيرها، وتستطيع الاعتماد عليها فى الوقوف إلى جانبها فى المنازعات.

ويـــبدو أن الأفيال تقدم عوناً مادياً منتظماً لبعض أعضاء القطيع الذى تنتمى إليه. إذ اعـــتاد أحـــد القطعـــان الأفريقية أن يسافر دائماً ببطء لأن واحداً من أعضائه لم يُشـــفَ تمامـــاً من كسر فى ساقه كان قد أُصيب به وهو طفل. وروى أحد حراس الحدائق أنه مر بقطيع به أنثى تحمل طفلاً كان قد مات منذ عدة أيام وكانت تضعه عـــلى الأرض إذا ما أكلت أو شربت: فكانت تسافر ببطء شديد وكانت بقية الأفيال تنتظرها. وهذا يوحى بأن الحيوانات، شأنها شأن البشر، تتصرف بناءً على مشاعر بمعنى كلمة مشاعر: وليس فقط لمجرد أغراض الحفاظ على النوع. كما توحى بأن المعالجـــة النشـــوئية لم تعد كافية لتفسير مشاعر الحيوان مثلما هى لا تكفى لتفسير مشـــاعر الإنسان. وقد لا يطرح مثال بسيط كهذا تحدياً للنسق النشوئى بأكمله مهما كانت دقة توثيقه، غير أنه يطرح أسئلة مازال على علماء الأحياء أن يجدوا أجوبة لهـــا. إذ يبدو أن هناك قدراً قليلاً من قيمة حفظ النوع فى سلوك هذا القطيع، حتى إنـــه ربما كان على المرء أن يعتقد بأنها تصرفت على هذا النحو لأنها كانت تحب صديقتها المحزونة التى كانت بدورها تحب طفلها الميت، ولذا أرادت أن تساعدها.

وكما هو الحال مع البشر، أحياناً تمتزج العاطفة، عند الحيوان مع الإعجاب ويمكن أن تنساب إلى أنواع أخرى أيضاً.

فالذئـــاب تُظهر ما يبدو أنه إعجاب للمتسيد من الذئاب فى جماعتها. وفى قريب الذئــب الوثيــق، أى الكــلب، جعــلت هــذه المقدرة على الإعجاب بالزعماء من الاســتئناس عمــلية ناجحة. ذلك أن الكلب العادى – فى لهفته على بعث البهجة – يعامل مالكه بنفس الطريقة التى يعامل بها الذئب الألفا من الذئاب.

وهــناك حيوانــات اجتماعية أخرى على استعداد لأن تمنح البشر هذا النوع من المكانة. ويبدو أن الباحثة جينيفر زيليجز، التى تدرس سباع البحر وتدربها، تحظى بهــذا الوضع، مع حيوانات التجارب الخاصة بها. ذلك أن نجاحها فى تدريبها على اســتخلاص شيء من تحت الماء وأداء مهام أخرى يبدو نتيجة لرغبتها فى جعلها مسرورة وأن تنال ثناءها وانتباهها. وهى لا تكافئها بالطعام، فهى لا تعمل معها إلا بعد تناولها للطعام. يمكن للمرء أن يعترض قائلاً، إن هذا ليس حباً لأن سباع البحر تحصــل عــلى اللذة من زيليجز: الاهتمام والعناية والمرح. وهذا هو السبب الذى يجعــلها تعطيهــا الاهتمام كما تفعل. ولكن هل الحب البشرى يختلف عن ذلك أى اخــتلاف؟ وهل يجب أن يكون الحب بلا مقابل حتى يكون حباً صادقاً؟ المسألة هى أن ســباع الــبحر تبدو قادرة على الحب والعاطفة. وكونها، تحت ظروف خاصة، وأنهــا تنشــر مشاعرها إلى ما وراء نوعها، أى الأنواع الغريبة عنها، يبين بعض الظــروف الملائمة لهذه المشاعر فحسب. فيمكن لسبعيْن من سباع البحر أن يحسا بالعاطفــة نحو بعضهما، وتستفيد زيليجز من امتداد هذا الشعور نحو كائن بشري. وأحيانــاً مــا تبدو فائدة السلوك الاجتماعى واضحة، ولكن فى أحيان أخرى تكون الميزة أقل وضوحاً.

لقد بينت دراسة هانز كروكو على الضباع المنقطة أن سلوكها الاجتماعى كان ذا ميزة عالية؛ ولكنه تحير حين وجه انتباهه نحو حيوان الغرير(*) الأوروبي، فبالرغم مــن أنها تحيا معاً فى جحور جماعية أو (مساكن) إلا إن حيوانات الغُرير لا تبحث

(*) الغرير: حيوان ثديى قصير غزير الفرو يحتفر الأرض ليسكن فيها.

عن الطعام معاً، أو تقوم بالدورية على أرضها معاً، أو تدافع عن بعضها أو تتعاون معاً لتربية صغارها.

"ليس لحيوانات الغُرير صرخة تحذير مؤثرة، لذا فهى لا تحذر أعضاء العشيرة من الخطر المحدق". والفائدة المادية الوحيدة التى أمكن لكروكو الإشارة إليها هى عادة نومها متلاصقة حتى يبعث ذلك فيها الدفء. فإذا صح القول بأن الحياة الاجتماعية لا تعطى لحيوان الغرير ميزة حفظ النوع، إذن فلماذا تحيا معاً؟ ربما كان ذلك يرجع ببساطة إلى أنها تستمتع بالصحبة.

الصداقة

عادة، لا تكون الحيوانات ودودة سوى مع حيوانات من نوعها. وتظهر استثناءات مهمة بين الحيوانات الأسيرة، التى غالباً ما تكون معزولة عن حيوانات أخرى من نوعها، أو مقيدة مع حيوانات من نوع آخر. فى هذه الظروف تقيم بعض الحيوانات صداقة مع حيوانات من أنواع أخرى بما فيها البشر.

فى إحدى المرات حبس جون تيل نفسه عندما كان يُجرى تجارب على تربية الثيران المعرضة للخطر، معها فى إحدى الحظائر حين جرت بعض الكلاب نحوه. ومما أدهشه أن الثيران أخذت تتشممه وتضرب الأرض بأقدامها واندفعت كالرعد نحوه. وقبل أن يتمكن من الحركة، شكلت حلقة دفاعية حوله، وخفضت قرونها مشيرة إلى الكلاب. وهذه هى الطريقة التى كانت الثيران تحمى بها صغارها من الضوارى.

غير أن الصداقة مع حيوان من نوع آخر لا تضمن وجود صداقة مع النوع بأكمله: إذ إن إحدى إناث الفهود تربَّت مع إحدى إناث الكلاب وكانت تحب اللعب معها؛ ولكنها حاولت أن تقتل كلاباً أخرى بما فى ذلك تلك الكلاب التى كانت تشبه صديقتها. ولقد شوهدت الحيوانات البرية فى روابط ودية، مع ما فى ذلك من ندرة. إذ ألمت الدهشة بعالم الأحياء ميكيل جيجليرى وهو ينتظر بصبر قرود الشمبانزى كى تأتى إلى شجرة مثمرة، فى غابات تنزانيا المطيرة، وحين وصل أول شمبانزى، ذكر، وصل فى صحبة رباح بالغ.

ولا تُستقبل مبادرات الصداقة دائماً بالترحاب. فالكلاب البرية والضباع فى المحميات يُعدان متنافسين يسرقان الفرائس من بعضهما البعض بانتظام. لقد سرقت ضباع منقطة فريسة من جماعة من الكلاب البرية التى طاردت أحد الضباع وعضت ردفه بشراسة، حتى إنه جلس فى حفرة وأخذ يزمجر حتى ذهبت الكلاب. غير أنه، فى ذلك المساء، حين رقدت الكلاب البرية مع قدوم الليل، وكانت الضباع تتلصص اقترب ضبع صغير (مازال ناعم الفرو) من الكلب البري، باسكرفيل، وأخذ يتشممه بحماس. هز باسكرفيل ذيله وزمجر، ولكن فى كل مرة كان يحاول أن يعود للنوم، كانت الضباع تتقدم أقرب قليلاً. وبدأ الضبع الصغير يلعق باسكرفيل ويتمسَّح به. وتصنَّع باسكرفيل، فى البداية، أنه يتجاهل هذا. ويمكن للمراقبين أن يقولوا إنه لم يكن نائماً، ذلك لأن عينه كانت تتسع كلما استمر الضبع الصغير فى هذا التودُّد الاجتماعي. وانكمش باسكرفيل على شكل كرة محكمة وأخذ ينظر خلسة، غير أن الضبع رقد بهدوء إلى جانبه، وعلى ما يبدو أنه كان مستعداً أن يستقر بقية الليلة. وكأن هذا فاق الحد بالنسبة لباسكرفيل. فقفز على أقدامه ونبح بصوت مرتفع. فاستيقظت الجماعة وتحركت من المكان – وتبعتها سبعة ضباع منقطة. وبمرور الوقت، تمكنت الكلاب البرية من أن تفر من الضباع، ولكن حين قتلت غزالة فى الصباح التالي، سرقتها الضباع منها. وإذا عرفنا العلاقة بين الضباع والكلاب البرية، فلن يكون من الصعب فهم السبب الذى جعل باسكرفيل يرفض مبادرات الضبع الصغير. وربما تَلَقى الكثير من اللفتات بين الضباع والكلاب البرية استجابات باردة لأسباب متشابهة.

وأحياناً تقيم الحيوانات صداقات رغم اختلاف النوع من قبيل اليأس. فقد حدث فى مدغشقر أن وقع حيوان من نوع الهبار البنى(*) فى فخ ونُقل إلى منطقة أخرى، حيث هرب. ولم يكن هناك هبارات بنية، لذا انضم إلى جماعة من الهبارات ذات الذيل الحلقي. وهذا النوع له ألوان مختلفة، ونداءات خاصة، وغدد للرائحة، وعادات لوضع العلامات. ولم ترحب تلك القردة بهذا الهبار البني، غير أنها تحملته. واستسلم الذكور لرغباته، وعلى هذا، أصبح، بالتعريف والتحديد هو الذكر

(*)الهَبار البنى: حيوان طويل الذنب من فصيلة القردة.

المتسـيد فـوق الجماعة. ولم تكن الإناث تسمح له بالتعرف على رائحتها كعلامة مميزة وعادة ما كانت لا تسمح له بالجلوس بالقرب منها أو العناية بنظافتها. وأثناء أحد مواسم التناسل حا ل أن يتودد إلى إحدى الإناث وتُدعى جرين، لكنها لم تسمح لــه بالجلوس معها سـ ى خمس مرات بعد أن قام بأربع وعشرين محاولة ورفضت التناسـل معـه، رغم أنها تناسلت مع بعض القردة ذات الذيول الحلقية. وكان أكثر استقبال ودى قُوبل به هو من الشابة التى لم تسمح له بالجلوس معها فحسب، وإنما اهتمت بتنظيفه وكانت تبادر نحوه من آن لآخر. فبينما كان قبوله فى الجماعة قبولاً جزئياً، إلا إن الواضح أن هذا كان يعنى الكثير بالنسبة له.

حتى الحيوان الذى لا يُعدُ اجتماعياً قد يقيم صداقات فى الأسر. فالأسلوت(*) التى تُعـدُ عادة حيوانات منعزلة، يمكن أن تصبح شديدة الود مع البشر. ولما تحير بول ليهـاوزن مـن حرارة الود الذى لقيته به قطته من الأسلوت، فكّر فى أن مثل هذه القطط تتمتع بمقدرة على أن تكون ودودة وهى صغيرة، ولكن ما إن تصل إلى سن البلوغ حتى تعجز عن تحمُّل رؤية قطط أخرى منافسة لها أو دخيلة عليها. وصاغ افتراضـاً مـؤداه أن البشر متشابهون بما يكفى لمصادقتهم، كما أنهم من الاختلاف بحيـث يستبعد اعتبارهم غرماء: "وهكذا، فإن الصداقة الصادقة والملائمة من نوع مـا والـتى قـد لا تطرأ قط بين القطط أنفسها، تُعد ممكنة بين البشر وأعضاء من أنـواع مختـلفة من القطط الانعزالية" وبعبارة أخرى، لو كان الافتراض المذكور سـالفاً صـحيحاً فإن القطة البرية الانعزالية يمكن أن تكون حقاً صديقة لغيرها من القطـط، ولكـن شـعورها نحوها يكون مثل شعور الشخص غريب الأطوار الذى يسـيء لـلجميع، ثـم حيـن يسأله أحد عن السبب الذى يجعله بلا أصدقاء يجيب مندهشـاً، كـنت أتمنى أن يكون لى أصدقاء، غير أن جميع الناس شديدو الفظاعة! والبشـر حيـن لا يكونون أسرى لنوعهم يقيمون صداقات مناسبة. والبشر عادة ما يكونـون مصـدر خشـية. وإذا أتحنا للقنادس البرية الوقت الكافي، فسوف تتحمل البشر لو أحسنوا التصرف معها.

(*)الأسلوت: قطط برية أمريكية متوسطة الحجم ذات فراء أصفر وبها علامات سوداء.

ولـو قدم البشر طعاماً مفضلاً للقنادس، فإنها سترتبط بهم، إلى درجة السماح لهم بالتسلُق إلى جحورها للحصول على طعام ذى مذاق خاص. وهى تميز البشر الذين تعـرفهم عن الغرباء. ومع ذلك، لا يوجد سبب يدعونا إلى الافتراض بأن القنادس تستمتع بالفعل بصحبة البشر. فانعدام الخوف لا يساوى الصداقة.

غالـباً مـا تطـرأ على الصداقة بين الناس والحيوانات حين يكون الحيوان من الحيوانات الأليفة المدللة. والحيوانات لها أيضاً ما تدلِّله أحياناً وعادة تكون من بين حيوانات الأسْر، حيث إن امتلاك حيوان مدلل نوع من الترف. فقد أُعطيت لوسي، وهى شـمبانزى يربيها البشر، قطة كى تخفف من وطأة عزلتها. فى المرة الأولى الـتى رأت فيهـا القطة، أصابها الفزع. وبعد أن صرخت فيها، أمسكتها وألقت بها على الأرض، وأخذت تضربها وحاولت عضها. وكان لقاؤهما الثانى مماثلاً للأول، غيـر أنهـا كانت أكثر هدوءاً فى لقائهما الثالث، وبينما كانت تجول حول المكان، كانت القطة تتبعها، وبعد نصف ساعة التقطتها لوسي، وقبّلتها وعانقتها، مشيرة إلى تغييـر تـام فى الاتجاه. وبالتالي، أخذت فى تنظيف القطة، وجعلها تنام فى المهد، وكـانت تحملها باستمرار، وبنَت أعشاشاً من أجلها، وكانت تحرسها من البشر. لقد تصرفت كما يتصرف الأطفال الصغار العاطفيون دون أن يكون لديهم فكرة كاملة عمـا يسُـرّ حيوانـاتهم المدلـلة. "ولم يبد أن القطة متلهفة على أن تحملها القردة الشمبانزي" ولم ترغب فى التعلّق ببطن لوسي، لذا كانت تحملها إما فى إحدى يديها أو تحـثّها عـلى الركوب على ظهرها. وأظهرت كوكي، الغوريلا رقة شديدة نحو قطـة مدللة أسمتها بنفسها "أُولْ بُولْ". وهذا يشبه الحب، بشكل مثير، الحب الحقيقى لأنه يحدث بغض النظر عن قيم حفظ النوع.

ومـن الشـائع أن تقيـم الخيـل صداقات مع غيرها من الحيوانات مثل الماعز. وتحـرص عـلى عـدم التسبب فى أى أذى لها. وهناك روايات عديدة عن خيول السباق التى تفتر همتها وتكتئب حين تُفصل عن صديقاتها من الماعز. ويمكن تماماً أن تكـون هذه الماعز هى المكافئ للحيوانات المدللة. ولا تخلط الخيل بين الأنواع: فـهى تعـرف أن الماعز ليست حصاناً. غير أنها تحبها على أية حال. لقد ذكرت الـتقارير أن أحد الأفيال الأسيرة كان، يضع بصفة روتينية، جانباً قليلاً من الحبوب الخاصة به لفأر حتى يأكله.

الحب الرومانسى

بقــدر مــا يُعجب الناس بالصداقة والحب الأُسَري، فإننا نقدّر الحب الرومانسى تقديراً كبيراً، ذلك الحد ، الذى تحيطه أعلى درجات الشك عند وصف الحيوانات به. ويعتــبر الكــثيرون أ ، الحــب الرومانسى من الندرة، حتى إنهم يعتقدون أن البشر الذيــن ينــتمون لثقاف ـِ أخرى لا يشعرون به فضلاً عن الحيوانات. لقد أخذ الناس يــزعمون أن فكرة الحب الرومانسى بأكملها اختُلقت فى أوروبا العصور الوسطى، وأنهــا لا تعــدو أن تكون تزجية للفراغ لدى أبناء الطبقة الراقية وحدهم. على أية حال، فإن علماء الإ سان الذين يقومون بدراسة الكائنات البشرية رفضوا اعتبار هذا الحــب موضــوعاً للدراســة، حتى عقدت الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية أولى جلســاتها الخاصــة بأنــثروبولوجيا الخيال أو الرومانسية عام ١٩٩٢. وقال عالم الأنــثروبولوجيا وليام جانكوياك، إن تنظيم الجلسة استغرق من وقته ثلاث سنوات. "كــنت أطــلب الــناس بالتليفون وكانوا لا يزيدون عن أن يضحكوا". وحين سُئل جانكوياك لِمَ هذا التجاهل للحب الرومانسي؟ أجاب بأن الباحثين يفترضون "أن هذا الــنمط مــن الحــب نمط تراثي". كما أوحى بتحامل ضد المدلول اللغوي. إذ كان "النموذج السائد لهذا الحب نموذج لُغوى غير فعلي. فلولا اللغة، لما كانت له أهمية تُذكــر". ولا تفتقر بعض الثقافات لألفاظ تعنى الحب الرومانسي، فحسب، وإنما هو غيــر معرّف فى المعجم الأنثروبولوجى "إنهم هم أنفسهم ليس لديهم تصنيف خاص لذلك".

قــال جانكوياك، إنه حين طلب من الزملاء أن يقدموا إسهاماتهم للجلسة الخاصة بــالحب قيل له على سبيل الإجابة، إن الحب الرومانسى لا يوجد فى الثقافات التى يقومــون بدراستها، فكان يسأل عما إذا كانت للناس فى هذه الثقافات علاقات خفية عــلى الإطــلاق؟ أو أنهم رفضوا قط زواج المصلحة؟ أو الزواج المرتب سلفاً؟ أو هل هربوا أو انتحروا بسبب الحب؟ فكانت الإجابة، هى نعم، إن أشياء كهذه تحدث دائماً، غير أن الباحثين لم يتفحصوها أو يتابعوها.

وثمــة سبب آخر لتجاهل الحب الرومانسى فى الثقافات الأخرى هو الافتراض بأنه مُتكــلَّف. وكمــا قال تشارلز ليندهولم، وهو أحد الرواد فى هذا المجال: "إن النسق العــام فى الأنثروبولوجيا، كما هو الحال فى غيره من العلوم الاجتماعية، هو نسق

نفعـــي، ويصل بالفائدة إلى الحد الأقصى. ولا يبدو أن الحب الرومانسى يلائم هذا النسق ملاءمة جيدة. فعندما يكون هناك أناس يضحون بحياتهم فى سبيل الآخرين، يتـــناقض هذا مع الوصول بالفائدة إلى حدها الأقصى ...". ثم ضحك. "وجزء آخر مـــن المسألة، إنه محرج! فأنت تسأل الناس فى علاقات شخصية. وعلماء الإنسان، شأنهم شأن غيرهم، لا يحسون بالراحة وهم يسألون الناس عن ذلك". وحتى الوسط الأكـــاديمى لم يحبذ دراسة الحب. "إنه نوع من طراز الأشياء التى تهتم بها المرأة. وهو ليس مفيداً لحياتك العملية".

إن جميـــع هـــذه العوامل – انحطاط الحب إلى حد اعتباره ترفاً، أو شيئا أنثوياً، وغيـــاب المدلـــول الـــلغوي، والتأكيد على المنفعة، والإحراج، والافتقار إلى إطار نظري، بل حتى شواغل الحياة العملية – قد تساعد على تفسير النقص الموازى فى دراسة الرومانسية بين الحيوانات.

ومع ذلك، فقد زعمت جين جودال، التى ألقى عملها الضوء على الحياة الانفعالية عـــند الشـــمبانزي، بأن الشمبانزى لا يعرف الحب الرومانسي. وهى تصف قردى الشـــمبانزى بوش وفيجان، اللذين أظهرا مراراً ميلاً نحو بعضهما حين كان بوش نشيطاً جنسياً، فهما يتركان الجماعة ويذهبان معاً إلى الغابة لبضعة أيام. وهذا على الـــنقيض من الشمبانزى التى تظل مع الجماعة الأكبر وهى نشيطة جنسياً. فتكتب جودال قائلة: "لا أستطيع تخيُّل الشمبانزى يطور انفعالات، الواحد منها نحو الآخر، بحيـــث تُقارن، بأى شكل، بالرقة وحب الحماية، والتسامح، والبهجة الروحية التى تُعـــدّ علامات مميّزة للحب الإنسانى فى أعمق وأصدق معانيه ... وأقصى ما يمكن لأنـــثى الشـــمبانزى أن تـــتوقعه من المتقدم لها هو فترة وجيزة من عرض التقرب واتصـــال جنســـى يســـتغرق، عـــلى الأكثر نصف دقيقة، وأحياناً جلسة من التودد الاجـــتماعى بعـــد ذلك. فالحب الرومانسى والغموض، ونشوة الحب الإنسانى غير المحـــدودة لـــم تُخلق لها". ربما كان هذا صحيحاً. ومع ذلك فنحن لا نفهم تماماً ما تحـــس بـــه الشمبانزي، كما لا نعرف عن وجود نشوة غير محدودة تنشأ من حب قـــردة تشعر به الشمبانزى ولا نعرفه. فبعض الحيوانات تكوّن أزواجاً مدى الحياة، أى تـــبقى معـــاً طالمـــا يحيا كلاهما. وبعض الحيوانات تتزاوج لمدة موسم واحد، وأخرى تتناسل وتنفصل فوراً.

ومـن بين الحيوانات التى تكوّن علاقات لفترات طويلة، تلك التى تشكل أزواجاً وأخـرى تشكل جماعات أكبر، مثل الثلاثيات، أو جماعة الأفيال "الحريم" وغالباً ما يصـف علماء البيولوجيا النشوئية التزاوج باعتباره وسيلة لضمان عناية كافية من الوالديـن، غير أنه لا يوجد دليل مؤكد على هذا الحال. فالسمكة الفراشة فى هاواى بشعاب أيان (تشيدونتيداد) يُقال إنها لا تقدم أية عناية أبوية للبيض أو اليرقات، ومع ذلك فهى تنشئ علاقات زوجية دائمة.

قـد يُقـال بعدم وجود عاطفة بين الحيوانات التى لا تكوّن شراكة، والتى تتناسل ثم تنفصل، ولكن هذا غير منطقي. فلقد وصف أ. ج، و ب.فالكينبيرج اللذان استخدما طائـرة صـغيرة لـتعقُّب حيوان الشّره(*) عبر التندورة(**)، تناسُل تلك الحيوانات الـنادرة الانعـزالية. فهما يكتبان، إن معظم تناسل الشره بالنسبة للمراقب، يتم بين الذكـور العدوانيـة والإنـاث المتمـنّعة، فلقد اندهشا من سلوك إحدى الإناث التى أسـمياها ف (٩) وذكـر غير معروف. إذ انضمت ف (٩) إلى الذكر، لاستكشاف صخرة على التندورة. ولعبا. وتدحرجا على الأرض. واستراحت ف (٩) مثل كلب أطاش الفرح صوابه ونشرت ذيلها ثم قفزت بعيداً. وحين لم يستجب الذكر لها وهى تتشـممه، اسـتدارت ف (٩) ودفعته بردفيها. وبعد اللعب، استراحا وتناسلا. وبعد ذلك بيومين، انفصلا، وقد لا يلتقيان مرة أخرى.

وهـذا يُعدُّ تفاعلاً ودياً مرحاً وليس شهوة من جانب واحد، أو ترتيباً ملائماً. فهل مـن المعقول أن نسميه حباً؟ استلطافاً؟ مصلحة متبادلة؟ لقد كانت ف (٩) تبلغ من العمـر عامـاً، لـذا يمكن أن نعزو دلالها ولعبها إلى شبابها. ولكن حتى إذا نبعت انفعالاتهـا وانفعالات الذكر من شبابها، فلن يعنى هذا أن هذه الانفعالات لم توجد. وقـد يزعم أحد بأنه أياً كان الشعور الذى يحس به أحد هذين الحيوانين نحو الآخر فـلا يمكـن أن يكون حباً، لأن اللقاء شديد القِصَر. غير أن استخدام المدة كمقياس سليم للحب، كفيل بأن يستبعد كثيراً من الحب بين البشر.

(*)الشّره: حيوان ثديى كثير اللحم فى أمريكا الشمالية.

(**) التندورة: سهل قطبى بلا شجر.

"فــفى نهايــة الأمر، يا حبيبة الماضى البعيد، يا من لم تعودى محبوبة الآن، هل علينا أن نقول إن ما بيننا لم يكن حباً لمجرد أنه تلاشى؟".

بل من المعقول أن نقول إن ف (٩) وزوجها قد استمتعا بصحبة بعضهما البعض خــلال تلك الأيام القليلة، وإنهما استلطفا بعضهما. إذ لم تكن بهما حاجة للَّعب معاً، وهما فعلاً كذلك لأنهما أرادا ذلك.

وإذا كان من المشكوك فيه إسباغ رومانسية على حيوان الشره وعلاقته القصيرة، فماذا عن الحيوانات التى تتناسل مدى الحياة؟ هذه الحيوانات تتحاب وتتناسل وتربى الصــغار وتصــحب بعضها بعضاً حين لا تكون مشغولة بتربية الصغار. وأحياناً تكــون فى جماعــة أكبر من الحيوانات، مثل قطيع البجع. وفى أوقات أخرى، قد تترك الجماعة، كما يحدث حين تبنى البجع أعشاشها. فالرفيقان عادة ما يكبران معاً ويُعــنى الواحــد منهما بالآخر، وفى بعض الأحيان يجمعان الطعام معاً. وعادة ما يُطعــم كل منهما الآخر، لمجرد التودد أو حين يكون أحدهما مقيماً مع نسل صغير جــداً. فى معظــم الأنواع، يقتصر النشاط الجنسى على فترة قصيرة. وأكثر الأدلة شيوعاً على الحب بين زوجين هو الحزن الذى يظهر حين يموت أحد الزوجين.

ويصــف كونــراد لورنز سلوك ذكر الإوز أدو، كمثال نموذجى حين قتل ثعلب رفيقــته ســوزان إليزابيث. إذ وقف فى صمت إلى جانب جسدها الذى كان قد أكل بعضه، والذى كان ممدداً بالقرب من عشهما. وفى الأيام التالية، أحنى جسده ودلًى رأســه. وصــارت عيناه غائرتين. وتهاوت مكانته بين القطيع، حيث لم تتوافر له الشجاعة كى يدافع عن نفسه، من هجمات غيره من الإوز، وبعد عام، استجمع أدو نفسه، والتقى بإوزة أخرى.

وقــد تقع الحيوانات فى الحب بشكل درامى مثير. إذ قال كونراد لورنو، إن إوز إيتو جريلاج أكثر عُرْضة للوقوع فى الحب حين يكون كل منهما يعرف الآخر منذ الصغر، ثم انفصلا والتقيا مرة أخرى. وقارن ذلك بإنسان مندهش وهو يسأل: "هل أنتِ نفس البنت الصغيرة التى اعتدت رؤيتها تجرى حول المكان بضفائرها وحُلِيِّها الصغيرة؟". ثم يستمر قائلاً: "هذه هى الطريقة التى التقيت بها بزوجتي".

وطبقاً لما تقوله مستشارة سلوك الببغاوات ماتى سو أثان "من الشائع بالنسبة للأنواع الأكبر من الببغاوات أن تقع فى الحب من أول نظرة، ويُعرف هذا بالصاعقة".

ولا تقع الحيوانات فى الحب مع أى حيوان فحسب. فقد اشترت أثان ببغاء ككتوة (ببغاء ذات عُرف) كرفيقة لذكر من نفس النوع وكانت ذات ريش جميل ووضعتها معه. ومما أحزن أثان "أنها تصرفت وكأنه ليس فى الحجرة". وبعد ذلك ببضعة أشهر، جلبت له أنثى أكبر سناً فى حالة سيئة. وكانت تنزع ريشها بنفسها وهذا من عواقب الأَسْر. "ولم يكن لها ريش من رقبتها إلى أسفل. وكان جلد قدميها منكمشاً وكانت التجاعيد منتشرة حول منقارها. لكنها كانت حب حياته". وعلى الفور، تزاوج الطائران وبدءا فى تربية سلسلة من الأطفال من نوع الككتوة.

ومن بين الأمور التى تبعث على اليأس عند حراس حدائق الحيوان أنهم يعرفون أن الكثير من أنواع الحيوانات، ومن بينها إنسان الغابة، من أشد الحيوانات تدقيقاً فى الاختيار رغم أنها لا تكوّن زيجات دائمة فى الطبيعة البرية. ومما لا شك فيه أن الحيوانات البرية انتقائية أيضاً، غير أن هذا أقل وضوحاً، بما أنها ليست محبوسة مع شركاء تناسبها. فتيمي، وهى غوريلا فى حديقة حيوان كليفلاند، لم يستطع أن يساير اثنتين من إناث الغوريلا اللتين قُدِّمتا إليه ورفض أن يتناسل معهما، ولكنه حين التقى بغوريلا تُسمى كاتي، ائتلفا على الفور، فى اللعب والتناسل والنوم معاً. وحين اكتشف عمال الحديقة أن كاتى عقيم، قرروا أن يرسلوا تيمى إلى حديقة أخرى حيث يمكن أن يجد فرصة للإنجاب، ويسهم فى مخزون الجينات لنوعه المعرض للخطر. وحين ظهر احتجاج عام ضد فكرة فصل تيمى وكاتي، تميز مدير الحديقة من الغضب. "إنى أحس بالقرف حين يبدأ البشر فى خلع الانفعالات البشرية على الحيوان، كما أن هذا يحط من شأن الإنسان. إذ لا يجب أن نعتبرها نوعاً من الكيانات البشرية الرائعة، فهى فى النهاية حيوانات. وحين يبدأ الناس فى القول بأن للحيوانات انفعالات، فهم يجاوزون حد الحقيقة". إن رد فعله الملتهب يبين مدى ما يمكن أن يصل إليه الخوف من الأنسنة حتى بين من يعملون مع الحيوانات، بالرغم من تعبيراتهم بالفرح ببعضهم البعض.

فإذا ما تُركت الحيوانات لحالها، فهل تُعَّد وفية لبعضها بعضاً؟

لقد حدث اهتمام كبير بالمعدلات الكبيرة للخيانة بين بعض الطيور المغردة (سواء أكـــانت ذكـــوراً أم إناثـــاً) والتى أظهرها التحليل الوراثى للوالدين ونسبهم وكذلك بملاحظـــات والـــدى الطيور ميدانياً. ومن غير المدهش، أن العلماء لم ينهمكوا فى تجـــارب أوبـــرا هـــزلية كى يتحققوا مما إذا كانت الطيور المغردة تقاوم الإغراء الرومانســـي، مـــع إنه من المعلوم أن بعض الحيوانات تبدو بالفعل رافضة لفرص الخيانـــة. علي سبيل المثال، إن ذكور فأر الحقل التى تنشئ علاقة زوجية مع إناثها تطارد الفئران الأخرى من الجنسين لإبعادها.

وأحيانـــاً تنشئ إناث الأفيال الأفريقية فى استرونس علاقات زوجية مع الذكور، غيـــر إنه ليس من الواضح ما إذا كانت هذه الإناث تفضل ذكراً معيناً، ولا تميل إلا إلى صـــحبته، أم أنها تكسب الحماية من ملاحقة غيره من الذكور لأن تلك الأفيال تهـــاجم من يقترب من الأفيال الأخرى بشراسة. ووفقاً لما ذكرته سينثيا موس، فإن ســـلوك الـــتزاوج شيء تتعلمه إناث الأفيال بما أن الإناث الصغيرات التى لا تقيم زيجات "يمكن أن تُطارد وتتم مضايقتها" من جانب الكثير من الذكور.

ولا تـــبدو إناث أنواع أخرى من الحيوانات بمظهر الضعف، فحيوان وحيد القرن فى سرنجيتى رغم ما عُرف عنه من حبه للوحدة يُنشئ أحياناً علاقات ثنائية خلال فترة التبويض لدى الأنثى. ولقد رأى أحد المراقبين ذكر أحد الزوجين يتجول بعيداً، ثم ظهر ذكر آخر وسعى إلى التناسل، ولم ينل سوى الطرد بعيداً من جانب الأنثى. ثـــم عاد الذكر الذى تزاوجت معه من جولته وتناسلا على الفور. ومن الواضح، أن مـــا جعل الأنثى ترفض الذكر الثانى ليس راجعاً ببساطة إلى عدم الاهتمام بالتناسل وإنمـــا هـــو العاطفـــة الشخصية الانتقائية. وفى ضوء هذه الملاحظات، يجوز أن الطيور التى تظل وفية لمن تتناسل معه إنما تُظهر وفاءً قائماً على المشاعر، وليس عـــن انعـــدام الفـــرص، مـــع أن عدم الوفاء بين الطيور المغردة قد قُتل بحثاً. إن الإخلاص الذى تظهره وتبالغ فيه لأزواجها يُعطى دليلاً على الحب.

وتضـــرب بعض الطيور أمثلة شهيرة على الوفاء. فالإوز والبجع والبط الصينى كـــلها رمـــوز للإخلاص للحياة الزوجية، ويخبرنا علماء الأحياء الميدانيون أن هذه الصورة دقيقة. فحيوانات القيوط التى تُعتبر رمزاً للتحايل، يمكن أن تقدم أمثلة جيدة عـــلى الإخلاص، بالمثل، طالما كانت هناك زيجات دائمة. وتشير الملاحظات التى

تمت على القيوط الأسير بأنها تبدأ في تكوين زيجات حتى قبل أن تنشط جنسياً. فأزواج القيوط التي لاحظها هوب إيريدن تنكمش معاً، وتقتنص الفئران معاً ويحيِّي كل منها الآخر بحركات محكمة من هز الذيل واللعق، كما تُؤدِّي أصوات ثنائية (دويتوات). ويصف إيريدن اثنين من حيوان القيوط وهما يتناسلان بعد أن غنيا معاً. وبعد ذلك ربتت الأنثى على الذكر بمخلبها ولعقت وجهه. ثم انكمشا معاً كي يناما. وهذا يشبه، إلى حد كبير، الحب الرومانسي. وأياً كانت الفروق التي يمكن أن تُقال عن الحب بين اثنين من الناس والحب بين حيوانين، فإن الجوهر في الكثير من الأحيان يبدو واحداً.

وربما ظهرت عاطفة الحب لأن الحيوانات التي أحبت كانت أكثر نجاحاً، بمعنى أنها أنجبت عدداً أكبر من الأبناء من الحيوانات التي لم تجرب عاطفة الحب. غير أن علاقة الحب مرنة. إذ قد تحث الغريزة الحيوان على أن يُحب؛ لكنها لا تختار له من يحب، وإن كانت توحي له بإيحاءات قوية. والعلاقة العاطفية تُعلم الحيوان أن يحمي صغاره ويعتني بها؛ غير أنها لا تحدد الصغار. والبشر لا يختلفون اختلافاً كبيراً.

فالحيوان الذي يربيه نوع مختلف عنه يميل في غالب الأحيان، إلى عضو من نفس نوعه لتكوين رابطة زوجية بحيث يتميز بنفس القدرة على حب الرفيق. وقد تكون لديه غرائز محددة جداً لخطب ود الرفيق بطرق معينة. وحين كبرت تيكس – وهي أنثى كركي ناعق رباها البشر – وتأهبت للتناسل، رفضت ذكور الكركي وبدلاً من ذلك انجذبت "لرجال قوقازيين ذوي طول متوسط وشعر غامق". وبما أن الكركي الناعق قريبة جداً من الانقراض، فلقد كان من المهم تهيئة تيكس لحالة التناسل لكي يمكن تلقيحها صناعياً. ولكي يتم ذلك، أنفق مدير مدرسة الكركي الدولية جورج أرشيبولد، وهو رجل قوقازي، داكن الشعر، الكثير من الأسابيع في التودد إلى تيكس. "تضمنت واجباتي ساعات لا نهاية لها من التواجد معها والعديد من الدقائق من الرقص مرة في الصباح المبكر ومرة أخرى في المساء، ومسافات طويلة من المشي بحثاً عن ديدان الأرض وبناء الأعشاش، وكذلك الدفاع عن أرضنا ضد البشر". وتكلل الجهد بالنجاح ونتج عنه، بمرور الوقت فرخ كركي. فلو كانت رقصة الكركي الناعق وبناء الأعشاش من أنماط حياته الثابتة، لكان معنى

ذلــك أن الحــب دافع من الدوافع المتغلغلة داخل الطائر. لقد ارتكبت أنثى الكركى غــلطة لا دخل لها فيها. فلو أن تيكس ربتها طيور الكركى لوقعت فى حب أحدها، كمــا تفعل معظم طيور الكركي. ولو أن جورج أرشيبولد قد ربته طيور الكركي، ففى حب من كان سيقع؟

لقد وصف ماكسويل جافين فى كتابه ابحث عن أخيك قضاعة(*) تيبى التى كان قد رباهــا رّجــل عاش فى جزيرة فى مواجهة شاطئ اسكتلندا وكان يتنقل بعكازين. وحيــن أصبح مريضاً مرضاً خطيراً، أُحضرت تيبى لماكسويل وطُلب منه العناية بها. وبعد ذلك بوقت غير طويل، مات ولم يعد إليها.

ولــم تهــتم تيــــبى بالحياة فى المكان الذى نقلها ماكسويل إليه، واكتسبت عادة الهــرب وزيــارة أقرب قرية. وهناك وجدت رجلاً يستخدم عكازات فقررت الحياة معــه. وحــاولت أن تبنى عشاً تحت منزله، غير أنه طاردها إلى بعيد. وبعد ذلك بوقــت قصير، اختفت تيــبي. وذات يوم، تلقى ماكسويل مكالمة من شخص أصابه الفــزع مــن أنثى ثعلب بحر تتصرف تصرفات غريبة، حتى إنها حاولت أن تتبعه إلى داخــل المنزل. وكتب ماكسويل يقول: "تصرفت بناءً على إلهام مفاجئ، سألت هــل تَصــادَف بأية حال، أنك تستخدم عكازين؟ فأجابنى بالإيجاب، وكانت الدهشة بادية فى صوته، وكيف تأتّى لك بحق السماء أن تعرف ذلك؟" ربما تطبَّعت تيــبى عــلى الرجال الذين يستخدمون عكازات، أو ربما كانت مغرمة بمثل هؤلاء الناس لأنهم ذكّروها بالرجل العطوف الذى اختفى من حياتها.

بيــنما يعتقد الناس عامة فى قدرة الآخرين على الإحساس بالحب وتبادله، إلا أننا لا نشــك أحيانــاً فى أن شخصاً ما بعينه يحب شخصاً آخر، مهما كان ما يقولانه. فــالوالدان الــلذان لا يحبان أبناءهما حقيقة واقعة، وبعض الأبناء يكرهون والديهم، وبعض الأزواج والزوجات والإخوة والأخوات لا يحبون بعضهم البعض. غير أننا نستمر فى الاعتقاد – واليقين الداخلى – أن هناك أبناء ووالدين وأزواجاً وزوجات وأشقاء يحسون فعلاً بالحب. ومن المنطقى أن نطبّق نفس المقاييس على الحيوانات.

(*) القضاعة ثعلب الماء طويل الذَّنَب.

مــا سبب إهمال فكرة وجود حب بين الحيوانات إلى هذا الحد؟ ولماذا هبطنا إلى التفسيرات المملة نوعاً ما التى يسوقها المنهج الارتقائي؟ وهذه هى الآلية التى تُدرس فى الجامعـات بحيـث تمـر مدلولاتها الأعم دون تمحيص. وهى توحى بأنه كلما اتسـعت المهام التى يؤديها الحيوان الوالد، ازدادت ميزة وجود انفعال محدد واضح مثل الحب كدافع لتلك المهام. فلو أن سلوك الوالدين لا يتعدى الامتناع عن إطعام الأطفال، فلا داعى للدراما العاطفية. لكن إطعامهم، وتنظيفهم والمجازفة بحياتك من أجـلهم، - أو (ربمـا مـا هو أكثر مأن ذلك) مثل أن تدعهم يعضون أجزاءً من جسمك ويخطفون عشاءك، وأن تتحمل ضوضاءهم. كل هذا يعنى بالضرورة أنك تحـبهم حباً عميقاً، على الأقل، لبعض الوقت. غير أنه، فى التحليل البيولوجي، فإن الشـعور بالحب مهما كان عميقاً ليس إلا وسيلة لإنتاج أجيال تالية .. ونجد بدلاً مـن سـبب ظهور الحب إحدى الوظائف التى يخدمها. إن الأقوال "العلمية" عن الحب لم تمس سوى القليل من جوهره بشكل ملحوظ. فالحب بين امرأتين، أو بين رجـل ووالده، أو بين الناس والحيوانات التى تعيش معهم، وكذلك حب الحيوان لـلحيوان، هذا الحب نادراً ما يُلقى العلم الضوء عليه، بل إنه يُصبح محلاً للدهشة والـبهجة الـتى تنعكس فى الأقوال، والقصائد والروايات والخطابات. وهذا على العكس من طغيان التفسير البيولوجي البحت، ذلك أنه قد يوسع الأفق. وقد يبدو الحـب بـين الحيوانات شيئاً غامضاً ومبعث بلبلة، كما كان الحب بين البشر عبر القرون.

الفصل الخامس

الأسى والحزن وعظام الفيل

كـــانت البيولوجية مارسى هاول، تراقب وكراً عالياً فوق أحد الجبال الصخرية، وكـــان هذا الوكر لزوج من الباز الجوّال، آرثر وجيني، وكان كلا الوالدين منشغلاً فى إطعـــام أطفالهمـــا الخمسة الذين وُلدوا حديثاً. وذات صباح لم يزر العش سوى الذكر. ولم تظهر جينى مطلقاً وتغير سلوك آرثر تغيُّراً ملحوظاً. فحين وصل ومعه الطعـــام، انتظر إلى جانب العش مدة تصل إلى ساعة قبل أن يطير بعيداً ويبدأ فى القـــنص مرة أخرى، وهو شيء لم يفعله أبداً من قبل. وصاح مرة تلو الأخرى ثم أصـــغى ليستمع إلى رد رفيقته، كما أخذ ينظر داخل الوكر مُصدراً صوتاً متسائلاً، فبذلت هاول جهداً كبيراً كى تمنع نفسها من محاولة تفسير سلوكه على أنه توقّع أو خيـــبة أمـــل. ولم تظهر جينى فى اليوم التالى أو اليوم الذى يليه. وفى وقت متأخر من اليوم الثالث، وبينما كان آرثر متعلقاً فى أعلى العش أصدر صوتاً غير مألوف، "صـــرخة كـــأنين حيوان جريح، صرخة مخلوق يحس بالمعاناة"، فكتبت هاول وقد شـــعرت بالصـــدمة: "لـــم يكن فى مقدور أحد أن يتجاهل الحزن الذى عبرت عنه الصـــرخة، لكـــن بعـــد أن سمعتها، لن أشك مطلقاً أن الحيوان يمكنه أن يعانى من انفعالات نظن نحن البشر أنها مقصورة علينا".

بعـــد الصيحة، جلس آرثر بلا حراك، على الصخر ولم يحرك ساكناً ليوم كامل. وفى اليـــوم الخامس، بعد اختفاء جيني، التهب حماس آرثر للقنص جالباً الطعام إلى صـــغاره مـــن الفجر حتى الغسق دون أن يتوقف ليستريح قليلاً. وقبل وفاة جيني،

كـــانت جهوده فى العمل أقل عنفاً، وتقول هاول إنها لم تر قط، بعد ذلك نسراً يعمل بـــلا توقف على هذا النحو. وحين صعد علماء الأحياء إلى الوكر بعد اختفاء جينى بأســبوع، وجدوا أن ثلاثة من الصغار قد ماتوا جوعاً ولكن اثنين منها بقيا فى قيد الحياة، وكانا ينعمان فى ظل رعاية أبيهما. وعلمت هاول، فيما بعد، أن جينى غالباً قُتــلت بعــد أن أصــابتها رصاصة. أما الصغيران اللذان بقيا، فقد اكتسيا بالريش وكبرا.

مـــن المســتحيل توقّـــع مدى عمق تأثرنا بوفاة شخص تربطنا به علاقة حميمة. فالـــناس، أحيانـــاً، لا يُظهـــرون رد فعل خارجي، غير أن حياتهم تتحطم. إذ قد لا يشـــعرون بشـــىء عـــلى مستوى الوعي، بل قد يحسون بالارتياح، بينما يكونون محطميـــن مـــن الداخل، وقد لا يُشفون أبداً. إن علامات الأسى الخارجية تعبر عن شـــيء، أيضاً، لكنها قد تكون مُضللة. يجب أن يتسم الفضول العلمى بالتواضع فى مواجهة الحزن الإنسانى العميق: فلا يستطيع أحد أن يتحدث بثقة علمية عن مصدر الأســـى أو مدته أو الحالة المرضية التى يسببها، وعلى الأخص الأطباء النفسانيون الذيـــن يميلون إلى معالجة الشخص من الناحية النفسية (موصين بالأقراص لعلاج الاكتـــئاب)، بـــل إن درجـــة أكبر من التواضع مطلوبة قبل السعى إلى فهم الأسى والحزن غير الإنسانيين. وحين يتحدث غير المتعلمين عن حزن الحيوان، فإن أكثر الأدلـــة التى يسوقونها شيوعاً تتعلق بسلوك أحد الزوجين عند وفاة رفيقه أو رفيقته، أو سلوك الحيوان المدلل عندما يموت صاحبه أو يرحل إلى مكان آخر.

ويحظى هذا النوع من الأسى باهتمام واحترام رغم مرور كثير من صوره علينا دون ملاحظـــة -كفصـــل البقرة عن صغيرها أو التخلّي عن الكلب عمداً. فى هذه الحالـــة توجد جميع أشكال الأسى التى لا يراها البشر أبداً: مثل الصرخات التى لا تُســـمع، فى الغابات، والقطعان التى توجد فى التلال البعيدة التى لا يدرى أحد شيئاً عن فجيعتها.

الحداد على الحبيب المفقود

لقـــد شُـــوهدت الحيوانات البرية فى الطبيعة وهى تمارس الحداد على رفيق. فقد ذكـــر عـــالم الطبيعة، جورج ستلر، أن البقرة البحرية المنقرضة والتى أطلق اسمه

عليها كانت من النوع أحادى الزوج أو الزوجة حيث تتكون الأسرة فى المعتاد، من الأنثى والذكر، وصغيرين من عمرين مختلفين: (ابن مكتمل النمو وآخر صغير رقيق) ورأى ستلر، وهو عالم طبيعة بحرية يعمل على سفينة أنه حين قتل طاقم السفينة أنثى وانجرف جسدها إلى الشاطئ، عاد الذكر إلى جثتها ليومين متتاليين، "وكأنما يستفسر عنها".

وكما ثبت من موت النسور الثلاثة الصغيرة، فإن المبالغة فى الأسى قد تؤدى إلى كارثة. ولا توجد أية قيمة تتعلق بحفظ النوع فى الامتناع عن تناول الطعام وسكون الحركة والإفراط فى الحزن. وبينما يمكن الحط من شأن الحب بحيث يصبح وظيفة نشوئية (بالنسبة للذين يميلون إلى ذلك ميلاً شديداً)، إلا إن الأسى على فقد حبيب ـ وهو تعبير آخر عن الحب ـ كثيراً ما يهدد بقاء النوع. وهكذا، فإن الأسى يتطلب تفسيراً فى حدود إطاره وحسب معانيه.

ومن السهل ملاحظة الأسف على الحرمان من شخص مات على الحيوانات الأسيرة أو المدللة. وتقدم إليزابيث مارشال توماس قصة مؤثرة عن ماريا وميشا، وهما كلبان من كلاب الإسكيمو، دخلا فى علاقة تزاوج فى الوقت الذى تخلَّى أصحاب ميشا عنه. لقد عرف كل من ميشا وماريا أن شيئاً فظيعاً سوف يقع حين عاد إليه أصحابه آخر مرة، إلى درجة أن ماريا حاولت أن تتبعه إلى خارج المنزل. وحين منعوها من ذلك، اندفعت إلى مقعد قريب من النافذة، ورأت ميشا يدخل السيارة وظهرها إلى داخل الحجرة. ومنذ هذه اللحظة، ظلت عند النافذة لعدة أسابيع تجلس مستندة للخلف على المقعد ووجهها متجه إلى النافذة وذيلها نحو الحجرة، تنتظر عودة ميشا وترتقبها. ولابد أنها أدركت أخيراً أنه لن يأتي. وعندئذ حدث لها شيء ما. إذ فقدت بريقها وأصبحت مكتئبة. وأخذت تتحرك ببطء أكثر وصارت أقل تجاوباً وأصبحت سهلة الغضب، إلى حد ما، من أشياء كانت تغض النظر عنها من قبل ... ولم تشف ماريا قط مما فقدته، ورغم أنها لم تفقد مكانتها باعتبارها الأنثى الرئيسية، إلا أنها لم تبد أى اهتمام بأن تُنشئ رباطاً دائماً مع ذكر آخر ... إذ عرفت ماريا أن ميشا قد رحل عنها. وسلوكها هذا يذكِّرنا بأسى الإنسان على الفراق الأبدى وفَقْد شخص حبيب إلى النفس.

والذئاب وحيوانات القيوط التى ترتبط بها الكلاب ارتباطاً وثيقاً، تشكّل هى الأخرى زيجات. والظروف التى تُقتنى فيها الكلاب تختلف عن الظروف التى تعيش فيها تلك الفصائل. إن السلوك أكثر مرونة مما كان مفهوماً، كما أن الظروف التى يوفرها البشر للكلاب تُملى هذا السلوك بقوة. وبينما أصبح الذكر والأنثى بين الكلاب رمزاً على الاختلاط الجنسى (غير الشرعي) الذى لا تحكمه أى ضوابط، فى رأى الكثير من البشر، إلا إن هذا السلوك نابع من أسلوب تربية البشر للكلاب واقتنائها، وهو ليس جزءاً من طبيعتها. وعلى المرء أن يتعجّب من تنوع ما نسميه الحياة الجنسية "الطبيعية" لدى البشر، فهى أيضاً تحدث نتيجة ترتيبات وتوقّعات اجتماعية.

وبعض الحيوانات التى لا تقيم حياة زوجية فى الطبيعة الحرة تعيش فى الأسْر فى أزواج، ويشتد تعلقها ببعضها مع نموها.وغالباً يكون الرفيق هو الصاحب الوحيد الذى يتوافر للحيوان. كان أكمال وآلى جوادين من جياد السيرك يعيشان فى إسطبل واحد. ولم يُلحظ عليهما ارتباط خاص بينهما إلى أن تُوفى أكمال فجأة. فأخذت آلى "تصهل باستمرار" ولم تكن تأكل أو تنام. فنُقلت ومُنحت أصحاباً جدداً، وقُدمت لها أطعمة خاصة، فى محاولة لإلهائها. وأُخضعت للفحص والعلاج خشية أن تكون مريضة. وفى خلال شهرين أخذت تذوى حتى الموت.

أما "كيكو"، فهما زوج من درافيل متنزه مائى يسميان كيكو وهوكو، وكانا مخلصين لبعضهما لسنوات، وكثيراً ما كانا يصران على أن يلمس كل منهما الآخر بزعنفته وهما يسبحان فى صهريجهما. وحين تُوفِّيت كيكو فجأة، رفض هوكو أن يأكل واعتاد أن يسبح ببطء فى خطوط دائرية، وهو مغمض العينين بقوة "وكأنه لا يريد أن ينظر إلى دنيا ليس فيها كيكو"، كما كتبت المدربة كرين بريور. ثم مُنح صديقة جديدة وهى كولوهى وكانت تسبح إلى جانبه وتتمسح فيه. وبمرور الوقت بدأ يفتح عينيه، وعاد إلى تناول الطعام. وبالرغم من أنه صار مرتبطاً بكولوهي، إلا إن المراقبين شعروا أنه لم يُغرم بها غرامه بكيكو قط. ورغم أن التكهن بأنه لم يرد أن ينظر إلى دنيا تخلو من كيكو، مجرد تخمين إلا إن معاناته من الحزن كانت جلية.

وأمسك بعض الباحثين بأنثى درفيل فى سنارة سمك ووضعوها فى صهريج للاحتفاظ بها، غير أنها سرعان ما شعرت باليأس من حياتها. إذ لم تستطع بولين، كما أسموها، أن تنتصب واقفة وكان لابد من مساعدتها باستمرار. وفى اليوم الثالث من أسرها، أسر درفيل ذكر، فوضعوه فى نفس الصهريج. فرفع هذا من روحها المعنوية، وساعدها الذكر على السباحة، وكان فى بعض الأحيان يرفعها إلى السطح. وبدا أن بولين ستُشفى شفاءً تاماً، غير أنها ماتت بعد ذلك بشهرين بسبب خراج نتج عن السنارة التى كانت متعلقة بها. وعلى ذلك، رفض الذّكَر أن يأكل، ومات بعدها بثلاثة أيام. وكشف التشريح عن ثقب قرحة معدية زاد من خطورتها الصيام الذى عبر به عن حداده.

لو أن كل حيوان فقد عزيزاً مات من فرط الحزن، لكان فى ذلك فناء معظم الأنواع. لكن مثل هذه الحالات حالات متطرفة وغير معتادة بالطبع. والموت حزناً ليس هو وحده دليل الحب والعاطفة عند الحيوانات، غير أن هذه الأحداث تلقى الضوء بالفعل على مجال عاطفى وإمكانات انفعالية. كذلك تشعر الحيوانات فى الطبيعة بالحزن على رفاق من غير المتناسلة معها، فالأسُود لا تكوّن علاقات تزاوج، ومع ذلك فقد عُرف عنها أنها تبقى إلى جانب جثة أسد آخر قد قُتل، لاعقة فراءه. وكما يحدث دائماً، تُقدم الأفيال أمثلة مشابهة بشكل غريب للمشاعر الإنسانية. وتصف سينثيا موس، التى درست الأفيال الأفريقية البرية لسنوات، أمهات الأفيال التى تبدو فى أتم صحة لكنها تُصاب بحالة من التبلُّد والخدر لعدة أيام بعد وفاة أحد الصغار وتسير فى بطء فى المؤخرة وراء بقية العائلة.

ذات مرة، شاهد أحد المهتمين بمراقبة الحيوانات، بالصدفة، مجموعة من الأفيال الأفريقية، تحيط بأم كبيرة تُحتضَر وكانت تتهاوى ثم سقطت. فتحلّقت حولها الأفيال الأخرى وحاولت بقوة أن تساعدها على النهوض. كما حاول أحد الذكور الشباب أن يرفعها بنابيه ووضع طعاماً فى فمها، بل حاول اعتلاءها جنسياً، غير أن كل هذه الجهود ذهبت هباءً. وحاولت الأفيال الأخرى أن تعابثها بخراطيمها، وركع أحد الصغار وحاول الرضاعة منها. وفى النهاية تحركت الجماعة بعيداً، غير أن إحدى الإناث وصغيرها تخلّفا. إذ وقفت الأنثى وظهرها نحو الأم الكبرى المتوفّاة،

وأخذت تعود إليها من ان لآخر وتمسها بقدمها. فنادت عليها الأفيال الأخرى، وأخيراً ابتعدت ببطء.

وتصف سينثيا م س سلوك قطيع من الأفيال "تتحلق عدة مرات حول صديق ميت والحزن يقتلها، وتتوقف توقف المرتاب إذا ظل جسده على سكونه. ثم تنظر خارج الدائرة، وخراطيمها تتدلى نحو الأرض. وبعد برهة، تضرب الأرض بأقدامها وتستحرك فى شكل دائرة مرة أخرى، وتنظر إلى الخارج" وأخيراً، حين يتأكد لها على الأرجح أن الفيل ميت ــ قد تقطع أفرع الشجار وتجمع العشب المحيط بالمكان وتكدسها حول الجثة. إن الوقوف مع الاتجاه إلى الخارج يوحى بأن الأفيال تجد المنظر مؤلماً، وربما تريد البقاء قريباً غير أنها تجد فى ذلك تعدياً على حالة خصوصية وهى تراقب مثل هذه المعاناة، وربما كان لهذا السلوك معنى طقسى لا نفهمه حتى الآن.

لقد ساد اعتقاد فى وقت ما أن الأفيال اعتادت أن تذهب إلى قبور خاصة لتُحتضَر فيها. ورغم عدم ثبوت هذا الاعتقاد، تعتقد موس أن الأفيال لديها مفهوم عن الموت. فهى شديدة الاهتمام بعظام الأفيال، وليس بعظام أى أنواع أخرى على الإطلاق، حتى إن رد فعلها إزاء عظام الأفيال متكرر الحدوث، بحيث إن مصورى السينما لا يواجهون صعوبة فى تصوير الأفيال وهى تتفحص العظام. فهى تشمها وتقلبها وتُجرى خراطيمها فوق العظام، وتتحسسها، وأحياناً تحملها مسافة ما قبل أن تسقطها. وهى تبدى اهتماماً أكبر بالجماجم والأنياب. وتظن موس بأن الأفيال تحاول التعرُّف على الفرد الميت. وفى إحدى المرات أحضرت موس عظمة من عظام الفك لفيل ميت ــ أنثى بالغة ــ إلى مُخيّمها، كى تحدد عمرها على وجه الدقة. وبعد ذلك ببضعة أسابيع، تصادَف أن مرت عائلة تلك الأنثى مرت عبر أراضى ذلك المخيم. فاستدارت كى تقترب وتتفحص الفك. وبعد وقت طويل من مواصلة الأفيال الأخرى السير، بقى صغير تلك الأنثى البالغ من العمر سبع سنوات يلمس الفك ويقلبه بأقدامه وخرطومه. ويجوز للمرء أن يتفق فى الرأى مع استنتاج موس بأن الصغير قد تذكر أمه بشكل ما وربما تذكّر ملامح وجهها. فأحس بأنها هناك. وهنا، يبدو من المؤكد أن ذاكرة الصغير كانت تعمل. وقد نعجز عن تحديد

ـ إذا كان قد أحس بحنين حزين إلى الماضى، أو الأسف وربما الفرح بتذكّر أمه، أو تأثر بتجربة انفعالية، غير أنه من الصعب إنكار مشاعر موجودة بالفعل.

ومن واقع سلوك شمبانزى الجومبي، تبدو مشاعر الذين شهدوا أحدها يسقط ليلقى حتفه ـ أيضاً معقدة. وبدأ الأمر عندما تجمعت ثلاث جماعات من الشمبانزى معظمها من الذكور ولكن بينها أنثى فى حالة شبق، وسقط ريكس، أحد القرَدة الكبار بصورة ما فى أخدود صخرى أحدثه المطر فدُقَّت عنقه. فكان رد الفعل المباشر هو صخب شديد أثاره القردة، والاندفاع، والاستعراض، والتعانق، والجماع وإلقاء الحجارة، والنباح وإصدار أصوات منخفضة متقطعة على ما يبدو بشكل عشوائي. وبمرور الوقت، صارت أكثر هدوءاً وتجمعت القردة لعدة ساعات حول الجثة. وحملقت فى جثة ريكس فى صمت، وتسلقت فروع الأشجار كى تتمكن من النظر من زاوية مناسب للرؤية. ولم تمسه قط. وبدا أن أحد المراهقين من الذكور، جودى، يركز تركيزاً خاصاً، ويصدر صوتاً خفيضاً متقطعاً وأنيناً متكرراً بينما كان يحدق بقوة فى ريكس. وثارت أعصاب جودى حين اقترب عدة ذكور كبار اقتراباً شديداً من الجثة. وبعد عدة ساعات تفرقت قردة الشمبانزى بعيداً. وقبل أن يغادر جودى، انحنى على ريكس وحملق فيه بانتباه قبل أن يسرع للحاق برفاقه.

ورددت القردة أثناء هذه الواقعة نداءات "ر ا ه" وهو نداء شائع حين تنزعج قردة الشمبانزى بسبب رؤية بشر غرباء أو نوع من الجاموس، وكذلك أيضاً حين ترى شمبانزى ميتاً أو حيوان الرباح. وذات مرة، استمرت الشمبانزى فى ترديد هذا الصياح لساعات بعد مشاهدتها لقرد من نوع الرباح، وهو يموت متأثراً بجروح أصابته فى معركة مع أحد أفراد جنسه.

كان لإحدى قردة الشمبانزى فى حديقة حيوان أرنهيم ثلاثة أطفال، وكانت تُسمَّى غوريلا وماتت تلك الأطفال رغم عنايتها الرقيقة. وفى كل مرة كان يموت فيها أحد الأطفال، كانت تُصاب بالاكتئاب بشكل ملحوظ، وتجلس منكمشة فى أحد الأركان لأسابيع كاملة، متجاهلة غيرها من قردة الشمبانزى. وفى بعض الأحيان كانت تنفجر بالصراخ. وكانت لهذه القصة خاتمة سعيدة: إذ صارت غوريلا أماً ناجحةً حين أُسندت إليها العناية بروسجى، وهو شمبانزى يبلغ من العمر عشرة أشهر وعلموها إطعامه بزجاجة.

الوحدة

يبدو أن الوحدة تؤثر فى الحيوانات التى تعيش فى جماعات اجتماعية أو أسرية. وقد يكون هذا من بين أسباب وفاة الكثير من الحيوانات الأسيرة. فبالنسبة للقنادس الأسيرة، يُعدُّ حضور أو غياب الصحاب، مثلاً، عاملاً مهماً فى بقائها فى قيد الحياة. إذ كتب أحد علماء الأحياء الذين يدرسون الحياة البرية للقنادس فى عامها الأول من العمر: "إنها إذا لم تجد رفاقاً، قد تجلس ببساطة حيث هي، وتستكين حتى تموت". فالعزلة هى نتيجة شائعة للحبس والاستئناس، وكثيراً ما تُلاحظ فى الحيوانات الأسيرة. ومن المفترض أن القندس البرى يمكنه ببساطة أن يخرج بحثاً عن غيره من القنادس.

فالحيوانات تبحث عن بعضها بدرجة أكبر مما افترض علماء الأحياء فى وقت ما، وهى تفعل ذلك سعياً لتجنُّب مشاعر الحزن، والعزلة والأسى. وفى بعض الأنواع تشكل الذكور "التى تركتها أمهاتها" خارج العش قطعاناً من العزاب. وتتجمع ذكور الأفيال الأفريقية فى جماعات فى "مناطق الذكور". وهناك ميل إلى التعميم الشامل عند وصف الكثير من الحيوانات بأنها محُبة للعزلة إلى حد ما، غير أن الدراسة المتأنية للحيوانات المشهورة بطبيعتها الانعزالية ــ مثل النمور والفهود وحيوان وحيد القرن (الكركدن) والدببة ــ تكشف غالباً عن أنها تنفق وقتاً فى الاتصال ببعضها أكثر مما كان يُظن فى السابق. ويقال إن القطة الأوروبية البرية والقطة الصيادة من النوع الانعزالي، بحيث يتناسل الذكر والأنثى ثم ينفصلان، وتقوم الأنثى بتربية الصغار. وفى حالة حيوانات أخرى، يمكن أن يوضع الذكر والأنثى فى أقفاص زوجاً زوجاً، مما يترتب عليه نتائج مثيرة. وعادة ما يتم إبعاد الذكر، قبل مولد الصغار، إذا كان من المحتمل أن يلحق بها الضرر. وفى حديقة حيوان كركاو، استبعدوا هذا الاحتياط وكان القط البرى يحمل نصيبه من اللحم إلى مدخل المسكن ويصدر أصوات مداعبة، بدلاً من أن يهاجم الصغار. وبالمثل كان القط البري، فى حديقة حيوان ماجدبيرج، يحرس المأوى ليل نهار، وكان يهاجم صاحب الحديقة إذا اقترب أكثر مما ينبغى مع أنه مسالم فى المعتاد. فالأب يحضر الطعام إلى المأوى، وحين تكبر الصغار بشكل يسمح لها بالخروج واللعب، فإنه

يجبر زوار الحديقة على التزام الهدوء ويهددهم إذا أفزعوا صغاره. كذلك تحيا القطط الصيادة، فى حديقة حيوان فرانكفورت حياة أسرية دافئة بشكل مدهش. فلا يكتفى الذكر بإحضار الطعام، وإنما غالباً ما ينكمش فى العش الصغير مع بقية الأسرة. لقد كان أباً حى الضمير، حتى إنه كان إذا غادر العش، والأنثى بالخارج، يصبح قلقاً ويدخل العش مع الصغار.

ومن الممكن، إذن أن تكون هذه الأنواع أقل ميلاً للعزلة مما كان يُظن، أو قد يكون هذا مظهراً آخر لمرونة سلوك الحيوان. ويعتقد، بول ليهاوزن، الذى كان يراقب هذه القطط أنه رغم أن الذكور فى الطبيعة الطلقة لا تكون لها علاقة بزوجاتها وصغارها؛ لكنها فى الأسْر قد "تكون عُرْضة لمثيرات توقظ أنماط السلوك النائمة أو الخاملة فى العادة". فإذا كان الحال كذلك، فمن حقنا أن نتساءل عما إذا كان القط الصياد، الذى يتجول على مجرى ماء فى جنوب شرق آسيا أو عبر إحدى الغابات تستيقظ فيه هذه الأنماط الكامنة ويحس بالوحدة.

السجن

حتى حين لا تكون الحيوانات الأسيرة فى عزلة، فإن سجنها قد يجعلها حزينة. فكثيراً ما يُقال عن حيوانات الحدائق، لكى نعرف ما إذا كانت سعيدة علينا أن نسأل هل صغارها تلعب؟ وهل الكبار تتناسل؟ ولا يقبل معظم العاملين فى حدائق الحيوان هذا باعتباره مقياساً للسعادة من وجهة نظرهم. فكما لاحظت جين جودال: "حتى فى معسكرات الاعتقال الجماعية، كان الأطفال يولدون، ولا يوجد سبب وجيه يحملنا على الاعتقاد بأن الأمر يختلف فى حالة قِرَدة الشمبانزي".

والأسر دون شك، أكثر إيلاماً لبعض الحيوانات عن غيرها. فلا يبدو أن الأسُود تجد صعوبة كبيرة فى فكرة الرقاد فى الشمس طوال النهار كما تجد النمور، على سبيل المثال. ومع ذلك، فإنه حتى الأسُود يمكن رؤيتها فى الكثير من حدائق الحيوان وهى تخطو جيئةً وذهاباً فى قلق بالحركات النمطية الثابتة التى يمكن أن نُرى فى الكثير من الحيوانات الأسيرة: إن مفهوم "لذة التفوق" Funktionslust، أى استمتاع المرء بقدراته يوحى بعكسه أيضاً، أى الإحساس بالإحباط واليأس الذى يستولى على الحيوان حين يعجز عن التعبير عن إمكاناته. فإذا كان الحيوان يستمتع

باستخدام قدراته الطبيعية، فمن الممكن أيضاً أن ينسى الحيوان استخدامها. وبالرغم من أن هناك اتجاهاً تدريجياً فى بناء حدائق الحيوان وتصميمها بحيث تتشابه الأقفاص بدرجة أكثر مع مَواطن الحيوانات الطبيعية الأصلية، إلا إن معظم الحيوانات، خاصةً الكبيرة منها، تكاد لا تتوافر لها الفرصة لاستخدام قدراتها. فليس للنسور مكان تطير فيه، والفهد الصياد لا يجد مكاناً للعَدْو، ولا تتوافر للماعز سوى صخرة ضخمة مستديرة كى تتسلقها.

ولا يوجد سبب وجيه يجعلنا نفترض أن حياة حديقة الحيوان ليست مصدراً للحزن لمعظم الحيوانات المسجونة فيها، مثلها مثل الأشخاص الذين وُضعوا فى غير مكانهم فى زمن الحرب. وقد يبعث الراحة فينا أن نعتقد أنها سعيدة هناك، ومبتهجة بما تنال من رعاية طبية، ومُمتنَّة لاطمئنانها على وجبتها التالية.

فلا يوجد أى دليل يثبت ذلك بصفة عامة للأسف؛ إذ إن معظمها ينتهز كل فرصة ممكنة للهرب. ومعظمها لا يتناسل. ذلك أنه ربما تريد العودة إلى موطنها. وبعض الحيوانات الأسيرة تموت حزناً حين تُنتزع من الطبيعة. وأحياناً تبدو حالات الوفاة ناتجة عن المرض، ربما لأن حيواناً ما يصبح عرضة للمرض تحت الضغط الشديد. ومن الواضح أن هناك حالات وفاة أخرى تنتج من اليأس- الذى يقترب- من محاولة الانتحار. فالحيوانات البرية قد ترفض الأكل، وبذلك تقتل نفسها بالطريقة الوحيدة المتاحة أمامها. ونحن لا نعلم ما إذا كانت مدركة لأنها ستموت لو لم تأكل، ولكن من الواضح أنها شديدة التعاسة. فى أحد الأعوام وصف جاسبر فون أورتزن وفاة غوريلاً صغيرة تم استيرادها إلى أوروبا: فقدت "هَمْ هَمْ" كل رغبة فى الحياة. لكنها نجحت فى البقاء فى قيد الحياة حتى وصلت إلى هامبورج، ومن هناك، إلى حديقة حيوان ستيلينجن، بما فيها من إخصائيين فى الرعاية، غير أن طاقتها لم تعد إليها مرة أخرى. إذ كانت "هَمْ هَمْ" تعلن الحداد على الماضى السعيد، بعلامات تدل على أشد ما تعانيه النفس من حزن. ولم يجد أحد علامة على أى مرض مميت، ولكن هذا هو ما يحدث دائماً فى حالة هذه الحيوانات الغالية المكلفة: "ماتت نتيجة صدمة قلبية".

والثدييات البحرية ترتفع معدلات وفياتها حين تكون فى الأَسْر، وهى حقيقة واضحة دائماً لزوار الحدائق البحرية، وأحواض الأسماك الضخمة. لقد وُضع أحد

الحيتان المرشدة فى أحد الأحواض الضخمة كان بها بالفعل ثلاثة عشر من الحيتان يُقدم كل منها للزائرين بنفس الاسم وكأنما هو نفس الحيوان. ولا يحتاج الأمر إلى كثير من التأمل لإدراك الفارق الكبير فى حياة حيوان ثديى بحرى حين يُوضع فى حوض سمك ضخم. فالحوت القاتل يصل طوله إلى ثلاثة وعشرين قدماً، ووزنه ٩٠٠٠ رطل، ويتجول مسافة مائة ميل يومياً. ولا يمكن لأى قفص أو حمَّام مما تُحبس فيه هذه الحيوانات أو أى حوض سباحة ضخم أن يمنحها الرضى فضلاً عن الفرح. ويُعتقد أن للحيتان عمراً افتراضياً يساوى عمر الإنسان. إلا إنه فى "عالم البحار"، فى سان دييجو، حيث يوجد أفضل حوض سباحة بلغ فيه عمر الحوت القاتل أرقاماً قياسية، لا يزيد متوسط عمر الحيتان عن إحدى عشرة سنة.

فلو أن عمر شخص نقص إلى هذا الحد الكبير، فهل سيظل رغم ذلك، يتحدث عن السعادة؟ حين سُئل عدد من مدربى الثدييات البحرية، هل تشعر حيواناتهم بالسعادة، أجابوا جميعاً بالإيجاب: فهى تأكل وتمارس علاقات جنسية (من النادر أن يلد الحوت القاتل وهو فى الأَسْر) ولا تُصاب بالمرض تقريباً. قد يعنى هذا أنها ليست مكتئبة، غير أنه لا يعنى أنها سعيدة. ويوحى تكرار الناس لهذا السؤال بالسأم، وربما عمق الإحساس بالذنب بسبب إخضاع هذه الحيوانات الرحالة المليئة بالحيوية لظروف غير طبيعية. ولعله من المستحيل معرفة الحيوانات التى تقاسى أكثر من غيرها فى الأَسْر. فكثيراً ما تزدهر حيوانات الفُقَمة (عجل البحر) فى أحواض السمك وحدائق الحيوان. لكن فقمة جزر هاواى تموت دائماً ــ فهى ترفض أن تأكل، وأحياناً تستسلم للمرض. إذ لاحظ أحد المهتمين بمراقبة الحيوانات، أنها بطريقة أو أخرى "تذوى حتى الموت".

تُعدُّ قضية آثار الأَسْر أكثر إيلاماً حين يفكر المرء فى الحيوانات التى لا تستطيع أن تعيش إلا فى الأسر لأن موطنها الأصلى لم يعد له وجود ــ كما هو الحال مع عدد متزايد من الأنواع ــ أو لأنها فقدت القدرة جسدياً. فحين أُطلق عدد أقل من عشرة من طيور نسور الكندور (وهو نسر ضخم يعيش فى كاليفورنيا الآن فى الأسر) فى الطبيعة، نشب جدال حول ما إذا كان من الأفضل أسر بقية الطيور من هذا النوع للعمل على تكاثرها فى الأسر أم ترك هذا النوع ينقرض بحرية، دون أن يعانى من ذل الأسر، والكندور طائر له قدرة على التحليق بسرعة رهيبة ويقطع

خمسين ميلاً يومياً بسهولة، وهى حياة لا يمكن توفيرها داخل قفص. وفى النهاية، تم أسر الطيور، ولذا، اختفت نسور كاليفورنيا من الطبيعة لبعض الوقت. وبعدها أُطلق سراح الطيور التى أُنجبت فى الأسر فى محاولة لإعادة تواجد النوع.

يجب الاعتراف أولاً بأن الحيوانات قد تحزن قبل دراستها وفهمها. ويتساءل العاملون فى حدائق الحيوان دائماً عن الحالة الصحية للحيوانات وعن قدرتها على التناسل، غير أنهم نادراً ما يسألون "عما يمكن أن يجعل هذا الحيوان سعيداً". كذلك لم تكن دراسات علماء سلوك الحيوان ذات نفع. إذ يذكر معجم أوكسفورد لسلوك الحيوان: "يبدو من المعقول التسليم بأن الحيوانات يمكن أن تتضايق إذا عجزت عن أن تأكل وتشرب وتحرك أطرافها وتنام وتقيم تفاعلاً اجتماعياً مع أقرانها، غير أن صعوبة تعريف الضيق بطريقة موضوعية ومقنعة كانت دائماً حجر عثرة فى طريق وضع تشريعات الرعاية للحيوان، حتى فى البلاد التى بها اهتمام جماهيرى واسع بالطريقة التى يعامل بها الناس، الحيوانات".

الاكتئاب والعجز المكتسب

فى حالة البشر، يُسمى الحزن الطاغى بالاكتئاب. ويُعرِّف الأطباء النفسانيون والأخصائيون النفسانيون، الاكتئاب بأنه تشخيص جامع يشير إلى الحزن المرَضى (الملانخوليا) النابع من عدة مصادر. ولقد سعى العلماء إلى الحصول على حيوانات مكتئبة إكلينيكياً فى المعمل، سعياً منهم لإثبات صحة هذا النموذج الطبى النفسي. ولبلوغ هذا الهدف، عمل بعض القائمين على إجراء التجارب على تقديم حيوانات ذات طفولة شديدة التعاسة جداً.

ومن بين أكثر التجارب ذيوعاً فى تاريخ سلوك الحيوان تلك التجربة التى أجراها عالم النفس هارى هارلو على قِرَدة الرايس(*)، إذ إن القردة التى كانت تحت رعايته، فضلت أمهات من الدُّمى الملساء التى يمكن احتضانها على الأمهات البديلة المصنوعة من السلك الصلب حتى عندما تفرز الدمى السلكية لبناً. وقد اشتُهرت الدراسة واستُخدمت باعتبارها دليلاً على أن الدراسات النفسية ــ وهى حقاً من

(*) الرايس: قرد هندى قصير الذيل.

أشـــكال الـــتعذيب ــ يمكـــن أن تلقن البشر درساً عن انفعالاتهم. وبينما توحى هذه الدراســـة أن مشاعر التغذية فى عملية الأمومة يمكن أن تكون أهم حتى من البقاء، فمـــن المؤكـــد أن هـــذه الـــتجربة القاتمة بليدة الإحساس كانت مفرطة فى الغلظة، بالإضافة إلى أنها غير ضرورية لإثبات هذه النقطة.

كذلـــك وُضـــعت قردة أخرى من هذا النوع يبلغ عمرها ستة أسابيع، وحدها فى "حجـــرة الاكتئاب" أو الحجرة الرأسية، –وهى وعاء طويل ضيق من الصلب الذى لا يصـــدأ قُصد منه توليد "بئر نفسي" من الألم، فنتج عن البقاء مدة خمسة وأربعين يومـــاً فى الحجرة قردة معتلة اعتلالاً دائماً. وحتى بعد أن مرت شهور منذ التجربة الـــتى مـــرت بهـــا، كـــانت القردة التى وُضعت فى الحجرة بلا حراك فاقدة لحب الاســـتطلاع وغير اجتماعية ومنزوية فى زاوية واحدة ومتشبثة بنفسها. ولا يمكن تبرير هذه المعاملة البشعة بأية معلومة يُراد الوصول إليها أو أى نقطة يُراد إثباتها.

وبالمـــثل، تعلمت الكلاب والقطط والفئران عن طريق تمرير تيار الكهربائى فى المعمـــل أن تشـــعر باليأس الذى يحيط بالعالم والمعروف بـــ "العجز المكتسب" فى التجربة الكلاسيكية التقليدية، حيث قُيدت الكلاب وأُعطيت صدمة كهربية فى فترات غير متوقعة وكانت الصدمة شيئاً لا مفر منه، إذ لم يكن هناك ما تفعله لكى تمنعها أو تقلل منها. وبعد ذلك وُضعت فى حجرة مقسمة. وحين كان يصدر صوت نغمة مـــا، كـــان عـــلى الكلاب أن تقفز إلى الجانب الآخر من الحجرة لتجنُب الصدمة. وتعلمت معظم الكلاب هذا تعلماً سريعاً، غير أن ثلثى الكلاب التى تلقت صدمات لا مفـــر منها رقدت ساكنة فحسب وظلت تئن دون أن تقوم بأية محاولة للهرب. ذلك أن تجربـــتها السابقة قد علمتها اليأس على ما يبدو. وزال هذا الأثر فى بضعة أيام. غيـــر أنه لو تعرضت الكلاب لصدمات لا فرار منها أربع مرات فى الأسبوع، فإن "عجزها المكتسب" لابد وأن يصبح دائماً. يزعُم عالم النفس، مارتين سليجمان، كبير باحـــثى دراســـة (العجـــز المكتســـب) ومؤلف أحد أكثر الكتب مبيعاً، وهو"التفاؤل المكتســـب" أن الحيوان الذى يتعرض للصدمة، يشعر فى البداية بالفزع ولكنه حين يصـــل إلى الاعـــتقاد بأنـــه عاجز، يغوص فى اليأس. وحين شرح سليجمان كيفية عـــثوره عـــلى خاطر القيام بتجارب عن العجز المكتسب على الحيوانات، يضرب مثالا ببحث س. ب. ريشتر أثناء الخمسينيات، "الذى فكر أن سقوط الفأر البرى فى

يد أحد الضواري كالإنسان فيقص شاربه ويضعه فى وعاء من الماء الساخن يستحيل الفرار منه، من شأنه أن يولِّد إحساساً بالعجز فى الفأر".

لقد ثبت العجز المكتسب تجريبياً، على البشر، وإن لم يكن عن طريق الصدمة. فالناس الذين يُكلَّفون بمهام يتكرر فشلهم فى أدائها سرعان ما يصلون إلى الاعتقاد بأنهم سيفشلون فى أداء غير ذلك من مهام، ويكون أداؤهم سيئاً، إذا ما قُورنوا بأولئك الذين لم يمروا بسلسلة من الفشل، وفى العالم الواقعي، قد تكون النساء المحطمات عاجزات عن البعد عمن يحطمهن، رغم أن خطر الفرار وانعدام الملجأ يتساوى من حيث التأثير مع إحساسهن بعقم أية محاولة لإنقاذ أنفسهن من الإيذاء المستمر.

ولا يبين البحث فى الحيوان شيئاً فى واقع الأمر عن البشر – وهو الغرض المزعوم لهذه الأبحاث – أكثر مما يمكن أن يتعلمه المرء عن طريق التحدث إلى امرأة محطمة عن حياتها.

بعد الحصول على كلاب مكتئبة، أراد سليجمان أن يعالجها. فوضع الكلاب "العاجزة" فى الحجرة وأزال الحاجز، كى ييسر عليها العبور وتجنُّب الصدمة، غير أن الكلاب التى هدها اليأس لم تقم بأى جهد للابتعاد وبذلك لم تكتشف أن الهرب أمر ممكن. فدخل سليجمان الحجرة ونادى عليها وقدم لها الطعام، ولكن الكلاب لم تتحرك. وبمرور الوقت اضطر إلى جر الكلاب فى سلاسلها إلى الأمام وإلى الخلف. وجُرت بعض الكلاب إلى الأمام وإلى الخلف مائتى مرة، قبل أن تكتشف أنها يمكنها أن تهرب هذه المرة من الصدمة الكهربية. وطبقاً لسليجمان، فإن شفاءها من العجز المكتسب كان شفاءً تاماً ودائماً. وعموماً، فلابد أن تكون تجربتها قد تركت فيها أثراً دائماً.

وقد نجح العلماء فى خلق الإحساس بالعجز المكتسب فى المعمل بوسائل مختلفة، واستخدموا وسائل وحشية أحياناً، إذ قام أحد الباحثين بتربية قردة من نوع الرايس، فى أقفاص عزل ذات جدران سوداء، منذ طفولتها حتى بلغت ستة أشهر، ليحقق "العجز الاجتماعي" ثم ربط كل قرد صغير بشيء أشبه بالصليب – كوسيلة مُقيِّدة – وكان يضع كل قرد، لمدة ساعة يومياً، فى قفص مع غيره من القردة الصغيرة.

وبعد انسحاب مبدئي، أخذت القردة غير المقيَّدة تدفع وتضرب القردة المقيدة، جاذبة شعرها، وتعبث بعينيها وتحاول فتح أفواهها. غير أنها لم تستطع أن تهرب. بل كل ما أمكنها فعله هو أن تصيح. وبعد مدة تتراوح بين شهرين وثلاثة أشهر من هذا الإضرار والإساءة تغير سلوكها. إذ توقفت عن الكفاح، مع أنها ظلت تصيح. وكما كتب صاحب التجربة: "لم تنتهز أية فرصة من الفرص العديدة لعض الظالم الذى كان يُنشب مخالبه فيها ويهاجمها". ذلك أن هذه القردة صارت مصابة بالصدمة بشكل مستديم وكانت ترتعد من القردة الأخرى حتى عندما لا تكون مقيدة. وهذه التجربة، شأنها شأن غيرها من التجارب، تتميز بما فيها من قسوة.

وهناك عدد قليل نسبياً من البشر الذين أصبحوا كذلك من خلال وضعهم فى أماكن عزل انفرادية لما يصل إلى نصف فترة طفولتهم ثم تعذيبهم على أيدى نظرائهم. ومما يثير الغرابة أن الحجة التى يسوقها العلماء الذين يجرون هذه التجارب كانت دائماً أن الحيوانات تشبهنا من حيث المشاعر، إلى حد أنه فى إمكاننا أن نتعلم أشياء عن اكتئاب البشر عن طريق دراسة اكتئاب الحيوان!!!

غير أن هذا يثير السؤال الأخلاقى المهم الذى تطرحه جماعات حقوق الحيوان، وهو: لو أن الحيوانات تعانى بالطريقة التى نعانى بها، وهو المبرر الكامل لإجراء التجارب، ألا يُعدُّ إجراؤها من قبيل السادية؟ إذ من الواضح أنه يمكن جعل الحيوانات تشعر بتعاسة عميقة، ولكن هذه الحقيقة كان من الممكن ملاحظتها فى ظل ظروف طبيعية، دون تعريض مخلوقات حساسة لقسوةٍ لا مبرر لاستخدامها.

من خلال كل هذه الأحزان وأشكال التعذيب، تُظهر الحيوانات الأسى عن طريق حركاتها وأوضاعها الجسدية وأفعالها. وكثيراً ما تقدم صيحات الحيوان وأناته أدلة على الحزن. إذ يبدو أن الذئاب لها عواء يدل على الحداد أو عواء يعبر عن الوحدة يختلف عن الصوت الذى تصدره تعبيراً عن المرح. ويُقال إنه ثمة حيوانات أخرى تولول أو تئن أو تبكي. فحين ماتت مارشيسا، وهى إحدى الغوريلات الجبلية المسنَّة، أصبح أكبر ذكور جماعتها منكسر النفس وسُمع وهو يصدر أصواتاً منخفضة متقطعة عدة مرات، وكانت هذه هى المناسبة التى تُسمع فيها هذه الأصوات من ذكر مسن، ربما قضى هذان الحيوانان من الغوريلات البرية ما يقرب من ثلاثين عاماً من حياتهما معاً. لقد كتب أحد مراقبى إنسان الغابة "فى حالة

خيبة الأمل، يصدر الصغير أصواتاً خفيضة متقطعة أو يبكى دون أن يذرف الدموع، على أية حال".

ولا يوجد من يعلم، على وجه اليقين، لماذا يبكى البشر. فالأطفال المولودون حديثاً يصيحون، غير أنهم لا يذرفون الدموع عادة، حتى يبلغوا من العمر بضعة أشهر. والكبار يبكون مرات أقل، وبعضهم لا يذرف الدمع أبداً. لقد صُنفت الدموع إلى ثلاثة أنواع: الدموع المستمرة، وهى التى تحافظ على رطوبة العينين، والدموع اللاإرادية، وهى التى تطرد الأشياء الغريبة، أو الغازات التى تثير العين فتخرجها منها، والدموع الانفعالية وهى تشمل دمع الحزن، والسعادة أو الغضب. وتختلف الدموع الانفعالية عن غيرها من الدموع، من حيث إنها تحتوى على نسبة مئوية عالية من البروتين. ومن الغريب أنه منذ قيام داروين بمسحه للموضوع، عام ١٨٢٧، لم ينل البكاء سوى حظ ضئيل من الدراسة، ولكن هناك اعتقاد لم يثبت بعد بأن الدموع الانفعالية قد تكون لها وظائف جسدية أو اجتماعية أو وظائف خاصة بالتواصل.

ومادام الناس قد يشعرون بقدر كبير من التعاسة دون أن يبكوا، فإن نسبة وظيفة التواصل إليها ليس لها مبرر واضح. ربما يكون رد فعلنا غريزياً وربما يأتى جزء من تقديرنا للدموع من أنها قد تخصنا وحدنا. ويرى البعض أن معظم الإفرازات الجسمية البشرية مُقززة (مثل البراز والبول والمخاط) ويُعدُّ ذكرها من المحظورات، مع استثناء وحيد هو الدموع. فهى المنتَج الجسدى الوحيد الذى يتفرَّد بكونه إنسانياً، ومن ثَمَّ لا يذكِّرنا بما نشترك فيه مع الحيوانات.

وعلى أية حال، قد لا يكون البشر فقط هم الذين يتأثرون بالدموع. ذلك أن الشمبانزى نيم تشيمسكى الذى اعتاد على الترفيه عمن يبدو الحزن عليهم، كان رقيقاً بشكل خاص، حين رأى الدموع، التى اعتاد على كفكفتها. وبما أن البشر هم الذين قاموا بتربية نيم، فلعله تعلم الربط بين الدموع والتعاسة. وقد يكون من المثير للاهتمام أن نكتشف ما إذا كانت الحيوانات التى لم تُتح لها معرفة الدموع تعتبرها دليلاً على الحزن عند البشر أو حتى عند غيرها من الحيوانات. ويمكن الإجابة على هذا تجريبياً، فلو أن شمبانزى تربى مع أفراد أخرى من نفس نوعه رأى أحدها وهو يذرف الدمع، فهل سيكون رد فعله هو رد فعل نيم؟ ولو أن شمبانزى

تعــوَّد على البشر، رأى شخصاً لأول مرة يبكي، فهل سيتصرف وكأن هذا علامة على الحزن؟

إن الدمـــوع تحـــتفظ لعيون الحيوانات برطوبتها. وكذلك تُفرز عيونها ماءً حين تـــتعرض لمـــا يـــثيرها. وقد تنهمر الدموع من عينى الحيوان ألماً. حيث شوهدت الدمـــوع فى أعيـــن حيوانـــات متباينة ومختلفة اختلاف الحصان الجريح عن أنثى البـــبغاء الرمادى التى على وشك أن تضع بيضاً. وبعض الحيوانات أكثر دمعاً من غيـــرها. وعجـــل البحر (الفُقَمة) الذى ليست له غدد قريبة من الأنف تنساب منها الدموع، تنهمر دموعها، خاصةً، على وجوهها. ويُعتقد أن هذا يساعد على ترطيبها حين تكون على البر.

لقـــد بحـــث تشارلز دارون من بين ما بحث؛ التعبير عن الانفعالات فى الإنسان والحيـــوان، وحـــاول التدليل على أن الحيوانات تذرف الدموع الانفعالية أو لا تفعل ذلـــك. وكتب متذمراً: "إن أحد قردة مكاك موروس، كان يبكى بغزارة، فى السابق، فى حدائـــق الحيوانـــات، وكـــان من الحالات الجديرة بالملاحظة، غير أن القردين الموجوديـــن هناك الآن، واللذين يُعتقد أنهما ينتسبان لنفس النوع، لا يبكيان". إذ لم يـــتمكن دارويـــن من مشاهدة الحيوانات وهى تذرف دموعاً عاطفية، ولذا قال عن الـــبكاء إنه أحد "التعبيرات الخاصة بالإنسان"، غير أن داروين لاحظ استثناءً واحداً هو الفيل الهندي. إذ أخبره سير إي. تينانت أن بعض الأفيال التى أُسرت حديثاً فى سيلان (سيريلانكا الآن) وكانت مقيدة وراقدة على الأرض بلا حراك على الأرض، لـــم تُظهـــر "أية إشارة سوى الدموع التى اغرورقت بها عيونها وتدفقت بغزارة". وسقط فيل آخر على الأرض، عند تقييده "مطلقاً صيحات مختنقة، وصاح والدموع تتســـاقط على خديه". ومن المعتاد أيضاً أن يُفصل الفيل الأسير عن أسرته. كما أكد مراقـــبون آخـــرون للأفيال فى سيلان لداروين أنهم لم يروا الأفيال تبكي، كما أن قنَّاصـــى الأفيال السيلانيين قالوا إنهم لم يروا، أبداً الأفيال تبكي. ووثق داروين فى ملاحظـــات تينانت، رغم ذلك، لأن حارس الأفيال فى حديقة حيوان لندن أكدها، إذ قـــال إنـــه رأى لعدة مرات إحدى إناث الأفيال تذرف الدمع حينما أخذوا صغيرها بعيداً عنها.

ومنذ عصر داروين، ظل توازن الأدلة على حاله، أى أن معظم من راقبوا الأفيال لم يروها تبكى قط، -أو نادراً ما رأوها تبكى حين تُجرح- ومع ذلك، فقد ادَّعى قليل منهم أنهم رأوها تبكى دون أن تكون مصابة بجرح. لقد أخبر مدرب للأفيال فى سيرك أمريكى صغير الباحث وليام فرى أن فيله، أوكها، يبكى فعلاً فى بعض الأوقات ولكنه ليست لديه فكرة عن السبب. إذ إن أوكها كان أحياناً يذرف دمعة عند توبيخه حسبما يُقال، وأنه بكى مرة على الأقل، حين كان الأطفال يركبونه. ولقد رأى لين دوجلاس هاميلتون، الذى قضى سنوات يعمل مع الأفيال الأفريقية، رأى، الأفيال تذرف الدمع فقط حين تُصاب بجرح. وكانت الدموع تسقط من عينى كلوديا، وهى إحدى الأفيال الأسيرة، أثناء حالة وضع صعبة لصغيرها الأول.

ووصف جوردون كمينجز، وهو قناص من القرن الثامن عشر فى جنوب أفريقيا، عملية قتل أكبر ذكر بين الأفيال رآه فى حياته. إذ أطلق النار عليه أولاً فى الكتف حتى يستطيع أن يجرى بعيداً. فأخذ الفيل يعرج إلى إحدى الأشجار واستند إليها. ولما كان كمينجز قد قرر أن يتأمل الفيل قبل أن يقتله، فقد توقف – ليعد القهوة ثم رأى أن يحدد تجريبياً أى المواضع أكثر عُرضة أو تأثراً فى الفيل. فسار إليه وأطلق الرصاصات فى أجزاء مختلفة من الرأس، فلم يتحرك الفيل إلا كى يلمس الرصاصة بطرف خرطومه. يقول كمينجز: "ولما اندهشت وأحسست بالصدمة إذ وجدت أنى لا أفعل سوى تعذيب الحيوان النبيل وأُطيل من معاناته وهو يتحمل تلك المحاولات بثبات وكرامة"، قرر أن يُجهز عليه، فأطلق النار عليه تسع مرات خلف الكتف. حينئذ "انهمرت قطرتان كبيرتان من الدمع من عينيه اللتين أغلقهما ببطء وفتحهما، وارتعش كل بدنه بشدة، واحتُضر وهو يسقط على أحد جانبيه". لابد أن هذا الفيل كان يعانى من ألم عظيم، وكان هذا سبباً كافياً لكى يذرف الدموع. لا يوجد حيوان يُجرى تجارب تعذيب على الحيوانات الأخرى سوى البشر.

ذكر جورج لويس وهو مدرب أفيال رحَّالة فى كتابه رحلة الأفيال، فى عام ١٩٥٥، ذكر أنه طوال السنوات التى عمل فيها – مع الأفيال – رأى واحداً فقط يبكي. وكانت إحدى الإناث الخجول الصغيرة وتسمى سادي، تتدرب مع أفيال أخرى للقيام بعرض فى سيرك إخوان روبنز. وكانت الأفيال تتدرب بسرعة، بما

أن العــرض كان سيبدأ بعد ثلاثة أسابيع. غير أن سادى صادفت المتاعب فى تعلُّم مــا كان مطلوباً منها. وفى أحد الأيام، حين لم تستطع أن تفهم ما طُلب منها فعله، جرت خارج الحلقة. "فأعدناها وبدأنا معاقبتها فوصفناها بأنها شديدة الحمق" (وبناء عــلى معــلومات كتــبها لويس فى موضع آخر، يُعتقد أنهم عاقبوها بضربها على جانب الرأس بعصا كبيرة). وكانت دهشتهم كبيرة، عندما أخذت سادي، التى كانت راقــدة، تصـــدر نهنهات مؤثرة، وانسالت الدموع من عينيها. فجثا المربون الذين أخرســـهم الذهــول إلى جانب سادى وأخذوا يعانقونها. ويقول لويس، إنه لم يعاقبها أبــداً بعـــد ذلـــك، وإنها تعلمت الحركة وصارت فيل سيرك "جيد". أما زملاؤه من المدربيـــن الذيـــن لـــم يشهدوا شيئاً كهذا فكانوا متشككين. غير أن الروايات ليست قاصـــرة على علماء سلوك الحيوان. فلقد كتب فيكتور هوجو فى يومياته بتاريخ ٢ يناير ١٨٧١: "كان الفيل الموجود بحديقة النباتات يُذبح. فبكى. ذلك أنه سيتم أكله". ومـــن الاعـــتقادات الشائعة فى الهند أن الأفيال تذرف دموعاً انفعالية، حيث درج الـــناس عـــلى الاحتفاظ بالأفيال منذ قرون. ويقال إنه حين أسر الغازى تيمور لنك ثلاثة آلاف فيل فى المعركة، وضع النشوق (نوع من الدخان) فى أعينها حتى تبدو وكأنها تبكى لهزيمتها. ولقد حكى أحدهم لدوجلاس تشادويك عن فيل هندى صغير يـــذرف الدمـــع حين يُوبخ على اللعب بصخب شديد أكثر مما ينبغي ويوقّع بإحدى قدميـــه على الأرض، كما حكى آخر عن فيل فر بعيداً، ثم بكى حين وجده حارسه وقـــائده وبكى الحارس معه. وحين كان تشادويك يراقب الأفيال الأيتام الصغار فى إســـطبل آســـيوي، لاحـــظ أن أحدها كان يذرف الدمع. فأخبره أحد حراس الأفيال وقادتهـــا بأن الصغار كثيراً ما يبكون حين يكونون جائعين، ويكون ذلك تقريباً فى موعد الإطعام. غير أن الصغير ظل يبكى حتى بعد أن أكل. .

ويقول المتعاملون مع الأفيال، إن أعين الأفيال تسيل بغزارة أكثر مما يُعتقد، حتى تـــبقى رطـــبة. وقد يتدفق السائل أيضاً من غددها الصدغية، التى توجد بين العين والأذن. غير أن هذا لا يلتبس إطلاقاً على أى شخص يعرف الأفيال. ومن الممكن أن يكـــون هـــناك مغزى ما فى أن معظم الأفيال التى تذرف الدموع تكون راقدة، وهـــو ليـــس وضعاً معتاداً بالنسبة للأفيال. ويبدو أن لوضع الجسم تأثيراً على منع الدمـــوع من الانهمار. ومبلغ علمنا أن الأفيال تذرف الدموع حزناً ولكنها إذا كانت

واقفة، فإن الدموع تجرى داخل الأنابيب الموجودة تحت الأنف وتنزل من خراطيمها.

لقد وردت روايات عن الدموع الانفعالية بين أنواع أخرى. إذ سمع وليام فري، عالم الكيمياء العضوية الذى يدرس دموع الإنسان الانفعالية، روايات عن الكلاب – خاصة من نوع البودل (كلب ذكى كثيف الشعر أجعده) – التى تذرف الدموع فى مواقف انفعالية، كأنْ يتركها صاحبها ولكن بالرغم من الجهود المتكررة، لم يتمكن من إثبات ذلك فى المعمل. إذ لم يشهد هذه الدموع سوى أصحاب هذه الكلاب، وكلاب البودل من سلالة ذات أعين رطبة بصفة خاصة حتى فى أشد حالات مرحها.

كما قيل إن الدموع انحدرت من أعين أفراد بالغة من عجل البحر عند رؤية القناصة يضربون الصغار. ولا شك فى صحة الواقعة. ولكن حيث إن الدموع كثيراً ما تنحدر من عيون عجل البحر، فلا دليل هناك على أنها دموع انفعالية.

كما أن هناك شكاً فى أن القنادس تذرف دموعاً انفعالية. إذ قال ناصبو الشراك إن القندس حين يقع فى الشَّرَك يذرف الدموع، غير أن مثل هذه القنادس قد تبكى من الألم. وعلى أية حال، فقد روى أحد علماء الأحياء أن القنادس تبكى بغزارة عند تقييد أيديها. وتكتب ديان ف. فوسى عن دموع ذرفتها كوكي، وهى غوريلا جبلية يتيمة. إذ "كانت كوكى تبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات حين قُتلت أسرتها أمام عينيها لضمان أَسْرِها. وقضت شهراً فى قفص صغير جداً قبل أن تنتقل لحيازة فوسى وكانت شديدة المرض. فأُطلقت فى حظيرة داخل المنزل بها نافذة. وحين نظرت كوكى لأول مرة من نافذتها المجاورة لتل تغطيه أشجار بيئتها السابقة، بدأت فجأة فى النحيب وذرفت دموعاً حقيقية". وقالت فوسي، إنها لم تر قط غوريلا تفعل ذلك من قبل ولا بعد ذلك.

إن مونتينى الذى ربما يكون المؤلف الأول الذى يعبر عن الاشمئزاز من عملية القنص كتب يقول فى مقالة ١٥٨٠ "عن القسوة":

"بالنسبة لى، لم أستطع أن أرى حيواناً بريئاً غير مؤذٍ ضار لنا يُطارَد ويُقتل وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه دون أن أشعر بالأسى. كما يحدث، كثيراً مع ذكر

الغـــزال الضخم حين يشعر أنه فقد أنفاسه وخارت قواه، وعجز عن الهرب، فيلقى بنفســـه إلى الوراء ويستسلم لأولئك الذين يطاردونه، ويسترحمنا بدموعه ... لقد بدا لى هذا دائماً منظراً غير سار أبداً".

وفى النهاية، ليست العبرة بما إذا كانت ذكور الغزال والقنادس أو عجل البحر أو الأفيـــال تبكى. فالدموع ليست هى الحزن، وإنما هى رمز له. ذلك أن أدلة الحزن التى يطرحها سلوك الحيوانات الأخرى أدلة قوية. ومن الصعب أن يشك المرء فى أن أفيـــال داروِيـــن التى كانت تنتحب كانت تعسة، حتى لو انهمرت دموعها نتيجة أسباب آلية. فعجِل البحر، يشعر يقيناً بالحزن حين يُقتل صغيره، سواء أكانت عيناه جافـــتين أم مبللـــتين. وكمـــا يعجز الطبيب النفسى أن يقطع بالحد الذى يتجاوز فيه شـــخص مســـتوى الحـــزن "العادي" إلى الحداد "المرضي"، كذلك يعجز البشر عن إدراك أن عـــالم الحـــزن هو عالم فوق قدرة أى حيوان. فالحزن والحنين للماضى وخيـــبة الأمـــل ما هى إلا مشاعر نعرفها من التجربة المباشرة. والحيوانات التى نعـــرفها تـــوحى بمشاعرها الموازية لمشاعرنا فى هذا العالم المظلم. فلو قبل العلم التحدى الذى تطرحه وحاول تفهُّم حزن الحيوان، فإن وصفه الدقيق ينبغى أن يكون مركـــباً وعميقـــاً وأبعـــد كثيراً من التصنيفات السائدة غير المحكمة لعلم نفس الألم الإنسانى.

الفصل السادس

القدرة على الفرح

فى عباب البحر، أحاط أسطول لصيد التونة بسرب من الدرافيل يسبح فوق قطيع من التونة أمسكوا بها فى شبكة ضخمة. إذ أحاطت قوارب ضغيرة سريعة بالحيوانات محدثة بذلك جداراً صوتياً أدى إلى إرهاب الدرافيل وجعلها تضل طريقها فغاصت إلى أسفل – فى صمت داخل الشبكة، ولم تبد عليها أية علامة على الحياة إلا فى أعينها. فنظر علماء الأحياء الذين كانوا يحاولون إنقاذ الدرافيل فى يأس. ولكن حين عبر أحد الدرافيل الحبل المصنوع من الفلين عند حافة الشبكة، "عرف أنه قد نال حريته فاندفع إلى الأمام، وساعدته فى ذلك ضربات من ذيله العريض الكبير القوى ... ثم أخذ يسبح بكل ما أُوتى من قوة إلى أسفل بعيداً إلى أعماق مظلمة، ولم يمض سوى وقت قصير حتى كان قد اندفع إلى السطح فى سلسلة من القفزات العالية وهو يصدر صوتاً قوياً فى الماء".

لقد ألقى عالم الأحياء كينيث نوريس الضوء بروايته لهذه الحادثة على الحالة التى تمر بها الدرافيل التى تقع فى الفخ، زاعماً بأسلوب مقنع أن سلوكها لا يعبر عن اللامبالاة، بل الخوف. لكننا نجد فى فرحة الدرافيل المُحرَّرة وهى تقفز عبر الماء والهواء شيئاً يشد انتباهنا.

لقد سعى منظِّرو الفرح البشرى إلى تصنيفه إلى فئات لتحليل أسبابه داخل حدود تتراوح ما بين "انخفاض حاد فى منحنى الإثارة العصبية"، وبين "ما نحصل عليه بعد أداء عمل إبداعي أو نافع اجتماعياً لم يقصد به مجرد الفرح أو عمل الخير". ويميل مثل هؤلاء المنظِّرين إلى تجاهل إمكانية شعور الحيوانات أيضاً بالفرح.

ولا يملك أى شخص لديه قطة أو كلب أن يشك فى قدرة الحيوانات على السعادة. ذلك أن مشاهدة فرحها ومشاركتها فيه يُعدُّ من بين المباهج الكبرى التى يستمدها الإنسان من الحيوان. فنحن نراها تقفز، وتجري، ونسمعها تنبح أو تشقشق وننسب إليها كلمات تعبر عما تحس به من بهجة: "لقد عدت إلى البيت" "سوف تُطعمني!" "نحن خارجون للتنزُّه!". والسرور كالسعادة الإنسانية المُعلَنة ينتقل بالعدوى، فالحيوانات المدللة تقوم بدور الموصل للمشاعر المفرحة. ويندر أن تجد شخصاً منتشياً بنفس الوضوح الذى تراه فى قطة على وشك أن يُطعمها أحد، أو نشوة كلب سيخرج فى نزهة، حتى لو كان مثل هذا الفرح إسقاطاً من إسقاطات الأنسنة، سقط فيها الجميع دون استثناء!!

والسعادة قد تكون جزاءً ورد فعل للذّة بعد الإنجاز، ولو أن حيواناً أحس بالراحة لأنه فعل شيئاً ذا قيمة انتقائية، فمن المؤكد أن القول بأن لهذه السعادة قيمة انتقائية قول ممكن. غير أن هذا لا يعني، بالضرورة أن السعادة لا توجد إلا لأن لها قيمة انتقائية. ذلك أن المهام الشرسة فى صراع البقاء، والبقاء فى وضع أفضل، لا تجعل كثيراً من الناس فى عداد السعداء، فجزء من السعادة مستمد من انعدام العلاقة بأية غاية منطقية أو حتى العلاقة العكسية بالغاية المنطقية، أى أنها إحساس منفصل تماماً عن الهدف أو الوظيفة، والأدلة متوافرة على أن الحيوانات مثل البشر تشعر بمثل هذا الفرح المجرد.

ومن بين العلامات الكثيرة التى يمكن بها التعرف على الفرح عند الحيوان، الحركات الصوتية. فنحن نُعجب بالقطط المدللة لما تصدره من خرخرة، وهو صوت يدل عادة على السرور وإن كان يُستخدم أيضاً لترضية حيوان آخر. والقطط الكبيرة تخرخر أيضاً. والفهد الصياد يخرخر بصوت مرتفع، كما تخرخر صغار الحيوانات حين تستريح فى كنف أمهاتها. والأُسود تخرخر، وإن كان ذلك ليس كثير الحدوث كما هو الحال مع قطط المنازل، وهو يحدث فقط أثناء حدوث الزفير. ولكل من الأسود الصغيرة والبالغة همهمة رقيقة تصدر عنها فى ظروف متشابهة – حين تلعب برقة وتتلامس الخدود معاً، أو تلعق بعضها بعضاً أو تستريح.

ويُقال إن الغوريلات السعيدة تُغَني. إذ يقرر عالم الأحياء أيان ردموند أنها تصدر صوتاً – شيئاً بين نباح الكلب وغناء الإنسان – عندما تكون سعيدة بصفة خاصة. ففي نهار شمسه ساطعة وصيده جيد على غير عادة، تتناول العائلة طعامها معاً وهى "تغني" ويلف كل منها ساقه الأمامية حول الآخر. وقد تؤكد الذئاب وهى تعوى سيادتها على أرضها وقد تقوّى الروابط الاجتماعية، غير أن من راقبوها مراراً يقولون أيضاً إن عواءها يدخل عليها السعادة.

وتعبر صغار الدب الأسود عن انفعالاتها بشكل أوضح من الكبار، على حد قول عالم الأحياء البرية لين روجرز: "حين يكون أحد الأشبال مستريحاً جداً خاصة عند إرضاعه، فإنه يصدر ما أسميه صيحة ارتياح وقد كنت أسميه صوت الرضاعة حتى رأيت صغاراً تصدره فى غير وقت الرضاعة!" ثم أخذ يقلد الصوت كصرخة خافتة "إنه صوت خفيض دال على السرور. فى إحدى المرات أعطيت قطعة من الدهن الدافئ لأخذ الدببة الكبار. وبدا لى أنه أحبها حقاً. إذ إنه أصدر الصوت ذاته، وإن كان أعمق. لذا، فأنا لا أدرى هل هذه سعادة أم لا؟ هل هى مجرد راحة؟ لقد كان مسروراً على أية حال".

كما يمكن التعبير عن الفرح فى صمت. ذلك أن مراقبى أى حيوان تقريباً سيتعلمون بسرعة التعرف على لغة الجسد التى يعبر بها أى نوع ويضرب داروين مثالاً بحصان يتقافز إذ أُخرج للمرعى، ونظرات إنسان الغابة والقردة وهى تتعانق. كما روى رواية أخّاذة، فى رسالة خاصة عن فرح الحيوان:

"منذ يومين، حين كان الجو شديد الدفء، ذهبت إلى الجمعية الحيوانية، ومن حُسن طالعى الذى كان أسعد ما يكون هذه المرة، أنها كانت أول مرة يتم فيها إخراج الخرتيت هذا العام. ونادراً ما يُرى هذا المنظر، أن ترى الخرتيت يركل بقدميه ويتراجع رغم أنه لم يرتفع ارتفاعاً ملحوظاً عن الأرض فى أى اتجاه من فرط الفرح – وكان الفيل فى الفناء الداخلى الملحق وكان فى غاية الدهشة من رؤية الخرتيت يقوم بهذا القدر من التقافز: فاقترب من الحديد العازل وبعد أن نظر بإمعان شديد أخذ هو الآخر يقفز وذيله مربوط من أحد الأطراف، وخرطومه من الناحية الأخرى – يصرخ ويصيح وكأنه نصف دستة من آلات النفير المكسورة".

ولا شك فى أن علامات السعادة قد يلتبس تفسيرها. فمن بين العوامل التى تسهم فى إضفاء السحر على حيوانات الدرفيل ذى الأنف الشبيه بالزجاجة "ابتسامتها" الدائمة التى تنتج عن شكل فكها وليس عن حالة انفعالية. وبما أن الدرفيل وجهه غير متحرك، فهو "يبتسم" دائماً حتى لو كان يغلى من الغضب أو تقتله الكآبة.

وبالرغم من ذلك ، فإن عالم الأحياء كينيث نوريس يعتقد أن الناس والدرافيل يمكنها التعرُّف على الشحنة الانفعالية فى إشارات بعضها للبعض. أى أن النوعين يمكنهما التعرف أو تعلم التعرف على الود، والعداء، أو الخوف عبر حدود النوعين، وإن كنا نعجز عن فهم ما يصدره كل منهما من تعبيرات صوتية. وهو يضرب مثلاً بأصوات النباح "الآمرة" التى يصدرها الدرفيل الدوّار التى تُبَين السلوك الصاخب، بالمقارنة بالأصوات الناعمة المهدهدة التى تُبَين الاتصال الودى غالباً بين الأنثى والذكر. ويقول نوريس، إن اللغة بين أمهات الدرافيل والبشر وأطفالهن ليست شبيهة ببعضها فحسب، وإنما من السهل على النوعين فهمها أيضاً.

حين انصهر الجليد أخيراً فى إحدى بِرَك القنادس، فى نيو انجلند، فى فصل الربيع، سبح ذكر أحد القنادس وابنته التى لم تبلغ من العمر عاماً، حتى يريا سدهما "وهما يقلدان الدرافيل الصغيرة" فى سباحتهما؛ إذ كان كل منهما يسبح على ظهر الآخر. بعد ذلك سبحا عبر البركة معاً، وهما يتقلبان ويغطسان ويصعدان إلى أعلى مرة بعد أخرى، فى مظهر من مظاهر البهجة يمكن أن يتعرف عليه حتى من كان لا يجيد السباحة.

وفى مثال يرتبط باللغة، تعلمت عدة قِرَدة علامة "سعيد"، وكان نيم تشيمسكى يستخدم اللفظ عندما يشعر بالإثارة أو الغيظ. وحين سُئلت كوكي، ماذا تقول الغوريلا حين تكون سعيدة، أشارت بما معناه "تتعانق" وليس معروفاً ما إذا كان كوكي وتشيمسكى يفهم كل منهما استخدام الآخر لكلمة "سعيد". ومن بين نقاط النقد التى تُوجه إلى تعليم اللغة للقردة هو أن الحيوانات – باستثناء الغوريلا كوكو – لم تتعلم عادة ألفاظاً تعبر عن الانفعالات، رغم أنه بدا أنها قد تكون راغبة فى توصيل الحالات العاطفية لأصدقائها وأعدائها. إذ تقول كارولين ريستاو: "قد يكون من المفيد أن نحاول تعليم الشمبانزى أن يربط العلاقات بحالات عقلية، مثل: عدوانى

خـــائف، فى حالـــة تـــألم، جائع ظمآن، أو راغب فى اللعب" فربما كانت هذه هى الكلمات التى تهمها بشكل أكثر عمقاً.

فى أحـــد الأيـــام الممطرة، فى واشنطن، أُتيحت الفرصة لقردى الشمبانزى اللذين يـــتحدثان بالإشـــارة موجا وتاتو، أن يخرجا إلى ساحة لأداء التمرينات الرياضية. فخـــرج موجا، الذى لا يحب المطر، لكنه انكمش فى أحد الكهوف. أما تاتو فتسلقت هيكـــل المـــلعب وجلست تحت المطر وهى تشير "اخرج اخرج اخرج". فقال أحد الباحثين: "لقد بدت وكأنها تُغنى تحت المطر". كما شوهد سلوك تعبيرى آخر يُسمى "رقصـــة الحرب" عند الماعز الجبلية والشاموا، حيث يبدأ أحد الحيوانات بالرجوع إلى الخلف والقفز وهز قرنيه، ويدور حول المكان. ويبدأ كل الفريق فى هذا واحداً بعـــد الآخـــر. ويحدث رقص الماعز غالباً فى الصيف حين تكون هناك وفرة من الطعـــام، كما أن مشاهدة سفح جليدى منحدر يمكن أن يشجع على رقصة الحرب، ممـــا يجعل فريقاً يتقافز ويلعب ويدور وينزلق ويركل الجليد. وهذه الحيوانات تنفق الكثير من الطاقة فى رقصتها، حتى إن بعض الماعز شُوهدت وهى تقوم بدورتين تامتين تقريباً فى الهواء فى قفزة واحدة.

مـــا الســـبب الـــذى يُدخل السعادة على الماعز؟ فهى لم تسمع خبر ميراث قد آل إليهـــا، كما لم تتلق عرضاً بوظيفة، ولم تشاهد أسماءها مكتوبة فى الصحيفة. فليس لديهـــا أى شـــيء يجعلها مسرورة، سوى الحياة والشروق ووفرة الطعام. إنها تقفز فرحاً.

أحيانـــاً يكـــون مصـــدر الفرح واضحاً ويسهل التعرُّف عليه، مثل الانفعال الذى يظهـــر على جماعة من الشمبانزى البرية حين تعثر على كومة كبيرة من الطعام. حيـــث كـــتب جودال وهامبورج يقولان: "قد يربت ثلاثة أو أربعة من الذكور على بعضـــها بعضـــاً وتتعانق وتمسك الأيادى ويضغط كل منهما بفمه على فم الآخر، وتطـــلق صرخات مرتفعة تستمر عدة دقائق قبل أن تهدأ بما يكفى للبدء فى الأكل". ثـــم كـــتب الباحثان يقولان: "يتضح من ذلك أن هذا النوع من السلوك يشبه سلوك طفـــل من البشر عندما يحتضن فى نشوة من ينقل له نبأ قرب حصوله على شيء خاص يحبه ويصيح مبتهجاً".

ومـــن بيـــن المصادر الأساسية للسعادة لدى الحيوانات الاجتماعية، تواجد أُسَرِها وأفـــراد جماعـــتها. إذ تمـــت تربية نيم تشيمسكى وسط أسرة من البشر فى السنة والنصف الأولى من حياته. وحين قَارَب الرابعة من العمر، تم ترتيب اجتماع شمله مع الأسرة التى قامت بتربيته. وحين وقعت عيناه عليهم، فى مكان لم يرهم فيه من قبل، ابتسم ابتسامة عريضة وصرخ وأخذ يدق على الأرض لمدة ثلاث دقائق، وهو يـــنظر إلى الأمـــام وإلى الخلف نحو أعضاء الأسرة المختلفين. وأخيراً هدأ بشكل يســـمح له بـــأن يذهـــب ويعانق أمه البديلة، وهو لا يزال يبتسم ويصرخ، صراخاً مـــتقطعاً. لقد قضى أكثر من ساعة يعانق أسرته، ويلتصق بهم ويلعب معهم قبل أن يرحـــلوا. وكانت هذه هى المناسبة الوحيدة التى شُوهد فيها نيم يبتسم لما يزيد عن بضع دقائق.

ولـــم الشمل بعد الفراق من مصادر الفرح الشائعة. كان هناك ذكران من الدرافيل ذات الأنوف الشبيهة بالزجاجة فى أحد بيوت تربية الدرافيل، ولم تكن بينهما علاقة الخصـــومة التى تكون عادة بين الذكور المُحتجزَة معاً. ونُقل أحدهما إلى المعارض لعدة أسابيع. وحين عاد، بدا أن الاثنين فى حالة من التشوُّق . إذ أخذا يدوران حول الصـــهريج لعدة ساعات جنباً إلى جنب ومن آن إلى آخر كانا يقفزان خارج الماء. وقضـــيا وقـــتهما معـــاً لعـــدة أيام، متجاهلين الدرفيل الآخر الذى كان موجوداً فى الصهريج.

ويـــبدو أن لقـــاء جماعـــتين مـــن الأفيال بينهما صلة قرابة يُعتبر وقتا مشحوناً بالانفعالات، ومليئاً بالنشوة والدراما. فلقد كتب سينثيا موس تتحدث عن لقاء اثنتين مـــن هذه الجماعات. قادت أحد اللقاءين الأنثى العجوز تيريزيا وقادت الآخر سليت اير. إذ بدأ كل منهما ينادى على الآخر من على مسافة ربع ميل، (وبما أن الأفيال يمكنها أن تتواصل على مسافات بعيدة بأصوات من الانخفاض بحيث يصعب علينا ســـماعها، فلربما كانت تشعر بوجود بعضها قبل البدء فى النداء بصوت مسموع). غيـــرت تيريـــزيا الاتجاه وبدأت فى السير بسرعة. وكانت رؤوس الأفيال وآذانها مـــرتفعة إلى أعلى وانحدر السائل من الغدد الصدغية (وهى غدد صغيرة بين العين والأذن) مـــن جميـــع أفيـــال القطيع. فتوقفت ونادت، وحصلت على رد، وغيرت

المســـار قليلاً، وتقدمت بسرعة. فظهرت جماعة سليت إير من بين الأشجار، وهى تجرى نحوها.

وجـــرت الجماعتان نحو بعضهما البعض، وهى تصرخ وتصدر صوتاً كالنفير. واندفعت تيريزيا وسليت معاً، وهما تتصافحان بالأنياب وتلف كل منهما خرطومها بالأخـــرى وهمـــا تصـــدران غمغمة وتتداعبان بالأذنين. فأدت بقية الأفيال تحيات متشـــابهة، من حيث الالتفاف حول بعضها البعض، والاستناد على بعضها وكذلك الاحـــتكاك المتـــبادل والإمساك بالخراطيم والصياح، وانحدر من غددها الصدغية كـــثير من السائل حتى إنه انهمر على ذقونها. وتكتب موس قائلة: "ليس لدى أدنى شـــك. حتى وأنا فى أشد لحظاتى العلمية صرامة فى أن الأفيال تحس بالفرح حين تعـــثر على بعضها مرة أخرى. وقد لا يكون هذا الفرح مشابهاً للفرح البشري، بل قـــد لا تجـــوز مقارنـــته به، غير أنه فرح أفيال، وهو يلعب دوراً كبيراً فى النظام الاجـــتماعى بأكمله". ولا يمكن التعرُف على فرح الأفيال بهذا المعنى إلا لأنه يشبه فـــرح البشر. غير أن موس على صواب حين تقول بأنه لا يجب علينا أن نفترض أنـــه مطـــابق للفرح البشري. فنحن، فى النهاية لا ندرك شعور المرء حين يتدفق الســـائل من غدده الصدغية. إذ قد توجد أشكال من الفرح فى مجتمع الأفيال تختلف عن أى فرح يشعر به البشر.

ذكـــر عـــالم الأحيـــاء لارز ويلسون، أن "تف" وهى إحدى القنادس، كانت تنظر بـــتجهُم وهى تراقب طفلها يسبح، وكانت تحس بتعاسة عميقة إذا ما اقترب منه أحد الغرباء، ولكن حين كانت تطعمه أو تنظفه "كانت تشعر بسعادة الأمومة الخالصة".

فالصـــغار مصـــدر رئيســـى للـــبهجة لدى الحيوانات. وثمَّة علامة معينة مميزة "لصـــغار الحيوانـــات"، مثل العيون الواسعة والخطوة غير الواثقة، والأقدام الكبيرة والـــرأس الكـــبير. ويستجيب البشر استجابة دافئة لهذه الملامح ليس فقط فى أطفال البشـــر، وإنمـــا أيضـــاً فى صغار الحيوانات، كما يحدث لبعض كبار الحيوانات. وبعض الحيوانات تُحدِث رد فعل عاطفى إزاء الملامح الطفولية. وبعضها يتسم رد فعلـــه بـــانعدام العـــدوان أو بالرغبة فى إسباغ الرعاية. إن مثل هذا التعرف على السمات الطفولية يُعتبر شيئاً داخلياً إلى حد كبير. إذ قد تحس الحيوانات، أحياناً، بما يحس به الناس حين يقولون عن طفل إنه كالمعبود. ذلك أن وجود مثل هذه السمات

عـند صـغار الديناصـور جعل عالم الحفريات جون هورنر يقول، لابد أن بعض الديناصورات وجدت صغارها "جذابة".

كذلك قد تَعبُر الرقة الحواجز بين أنواع المخلوقات، فبعض الحيوانات تُظهر سروراً واضحاً حين تُعنى بغيرها. إذ حين هبط عصفور دُوريّ(*) فى قفص الشمبانزى فى حديقة حيوان بيزل، اختطفته إحدى القردة على الفور فى يدها. ودُهش حارس الحديقة الذى كان يتوقع التهامه فى الحال لما رأى القردة تهدئ الطائر العارى من الريش برقة شديدة داخل كفها الذى اتخذ شكل الفنجان، كى لا يسقط الصغير، وكانت تحملق فيه فى سلوك أشبه ما يكون بسلوك المبتهج. وتجمعت قرود الشمبانزى الأخرى وتناقلت الطائر برفق من يد ليد. وحمله آخر من تناوله إلى القضبان وأعطاه للحارس المشدوه.

وثَمَّة مصدر آخر من مصادر سعادة الإنسان وهو الاعتزاز، ذلك الشعور بأننا فعلنا شيئاً ما على خير وجه. ولا نعرف إلى أى حد يمكن نسبة هذا الانفعال إلى الرضى عن النفس وإلى أى حد يمكن نسبته إلى لذة التفوق. لقد وصف لارز ويلسون المسلك المتغير فى حالة جريتا وستينا، حين تمكن القندسان الأسيران من بناء سد داخل مكان احتجازهما. أُسِر هذان القندسان البالغان سنة واحدة من العمر وهما رضيعان، ولم يكونا قد رأيا سداً قط. ولم يكونا على علاقة ودية بصفة خاصة عندما بنيا سدهما، بل كانا يتشاجران إذا ما اقترب أحدهما من الآخر أكثر من اللازم. وبعد أن بُنى السد، بدآ فى تناول الطعام جنباً إلى جنب مصدرين أصوات "كالحديث الودي"، بل إنهما لم يتوقفا عن اعتراض طريق بعضهما فحسب، وإنما كان كل منهما يبحث عن الآخر للغناء أو ينظف كل منهما الآخر. كذلك قضت جريتا وستينا مزيداً من الوقت خارج عشهما الذى كان على شكل صندوق، يسبحان ويغوصان فى الماء، حتى إن سدهما صار أكثر سمكاً. يبدو أن اعتزازهما بما أنجزاه خلق الصداقة بينهما.

وقد وصف أحد الباحثين بعض القنادس البرية التى خرب البشر سدها تخريباً شديداً فى موسم عَز فيه الحصول على مواد لإصلاحه. فعمل هذا الباحث على

(*) عصفور دُوريّ: طائر ينتشر فى أوروبا وخاصة إنجلترا.

إسقاط فروع شجر مناسبة فى قاع البركة أثناء نوم القنادس. وبينما كان أحد ذكور القنادس يقوم بتحويل الخشب من عشه إلى السد اكتشف الفروع. فأخذ يسبح بينه وهو يتشممها ويصدر أصواتاً تدل على الانفعال ففسرها أحد الباحثين "بالفرح" والآخر "بالدهشة"؛ ولكنهما سرعان ما عادا إلى ما اعتادا استبعاده علمياً، فاتفق على أن "مشاعر القندس الداخلية فوق قدرتنا على التأكيد".

وبعض الحيوانات الأسيرة تستشعر قليلاً من الفرح فى الحياة. إذ يكون أداء الحركات عند بعضها فرصة للعمل وإظهار العافية أو الشعور بالزهو. فالنمر العاجز عن اصطياد فرائسه عاجز أيضاً عن الفوز بأنثى للتزاوج، كما أن العاجز عن استكشاف أرضه وحمايتها تتضاءل فرصته فى الشعور بالزهو. فبالنسبة لبعض النمور، ربما كانت فرصة القفز من خلال حلقة مشتعلة أفضل من لا شيء. ولكن لماذا يجب على النمور أن تقنع بشيء أفضل من لا شيء؟ إن تحويل تلك الحيوانات إلى رقيق، ثم الحطّ من قدرها أكثر من ذلك بجعلها تؤدى حيلاً لتسلية الإنسان يبين من نقص البشر بقدر ما يبينه من قدرات الحيوان. إن الحكم على النمر بالموت البطيء مللاً ما لم يستمتع بأداء الحركات التى يجبره الإنسان على أدائها، هو تعليق مؤسف على ما فعله الإنسان بتلك الضوارى الرائعة.

وتؤثر عواقب هذا السلوك المشوه على الحيوانات والمدربين على حد سواء. حيث كان للمدرب جنثر جيبيل – ويليامز نَمِرَة اسمها إنديا تشترك فى العرض الذى دأب على تقديمه طوال عشرين عاماً. وعندما أحس بأنها أصبحت طاعنة فى السن وتستحق الراحة، توقف عن استخدامها فى العرض، غير أنه فى كل مرة كان يمر بقفصها وهو يحضر بقية النمور كانت "تصيح". فأحس جيبيل – ويليامز بالأسف من أجلها، حتى إنه أعادها إلى العرض مرة أخرى مما أدى إلى نتائج مؤسفة، حيث هاجمتها نَمِرَة أخرى وجرحتها. ربما كان اشتراكها فى العرض مثار فخر لديها، ومن ثَمَّ فقد كان أدعى للسعادة من إحالتها إلى التقاعد الإجبارى لكن هذه السعادة كانت الخيار الوحيد المتاح أمامها، ورغم إحساسها بالفخر فيجب أن ندرك إحساسها بضياع الكرامة. وإذا كانت كرامة الحيوانات لم تلق سوى حظ قليل من التوثيق، فذلك راجع إلى أن تاريخ الإنسان فى التعامل معها لا يترك سوى

فرصة ضئيلة لإبرازها. فنظرة الإنسان إلى الحيوان على أنه "أدنى" منه على وجه اليقين، لا تسمح إلا بقليل من الإحساس بضياع كرامة الحيوان.

وفى سياق الزعم بأن الدرافيل تكاد تصبح "حيواناً مستأنساً" قالت كارين بريور، إن الدرافيل تستمتع بأداء المهام التى يوكلها لها البشر. وأضافت: "لقد رأيت أحد الدرافيل يكافح حتى يتمكن من أداء حركة رياضية صعبة، رافضاً بالفعل أن يأكل السمكة التى يُكافأ بها؛ حتى يتمكن من إتقان الحركة غير العادية". من الصعب القول بأن الدرفيل "يستمتع" بالتحدي، ما لم نعرف البدائل المتاحة أمامه. فهل يمكن أن يجد درفيل حر لذة فى مهمة كهذه؟ ربما تعبر هذه الحادثة عن الدرافيل التى لديها فكرة عن العدالة، أو المكافأة المُستحقَة، غير أنه من الصعب الجزم بذلك. والسلوك المشابه لدى الدرافيل الحرة أكثر إثارة وثراء بالمعلومات عن مجتمعها.

وكثيراً ما يلاحظ مدربو الخيول أن بعض الخيول تشعر بالاعتزاز. إذ قيل إن "سكرتارية" الذى فاز بسباق كنتكى دربى عام ١٩٧٣، يشعر بزهو. والدليل على ذلك أن المدربين والخيَّالة، لاحظوا أنه رفض الجرى ما لم يُسمح له بالعَدْو على طريقته الخاصة – أى أن يبدأ السباق أو ينهيه بالسرعة العالية وأن يكون ذلك وفقاً لاختياره، رغم كونه فى المعتاد حصاناً لطيفاً مطيعاً. وحين سُئل رالف دينارد مدرب الحيوانات عما إذا كان الكلب الذى يحسن الأداء فى مسابقة لطاعة الأوامر يشعر بالفخر، أجاب بحذر قائلاً: "يبدو كذلك، فهذه الكلاب تبدو وكأنها فخورة. وتعكس الثقة، وتُبدى السعادة، وتقف هكذا" ثم أبرز صدره للأمام كما قد تفعل هذه الكلاب.

ويصف ميك ديل روس الذى يعمل فى مشروع الكلاب المرشدة للمكفوفين التطور التدريجى للفخر الذى تشعر به الكلاب أثناء التدريب على عمل إرشادي. ففى المراحل الأولى، يكون الكثير من الكلاب غير واثق من نفسه. "وكأنها تحدث نفسها" بأن هذا عمل شديد الصعوبة. لا أستطيع أن أقوم بذلك "إذ تتسع عيون تلك الكلاب، وكأن شعوراً قد اجتاحها. وقد ترقد على الأرض، أو تذهب إلى أحد الأركان، أو حتى تنكمش على هيئة كرة". فإذا لم تخلصها من هذا الشعور فى الحال، "فسوف تخسر ذلك الكلب". أما إذا ثابر المدرب، وأعطى الكلب راحة من العمل، وترك له فرصة كى يتخلص من توتره، ثم جعله يتقدمُ فى مهمته (الأمر

الذى يمكن أن يكون فى بساطة السير على خط مستقيم) عندئذ يمكن للكلب أن يسترد ثقته. ومع تقدم الكلاب فى التمكُّن مما يُطلب منها فعله، "فجأة يصبح عملها أقل اهتزازاً ... ويصبح اكتسابها للمهارات سهلاً". وتعبر اللغة الجسدية لهذه الكلاب عما تتمتع به من ثقة فى النفس وفخار. عندئذ فى النهاية، تُدرك أنها "تستطيع فعل ذلك" وتستمتع به. "وتصبح فخورة بنفسها".

وقد شعرت إحدى الكلاب المرشدة بالفخر من إنجاز عمل لم يعلمها أحد كيف تقوم بـه. حيث كانت الكلاب تسكن فى مرابط منفصلة تنفتح على مكان فسيح للجرى. وفى كل صباح، حين يصل المدربون كانوا يطلقون الكلاب فى هذه المنطقة. وتعلم كلب شيبرد ألمانى كيف يحل القيد من المرابط. فكان فى كل صباح يحرر نفسه ويمضى من مربط إلى آخر مُطلقاً بقية الكلاب. فاستبدلوا بأربطة حدوة الحصان ألجمة، فتعلم كيف يحل هذه أيضاً.وأخيراً ثُبتت المرابط بأحزمة من الجلد أشبه بالأشرطة فأُحبطت جهود الكلب، غير أن مفتشة حظيرة الكلاب كاتى كانت تبتسم حين تتذكر البهجة التى يشعر بها الكلب نتيجة احتفاظه بقدرته على فتح الباب. "لقد كان فخوراً جداً بنفسه. إذ كان يحضر إلينا، كأسعد ما يكون، وهو يهز ذيله".

إن الناس يشعرون بالفخر فى أرضهم. وربما استطاعت الحيوانات أن تفعل ذلك أيضاً. فمستعمرة الشمبانزى التى تُعدُّ واشو إحدى عضواتها انتقلت حديثاً إلى موقع جديد فسيح، به مناطق للتريُّض بالداخل وبالخارج. وحين قامت إحدى صاحبات واشو من البشر بزيارتها لأول مرة فى موقعها الجديد، أخذتها واشو من يدها، وقادتها من حجرة إلى أخرى، وهى تعرض عليها بكل عناية كل ركن وزاوية. ربما كانت لواشو دوافع أخرى، غير أنها قد تكون ببساطة مزهوة بمقرها الجديد الفسيح. كما لو كانت مشاركتها فى مكانها وسعادتها علامة على شعورها بالصداقة.

الانتشاء بالحرية

إن الحرية تبعث على الفرح. ويَزعم العاملون بحدائق الحيوانات والعلماء الذين يجرون التجارب عليها وغيرهم من المهتمين بها أنه إذا توافرت كل احتياجات الحيوان، فإنه لا يهتم بالحرية أو الأسر. لكن كثيراً من الحيوانات الأسيرة التى

أُحسِن إطعامها ومعاملتها تحاول دائماً أن تهرب المرة تلو الأخرى. والحرية شيء نسبي. ففى الربيع، حين يُسمح لقردة الشمبانزى فى حديقة حيوان آرنهيم بمغادرة مقرها الشتوى لأول مرة، نشاهد منظراً مفعماً بالسرور: إذ تصرخ القردة وتصدر أصواتاً كالنفير ويمسك كل منها بالآخر ويقبله وتقفز إلى أعلى وأسفل ويضرب كل منها الآخر على ظهره. صحيح أنها ليست حرة، غير أن زيادة المساحة والحرية زيادة نسبية تثيرها. ويبدو أن هذا يبعث فيها السرور.

ويصف جورج شالر حيوان باندا عمره عامان فى مركز صينى للتهجين، وهو يُعطَى فرصة نادرة للخروج إلى محمية مفتوحة، حيث اندفع خارجاً من قفصه المظلم، وتسلق أحد التلال بخطوات سريعة قوية ثم قام بحركة بهلوانية (دورة فى الهواء) إلى أسفل. وأخذ يصعد التل مرة وراء أخرى ويتدحرج عائداً إلى أسفل. لقد "كان يفيض فرحاً" كما وصفه شالر.

ومن المؤكد أن القدرة على تحديد المصير والتحكم فيه من أسباب الابتهاج بالحرية والقليل جداً من العلماء هو الذى يعتقد بأن الحيوانات تحتاج إلى هذا، فهناك عالم الحيوان ج. لى كافانا الذى أعطى الفئران ذات الأقدام البيضاء (فئران الغزال) فرصة لضبط مستويات الإضاءة داخل أقفاصها عن طريق الضغط على رافعة. فوجد أن الفئران تفضل الأضواء الخافتة على الإضاءة المبهرة أو الظلام، وأنها إذا ما تُركت وشأنها فإنها تضبط مستوى الإضاءة وفقاً لذلك. ولكن إذا فُرضت عليها الإضاءة الساطعة، فإن الفئران كانت كثيراً ما ترد على ذلك بإظلام القفص تماماً. وعلى العكس من ذلك، كانت الفئران تختار الإضاءة الساطعة جداً حين يُفرض عليها الظلام. كما وُجد أنه عند إزعاج الفئران النائمة، فإنها تخرج من بيوتها المصنوعة من الصناديق لتتحقق مما يحدث، ثم تعود بسرعة إلى الداخل، لكنه إذا وضعها بيده فى الداخل، فإنها تخرج فوراً، مهما كان عدد المرات التى يفعل فيها ذلك. فقد كانت تهتم بحرية الاختيار أكثر من اهتمامها بالراحة. وعندما تُعطى الفرصة لإدارة بيئتها، فإنها تكافح بشدة دفاعاً عن هذا. ولأن الفئران البرية بيضاء الأقدام مُنحت قدراً أكبر من التحكُم فى محيطها وأنشطتها، فقد كان ذلك مبعث اهتمام شديد لديها كحيوان أسير. وحتى إذا ما زُوِّد حيوان الحديقة بجميع

الاحتياجات المادية، فإنه يظل مفتقرا إلى شيء حيوي، شيء يحتاج إليه حتى يكون سعيداً. ربما كانت القدرة على تجنُب الإكراه من بين أسباب الابتهاج بالحرية.

وتتمشى قصة تشارلز مع هذا السياق، وتشارلز هذا أخطبوط صغير كان موضوعاً للتجربة لمعرفة هل تستطيع اللا فقاريات أن تتعلم بالارتباط الشرطى كالفقاريات. لقد كان على تشارلز وبرترام وألبرت التى كان كل منها يسكن صهريجاً منفصلاً أن تتعلم جذب زرّ معين للإضاءة، ثم السباحة نحو الضوء ليكافأ بقطعة صغيرة جداً من السمك. فتعلم ألبرت وبرترام أن يقوما بالمهمة وبدا تشارلز فى البداية يفعل نفس الشيء. ولكنه تمرد بعد ذلك فأخذ يتشبث بجدار الصهريج ويشد الرافعة بشراسة شديدة حتى كسرها مع مرور الوقت. وبدلاً من الانتظار تحت الضوء كى يتلقى نصيبه الضئيل من السمك، خرج تشارلز من الماء وأمسك بالمصباح وجره إلى داخل الصهريج. وفى النهاية، أخذ فى الطفو فى أعلى الصهريج وعيناه فوق سطح الماء، وهو يمطر الذين قاموا بالتجربة بالماء. "لم تكن المتغيرات المسؤولة عن التشبُث بالمصباح وتقوية الإضاءة ونثر الماء لدى هذا الحيوان واضحة". كما أشار صاحب التجربة على وجه التحديد.

فى أحد المواقع فى غابات أريزونا حيث تُصاد الببغاوات سميكة المناقير وتُربى وتتناسل، ثم تُطلق، كانت الببغاوات التى تنتظر الإطلاق فى صحة جيدة وريشها ناعم وجيدة التغذية. فلديها مدد كبير من الطعام والماء وتنعم بالأمن والصحة، بحيث كانت لا تقل عن أفضل الببغاوات المدللة من حيث المعاملة. ومع ذلك بدت الببغاوات الحرة أصلاً أفضل بدرجة كبيرة جداً فى رأى من راقبوها، رغم صعوبة تحديد الفارق فكلتا الجماعتين لهما ريش أملس، وعيون لامعة، ربما كان الفارق محصوراً فى السلوك. ورغم أن الببغاوات الأسيرة لم يكن مظهرها دالاً أو باعثاً على الشفقة، إلا إن الببغاوات الطليقة بدت أفضل بعشر مرات: فكانت أقوى وأكثر سعادة وثقة. حتى وهى تراقب السماء اتقاءً للصقور، بدت كأنها تحتفى بالحياة. وفى العمل الكلاسيكى "قطيع الغزلان" الذى كتبه ف. فريزر دارلنج، هناك ملاحظات مشابهة عن الغزال والفارق بينه وبين الغزال البري، هناك شيء مُفتقَد.

هل يمكن بأى حال أن تكون الحيوانات سعيدة فى الأَسْر؟ وهل يمكن بأى حال أن تكون حديقة الحيوانات جيدة بمعنى أن تكون بيئة سعيدة؟ مادام سلوك الحيوان مرناً

دائمـــاً، فلابـــد أن يكـــون هـــذا ممكناً، غير أن معظم الحيوانات لا يهتم آسروها بالشـــروط اللازمـــة لجعـــل الحيوانـــات سعيدة، وإنما يهتمون بما يلزم كى تصبح حيوانـــات أليفـــة، أو كى تقـــدم عرضـــاً جيداً، أو كى تنمو وتتناسل. إن فن جعل حيوانات الحديقة راضية، أو مسرورة أو فرِحة، ليس مسألة تجربة.

فـــالذئب يـــتكاثر فى الأسْر، ولكن ليس من الوارد أن يكون راضياً إذا كان هدفاً لـــنظرات المشـــاهدين عن قرب دون مكان يختبئ فيه أو فرصة للتطلع إلى القمر، وقد لا يُسعد الذئب أن يقدم عرضاً جيداً، ولكن الراكون (حيوان شمال أمريكى من آكلات اللحوم) قد لا يكترث كثيراً بهذه المشكلة وربما كانت لديه مشكلات أخرى، عـــلى أيـــة حال، وهى ليست أقل إزعاجاً فى طبيعتها. فالحيوان فى حاجة إلى أن يشـــعر بالأمان معظم الوقت حتى يكون سعيداً. وإذا كان حيواناً اجتماعياً، فهو فى حاجـــة إلى صحبة. وهو فى حاجة إلى شيء. فطبق من الطعام ثلاث مرات يومياً قد يكون مساوياً لأربع ساعات من الصيد، من الناحية الغذائية، غير أنه غير مساوٍ من الناحية الانفعالية.

فحيـــن هـــربت انداه – وهى إنسان غابة – من محميتها فى حديقة حيوان سان دييجـــو فى يونيـــو ١٩٩٣، صعدت إلى مكانٍ عالٍ يشرف على منظر طبيعى ولم تـــتجه إلى المـــرتفعات أو تهـــاجم البشر. بل اختارت أن تتفحص صفيحة قمامة، ووضعت حقيبة على رأسها، وتذوقت ما وجدت، ودفنت مطفأة سجائر، والجمهور يحيـــط بها وقد شدت انتباهه. وبعبارة أخرى، فقد أشبعت فضولها للتعرف على ما يحـــدث فى الجانب الآخر من مقعد المشاهد، كما أشبعت حاجتها فى التصرف فى عالمها بطريقتها الخاصة. ويوضح هذا أن انداه كانت تحس بالملل فى محميتها، فقد كـــانت تعـــانى مـــن نقص ما. وكانت لديها أشياء تريد أن تفعلها ولكنها مُنعت من فعـــلها. وفى حدائـــق الحيوان يُعرِب الزوار مراراً عن ملاحظتهم على السأم الذى تشـــعر به الحيوانات.ويعبر الكثير من الناس عن الإحساس بعدم الراحة وتقديرهم لما قد يشعرون به لو وُضعوا فى نفس ظروف الحيوانات.

ويحـــتاج الحيـــوان أيضاً إلى مساحة يتجول فيها فى بيئة تلائم طبيعته. فبالنسبة لـــبعض الحيوانات الصغيرة التى تسعدها مجاورة جحر أو عش، فإن قفص حديقة

الحيوانات العادي، إذا كان تركيبه مناسباً بحيث يكون متسعاً بشكل كافٍ. لكن الدب القطبى أو الكوجار(*) لن يجد قفصاً يلائمه من حيث المساحة.

والسؤال الذى يفرض نفسه علينا هو هل الحيوان لا حقٌ له فى اختيار البيئة الخاصة به، مهما صغر؟ أليست حرية الاختيار شرطاً أساسياً للشعور بالسعادة؟ ليس من المدهش أن المهمة المفضلة التى يجب تعليمها للحيوانات الأسيرة هى تقليد السعادة. فالدرافيل، المحُتجَزة فى أماكن صغيرة ضيقة والمحرومة من معظم الصحبة، والتى حُرمت من استخدام جميع قدراتها، تتدرب على الانطلاق فى الهواء وسط رذاذ الماء الذى يشبه الدش كى ترقص عبر سطح الماء وتقفز فى فرح ظاهر. وقد يكون الفرح حقيقياً، غير أنه لا يعكس الواقع الشامل لحياة الحيوان الأسير.

اللعب

غالباً ما يُعرب الفرح عن نفسه أثناء اللعب الذى تنغمس فيه جميع الحيوانات طوال حياتها. وهذا اللعب الذى يُعتبر علامة ومصدراً للفرح، لقى المزيد من اهتمام الدراسات فى السنوات الأخيرة، بعد فترة طويلة كان هذا الموضوع فيها، لا يرقى إلى مستوى الاحترام فى الدوائر المهنية. ويذكر روبرت فيجين من جامعة بنسلفانيا رد الفعل العنيف على أعمال كارل جروس، الذى حاول فى أواخر القرن التاسع عشر إثبات العلاقة بين اللعب وعلم الجمال، واصفاً (أنا ألعب) بأنها صيغة مبسطة للمحاولة الفنية. كما ذكر فيجين أن "دراسة لعب الحيوان لم تنجح مطلقاً فى التغلب على الحرج الناجم عن محاولة جروس للجمع بين علم النفس وعلم الجمال". ولا يزال علماء الأحياء يشعرون بالإحباط من اهتمام غير المتخصصين بالربط بين لعب الحيوان والإبداع الإنساني. لكن فيجين كان شجاعاً حين كتب يقول:

نحن نجد فى لعب الحيوان مظهراً جمالياً خالصاً يتحدى العلم تحدياً صريحاً. ولا يعرف أحد السبب الذى يجعل القطط والكلاب يطارد بعضها بعضاً ويضرب كل

(*) الكوجار: الأسد الأمريكي.

منها الآخر بمخالبه بنشاط وبشكل مُتبادَل دون أن تتسبب فى أى جروح، وتستمر فى هذا السلوك حتى الإعياء الجسدى تقريباً. إلا أن هذا السلوك له جاذبية شديدة.

ويشعر بعض الباحثين أيضاً أن دراسة اللعب قد أُهملت أساساً لأن سلوك اللعب لم يُعرَّف تعريفاً كافياً. ذلك أن التعريفات المختلفة التي وُضعت، ليست إلا فروضاً لا أكثر. إذ أحدث تعريف عالم سلوك الحيوان روبرت هيدين إحباطاً عاماً حين قال: "إن اللعب هو اصطلاح عام لأنشطة يرى المعنيون بمراقبة الحيوان أنها لا تسهم إسهاماً مباشراً فى البقاء". أى أن اللعب هو شيء يتم لمجرد السرور الذى يحدث أثناء القيام به.

ولكن تعريفات اللعب غير الطيِّعة (وبعضها مجرد قوائم لسلوك اللعب) أفضل على ما يبدو من عدم وجود تعريفات، على الإطلاق. إذ لاحظ بروفيسور مارك بيكوف عالم الأحياء من جامعة كولورادو ميلاً لدى علماء سلوك الحيوان وعلماء السلوك عامةً إلى وضع تعريفات ضيقة جداً لمفاهيم صعبة لدرجة أنها عديمة الفائدة، أو أنهم يقولوا إن المفهوم الذى يستعصى على التعريف هو بالضرورة مفهوم نستحيل دراسته. وادَّعى البعض – على سبيل المثال – أن اللعب الاجتماعى ليس من الفئات القائمة بذاتها نظراً لصعوبة تعريفه. "فبينما نُلمح إلى الاستغناء عن اللعب الاجتماعى وذلك بالنص على أنه غير موجود (أو بتعريف اللعب الاجتماعى تعريفاً غير صحيح) إلا إن البدائل الممكنة والمقبولة قليلة جداً، لو كانت هناك بدائل أصلاً، وهكذا فإننا نفقد كل شيء".

واللعب هام بالنسبة للحيوانات، رغم أنه يحمل بعض المخاطر، بما أن الحيوانات يمكن أن تُجرح أو تقتل أثناء اللعب، إلا أن هناك مجموعة متنوعة من الوظائف تم ربطها باللعب، إذ ربما كان صيغة من صيغ التدرب، أو من تعلم القيام بمهام معينة، حسب ما يوحى بذلك المُنظِّرون، أو ربما يقوم بتدريب يؤدى إلى تطوير قدرات جسمية وعصبية واجتماعية. ربما كانت "سينثيا موس" مُعبِّرة عن الكثير من علماء الأحياء عندما كتبت ملاحظاتها بعد أن شاهدت الأفيال الأفريقية تلعب أثناء هطول المطر، وتدور وتتلاصق آذانها فى مزاح وتتصافح بالخراطيم وتلقى الماء على بعضها البعض، وتقطع الغصون وتصدر أصوات لعب صاخبة فكتبت تقول: "كيف للمرء أن يقوم بدراسة جادة لحيوانات تتصرف على هذا النحو؟" وشكا هانز

نيوك، أثناء دراسته للضباع المنقطة من أن اللعب "هو اصطلاح ينتمى للأنسنة وغير مُعرَّف، ولقد استعملته كمجرد مُلصَق أو لافتة لبعض الأنشطة يمكن أن تُسمى بهذه الطريقة فى نوعنا" (يقْصد النوع الإنساني) وكمثال على هذه الأمثلة أشار كروك إلى أربعة من كبار الضباع وهى تسبح فى أحد الأنهار، وتقفز إلى الداخل وإلى الخارج وتنثر الماء ويدفع كل منها الآخر إلى قاع المياه. ويضيف أن الضباع قامت بجهد كبير للوصول إلى البِركة.

والأفيال، سواء أكانت أفريقية أو هندية، شغوفة باللعب بصفة خاصة. إذ إنه فى إحدى المرات نصبت إحدى فرق السيرك الجوَّالة، خياماً بالقرب من أحد أفنية المدارس التى يوجد بها مجموعة من الأراجيح. وكانت الأفيال الأكبر سناً مربوطة بسلاسل، ولكن، نورما، وهى أنثى فيل صغيرة السن، تُركت بلا قيد. وحين رأت نورما الأطفال يتأرجحون، أصبحت فى حالة من الحيرة الشديدة. وقبل أن يمر وقت طويل، ذهبت إلى هناك، وأشارت إلى الأطفال بخرطومها كى يبتعدوا، وصعدت بظهرها فوق إحدى الأراجيح، وحاولت أن تجلس فوقها. ومن الواضح، أنها لم تنجح، حتى بعد أن استخدمت نيلها كى تبقى الأرجوحة فى مكانها. وأخيراً قلبت الأرجوحة بضيق، وعادت إلى رفاقها. فبدأ الأطفال يتأرجحون مرة أخرى، وكان على نورما أن تحاول مرة أخرى. ورغم محاولتها على فترات لمدة ساعة لم تتمكن قط من التأرجح.

ربما كانت نورما تبحث عن تسلية لأنها كانت تعانى الملل. ويبدو أنه لا يوجد سبب يدفعنا إلى الشك فى أن الحيوانات قد تشعر بالملل. فكثيراً ما كان يبدو نيم تشيمسكى لمعلم لغة الإشارة وكأنه يشعر بالملل، وقد يطلب أن يُؤخذ إلى المرحاض حين يكون مدرسوه على ثقة تامة من أنه يبحث فحسب عن فترة تغيير كى يستريح من دروسه مثله مثل أى تلميذ.

كما تُدهش حياة الحيوانات الآكلة للعشب الكثير من البشر، باعتبارها حياة مملة مللاً كامناً. فآكلات العشب تأكل نفس الأطعمة طوال اليوم وفى كل يوم. ومن المؤكد أن هذا يضجر آكلى كل شيء مثلنا، ولكن ربما تمتعت الجاموسة بدرجة أعلى من تحمُّل الملل. وقد يبدو كل عود من العشب مختلفاً اختلافاً شاسعاً عن العود الذى تناولته قبله. وربما كانت حياتها ثرية بالإثارة والفضول، ولكن ذلك

علـى مستوى حسى شديد البعد عن أحاسيسنا بحيث لا تكون ظاهرة لنا. على أى الأحـوال، فإن افتراض أن الجاموسة البرية تشعر بالملل من حياتها لأن هذه الحياة يمكـن أن تسـبب الملل لبعض البشر، لهو الأنسنة بعينها. وشُوهد جاموس ألاسكا يـلعب على الجليد. وشُوهدت إحداها مراراً، تبدأ من حافة فوق بحيرة متجمدة، ثم تهـبط إلى الشاطئ، وتغوص فى الجليد، وتشبك سيقانها بحيث تعبر متماسكة عبر الجـليد، وذيـلها منتصـب فى الهواء. وعندما كانت كل جاموسة ترسو كى تقف، كـانت تطـلق صـيحة مرتفعة بصوت غريب. ثم تتخذ طريقها بوجل عائدة إلى الشاطئ؛ كى تقوم بدورة عَدْو أخرى.

ويمكـن أن تـلعب الحيوانات لوحدها تماماً. فالدببة تلعب طوال عمرها وتنزلق عـلى ضفاف جليدية كالقضاعة (ثعلب الماء): الرأس أولاً ثم الأقدام وعلى المعدة تـارة، وهو يتقلب بحركة بهلوانية. ولقد شُوهد دبان أشيبان فى جزر روكى وهما يتصـارعان مـن أجـل ملكية لوح من الخشب. وكان الدب المنتصر يستلقى على ظهـره ويتلاعب بلوح الخشب على أقدامه وهو يلفه ببهجة. وطفا دب أشيب أكثر هـدوءاً فى بحيـرة جبلية ذات يوم قائظ الحر. فأدخل خطمه تحت الماء كى يصنع فقاعات مائية، ثم صعد ليحاول إمساكها باستخدام مخالبه الطويلة.

وتُحـب أشبال النمور والفهود أن تقفز من فوق فروع الأشجار إلى الماء وتفعل ذلـك مـرات ومرات. وتلعب قرود البونوبو (شمبانزى قزم فى أفريقيا) فى حديقة سـان دييجـو ألعاباً منفردة وهى لعبة خدعة الأعمي، حيث يغطى هذا الشمبانزى عيـنيه بـإحدى أوراق الشـجر أو حقيبة أو يضع أصابعه أو ذراعيه ببساطة فوق عينيه، ثم يترنح حول السفح الدائرى المنحدر.

وفى وقـت ما كانت الغربان ذات القبعة(*) تخدش ورقة الشجر الذهبية فوق قباب الكرملين. ولم تكن الغربان تمارس ميلها الشهير إلى السرقة. وإنما وجدت ببساطة مـتعة فى الانـزلاق على هذه القباب الشبيهة بالبصل وخَدْش هذه القباب وإحداث ضـرر بـالغ بها، وبمرور الوقت تم إبعادها، باستخدام مزيج من أصوات استغاثة مسجلة لغربان ودورية منتظمة من صقور مستأنسة.

(*) الغربان ذات القبعة: نوع من الغربان يختلف ريش الرأس عندها عن الريش على بقية الجسم.

كمـــا يمكـــن أن تـــلعب الحيوانـــات بالأشياء. ويمكن رؤية هذا حتى فى بعض الحيوانـــات الـــتى لا يُعـــرف عنها أنها تلعب مع غيرها من الحيوانات. فقد شُوهد حيوان كومودو التنين فى حديقة حيوان بريطانية يلعب بجاروف دافعاً إياه فى بيته محدثـــاً ضوضاء. وأنفق قاطور (تمساح أمريكي) طوله متر، خمساً وأربعين دقيقة وهـــو يـــلعب بقطرات من الماء تسقط من إحدى المواسير فى بِركة، وهو يضرب الماسورة وينفخ فى قطرات الماء ويتركها تسقط عليه.ثم ينفخ فيها وهى فى الهواء. وتســـتمتع الغوريـــلات الأسيرة وقردة الشمبانزى باللعب بالدُّمى، وتنفق الوقت فى لعبة أخرى متصنعة أنها تنظف أسنانها بلعبة على شكل موزة، كما فعلت الغوريلا كـــوكى أو حين وضع الشمبانزى لوليس لوحاً من الخشب على رأسه، وهو يلعب وحده، ويقول بلغة الإشارة "تلك قبعة".

وفى حالـــة بعض الحيوانات الأخرى، سرعان ما يتحول اللعب بالأشياء إلى لعب اجتماعي. إذ لعب درفيل أسير فى الحوض بريشة، وأخذ يحملها إلى أنبوب للشفط، وحيـــن تـــرك الـــتيار يسحبها، أخذ يطاردها. وانضم إليه درفيل آخر، ويقال إنهما تـــناوبا الأدوار. وفى لعبة أخرى، سعى ثلاثة أو أربعة درافيل إلى امتلاك ريشة، وتلعب الدرافيل الطليقة مطاردة مشابهة مع أشياء مختلفة. وتحمل حيتان البيلوجا(*) صـــخوراً وأعشـــاباً بحرية على رؤوسها، وتحاول الحيتان الأخرى أن تسقطها فى الحـــال من فوق رؤوس تلك الحيتان. وقد تحاول الأسود، سواء كانت من الكبار أو الأشبال أن تنتزع قطعاً من الأشجار أو الأفرع من بعضها.

وتُعـــدُّ المشاكســـة أحـــد أشكال اللعب، بالنسبة لمن يقوم بها. وبعض الحيوانات تشاكس أعضاء من أنواع أخرى. إذ قام أحد الدرافيل بمشاكسة سلحفاة مائية، وذلك بقلـــبها خـــارج الماء وقلبها على امتداد قاع الصهريج. وشاكس درفيل آخر سمكة كانت تعيش فى مكان ضيق بصخرة فى الصهريج، وذلك بوضع قطع من الصبِّيط بالقرب من الصخرة، وحين كانت السمكة تخرج لأخذ الصبيط، يعمل الدرفيل على أخـــذه بعيـــداً. ويرى الكثيرون ممن يزورون الدرافيل الأسيرة، هذه الدرافيل وهى تشـــاكس سباع البحر والفُقمة التى تنازعها الحوض دون هوادة. وتشاكس الغربان

(*) حيتان البيلوجا: أسماك ضخمة تستوطن بحر قزوين والبحر السود ويستخلص الكافيار منها.

الضـــخمة النســور، وذلـــك بالتحليق على مسافة قريبة منها تتخطاها، وتنوح حتى يندفع النسر خلفها. كما أن البجع، رغم مبالغته فى الاعتزاز بكرامته يُعدُّ دائماً هدفاً للمشاكسة. إذ شُوهدت حيوانات بحرية صغيرة تعبث بذيول البجع ثم تغوص. وفى الــبر، قد تجذب الغربان آكلة الجيف أذيال البجع مراراً، ثم تقفز إلى الخلف فى كل مرة يستدير فيها البجع نحوها.

كذلــك تشـــاكس الــثعالب الضباع الأقل خفة فى الحركة، وذلك بالاقتراب منها والإحاطـــة بهـــا ثـــم الجرى السريع حتى لا يعود فى إمكان الضبع تجاهل الثعلب فيجـــرى وراءه. ولقـــد سُـــجلت عدة حالات من الضباع التى أمسكت بتلك الثعالب وقتلتها بالفعل. وربما يحصل الثعلب على معلومات عن قدرات الضباع، تفيده حين يختطف الفتات مما يقتله الضبع. وربما كان الثعلب يؤقلم الضبع على وجوده، وهذا مفيـــد أيضـــاً عـــند ســـلب الفرائس. ويعطى هذا تفسيراً عملياً لسبب استمرار هذا السلوك، غير أنه لا يفسر ما يحس به الثعلب. فلماذا لا يشعر الثعلب بالمكر وحب الأذى اللذين وُصم بهما نوعه عبر القرون.

الألعاب

يبدو أن هناك أشكالاً أخرى من اللعب ممتعة لكل المشاركين فيها. فمن الشائع أن الحيوانات الصغيرة وأحياناً الكبيرة تتصارع فى قتال هزلى ويطارد بعضها بعضاً. إذ ترقد ليمور سيفاكا(*) على ظهورها وأرجلها الخلفية مطوية معاً "دراجة"، وهناك لعبة مفضلة لدى الحيوانات الصغيرة فى الكثير من الأنواع، من الذئاب إلى الغزال الأحمـــر (وهى ملك القلعة) حيث يحتل أحد اللاعبين مكاناً مرتفعاً ويدافع عنه ضد هجمـــات الآخرين. وغالباً ما تشاكس قوات من ليمور سيفاكا والليمور حَلَقى الذيل عـــن طريق سد الطريق أمام قوات أخرى عن طريق القفز أمام بعضها والدوران حول وفوق بعضها البعض. وعلى عكس المنازعات الإقليمية الحقيقية، فإن القوتين تختلطان وتقفزان فى كل اتجاه بدلاً من أن تستهدفا هدفاً واحداً.

(*) الليمور: حيوان طويل الذنب من فصيلة القرود.

وليس من الواضح مدى معرفة الحيوانات اللاعبة بالقواعد الضمنية لهذه الألعاب، إذ إنــه فى حالات قليلة نجح المدربون فى تعليم الحيوانات الألعاب ذات القواعد. إذ تعــلمت الأفيــال طريقة مبسطة للعبة الكريكيت فى سيرك برترام ميل، وذلك بعد أشــهر عديدة من التدريب. فالأفيال تفهم رَمْى الأشياء، غير أن استخدام المضرب والــتحرك فى المــلعب اســتغرق منها وقتاً طويلاً فى التعلُم. ويُقال إنه بعد بضعة شهور، بدأت الأفيال "فى الدخول فى روح اللعبة"؛ وبالتالى لعبت بحماس شديد.

وفى أحــد أماكن تربية الدرافيل تدرب العديد منها على مهارات كرة الماء. وفى الــبداية، تعــلمت الدرافيل أن تضع الكرة فى المرمى، حيث كان لكل فريق مرمى مختــلف.ثم حاول المدربون تعليمها المنافسة، وذلك بمنع الفريق الآخر من إحراز الأهداف. وبعد ثلاثة تدريبات استوعبت الدرَافيل اللعبة على خير وجه. ولما كانت الدرافيــل غيــر مهــتمة (بالفاولات) أى المخالفات العنيفة، فإنها هاجمت بعضها بحماس بطريقة غير رياضية قط، حتى إن التدريب أُوقف ولم تُعط الدرافيل فرصة ممارسة أية ألعاب تنافسية ثانية قط. ولا يوجد ما يشير إلى أن الدرافيل حاولت بعد ذلك أن تمارس كرة الماء من تلقاء نفسها.

اللعب بين الأنواع

أحيانــاً تجد الحيوانات رفاقاً للعب خارج حواجز الأنواع ويحدث ذلك فى الأسَر، حيــث تــتعايش الأنــواع التى لا يكون من الوارد أن تلتقى فى الطبيعة البرية معاً غالــباً. وهكــذا ممكن أن يلعب الفهد والكلب معاً، أو القطة والغوريلا. إذ وجدت إحــدى العائلات التى كانت تربى الكنجارو الأحمر فى فنائها الخلفى مع كلابها أن الحيوانــات على علاقة ودية معاً، رغم وجود صعوبات. إذ كانت الكلاب تحب أن يطاردها أصدقاؤها وتطاردهم، وتنبح. وكانت حيوانات الكنجارو تُفَضِل المصارعة والملاكمــة تــزجية لــلفراغ، ولم تكن الكلاب لتهتم بها. وبشكل ما، استطاعت أن تلعب معاً.

ورغــم أن الــلعب بين الأنواع ليس شيئاً روتينياً منتظماً، إلا أنه يوجد أيضاً فى الطــبيعة الــبرية. إذ شُوهدت حيوانات النمس القزمة فى كينيا تحاول أن تلعب مع الســناجب الأرضــية والسحالى والطيور. وهنا أيضاً يمكن للأسلوب المختلف فى

اللعب أن يشكّل حاجزاً، فبيلى وهى نمس صغير خذلها رفاق لعبها فجرت نحو إحدى السحالى الكبيرة، وأخذت تقفز وتُصدر نداءات للعب، وبدأت فى إلقاء أوراق الشجر الذابلة حول المكان. وحين لم ينتجٍ عن هذا العمل أى رد فعل، أخذت ترقص أمام السحلية وتربت عليها وتتصنع الجرى على ظهر السحلية وقدمها الأمامية ووجهها. فأغلقت السحلية عينيها ولم تستجب، فاستسلمت بيلي. وحاول نمس آخر وهو موجا، أن يلعب مع السنجاب الأرضى الأفريقى وحدث ذلك عندما كان يلعب مع نمس آخر. وفجأة وقف السنجاب على طرفيه الخلفيين وأخذ يعض بندقة صائحاً. فجرى موجا "بنداء اللعب" ووقف على ساقيه الخلفيتين، ووضع كفيه الأماميين على كتفى السنجاب وبدأ يرقص رقصة "الفالس" معه. وفى المعتاد يمارس النمس اللعوب لعبة تَصنُّع الانقضاض على رأس الحيوان الآخر ورقبته وهو ما فعله موجا، غير أن السنجاب لم يستجب، وإنما وقف ببساطة فى حالة سلبية تاركاً نفسه لرقصة الفالس التى فُرضت عليه. ثم قفز موجا على ذيله وعضه وعندئذ قفز السنجاب بعيداً، فهاجم موجا فرع شجرة بدلاً منه. أما تاتو، وهى إحدى حيوانات النمس الصغيرة، فقد كانت أفضل حظاً مع طائر نساج أبيض الرأس. إذ طاردت تاتو الطير محاولة أن تقفز إلى أعلى فى الهواء نحوه. وبدلاً من أن يفر الطائر، لم يطر أكثر من قدم واحدة فوق الأرض، وأخذ يعبث برأس تاتو مراراً، وهبط على أفرع قريبة منها. وكانت تاتو هى أول من أحس بالتعب من هذه اللعبة. وفى مباراة أكثر نجاحاً من هذه، شُوهدت صغار حيوانات القضاعة النهرية غير المستأنسة وصغار القندس وهى تلعب معاً. وكانت كبار القنادس والقضاعة حاضرة ولم تُعرها أى اهتمام، بينما كان شبلا قضاعة وصغيرا قندس تحك الأنوف وتتلاكز وتتطارد على ضفة النبع وفى الماء. واستمرت اللعبة إلى أن انتقل والدا القضاعة بعائلتهما بعيداً. وصغار المانجابى والقرد ذو الذيل الأحمر التى تمارس قواتها القنص معاً فى غابات تنزانيا المطيرة تلعب المصارعة معاً أيضاً. إن اللعب بين الأنواع، وهو شيء شائع فى الطبيعة، له سحر خاص على البشر. فإذا أمكن لنوعين من الحيوانات أن يَعبرا بفرح الفجوة بينهما، فإن البشر، أيضاً، يستطيعون عبورها والمشاركة فى الفرحة. وأحياناً تكون الفجوة بين الأنواع واسعة جداً. إذ يصف دوجلاس تشادويك فيلاً يشبه الثور وهو يشرب من نبع فى أفريقيا. وبالقرب من إحدى البرك التقى بطير الزقزاق شديد الصِّغَر. فرفع الطائر أجنحته بعنف

وصاح صيحة تهديد. فانصرف الحيوان الضخم عنه. "لكنه، بينما كان منصرفاً قفز هـــازًّا رأسه وكأنه يضحك بينه وبين نفسه". ويسلم تشادويك بأن وصفاً كهذا يمكن أن يُعتـــبر أنســـنة، وأن البعض يصرون على القول بأن الفيل لم يفعل سوى مجرد ســـلوك تعويضـــي؛ متخلصاً من القليل من التوتر الذى حدث نتيجة لتوتر الطائر. ولكـــن مـــا الفـــرق بين هذا وبين الكثير من المشاهد التى تجعلنا نهز أكتافنا ونهز رؤوسنا، ضاحكين؟!

فى الواقـــع، هـــذا هو بالضبط ما فعلته حين تقدمت الأفيال نحوى وصرخت فى وجهـــي. إن رفـــض تفهُّم العناصر المشتركة بين الإنسان والفيل يُعدُّ توسيعاً لتلك الفجـــوة. ويمكن أن تنشأ فجوة أخرى بين الفيل والطير. إذ يبدو أن الفيل كان يحس بالســـرور بهـــذا اللقاء، غير أنه لا يوجد سبب يدعونا إلى التخمين أنها فهم للفكاهة فى الموقـــف. وفى بعض الأحيان تكون الفجوة أوسع مما ينبغي. ففى كتاب بيرت هولدوبـــلر وإدوارد أو. ويلســـون عن النمل وهو من الأعمال الخالدة، نجد فصلاً تحـــت عنوان "النمل لا يلعب" وفى هذا القسم يفنِّد المؤلفان الاعتقاد الذى عبر عنه الكثير من المراقبين، وهو إمكانية رؤية النمل وهو يلعب. إن النمل المصارع الذى لاحظـــه هوبـــر وستامبر لم يكن يلعب وإنما كان يفعل ما يفعل وهو جاد كما زعم هولدوبـــلر وويلســـون: إذ كان المتصارعون أعضاء لمستعمرات مختلفة تقاتل كى تسود إحداها الأخرى. "باختصار، فإن هذه الأنشطة لها تفسير بسيط، ليست له أدنى صـــلة باللعب. فنحن لا نعرف سلوكاً واحداً للنمل أو أية حشرات اجتماعية أخرى يمكـــن فهمـــه عـــلى أنـــه لعـــب أو سلوك ممارسة اجتماعية قريبة مما يكون فى الثدييات". غير أن وصف عالم الطبيعة هنرى ووتر بيتس لنمل اكتون بالبرازيل لا يشبه وصف القتال، إذ قال:

رأيـــتها مراراً تنشغل فى وقت فراغها بما يشبه الترفيه. وحين كان ذلك يحدث، كـــان يحـــدث دائماً فى ركن مشمس من الغابة... وبدلاً من التدافع إلى الأمام فى لهفـــة، والـــتحرك يَمْـــنة ويَسْـــرة محدثة خراباً. بدت كلها وكأن نوبة مفاجئة من الاســـترخاء أصـــابتها. فالـــبعض كـــان يسير ببطء والبعض الآخر يصفف قرون الاستشـــعار بـــالأقدام الأمامية، غير أن المشهد الأكثر إضحاكاً وغرابة هو تنظيفها بعضـــها بعضـــاً. حيث كنا نرى نملة هنا أو هناك تمد إحدى ساقيها أولاً ثم الساق

الأخرى، كى تصففها وتغسلها واحدة أو أكثر من رفيقاتها تؤدى هذه المهمة بتمرير ذلك الطرف بين الفكين واللسان، وتنتهى بإعطاء قرن الاستشعار مسحة ودودة.... وبـدت أفعال هذا النمل أشبه بانغماس بسيط فى تسلية صرفة. هل هذه المخلوقات الصـغيرة، إذن، لديهـا طاقة تزيد على حاجتها للعمل اللازم للحفاظ على نوعها؟ وهل هى تنفقه فى مجرد التريُّض، مثل الحملان الصغيرة والقطط الصغيرة، أم فى نـزوات طائشـة مثل الكائنات العاقلة؟ من الوارد أن هذه الساعات من الاسترخاء والتـنظيف لا غـنى عنها من أجل الأداء الفعال للأعمال الأكثر مشقة، ولكن عند تأملها، لا يمكن أن تقاوم استنتاجاً بأن النمل منهمك فى اللعب.

ربمـا كـان بيتس على صواب، وربما كان بعض النمل يلعب فعلاً. وحين يفكر الـناس فى اللعب مع الحيوانات، فنحن نميل إلى اللعب مع الكلاب والقطط. إذ من العسير تصوُّر اللعب مع نملة، لكن هذا ليس سبباً يجعلنا نجزم بأن النمل لا يستطيع أن يلعب مع بعضه البعض.

هـناك شيء ما يدفعنا إلى الاعتراف بأن المخلوقات الأخرى تستمتع باللعب كما نستمتع به نحن. فلقد كتب جاك كوستو عن الحيتان، باعتبارها "مخلوقات فاتنة ذات روح معـنوية عاليـة ولطيفـة ووفية وعاطفية وحلوة المعشر. إمبراطوريتها هى المحيـط بأكمله، وهو ملعبها ومجتمعها، مجتمع حر، يسبق مجتمعنا بأربعين مليون سـنة. وهى تـنفق أقل من عُشر عمرها فى البحث عن الطعام وأكله. وتنفق بقية الوقـت فى السباحة والتمازح فى الأمواج، والتحدث معاً، وملاطفة الجنس الآخر، وتربية صغارها ــ وهو جدول أعمال لا يُضير أحداً إذا وُجد".

لقد فُتن العلماء وغير المتخصصين على حد سواء لفترة طويلة باللعب الاجتماعى للفصيلة الكلبية ــ مثل الكلاب والذئاب والقيوط، لأنه ينطوى على فهم واضح جداً ومشترك للغة كما يدل على الروابط الاجتماعية. فلعبة الانحناء ــ حين يخفض أحد أعضـاء هـذه الفصـيلة ساقيه الأماميتين نحو الأرض ويحرك ذيله ــ ما هى إلا طـريقة لقـول: "كل ما سيتبع ذلك مجرد لعبة". إن الكلاب على استعداد للَّعب مع حيوانات أخرى مثل القطط على سبيل المثال، ولكن أملها يخيب بسبب ما تجده عند تـلك الحيوانـات من افتقار إلى الطلاقة فى اللغة، أو عدم اهتمامها بما تعنيه هذه الـلغة. وهذا يعطى نكهة خاصة للعب بين الكلب وصديقه من البشر، وكأن الكلاب

تعــرف أنهــا وجدت صاحباً يمكنها تعليمه قواعدها. كما لا تبدو عليها التعاسة فى محاولــتها لفهــم القواعد البشرية للألعاب التى نود أن نلعبها معها. من الواضح أن الوضع الذى يتخذه الكلب أمام عصا فى انتظار قيام صديقه البشرى بتحريكها تعنى شيئاً من المزاح: وهذا جزء من اللعبة. إن ممارسة هذه الألعاب يشبه تقريباً النظر إلى عقل الكلب من خلال نافذة. إذ إننا نرى ما ينتويه. وبالمثل، يحصل الكلب على نظــرة داخــل عقولــنا، ويعرف ما نريد. ذلك أن اللعب والضحك والصداقة تندفع محطمة الحواجز بين الأنواع.

الفصل السابع

الغضب والسيطرة والقسوة
فى الحرب والسلام

فى القــرن الخامس عشر، حين كان الزراف يُعرف فى أوروبا باسم الإبل المتنمِّرة camelopard قــام كوســيمو المديتشــي(*) بحـبس زرافةٍ فى حظيرة مع الأسُود والبِلْدهاوند(**) والثيران المقاتلة، كى يعرف أى الأنواع أكثر شراسة. وعندما نظر إليها البابا بايوس الثاني، كانت الأسود والكلاب تنعم بإغفاءة، وكانت الثيران كأنها تــتأمل فى هدوء، وانكمشت الزرافة بجانب السور، وهى ترتعش خوفاً. فخاب أمل زعمــاء البشــر هــؤلاء نتيجة عدم سفك الدماء، وتساءلوا عن السبب الذى جعل الحيوانات تفقد شراستها.

وتشــهد كــتب الــتاريخ والصــحف وحياتنا الشخصية على أن البشر يتأثرون بالغضــب، والعــداء مراراً وتكراراً رغم الرغبة فى التحكُّم فى هذه الانفعالات أو عــلى الأقــل سترها. وعلى النقيض من ذلك، فإن الناس يميلون كثيراً إلى الإشارة إلى الغضب بين الحيوانات ويصفون هذا الكائن بأنه "حيوان" أو "قاسٍ" أو "همجي".

(*) المديتشي: النَّسَب هنا إلى أسرة عريقة كانت تحكم فى أوروبا فى القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة.

(**) بِلدهاوند: كلاب من نوع خاص ذات قدرة فائقة على شم رائحة الدم خاصة.

ورغم أن العدوان بين الحيوانات من الموضوعات المفضلة للدراسة عند علماء سلوك الحيوان، إلا إنه يندر أن تظهر كلمة غضب فى أعمالهم.

ويبدو أن الحيوانات تشعر فعلاً بالغضب، وترتكب حقاً أفعالاً عدوانية ضد بعضها البعض، وتقاتل من أجل الكلأ وتؤذى بعضها بعضاً إلى درجة القتل. لكنها قد لا تفعل ذلك بنفس الأساليب التى يتوقعها البشر بالضبط.

لذا، خابت توقُّعات العلماء عن عدوان الحيوان تماماً، كما خابت توقُّعات كوسيمو المديتشى والبابا بايوس الثاني. وأحياناً يصيب الإحباط علماء سلوك الحيوان فى سعيهم لرسم التدرُّج الهرمى للسيطرة بين جماعات الحيوانات الوحشية، حين لا يستطيعون أن يحددوا المسيطر بين الحيوانات. ويبدو أنهم يفترضون أنه بمزيد من العمل أو بضربة حظ سوف يظهر التدرج الحقيقى بين الحيوانات. ولا يطرأ على بالهم أبداً أن علاقة التدرج الهرمى قد لا تكون موجودة أساساً. فهل من الضرورى للحيوانات فى بركة ماءٍ أن تكون مرتَّبة تدريجياً بنفس دقة ترتيب الأكاديميين فى هيئة للمنح التعليمية؟

وبعض الناس يعززون الأمل فى أن الحيوانات، غير ذات طبيعة عدوانية إلا عند الدفاع عن النفس أو على الأقل بعض الحيوانات. ففى تآلف الذئاب والدرافيل وشدو الحمام لن تجد إلا الانسجام، وإن كان الأسد لا يرقد مع الحَمَل، إلا إن الحملان على الأقل ترقد معاً ولكن نظرة واحدة على هذه المشاهد تُرينا أنه رغم أن الحملان ترقد معاً، إلا أنه من الوارد تماماً أن تقوم لتتناطح. ويمكن للدرافيل والحمام والذئاب أن تتعامل مع بعضها بغلظة شديدة. وهذا لا يعنى أن حياتها الاجتماعية كلها تتسم بالصراع، وإنما هذا يعنى أن الأمل فى وجود هذا النوع من القديسين الذى يصبح قدوة لنا فى السلم والتسامح أمل لا يمكن تحقيقه وقد يجافى المنطق.

وقد يتراوح العدوان بين الهجوم دون مبرر، والدفاع عن النفس. فحين يدفع أحد الحيوانات حيواناً آخر، بعيداً عن الطعام أو يرفض أن يدفعه أحد، أو يصدر صوتاً تهديدياً ضد أحد الحيوانات عندما يقترب من صغاره، أو يطارد أحد الخصوم بعيداً، فهو يتصرف بعدوانية. ومن وجهة نظر حفظ النوع، فإن سلوكاً كهذا كثيراً ما تكون له ميِّزات نسبية. فالحيوان العدوانى يحصل على المزيد ليأكله، ويضمن

أن نسـله فى وضـع أكثر أمناً، وتتوافر له فرصة أفضل للتناسل، أو تقل مواجهته للخصوم، وهذه كلها أشياء من شأنها أن تجعله يترك أبناءً وأحفاداً أكثر. وقد يرتبط هذا السلوك بالغضب والانفعالات العدوانية الأخرى.

ومن بين جميع أشكال العنف الجسدى فى عالم الحيوان، لا يتسامح البشر إلا مع الدفـاع عـن النفس أو عن الصغار. فالذئب حين يهاجم غزالة قد يُقال إنه وحشى وضارٍ، لكن دفاع الغزالة عن نفسها يمكن أن يُعدَّ عملاً شجاعاً وبطولياً. والنَّمِرة أو الـدب فى دفاعها عن صغارها مثال نموذجى على الغضب المشروع. والحيوانات مثل الكنجارو الأحمر، التى قد تُلقى ابنها الأكبر حجماً خارج الكيس الذى تحمل فيه صـغارها إذا اقـترب مـنها مطاردها أكثر مما ينبغي، تُعتبر مثالاً على القصص المثيرة للاستياء. فمثل هذه القصة من قصص الحيوان لا يمكن أن تُعجب أحداً.

شَنّ الحرب

مـن بين أخطر الاتهامات التى تُوجَّه إلى الجنس البشرى أن البشر فقط هم الذين يشنون الحرب. إذ بدأ الكاتب الألمانى هانز ماجنوس أنزنزبيرج كتابه الحديث عن الحـرب الأهـلية الأوروبيـة بـأن قال : "إن الحيوانات تتقاتل، غير أنها لا تشن الحـرب". وحـرى بـنا أن نخجل من أن الحيوانات لا تشن الحرب. إلا إن بعض الحيوانـات تفعـل ذلك. ومن أشهرها النمل، غير أن اختلاف الحشرات عنا يكفى ليجعـل الـناس لا يأخذونهـا مأخذ الجد. وفى السنوات الأخيرة، صار واضحاً أن الحيوانـات التى تُعدُّ قريبة منا مثل الشمبانزى يمكن أن تذهب للحرب. فشمبانزى جومـبى الشـهيرة تهاجم فرقاً أخرى بدون استفزاز وبنية القتل، ولا تكتفى بالقيام بدوريـات على حدودها وإنما تقوم بالغارات وقد تقتل بعضها بعضاً، بل وتأكل ما تقتله.

وهـناك قصة، تشهد أحداثها بالسلوك الإرهابى والاكتشاف المباغت للتشابه بين البشـر والحيـوان، وتُذكِّرنا بصفة خاصة بحروب البشر. حيث وُجدت جماعة من الشـمبانزى مـن مجموعـة كسـكالا لجومبى أنثى غريبة وصغيرتها فى إحدى الأشـجار، فمـا كـان منها إلا أن صاحت بنبرة تهديد. وبعد توجيه بضع لكمات، سـادت فـترة قصـيرة من الصمت، كان أحد قردة الشمبانزى أثناءها يأكل فوق

الشـــجرة. فاقـــتربت هـــذه الأنثى من أحد الذكور بخضوع ولمسته، غير أنه لم يُبْد استجابة. وحين حاولت أن تذهب، وقف فى طريقها عدد كبير من الذكور. فاقتربت مـــن ذكر آخر يُدْعى سيتن (أى الشيطان) بخضوع ولمسته هو الآخر. فما كان منه إلا أن التقط بعض أوراق الشجر واستخدمها لحك المكان الذى لمسته وفى هذا دليل واضـــح عـــلى الخـــوف من الأجانب. وعلى الفور، قام عدد من قردة الشمبانزى بمهاجمتها والاستيلاء على صغيرتها. فأخذت تقاتل كى تستنقذها دون جدوى طوال ثمـــانى دقـــائق، ولاذت بالهرب أخيراً، وهى مصابة بجروح بالغة. فقام أحد قردة الكسكالا بتهشيم الصغيرة، على الأشجار والصخور وألقى بها إلى أسفل. فلم تمت، والتقطها سيتن برفق، وطبَّبها ونظفها ووضعها على الأرض. وفى الساعات القليلة الـــتالية، حمل الصغيرة ثلاثة قردة مختلفين بما فيهم سيتن، برفق وقامت بتنظيفها، وساعدتها قبل أن تتركها لتموت من جرّاء جروحها. ولا نعرف ما يمكن استنتاجه مـــن هـــذه القصـــة الغريـــبة، هل من الممكن أن نعزو الندم إلى هذه القردة، أى الإحســـاس بأنها قد تجاوزت الحدود؟ هل أحست فى البداية بالكراهية، ثم الرحمة، كمـــا يفعل المتحاربون من البشر فى بعض الأحيان؟ لكن الصغار تُقتل وتُؤكل فى غيـــر ذلـــك مـــن المواجهـــات. وتوحى هذه الحادثة بمشاعر مختلطة تحولت فيها الصغيرة من كونها "عدو" إلى كونها "طفلة رضيعة".

كمـــا تشتبك فرق النمس القزم فى المعارك، على ما يبدو بسبب الأرض. ويُجرح الكثير، ويموت البعض. إذ بدأت إحدى المعارك مع ظهور جماعة جديدة فى أرض إحـــدى الجماعات. فتجمعت كل فرقة، ولوحت ونظفت نفسها وميز كل منها الآخر برائحـــته. ثـــم تقدمـــت الجماعة المستوطنة للأرض كجسد واحد وقابلت الجماعة الأخـــرى. وتقدمت "الجيوش" وتقهقرت، وفجأة بدأت فى غرس أسنانها فى بعضها البعض. وعند نقطة معينة تراجعت كل جماعة وكأنما هى فى هدنة، ثم عادت إلى الانخـــراط فى المعـــركة. وبمرور الوقت، انسحب الغزاة. ولم يُقتل أى واحد من أفراد الجماعة الأصلية رغم أن أصابع الأقدام عُضت حتى تقطعت ومُضغت الآذان إلى قطـــع صـــغيرة جـــداً، وجُرِحت إحداها بشكل بالغ جداً حتى إنها لم تتمكن من إطعـــام نفســـها ومـــاتت بعـــد ذلك. وفى الصدام التالى لحقت الهزيمة بنفس هذه الجماعة.

يـبدو أن هـذه الصـراعات الضـخمة نشـبت بسبب الأرض. إذ تغزو إحدى الجماعـات، أرض جماعة أخرى وتشتعل المعركة. ولاحظ هانز كروك قتالاً بين الضـباع المـنقطة، نشب حين قتل أعضاء إحدى العشائر فريسة فى مدى ومجال سـيادة العشـيرة الأخـرى. وعـادة ما يكون الفوز فى هذه المعارك من نصيب الجماعـات المقيمـة بعد تهديدات مطولة ومطاردة ولكن أحياناً يتصاعد الصراع، وتُجـرح الضـباع أو تُقـتل. وفى إحدى المرات جُرح أحد الضباع عندما قنصت جماعـته "ثيتل" فى منطقة جماعة أخرى جرحاً مميتاً، مما سبب هلعاً لكروك. ذلك أن مهاجميـه قطعوا أذنيه، وأقدامه، وخصيتيه، عضاً وتركوه ينزف مشلولاً. وشبه مأكول.

وحيـن تمكـنت جين جودال من إثبات ما بدا وكأنه جماعة من الشمبانزى ذاهبة إلى الحرب، كاد العلماء يتنفسون الصعداء بصوت مسموع، ولكن بالمقارنة بتاريخ البشـر فإن ما حدث هو صورة مصغَّرة جداً وباهتة بمقارنته بما حدث فى عالمنا كمـا أشار ليونتن عالم الأحياء، وهى ليست جديرة بالملاحظة إلا من حيث حداثة اكتشافها، ولا ندرى نحن ولا جودال نفسها مدى شيوعها، وفى الكثير من النواحى تـبدو هـذه الصورة مثل قصة عض – رجل – كلباً، فهى مثيرة للاهتمام فقط من حيـث طرافتها وعدم شيوعها، أما الشائع فهو حالة السكينة الغامرة التى تحيا فيها الحيوانات معاً. فتاريخ البشر أكثر عنفاً بما لا يدع مجالاً للمقارنة.

وربما استطعنا اكتشاف السبب لو عكسنا استراتيجية البحث، أى لو درسنا العدوان الإنسانى من زاوية السكينة السائدة بين الأفيال مثلاً.

العدوان صراعاً على الموارد

كثيراً ما يلجأ الحيوان إلى العدوان كوسيلة للحصول على الموارد كالطعام. ومما يُدخـل السرور فى قلوب الباحثين فى مناطق السافانا الأفريقية، اقتفاء أثر ضباع قتـلوا "ثيـتل" ثم سرق الأسود جثته منها (أو العكس بالعكس)، ونجاح بنات آوى والنسـور فى اخـتطاف قطعة منه قبل أن يُؤخذ بعيداً. وهذا الصراع يقدم عرضاً دراميـاً مثيراً. ومعظم الحيوانات لا تتصادم بهذه الطريقة. فالثيتل الذى دار حوله

الصراع لم يقم بتمثيل معارك دموية، فى الحياة الحقيقية، مع غيره من التياتل حول من منهما سيجزّ قطعة من الأرض مزروعة بالعشب.

فالمنافسة تستهلك الكثير من الطاقة، ويبدو أن الكثير من الأنواع تقلل من كفاح كهذا. وتظهر عند الكثير من الحيوانات مواقف الاستسلام، التى تكبح جماح المهاجم من نفس النوع. فالذئب يتدحرج على ظهره، أو ينظر القرد بعيداً، فيتوقف المهاجم. فما الذى يحس به المعتدى الذى يشعر أن هجومه قد كُبح بهذه الطريقة؟

بالنسبة للكثير من الحيوانات، فإن المخلوق الذى يمكن أن يكون ألد منافسيه والذى يريد نفس الأطعمة، أو نفس العش والمواقع هو أحد أفراد نوعه وفى بعض الحالات رفيقه أو رفيقته. وتوحى الأبحاث أن تنوَّع الحجم داخل بعض الأنواع يسبغ ميزة تؤدى إلى حفظ النوع. فأنثى العقاب النسارية(*) على سبيل المثال أضخم من الذكر، وتستطيع صيد السمك من أحجام مختلفة، مما يقلل من المنافسة بينهما، ويزيد من تموينهما المشترك للطعام.

وغالباً تكره الببغاوات الأليفة أفراداً معينين أو فئات معينة كراهية شديدة، أو تكره فى الغالب أحد الجنسين ككل (ذكراً أو أنثى). وقد يسأم أحد الأطباء البيطريين من سماع عملائه يقولون: "ببغائى يكره جميع الرجال. لابد أن رجلاً قد أساء إليه فى الماضي". ومن المعروف أن الببغاوات تحمل كراهية لجميع أصحاب الشعر الأحمر وجميع الشُقر، أو جميع البالغين. وبينما يُساء إلى جميع الببغاوات البرية أثناء صيدها، نتيجة لما ينطوى عليه أَسْرها ونقلها من قسوة، فإن هذا أقل احتمالاً بالنسبة للببغاوات التى تمت تربيتها فى الأسر. غير أن وجود هذه الأنواع من الكراهية فى الطبيعة أو عدم وجودها، لا يزال أمراً مجهولاً.

ربما تستمتع الببغاوات بمجرد أن يكون لها أعداء. إذ إن هذا قد ينمِّى تضامن السرب، ويمنع التزاوج بين الأنواع، كما يقوى الرباط بين الزوجين، أو قد تكون لهذا وظيفة قيِّمة ما.

(*) العقاب النسارية: طائر يألف البحار ويتغذى على السمك.

وثمـــة إمكانيـــة أخرى وهى أن ضيق الببغاوات مرتبط بالكفاح من أجل السيادة داخل السرب. فمنذ أن أعلن عام ١٩٢٠ أن الدجاج لديه "تدرُّج فى السيادة" وعلماء ســلوك الحيــوان يبحثون عن هذا التدرج ويجدونه – ويسمى الآن التدرج الهرمى للســيطرة – فى كل مكان. وفى هذا التدرج يسيطر أحد الدجاج على بعض الدجاج الآخــر، ويمكــنه نقره ودفعه بعيداً عن الطعام – ما لم يكن المسيطر أقل الدجاج مرتــبة عــلى الإطــلاق. ومــا لــم يكن هو الطير المتربع على القمة، فستتناوب الدجاجــات الأخرى السيطرة – عليه. وتسمح هذه الدجاجة لهذه الطيور بأن تنقرها وتطــردها مــن أمام الطعام. وتقوم بنفس الشيء مع الأقل منها. ولقد وجدت فكرة الســيطرة والخضــوع بيــن الحيوانات شعبية عامة عريضة. كذلك كان الحال مع الفكرة القائلة بقيمة العدوان لأنه يساعد الحيوان على السيطرة.

فى الســنوات الأخيــرة، صــارت فكــرة التدرج الهرمى فى السيطرة فكرة خلافيــة، حيــث يسأل بعض العلماء عما إذا كانت هذه الأبنية واقعية أم أنها نتاج توقُّــع البشر. وجدير بالملاحظة، أنه فى حالة القطعان البرية لا يشكلّ الدجاج نظام سيطرة صارماً كما نجد فى حظيرة الدواجن.

ويجــادل الآن بعــض عــلماء سلوك الحيوان بأنه قد يكون من الواقعى سيطرة "الأنــثى الــرمادية على السوداء"، فإن مراتب السيطرة التى تُسند إلى أفراد معينة "مــثل الأنثى ذات المرتبة الثانية فى المجموعة" ليست واقعية. ويشير آخرون بأن حيوان قد يسود فى أحد المواقف – كأن يتسابق على أن يأكل أولاً– ولكنه لا يسود فى موقف آخر – مثل التنافس على التناسل. وفريق آخر يقول، إنه بينما يمكن أن تكــون الســيادة مهمــة بيــن ذكرين بالغين من الرباح، فقد لا تكون أسلوباً واقعياً لوصف العلاقة بين أنثى وابنتها البالغة.

غيــر أن أخطــر صفعة وُجِّهت إلى النظريات القائلة بالسيطرة، هى اكتشاف أن أحــد افتراضاتها الأساسية ليس دائماً حقيقياً. وهو الافتراض بأن ذكور الحيوانات المسيطرة أقدر على التزاوج مرات أكثر وإنجاب نسل أكثر. مثل هؤلاء الذكور قد خــلع عــليها الــبعض مسحةً رومانسية – إما باعتبارها ملوك الفحولة، أو أبطال الوراثــة. غيــر أن الدراســات الحديثة تبين أن الذكور المسيطرة لا تستطيع دائماً التناسل أكثر من غيرها. ففى رباح "الهمدرايا" على سبيل المثال، يعتمد نجاح الذكر

فى التزاوج على أن تحب الأنثى الذكر وليس على درجة سيطرته. لقد وجدتِ شيرلى شترِم أن أكثر ذكور الرباح قوة وسيطرة يكون أقل الذكور حظاً فى الاقتران بأنثى، كما أنه ينسى عند العثور على طعام جيد. وواضح السبب فى أن أصدقاءه يكونون قليلين، ثم لاحظ ليهاوزن منذ وقت طويل، أنه حين تتقاتل ذكور القطط قتالاً حامياً من أجل أنثى، فإنه لا يُشترط أن تتناسل الأنثى مع الفائز أكثر من الخاسر – وهى حقيقة غابت عن أعين معظم المهتمين بمراقبة الحيوانات. وتعنى مثل هذه الأدلة أن الكثير من النظريات المأثورة يجب إعادة دراستها. فللحصول على تحليل أفضل للسيطرة، يجب أن نأخذ فى الاعتبار انفعالات كل من الحيوانات المسيطرة والخاضعة. ويوماً بعد يوم نرى أن محاولات جعل نظريات السيطرة تلائم الطريقة التى يحيا بها الحيوان أمر يتطلب كلمات، مثل الاحترام والسلطة والتسامح، ومراعاة السن، والزعامة، وهى كلمات تعنى المزج بين المفاهيم الانفعالية ومفاهيم المكانة.

فكثير من الحيوانات تعزف عن الحصول على رفاق تناسل عن طريق إظهار السيطرة، بل تحاول الظهور فى أى وضع غير وضع المسيطر عند التودُّد، وذلك تجنباً لإخافة الكائن الذى تخطب وده. فذَكَر ماعز الجبل المتودد يخفض ظهره كى يبدو صغيراً، ويُرجع قرنيه إلى الخلف، ويخطو خطوات قصيرة. ويمشى الدب البنى الذكر بتراخٍ ويفرد أذنيه ويُعنى بألا يحملق فى الأنثى ويتصرف بشكل لعوب.

إن فكرة مشاهدة الحيوانات وهى منشغلة فى سلوك غامض ورسم بناء هرمى منظم يُسفر عن تنبؤات قابلة للاختبار، لها جاذبية لدى العلماء. وأحياناً ما يرجع جزء من الجاذبية إلى فكرة أن الأبنية الهرمية حتمية وأن هذا يُثبت شيئاً ما عن البشر. وقد يكون هذا هو السبب فى أن بعض المنظّرين يعيرون اهتماماً أكبر للأنواع التى تسيطر فيها الذكور عن تلك التى تسيطر فيها الإناث كما يحدث فى حيوان الليمور. ويُعدُّ اهتمام البشر بالسيطرة شديداً جداً، حتى إن هذه المنطقة تبدو خصبة بصفة خاصة، بسبب الأخطاء التى يسببها الإسقاط. وقد يتوازى سلوك العالم فى هذا الصدد، مع الذين يتخذون الصيد وسيلة للترفيه، الذين يميلون إلى صيد أكبر الذكور تعبيراً عن مقدرتهم. رغم أن هذه الحيوانات التى قد تكون

مسـيطرة أو (ألفـا) بين الذكور، ليست عادة أكثر الحيوانات لذة للآكلين، وليست الأسهل فى العثور عليها.

ومـع ذلـك، قد تكون السيطرة ظاهرة حقيقية عند الحيوان كما هى عند البشر. ونحن نعلم من حياة البشر الدافع إلى كسب الاحترام أو المكانة التى يمكن أن تُسمى طموحـاً. فـفى قطيـع مـن حيوانات الأمارية ذات القرون المعقوفة(*) فى إحدى المحميات الطبيعية فى صحراء النقب بلغ ذكر يسمى نابليون أرذل العمر، وأصبح تنفسـه صـعباً، ففقد مكانته. وبدلاً من مغادرة القطيع، استمر فى تحدّى غيره من الذكور، وملاحقة الإناث غير أن تحديه كان يُقابل بالتجاهل، ولكنه حين كان يُلاحِق الإنـاث، كـانت الذكور تهاجمه، وتجرحه بقرونها التى تبلغ الياردة طولاً. وضع مديـرو المحمية نابوليون فى حبس – عبارة عن حقل صغير لتدريب الخيل. وذلك لحمايته فهرب فى اليوم التالي، فجرحه حيوان أمارية آخر. وأُعيد أسره وتم علاجه – فهرب مرة أخرى. وبعد هربه للمرة الثامنة من الحقل، قيدوه بالسلاسل والأقفال. ثـم غيرّ المديرون طريقتهم. فبما أنه من المستحيل السيطرة على نابوليون بالقوة، قرروا أن يمنحوه كل ما يشاء فى الحقل الصغير. وعلموا أنه لم يكن يريد مهاجمة الذكور، ولا صحبة الإناث، وإنما كان يريد أن يكون مسيطراً. لذا؛ اعتاد المدير أن يدخل الحقل، كل صباح، ومعه خيزرانة. وكان يعبث بقرن نابوليون بالخيزرانة فى معـارك تمثيلية فكان نابوليون يهدد ويهاجم، ثم يسمح المدير للأمارية المنتصر بأن يخـرجه مـن الحقل.فتوقف نابوليون عن الهرب، وعاش فى الحقل الصغير حتى تُـوفى بالشـيخوخة راضياً، وهو الأمارية السيد فى مكانه المنعزل. وحرى بنا أن نسـأل عن إحساس الحيوان حين يفقد مكانته. هل تكتئب الحيوانات، أو تتكيف، أم أن هذا، بأى شكل من الأشكال، يُعدُّ راحة لها؟

الاغتصاب

الاغتصـاب، شكل جنسى من أشكال العدوان، تم رصده بين بعض الحيوانات. إذ لاحظ علماء الأحياء الاغتصاب بالقوة بين إنسان الغابة، والدرافيل والفُقمة، وبعض الأغـنام والخيـول البرية الطليقة، والطيور .. كما شُوهدت محاولة اغتصاب فى

(*) الأمارية ذو القرون المعقوفة: حمار وحشى أفريقي.

أريــزونا بين الكوتيماندى (وهو حيوان طويل الأنف يشبه الراكون). إذ وثب ذَكَر كــبير الحجــم خارجاً من بين الشجيرات وسط جماعة من الإناث والصغار، وقفز عــلىْ أنــثى شابة وحاول التناسل معها. فصاحت، وعلى الفور جرت ثلاثة ذكور تــزأر فى الذكر، وأبعدته، وطاردته مسافة خمسين ياردة أسفل الوادى الضيق. ولا يبدو أن للاغتصاب معياراً فى أى من هذه الأنواع، غير أنه فى العديد منها، يظهر بانــتظام. فعلى سبيل المثال، تُنشئ الطيور آكلات النحل (وهى طيور من ساكنات الأنفــاق) أزواجــاً تناســلية، ويجب على الإناث حين تغادر العش أن تحتال على الذكــور الــتى تحــاول إسقاطها بالقوة على الأرض واغتصابها. ويفضل الذكور مهاجمــة الإنــاث التى تضع بيضاً وبهذا ربما تضع بيضة مخصَّبة من المغتصب، وليس من رفيقها.

وفى الطيور المائية، مثل البطة البرية والبلبول (نوع من البط له ريش طويل فى وسط الذيل)، والحذف (بط نهرى صغير) يلاحق ذكر أو اثنان أو أكثر الأنثى غير الراغــبة من آن إلى آخر ويمكن أن يسفر ذلك عن وفاتها عن طريق الغرق حين يحــاول الكــثير من الذكور التجمُّع. ومن المؤكد أنها سترد على ما يلحق بها من ضــربات ونقــر، ومن المؤكد أن رفيقها سيحاول إبعاد المعتدين، غير أن جهودها الدفاعية لا تُكلَّل دائماً بالنجاح. بالإضافة إلى ذلك، يحاول أحياناً رفيق البطة البرية أن يتناسل مع الأنثى بعد محاولة الاغتصاب، التى يقوم بها ذكر آخر مباشرة. وقد لا تسبق محاولات التناسل هذه العروض المتبادلة المعتادة التى يؤديها الأزواج. إذ إنه فى معظم هذه الحالات "تقاوم الأنثى بوضوح، غير أنها لا تهرب بأية حال من الأحوال". إن التفسير الاجتماعى للاغتصاب الزوجى هو أنه يُعطى الحيوان المنوى لــلزوج فرصــة أفضل للتنافس مع حيوان المغتصب. ولا يلقى أى ضوء على ما يشــعر به الطير الذكر أو الأنثى. كما أن مثل هذا السلوك لا يقدم أى دليل من أى نــوع عــلى أن الاغتصــاب بين البشر شيء "طبيعي" وأنه من المحتَّم من الناحية البيولوجية، أو أن له ميزة من حيث الإنجاب.

فــفى أحد المتنزهات البحرية العامة، كانت الدرافيل المأسورة حديثاً تُعطَى رفيقاً تأقــلم على الأَسْر، ولم يمكن استخدام درافيلَ من النوع ذى الأنف الشبيه بالزجاجة كــرفقاء، لأنها دأبت على تعذيب واغتصاب القادمين الجدد لو كانت من نوع آخر.

وفى الطبيعة البرية شُوهدت الدرافيل، رغم صورتها المحبوبة الوديعة، وهى تشكل عصابات من الذكور للإحاطة بالإناث من نوعها.

وشـــاهد كروك ضبعاً ذكراً منقطاً وهو يحاول التناسل مع أنثى، كانت تدفعه فى كــل مــرة. وكــان طفلها البالغ من العمر عشرة أشهر، يقف بالقرب من المكان، فاعــتلاه الضبع الذكر مراراً وقذف عليه. ويقول كروك، إن الصغير كان يتجاهل ذلــك أحياناً، ويقاوم أحياناً "قليلاً وكأنه يلعب" ولم تتدخل الأم. غير أن سلوكاً كهذا يبدو نادراً بين الحيوان ويصعب العثور على سجلات تدل عليه.

الغضب والعدوان

فى معظــم المناقشـــات الـــتى تدور حول العدوان والسيطرة، لا يُذكر شيء عن الغضـــب أو غيـــر ذلـــك من الانفعالات التى قد تكمن وراء هذا السلوك. لذا، فمن الصـــعب جداً أن نحدد متى ينطوى الغضب على العدوان ومتى لا يحدث ذلك. إذ يمكـــن أن نحســـب بكل هدوء السلوك العدوانى بين البشر: ذلك أنه أياً كان السبب المـــؤدّى إليـــه، فهـــو ليـــس نفس الشيء الذى يجعل الناس يصيحون ويستشيطون غضباً. وهناك اعتقاد ما بأن البطريق قد يدفع بعض أفراده فى الماء للتأكد من عدم وجـــود فهود فقمة تتربص بها قبل أن تغطس جميعا، لتأكلها. ولو ثبت صحة ذلك، فمن المستبعد أن البطريق يمارس مثل هذه الأعمال العدوانية بدافع الغضب.

وثمة أمثلة من سلوك الحيوان تذكِّرنا بتجربة الغضب عند البشر والضيق، ولربما كـــان مـــن الأيســـر فهمها على هذا المنوال لأنها لا تعبر عن ردود أفعال جامدة. فالـــزراف يـــبدو كأنه لا يحب السيارات. فعندما أُطلقت إحدى السيارات بوقها فى وجـــه زرافـــة كانت تقف فى الطريق، ضربت الزرافة السيارة حتى قلبتها وأخذت تركلها بقوة. "وثمة سائق آخر التقى بزرافتين وهما تعبران أحد الطرق ليلاً، فتوقف وأطفـــأ الأنـــوار الأماميـــة". فابـــتعدت إحدى الزرافتين عن الطريق، أما الأخرى فواصـــلت السير نحو السيارة ثم استدارت، وأطلقت سلسلة من الركلات من قدميها إلى مُـــبرِّد المحرك. وما هذا بالسلوك النمطى الدال على الضيق من أية مركبة، بل إنه تحقيق لنزوة، وهذا ما يعرفه أى شخص أثارته سيارة تُطلق بوقها.

وتلاحظ كارين بريور أنك إذا كنت تُعلم بشراً أو خنزير البحر (نوع من الدرافيل) القيام بمهمة كنت قد كافأتهما عليها في الماضي، ثم تتوقف عن مكافأتهما، فإن كليهما سيبدو عليه الضيق: فالبشر سيزمجرون ويسوء مزاجهم، أما خنزير البحر فسيقفز في الماء ويمطرك بالرذاذ من الرأس حتى القدم.

كما تصف بريور "أولا"، وهو حوت صغير من نوع القاتل المزيف (أشبه بالأوركا) في رد فعله على طائر اسمه بوبي. ففي أحد العروض في مكان لحفظ الحيوانات البحرية، نزل واحد من هذه الطيور بالقرب من صهريج "أولا". فأبرز "أولا" رأسه من الماء وحملق في الطائر. فلما لم يتحرك قفز "أولا" عليه فاتحاً فمه. ومع ذلك لم يتحرك الطائر. وكان معظم المتفرجين آنذاك يتجاهلون العرض، ويراقبون "أولا" والطائر. فأخذ "أولا" يدور بقوة حول الصهريج محدثاً أمواجاً كبيرة بللت قدمى الطائر. ومع ذلك لم يتحرك الطائر. فغاص "أولا" وملأ فمه بالماء، ثم خرج وسكبه على الطائر مباشرة. فطار الطائر المبتل وانفجر المتفرجون بالضحك. وينطوى هذا الضحك على أحد عناصر التعرف.

ومن الغريب، أن مدربى الكلاب يختلفون فى مسألة شعور الكلاب بالغضب، مع أنهم يتفقون بصفة عامة على أن الكلاب تتعرف على الغضب عند البشر. ومع أن ميك دل روس، وهو مدرب كلاب خبير فى الكلاب المرشدة للمكفوفين يثق فى أن الكلاب تشعر بالخوف، والحزن والسعادة، والإحباط وغير ذلك من الانفعالات، إلا إنه كان يشك فى أنها تحس بالشك أو الغيْرة، حتى حين تتصرف بطريقة عدوانية. وثمة خبيرة أخرى فى الكلاب المرشدة، وهى كيثى فينجر، اختلفت مع هذا الرأى اختلافاً قوياً، قائلة بأن الكلاب تشعر بالغضب بالتأكيد.

وقد ينشأ هذا الخلاف فى الرأى من التعريفات المختلفة للغضب، غير أنها قد تكون مبنية على موقف يسمع عنه كل مدرب باستمرار: مثل الكلب الذى يُترك وحده يحطم الأشياء. فيكون المالك متأكداً من أن الكلب غاضب لتركه وحيداً وهو لذلك يمضغ الأثاث ويحفر الحفر، ويقلب الأشياء، أو ينبح على سبيل الانتقام. وقد يكون المدرب على نفس الدرجة من اليقين بأن الكلب يشعر بملل حاد، وأن الحل يكمن فى إيجاد ظروف أفضل له، وليس فى المناقشات التى تدور حول ما يعتبره المالك غضباً لا مبرر له. ومع ذلك، فإن التفسيرين متوافقان. إذ حاول أحد زملاء

إيفـــان بافـــلوف الشـــهير اكتشاف مدى الدقة التى يستطيع بها الكلب أن يميز بين الدائـــرة والقَطْـــع الناقص. وكانت تُقدَّم مكافأة غذائية مع الدائرة، وليس مع القطع الـــناقص. وفى كـــل مرة كان الشخص الذى يُجرى التجربة يكتشف (فيما يبدو من لعـــاب الكـــلب) أن الكـــلب اســـتطاع أن يميز الأشكال عن بعضها، وكان يبدأ فى اختـــبارات أحـــدث، بقطع ناقص أكثر استدارة. بعد ثلاثة أسابيع أصبح الكلب فجأة أقـــل قدرة على التمييز، "وبدأ الكلب الذى كان هادئاً حتى ذلك الوقت فى الصراخ فى مكانه، وأخذ يتخبط فى موقعه ثم قطع الجهاز الخاص بإثارة الجلد آلياً بأسنانه، وأخـــذ يعض الأنبوبة التى تربط حجرة الحيوان مع المراقب، وهو سلوك لم يحدث أبـــداً من قبل". وحين أُخذ إلى حجرة التجارب، أخذ الكلب عندها ينبح بعنف، الأمر الـــذى كـــان مخالفـــاً لعادته المألوفة، أى باختصار أظهر جميع أعراض حالة من حـــالات الذّهان الحاد". والفهم السليم يدل على أن هذا ليس كلباً ذهانياً، بل هو كلب غاضب مُحبَط.

وتصـــبح صـــعوبة فصل الغضب عن العدوان مركبة فى حالة الحيوانات البدائية الـــتى تُعتـــبر طريقتها فى الحصول على الطعام أكثر مباشَرة من أى شيء يعرفه غالـــبية الـــناس. (فالشـــخص الذى يأكل الهامبورجر لا يظن أنه يشمت فى معاناة الأبقـــار). ولقـــد اســـتُخدم هذا فى بعض الأحيان كذريعة للاحتجاج بأن الحيوانات تختلف عن البشر من حيث وحشيتها.

وكـــثيراً ما تُنسب إلى الضوارى قسوة تشبه قسوة الطبيعة ذاتها. وتم استخدام هذا الاتهام لتبرير التمادى فى قنص أنواع، مثل الذئب والنمر، كما يُستخدم ضد ضوارٍ أصغر مثل الثعلب وأبى زريق(*) والحجة فى ذلك أنه، مادامت هذه الحيوانات تقسو على بعضها، فللبشر الحق فى إبادتها، بل يجب عليهم ذلك.

والحالات التى تقتل فيها الضوارى أكثر مما تستطيع أكله أو تبدأ فى أكل فريستها وهى مـــازالت فى قيـــد الحياة، تثير ذعراً من نوع خاص. والكتابات التى تعارض حمايـــة الذئاب – على سبيل المثال – مليئة بالقصص عن الغزال "الذى يُؤكل حياً بالمعـــنى الحـــرفى للكلمة" بواسطة الذئاب. ونادراً ما يقتل الكلب ذو الصفير (كلب

(*) أبى زريق: طائر يشبه الغراب لونه أزرق.

كبلــنج)(*) فى الهــند فريســته بسرعة، نظراً لقصر أسنانه، الأمر الذى يرجع إلى طبيعة فصيلته، وعلى هذا فهو يُضطهد باعتباره غادراً ودنيئاً.

ومن الشائع أن تبدأ بعض الضوارى فى أكْل فريستها قبل أن تموت. ومن الأمور الروتينية بالنسبة لها أن تقتل صغار الحيوانات وتأكلها أمام أعين أمهاتها. فهل هذا فى حقيقته دليل على القسوة؟ لاشك أن هذا دليل عدم مبالاة وبرود عاطفي. والتهام البشــر للحيوانات وهى حية، يُعتبر فى بعض الأماكن والأزمان نوعاً من الترف. عمومــاً، ليســت القضية هي: هل البشر قساة؟ فالتاريخ يُظهر ذلك بما لا يدع أى إمكانية لدحضه. وإنما السؤال هو: هل يمكن أن تكون الحيوانات قاسية؟

وإذا أمكــن الــتماس العذر للحيوانات على الأفعال القاسية مثل أكل الرضيع أمام الأم الضــعيفة، على أساس عجزها ببساطة عن فهم مشاعر الآخرين، فهل يمكننا، إذن، أن نعــتقد مطلقاً فى عطفها ورحمتها وتعاطفها مع غيرها الأمر الذى يتطلب هو الآخر فهماً لمشاعر الغير؟

التعذيب: القطة والفأر

تغــطى القســوة مجالاً واسعاً يتراوح بين الافتقار إلى الإحساس بالغير والسادية. فالحيوانــات تــرتكب أفعــالاً قاســية. ولكن هل هى قاسية؟ وهل تمارس التعذيب والإيــذاء؟ وهل تحب أن تجعل الآخرين يعانون؟ والمتطرفون الذين يستبعدون أن تشعر الحيوانات بالمعاناة أساساً لا مناص لهم من إنكار أن الحيوانات قاسية، إذ إن انــتفاء المعاناة يتعارض مع لذة القسوة، والمثال المألوف على حيوان يقوم بتعذيب حيــوان آخر هو حالة القطة والفأر. ففى مناسبات لا تُحصى يمكن رؤية قطة غير محرومة من الطعام وهى تمسك بفأر لا تأكله. وقد لا تقتل الفأر فوراً. بل تلقى به فى الهواء، بدلاً من ذلك وتتلقفه وتسمح له بالجرى بعيداً حتى يكاد أن يهرب – ثم تقفز مرة أخرى. وقد تطأ هذا المخلوق المقاوم بكفها، وتنظر إلى محاولاته اليائسة

(*) رديارد كبلنج: شاعر إنجليزى عاش فى القرن التأسع عشر وأوائل القرن العشرين وقضى جزءاً من حياته فى الهند، وكان ينظر إلى الاستعمار على أنه رسالة الرجل الأبيض لتمدين الرجل الملون.

للهرب بتعبير يشبه يقيناً التعبير عن الشعور باللذة. كما شُوهد أحد الفهود وهو يلعب مع بنات آوى الأسْرى بنفس الطريقة. وتُبين تجارب بول ليهاوزن وغيره مع القطط الأليفة والبرية، أن القطة على استعداد لأن تستمر فى مطاردة الفئران واصطيادها وقتلها بعد أن ينتهى شعورها بالجوع بوقت طويل. وبعد فترة طويلة، قد تتخلى عن الفئران مؤقتاً. غير أن الفترة التى تطارد القطة أثناءها الفأر دون أن تأكله تبدو كأنها عذاب.

لاحظ أفضل ما تحبه القطة: إنها تفضل المطاردة أكثر من أى شيء، ثم الاصطياد، ثم القتل، وأقل الأمور تفضيلاً عندها، هو أن تأكل. وقد يبدو هذا متعارضاً مع حفظ النوع، غير أن هذا البناء الهرمى للشهوات يتطابق مع ما يحتاج المقتنص الناجح إلى إجادة فعله. فقد يضطر الحيوان الضارى إلى مطاردة الكثير من الحيوانات قبل أن ينجح فى اقتناص واحد منها، وهو غير قادر على قتل كل ما يقتنصه (فبعض الفرائس تفلت بعيداً)، وقد يُضطر إلى اقتناص أكثر مما يمكنه أكله (كما يحدث حين يوفر القوت للصغار). لقد قُدِّر أن النمر يقتنص فريسة واحدة فى كل عشرين محاولة. وتمارس الكثير من القطط الصغيرة مهاراتها الوحشية مع الفريسة التى تقتنصها أمهاتها، غير أنها لا تقتلها مباشرة. لقد شُوهدت لبؤة تمسك بخنزير وحشى أفريقى حى بين مخالبها بينما الأشبال تراقبها مفتونة بها، وشُوهد الفهد الصياد وهو يجلب الظباء إلى صغاره.

هل القطة التى تحس بالإشباع عند قتل الفئران تتلذذ بمعاناتها؟ إن القناصين يستمتعون بقدرتهم على التصويب، وقدرتهم على العثور على فريسة. قد يستمتعون بقتل التدرج(*) أو الغزال، غير أن معظم القنّاصة دأبوا على الادعاء بأنهم لا يستمتعون بمعاناة التدرج أو الغزال. فكيف يمكن اختبار ذلك بالنسبة للقطط؟ فكّر فى فريسة لا تعاني. لا تكاد تجد قطة تتلذذ بمعاناة كرة من الغزل أو لبادة من الورق. فالقطة تجذبها بعض صفات الفريسة – كالعَدْو أو الخطوة غير المعتدلة. والفئران عادة ما تُظهر هذه الصفات أفضل من قطع الورق أو كرات الغزل غير أنه إذا ما أمكن أن تُحْدِث قطعة ورق صوتاً وتفر أيضاً، فسيكون لها نفس الجاذبية

(*) التدرج: طائر ذو ذيل طويل.

عـند القطـة. إذ شُـوهدت بعض القطط وهى تلهو بكرات من الورق بينما تجرى الفـئران تحـت أقدامها. وبالإضافة إلى حركة الفريسة، تفتتن القطط بفكرة اختفاء الفريسـة. إذ يخـبرنا ليهاوزن أن نوعاً من القطط الأفريقية الطويلة بعد أن يختفى جوعها تصطاد فأراً، وتحمله برفق إلى أحد الجحور، أو الحواف ثم تطلقه. وإذا لم يغتنم الفأر الفرصة للاختباء، دفعت به القطة داخل الجحر بكفها الأمامي، ثم تحاول اصـطياده مرة أخرى. ولا يمكن أن يكون هذا لطيفاً بالنسبة لأعصاب الفأر، غير أن هذه القطط تلعب نفس اللعبة مع قطع من جذوع الشجر.

إذن، يجـوز للمرء أن يسأل، عما إذا كانت القطط تتلذذ من معاناة الفريسة عندما لا تـنطوى على سلوك الفرار. هل يمكن للقطة أن تستمتع برؤية فأر مضروب أو ممـدد فـوق رف؟ هذا لا يبدو وارداً – فليس للفئران الجريحة فى الشراك سوى أهميـة سـريعة الزوال عند القطط.(وإذا كان لأحد أن يقترح فعلاً القيام بمثل هذه الـتجارب، فسـوف نجد لدينا المزيد من المعطيات عن القسوة عند البشر).فالقطة سرعان ما تفقد الاهتمام بالفأر الذى يُجرح جرحاً بالغاً لا يستطيع أن يفر به بعيداً. وقـد تضربه القطة بأحد مخالبها كى تختبر إمكان إغرائه على الجرى مرة أخرى، ولكـن عـندما لا يفعـل ذلك، تحس القطة بالملل. وقد يكون عذاب الفأر واضحاً للعيان. فهو يلهث وينزف، غير أنه إذا كان لا يحاول الهرب، فإن القطة الشبعة لا تعيره أى اهتمام.

مـن أيـن يـأتى ذلك البريق الذى يشع من وجه القطة؟ إن القطة تحب القنص، والاسـتيلاء، والانتصـار. والكثير من الضوارى تحب ذلك. وقد يُقال إنها تستمتع بقـتل فريسـتها. ولا يهمهـا ما تشعر به فريستها. ذلك أن ما يفتن القطة إنما هو تحـركات الفأر وليست مخاوفه. فالاستيلاء على الفريسة هو عملها، وهى تستمتع بأن تكون ناجحة.

الإفراط فى القتل بلا داعٍ

يُغضـب الإفـراط فى القـتل الـرعاة ومربّى الدواجن منذ بدأ الناس فى تربية الحيوانات. فمن الأمور المعتادة الشائعة أن تدخل إحدى العِرس إلى عُش وتقتل من الدجـاج أكـثر مما تحتاج إلى أكله، أو أن يقفز ثعلب فوق سور ويقتل قطيعاً من

الإوز، ويخــرج بواحـــدة فقــط. وفى الطــبيعة الطليقة تهاجم أنثى الحوت القاتل (الأوركـــا) ســرباً من السمك وتجوس بينه، تاركة الأجساد تطفو على الماء. وإذا واجهت الدببة نهراً مليئاً بالسلمون، تصبح مُبالِغة فى الانتقاء بخصوص أى أجزاء الســمكة تأكل حتى تقف ببساطة فى بعض الأوقات، وكأنها فى حالة من الإغماء، وهى تمســك الســلمون ثم تطلقه، دون قتله. والضباع تغزو قطيعاً من الظباء ليلاً، وتقتل أكثر مما تستطيع جميعاً أكله بعشرات.

إن مـــثل هــؤلاء القَتَلَة بإفراط يُتهمون بالقسوة، والشر والتبديد. ويُستخدم أسلوب الضـــوارى الـــوارد فى قتل ما يزيد عن حاجتها لتبرير قتلها هى نفسها – أى قتل الحيوانات التى لا يحتاج البشر إلى أكلها.

إن الضـــوارى التى تقوم بالقتل المفرط هى فى الغالب من الحيوانات التى تخزن الطعـــام لأكلـــه فيمـــا بعـــد. فالثعالب والعِرَس تخفى الطعام. كما شُوهدت كل من الضـــباع الطـــليقة والأســـيرة وهى تخزن اللحم فى المياه الضحلة، مما يمنعه من الـــتعفن بـــنفس سرعة تعفنه فى الهواء. وربما توافرت القدرة لدى الضوارى التى تقـــوم بـــتخزين الطعام على القتل المفرط لأن الفائض يمكن إخفاؤه. لكنها قد تُفرط فى القتل أيضاً رغم عدم قدرتها على تخزين الفائض، مثل الثعلب الذى يقتل قطيعاً مـــن الإوز بينما لا يستطيع سوى حمل واحدة. وحين تقومُ الضباع بالقتل المفرط، فـــإن أعضـــاء أخـــرى من المجموعة، بما فى ذلك الصغار، غالباً ما تأكل بعض الفـــائض. وتنجح الأوركا التى تقتل الكثير من السمك فى حالة من الهياج، فى أكل أكـــثر ممـــا تســـتطيع أكلـــه عندما تأكل كل سمكة تقتلها على حدة بينما يفر باقى الســـرب. وقـــد لا تحســـن المجموعة تقدير الكمية التى يمكن أن تأكلها على وجه التقريب، ولذلك فهى تقتل كمية إضافية.

هـــذه ليســـت إلا آراء عـــن جـــدوى القـــتل المفرط لحفظ النوع. وعلى الجانب الانفعـــالي، فإن السؤال هو هل تستمتع بعض المخلوقات بالقتل الزائد عن الحاجة؟ مـــن المحتمل أن بعضها يستمتع به، ولكن هذا ليس راجعاً إلى أنها تقتل أكثر مما تحـــتاج إليه، وإنما لأنها تستخدم قدراتها إلى أقصى حد، وتدرب قوتها، كما تُظهر الـــلياقة والـــبهجة بقواهـــا. ويقول العالم ديفيد ماكدونالد مؤلف كتاب (الجرى مع الثعـــلب) مـــا يأتي: "لقد شاهدت الثعالب وهى تقوم بالقتل المفرط. ومن المؤكد أن

هيئـــتها وتعبيراتها لم تكن عدوانية ولم تكن جنونية. ولو دلت على شيء، فقد تدل على التلهّي، أو ربما كانت فقط تسعى إلى هدف".

فهـل هــذه حالة من حالات نسب انفعالات رقيقة للحيوانات بدلاً من الانفعالات الكـريهة؟ وهــل يحتمل أن تكون الحيوانات عطوفة وليست قاسية على الإطلاق؟ وهل نحن، كنوع، نتفرد فى قدرتنا على القسوة؟

المُستَهدف بالقسوة

إذا كــان لم يثبت أن الضوارى تقوم بتعذيب فريستها وتبتهج بمعاناتها، فإنها مع ذلـــك، قــد تستمتع بمعاناة بعضها بعضاً. وقد لا نبعد عن الواقع عندما نفترض أن المُســتَهدف الحقيــقى بالقسوة هو أقرب الأقربين من الحيوان، مثل أفراد عائلته أو أعضـــاء جماعــته. فهل القطط تمارس القسوة مع غيرها من القطط؟ وهل الثعالب تجــد لــذة فى أن تكون قاسية مع الثعالب، أو الضباع مع الضباع؟ لا يوجد سوى القــليل مــن الأدلة على ذلك. ومن المؤكد أن الثعالب والضباع تتصرف بقسوة مع أبناء نوعها فى أوقات معينة. فالرفاق الصغار، تهاجم بل وتقتل بعضها بعضاً حتى وهى صـــغيرة. ومن السهل القول بوجود فائدة ارتقائية تعود على القاتل، غير أنه من الصعب تخمين ما يشعر به القاتل.

فقــد تحس مثل هذه الحيوانات بالكراهيَة، غير أن الكراهية تنطبق فيما يبدو على علاقة الضوارى بالفرائس. إذ إنه من وجهة نظر نشوئية، لن تحصل الأرانب على أيـــة ميــزة كــانت من كراهية البوم، ولا يبدو أنها تفعل ذلك. فالخوف أكثر فائدة وأكثر وصفاً لسلوكها. كذلك لا يبدو أن البوم تكره الأرانب. ومع ذلك، فإن شيئاً ما يشـــبه الكراهية يوحى بوجوده، ربما يحتفظ به لنفس النوع أو لأنواع أخرى. وفى أوقـــات معينة، يبدو التفاعل بين الأسود والضباع تفاعلاً عميق العداء. فهى تراقب بعضـــها، حـــتى لو كانت لا تتقاتل من أجل فريسة، وتهاجم الحيوان الذى وهن أو انعـــزل. ويلاحظ شالر أن الأسد حين يُطارد ضبعاً أو فهداً صياداً أو فهداً عادياً، لا يـــرتدى القناع السلبى الذى يرتديه أسد يمارس مجرد القنص. بل يكشر عن أنيابه ويُطلق الصيحات التى من الممكن أن يطلقها ضد أسد آخر.

وقــد تكــره الحيوانــات أيضاً الخصوم من أبناء جنسها ولا يوجد دافع أكثر قوة للمنافســة مع حيوان آخر من نفس النوع من تطابق الاحتياجات. فقد لا يُبعَد الذئب عن موقعه في جماعة فحسب، وإنما قد يُهاجم بضراوة ويُطرد بعيداً، أو حتى يُقتل بواسطة الذئاب الأخرى.

وكونجــو، هــو شمبانزى قام البشر بتربيته منذ وقت مبكر ثم أصبح تعساً تعاسة شــديدة حيــن نُقل إلى حديقة حيوان محمية. وكان الأمل هو أن تُدخل صحبة إناث الشــمبانزى الســرور عــليه، ولكــنه كرهها ورفض محاولاتها للتودد إليه. فأخذ يســتجدى الســجائر المشــتعلة من رواد الحديقة ويطارد بها القردة الأخرى داخل القفــص، محــاولاً حــرقها. ومــن غير المعروف هل كان يشعر بالاحتقار نحو الشمبانزى غير الاجتماعية أم إنه كان ببساطة يُنفس عن غضبه لأن أصحابه تخلوا عنه، غير أن مشاعره كانت بالتأكيد مشاعر حادة. واستمرت روح كونجو المعنوية في الانهيــار، وبمــرور الوقــت كف عن إيذاء إناث الشمبانزي. وبعد ذلك بوقت قصير، تُوفي.

لوحــظ أن بعــض جماعــات الحيوانات تحدد حيواناً واحداً كهدف لاعتدائها... ويتضــح هــذا بصفة خاصة حين تُحبس حيوانات أسيرة في مقر ضيق. فقد حبس ليهاوزن الكثير من القطط في مكان مغلق ضيق كي يعرف ماهية العلاقات التي قد تنشــأ. في إحدى هذه الجماعات التي تتكون من اثنتي عشرة قطة، صارت قطتان مــن حثالة الجماعة بلا سبب واضح. فإذا غامرتا بالنزول من مكان عزلتهما على إحــدى المواســير قرب السقف، كانت القطط الأخرى تهاجمها. ولم تكونا لتجرؤا عــلى الــنزول من أجل الأكل ما لم يحرسها ليهاوزن. غير أنه من المهم ألا نسلم بفكرة أن مواقف كهذه حتمية، حيث إن ليهاوزن لم يجد في أية جماعة قططاً أخرى حــثالة قــوم أو أهل قمة. يمكن للحثالة أن تهرب، في الطبيعة المفتوحة، إما لكي تعيش في عزلة أو كي تعثر على جماعة أخرى. غير أن ما يدفع الحيوانات البرية بعيــداً عــن جماعاتها يبدو، أحياناً، أشبه بالقسوة. وللإجابة على مسألة القسوة بين الحيوانــات، سيكون علينا أن ننظر بتدقيق أكثر في الكيفية التي تعامل بها أعضاء نوعها وليس لمعرفة كيف تُطعم نفسها.

الغيرة، هل هى انفعال "طبيعي"؟

يبدو أن الغيرة من بين مصادر العدوان عند الحيوانات الاجتماعية، وهو شعور غالباً ما يُعبر عنه فى شكل غضب عند البشر. والمنهج الارتقائى لعلم النشوء يعزو للغيرة بالفعل قدراً من القيمة، فهى تضمن بين الأقرباء وصول الفرد للطعام وحظوته لدى الأبوين، وتضمن بين الزوجين تركيز اهتمامهما على نسلهما المشترك.

وغالباً ما تُستنكر الغيرة بين البشر. إذ كثيراً ما يُوبخ الغيورون حتى يكفوا عن هذا الشعور. وأحياناً تُسمى الغيرة الرومانسية شيئاً غير طبيعي، أو بدعة حضارية. ودون النظر فيما إذا كانت الغيرة خطأ أو شيئاً غير حكيم، من الممكن تأمُّل القول بأنها نتاج الحضارة الإنسانية وذلك بأن نسأل: هل تشعر الحيوانات بالغيرة أبداً؟ فمسألة إمكان أن تكون الغيرة نتاجاً لحضارة الحيوان سؤال أكثر عمقاً.

ورغم أن الغيرة قد تظهر فى أى موقف تتجمع فيه الحيوانات، إلا إنها فى أغلب الأحيان يُنظر إليها من حيث علاقتها بالأبناء الصغار والزوجين. إذ يمكن أن يصبح صغار الحيوانات أشراراً، بحيث إنه قد تذهب إلى حد أكل بعضها ومن غير المعروف ما إذا كان هذا ينطوى على الغيرة أم لا. وربما يكون أعضاء آخرون من الجماعة غير الأطفال مصدراً للغيرة. إذ وصف وليام جوردان ما حدث حين وُلد الصغير الأول فى جماعة من الغوريلات فى إحدى حدائق الحيوان. ذلك أن الجماعة أصبحت أكثر قرباً وبدت أكثر توحُّداً – فيما عدا أخا الأم، قيصر الذى كان عدوانياً مع الصغيرة الوليدة: ودأب على إلقاء أفرع الشجر عليها، وضربها على رأسها. وفى النهاية، تسلَّق خارج المكان المغلق فيما يبدو كأنه فورة غَيْرة. فوُضع فى قفص آخر .

وفى إحدى الحدائق السويدية العامة، للحيوانات، أظهرت تابو اهتماماً خاصاً ببيمبو، أحد الأفيال، الذكور الصغار، وكانت تابو أنثى أكبر سناً. وحين وصل فيل صغير، "مكوبا"، فقدت تابو اهتمامها ببيمبو. فكان رد بيمبو أن أخذ يجرح، مكوبا، كلما استطاع، ورد مكوبا على ذلك بصرخات مسرحية طالباً النجدة من تابو. وهذا النوع من السلوك يذكِّرنا تماماً بأفعال البشر، حتى إن العلماء الأقوياء يجدون

أنفسهم مضطرين إلى التنفس بعمق والبدء فى ترقيم الحيوانات التى يلاحظونها بدلاً من تسميتها.

لقد صاغ فرويد فكرته عن الغيرة الأوديبية بالنسبة للبشر، لكن هيربرت تيراس يفسر أفعال الشمبانزى نيم تشيمسكى على نفس المنوال، فبعد أن أُخذ من أمه وهو مازال فى اليوم الخامس من عمره، تربى نيم فى بيت بشري. ولاحظت أمه البديلة ستيفانى أنه أظهر انفعالاً وعداءً معيناً نحو زوجها. فى إحدى المرات، كانت ستيفانى وزوجها ونيم يرقدون فى إغفاءة فوق فراش فسيح، وكان نيم البالغ من العمر ستة أشهر فى الوسط. فبدا أن نيم نائم، ولكن حين وضع زوج ستيفانى ذراعه حولها، قفز نيم وعضه. ولم يكن تيراس قادراً على مقاومة وصف سلوك نيم على أنه "سلوك أوديبى على طول الخط" مع جواز انطباق تفسيرات أخرى.

إن الببغاء الرمادى الشهير، أليكس، الذى يتكلم كلمات يعرف معناها، ليس أعجوبة بين الطيور. ذلك أن مدربه قد عمل مع ببغاء رمادى واحد غيره، على الأقل، يتعلم بنفس السرعة. وحين سُئل بيبربيرج لماذا تعلم أليكس الكثير جداً مما يزيد عن الآلاف من الببغاوات المدللة عبر القرون، عزا نجاحه إلى منهج المنافسة، "ولعل الأمر أن بعض هذه الطيور المدللة استطاعت أن تفهم الكلمات التى استخدمتها، غير أن أحداً لا يصدق هذا". فى هذا المنهج، يعمل شخصان مع الحيوان، أحدهما كمدرب، والآخر كنموذج أو منافس. وهكذا، إذا أُريد أن يتعلم أليكس كلمة أخضر، يبين للأنموذج (وهو عادة طالب جامعي) شيئاً أخضر، ويسأل عن لونه. وحين يقول الطالب "أخضر" يثنى المدرب عليه أو عليها، ويقدم الشيء الأخضر كمكافأة. وحين يذكر الطالب شيئاً خطأ، لا توجد مكافأة. ثم يطلب من أليكس، الذى رأى ذلك، أن يقوم بنفس المهمة. وربما ينظر إلى الطالب كأنه مجرد نموذج، يبين المطلوب، ونوع المكافأة. ولكن الطالب، يمكن أيضاً أن يمثل منافساً، أى شخصاً ما يشعل الغيرة فى قلب أليكس. وربما لا يريد أليكس حقاً ذلك الشيء الأخضر حتى يرى شيئاً آخر يحصل عليه. وربما لا يحب أن يثنى شخص على أحد، غيره. وهذا حتى الآن مجرد تكهُن: ذلك أن تحليل إيرين بيبربيرج لنظام النموذج/ المنافس يركز على مرجعيته، وإمكانية تطبيقه وتفاعله فى السياق، وليس على مشاعر أليكس.

فالببغاوات التى تكوّن زيجات مستمرة، غالباً ما تبدو كأنها تُحس بالغيرة من رفيقها أو رفيقها المرغوب فيه. وربما يصبح ببغاء أليف فجأة عدائياً نحو البشر حين يكتسب رفيقة. وتُقدِّر مستشارة سلوك الببغاوات، ماتى سواثان أن ثلث صيحات النجدة التى تتلقاها تصدر عن "المثلث الأبدى للحب".(*)

عندما يقع ببغاء فى حب أحد فردين من ثنائى من البشر، يحاول أن يتخلص من الآخر بمظاهر من العداء. وقد تُبدى حيتان الأوركا الغيرة فيما يتعلق بالتناسل. إذ يُحتفظ بثلاثة منها فى حوض لتربية الحيوانات البحرية فى كاليفورنيا، اثنتين من الإناث وذكر. وحين بلغ نيبو، الذكر، النضج الجنسي، أظهر ميلاً قوياً للأنثى المسماة ياكا. فكانت الأنثى الأخرى، كيانو، كثيراً ما تقطع جماعهما الجنسى وذلك بالقفز من الماء والوقوع عليهما. وفى النهاية، هاجمت ياكا أثناء أداء أحد العروض.

وحين صنَّف العلماء تناسل الحيوانات، حددوا عدداً من النظم يكون فيها من مصلحة الحيوان الوراثية ألا يُسمح لشريكته أن تتناسل مع الآخرين. وهم يتكلمون فى حدود "الاحتقار" و"الدفاع" أو "حراسة" الرفقاء، وليس فى حدود الحب والغيرة. غير أن سلوك الغيرة، بمعنى التملُّك أو الخصاصة الإجبارية فى التناسل، يمكنها بالتأكيد أن تكون ذات آثار وراثية. ففى مستعمرة الشمبانزى الشهيرة فى حديقة حيوان آرنهيم، يستطيع الذكور من علِية القوم غالباً منع الإناث من التناسل مع الذكور من الطبقة الدنيا، وذلك بمهاجمة كل من الذكور والإناث. ويقول فرانس دى وال أنه أثناء النهار، يمكن للإناث أن ترفض دعوات للتناسل من ذكور من الطبقة الدنيا. وحين تدخل قردة الشمبانزى ليلاً، تُوضع فى أقفاص منفصلة. وأثناء هذه العملية، حين تكون ذكور علية القوم فى الأقفاص، تُتاح الفرصة للإناث أن تتناسل مع ذكور الطبقة الدنيا دون الخوف من الهجوم، بل أحياناً تندفع إلى أقفاصها كى تتناسل من خلال القضبان. ولولا وجود الأقفاص، لما جرؤت الإناث على التناسل مع ذكور الطبقة الدنيا. وأحياناً تغادر الشمبانزى الجماعة، فى أزواج وقد يوفر هذا راحة من الهجمات التى تسببها الغيرة.

(*) المثلث الأبدى للحب: الزوج والزوجة والعشيقة.

العدوان وعدم العدوان

لقد أشار فرانس دى وال إلى أن الدراسات التى أُجريت حول تجنُّب العدوان وصنع السلام والمصالحة عند الحيوانات والبشر، قليلة نسبياً رغم أهمية هذه الموضوعات فى الحياة الاجتماعية. فحين كان دى وال يراقب الشمبانزى فى حديقة حيوان آرنهيم رأى أحد القردة يهاجم قرداً آخر، فى نزاع حاد شارك فيه جميع الأعضاء الآخرين فى الجماعة، مما نتج عنه صراخ مدو. وساد صمت قصير، ثم تعانق القردان اللذان بدآ المعركة الأصلية وقَبَّلَ كل منهما الآخر، بينما صاح الآخرون بانفعال. فلما فكر دى وال بعمق فى الواقعة، أدرك فجأة أنه مصالحة. فكتب يقول: "ومنذ ذلك اليوم، لاحظت أن التئام الشمل بين المعتدين والضحايا حالات شائعة. وأصبحت هذه الظاهرة من الوضوح لديَّ، لدرجة أننى لم أعد أتقبل فكرة إهمالها طيلة هذا الوقت، سَواء من جانبى أو من جانب العشرات من علماء سلوك الحيوان الآخرين".

ومنذ ذلك الوقت، أخذ دى وال يدرس المصالحة بين قردة الرايس والقردة ذات الذيول الضخمة والبوبو. وهذه القردة الكبرى لا تكافح كى تحقق السلام بينها بعد المواجهات العدائية، وإنما هى تصالح بين غيرها من القردة. وفى إحدى المرات أنهت ماما، وهى أكبر قردة فى حديقة آرنهيم، صراعاً بين نيكى ويروين، وهما ذكران مسيطران. وذلك بأن ذهبت إلى نيكى ووضعت إصبعاً فى فمه، وهى علامة طمأنينة. وفى نفس الوقت أشارت إلى يروين وحين جاء أعطته قبلة. فلما انسحبت من بينهما، عانق يروين نيكي، وانتهى خلافهما.

وليس رأى دى وال أن القردة الكبرى غير عدوانية، وإنما رأيه أن طرقها فى تناول العدوان والتخلص منه هى فى أهمية النزاع أو الخصومة وتستحق اهتماماً مساوياً. إن الفهم التام للمصالحة ينتظر الدليل على الانفعالات التى يشعر بها صناع السلام. وبالمثل، لن يتسنى لنا فهم العدوان، والقسوة أو السيطرة وما لها من جاذبية لدى الحيوانات ولدى البشر، حتى يتسنى لنا فهم جوانبها الانفعالية.

الفصل الثامن

الرحمة والنجدة والإيثار

ذات مســاء أثناء موسم الأمطار فى كينيا، وصلت إحدى إناث وحيد القرن السوداء وطفــلها إلى منطقة مقطوعة الأشجار، حيث كان الملح قد وُضع لجذب الحيوانات، وبعد لعق بعض الملح، تحركت الأم مبتعدة، ولكن ابنها وحيد القرن كان قد انغرس فى الطيــن العميــق، فأخذ ينادي، فعادت أمه، وتشممته وقامت بتفحُّصه، وعادت أدراجها إلى داخل الغابة. فنادى الصغير مرة أخرى، فعادت الأم وظل الحال هكذا إلى أن أُنهــك الصــغير. ويــبدو أن الأم وحيدة القرن، إما أنها لم تستطع أن تتفهَّم المشكلة ـــ وهى أن الصغير قد جُرح ـــ أو أنها لم تعرف ماذا يمكنها أن تفعل فى هذا الموقف.

ووصلت جماعة من الأفيال إلى الملح. فاندفعت أم وحيد القرن نحو فيل كان فى المقدمــة، فتنحَّى عن الطريق وذهب إلى مكان مختلف للملح على بعد مائة قدم عن وحيد القرن الرضيع. ولما هدأت الأم، ذهبت لجمع الطعام من الغابات مرة أخرى. فاقترب فيل بالغ له أسنان كبيرة، من الصغير ومرَّر خرطومه فوقه ثم ركع الفيل، ووضع أنيابه تحت وحيد القرن الصغير وأخذ يرفعه. وبينما كان يفعل ذلك، جاءت أم وحيــد القرن مندفعة إلى صغيرها؛ فتراجع الفيل بعيداً متجهاً إلى موضع آخر. وعــلى مدى عدة ساعات كانت الأم كلما عادت إلى الغابة، يحاول الفيل أن يُخرج الصــغير من الطين، ولكن كل مرة كانت الأم تندفع على سبيل الحماية، كان الفيل يــتراجع. وأخيراً تحركت جميع الأفيال تاركة وحيد القرن، على حاله، فى الوحل. وفى الصــباح التالي، بينما حاول البشر تخليصه، تمكن وحيد القرن من أن يحرر نفسه من الطين الجاف، ولحق بأمه المنتظرة.

لقــد خاطــر الفيل الذى حاول نجدته بالتعرض للجرح نتيجة هجمات الأم. فلماذا جشًــم نفســه عناء هذه المحاولة؟ إذ من الواضح أنه لن يجنى أية فائدة وراثية من بقــاء وحيــد القرن حياً. فبالرغم من أن كليهما من "الشيشينيات"، (وهى رتبة من الحيوانــات الثديية ذات الحافر كالفيلَة والخيل)، فليس ثمة سبب يدعونا إلى تصور أن الأفيال يمكن بحال أن تخلط بين حيوانات وحيد القرن وبين نوعها. ولعله أدرك نعومة أظفار وحيد القرن وتعرَّف محنته؛ فشعر بدافع كريم لتقديم المساعدة.

وأحيانــاً تؤذى الأفيال وحيد القرن، حتى الصغار منها. إذ شوهدت وهى تشاكس أحدهــا، وذلــك بالإحاطة به ونثر التراب فى وجهه. كما حدثت، فى حديقة أبردير الوطــنية، فى كينيا، موقعة مميتة بين الأفيال وحيوان وحيد القرن فى إحدى ليالى عام ١٩٧٩. إذ قامت الأفيال عند وصولها إلى حفرة من الماء بطرد أحد حيوانات وحيــد القــرن مــن الذكور بعيداً. وعلى الفور، وصلت إحدى أمهات وحيد القرن ومعهــا رضيعها، الذى أخذ يلعب مع أحد أطفال الأفيال. والتقطت أنثى الفيل وحيد القــرن الصــغير وألقت به فى الغابة، وبدت كأنها تطوّقه بنابيها. غير أن أم وحيد القرن اندفعت نحوهما وفرت بصغيرها، عندئذ ظهر وحيد القرن الذى كان قد طُرد بعيــداً فهاجمته أنثى الفيل الأم الغاضبة وسددت إليه ضربة أطاحت به مسافة ثلاثة أمتار، وجثمت فوقه وطعنته بأحد أنيابها فقتلته.

إن الصــعوبة الــتى نلقاها فى التوفيق بين هاتين الحادثتين لن تزيد بأية حال عن صعوبة التوفيق بين حادثتين متماثلتين لسلوك البشر، فأحياناً يتصرف الناس تصرُّفاً كريماً نحو طفل غريب عنهم، وأحياناً يكون تصرفهم شريراً. وفى حين أننا لا نجد توجُّهــاً قويــاً نحو إنكار إمكانية حدوث القتال بين الحيوانات وقتلها لبعض، إلا إن هناك جدلاً كبيراً حول إمكانية تصرفها تصرفاً يتسم بالإيثار نحو بعضها أو إمكانية أنها تفتقر إلى القدرة على الإيثار والرحمة والكرم. غير أن المشاهدات التى جرت على أرض الواقع لا تُجزم بصحة الرأى الأخير.

فكــثيراً ما تقوم بعض الحيوانات بالدفاع عن صغار حيوانات أخرى لا صلة لها بها، وقد تُدافع الحيوانات عن أعضاء نفس جماعتها. فالدفاع عن صغار المارية(*)

(*) ضرب من البقر الوحشى الأفريقي.

البيضاء لن يكون قاصراً على أمها، بل، تدافع عنها أم أخرى فى القطيع. وتدافع أم الغزال من نوع طومسون عن صغيرها ضد الضبع عن طريق الجرى بينهما للحيلولة بينهما – غير أن أنثي الغزال الأخرى أيضاً قد تفعل ذلك. إذ شوهدت أربع من إناث الغزال وهى تشتت مجتمعة، انتباه أحد الضباع بعيداً عن أحد صغار الغزال. وقد لا يلزم أن يكون الحيوان الصغير عضواً فى جماعة ما كى يدافع عنه الكبار الذين ليسوا أقرباء له. وهكذا اكتشف أحد الباحثين وكان يضع علامة على صغار وحيد القرن، أن الصراخ العالى لأحد صغار وحيد القرن لا تنحصر نتيجته فى اندفاع أمه فقط نحو نجدته، بل اجتذاب كل حيوانات وحيد القرن على مدى السمع لنجدته.

•

كانت جماعة من قردة الشمبانزى فى جومبى تقوم باصطياد خنازير الشجيرات وصغارها، عندما أسر فرويد الشاب خنزيراً صغيراً فهاجمته إحدى إناث الخنازير البالغة وعضته حتى وصلت إلى العظام. وجرى الخنزير الصغير، ولكن الأنثى البالغة ظلت تتسكع حول فرويد الذى كان يصرخ. فهاجمت جيجي، وهى شمبانزى عقيم الخنزيرة البالغة التى استدارت كى تواجهها. ورغم أن فرويد كان قد أُصيب بجرح بالغ، إلا إنه تمكن من الاختباء داخل إحدى الأشجار، وقفزت جيجي، هاربة من أسنان الخنزيرة التى كانت على بعد بوصات منها.

وتدافع الحمير المخططة بكل قوة عن الصغار والكبار من جماعتها على حد سواء ضد الضواري. إذ رأى هيجو فان لوفيك، كلاباً برية وهى تطارد جماعة تتكون من حوالى عشرين حماراً مخططاً، حتى استطاعت استخلاص كل من الفرس (أنثى صغيرة) والمهرة والرضيع. وبينما اختفت بقية أفراد القطيع فوق أحد التلال، أحاطت الكلاب بهذه الحمير الثلاثة. وكان هدفها الرئيسى هو المهرة، غير أن الأم والرضيع تمكنًا من صدها. وبعد برهة، بدأت الكلاب البرية فى القفز فوق الفرسة وهى تحاول التشبث بشفتها العليا وهذه الطريقة فى الإمساك كفيلة بشل حركة الحمار المخطط. فاعتقد فان لوفيك أن الكلاب اقتربت من النجاح، ولكن الدهشة أصابته حين أحس بأن الأرض تكاد تهتز من تحته فنظر إلى أعلى فرأى حوالى عشرة حمير، وهى تصدر أصواتاً كالرعد متجهة نحو موقع الحدث. وعدا

القطيع كله وأحاط بالحمير الثلاثة المحاصَرة وأدخلتها فى صفوفها، ثم انطلقت بعيداً. فتتبعتها الكلاب البرية، لمسافة قصيرة، ثم استسلمت.

وليست صغار الحيوانات وحدها هى التى تجد من يدافع عنها، فالجاموسة الأفريقية تدافع أحياناً عن غيرها من الجاموس، ولو كانت بالغة. فقد حدث أن أحد الأسُود كان يتقاتل مع جاموسة، فهاجمت جماعة أكبر من الجاموس الأسد وطردته بعيداً هو وأسدين آخرين كانا ينتظران فى مكان قريب.

غير أن سلوكاً كهذا لا يستثير سوى القليل من العلماء: ففى منتصف القرن التاسع عشر، أطلق عالم الطبيعة هنرى وولتر بيتس النار على أحد طيور الطوقان مضفرة العرف (وهو طائر أمريكى ضخم المنقار) بالقرب من نهر الأمزون ليضمه إلى مجموعة الطيور التى كان يقتنيها. وحين التقطه، وجد أن الطائر لا يزال حياً. ثم بدأ فى الصراخ. وعلى الفور، وكأن الأمر حدث بفعل السحر، بدأ الركن الظليل يمتلئ بالحياة بسبب تزاحم هذه الطيور، رغم أنها كانت موجودة بالفعل، إلا أن واحداً منها لم يظهر للعيان قبل ذلك حين دخلت الدَّغل. "لقد هبطت نحوي، وهى تتقافز من غصن إلى غصن، وكان بعضها يتأرجح فوق الحبال المتشابكة فى الأكمة وجميعها تزوم وترفرف بأجنحتها فى عنف بالغ. إلى درجة أنه لو كان معى عصا، لأسقطت العديد منها. وبعد قتل الطير الجريح، بدأت أتأهب للحصول على العينة التى كنت أريدها، وعقاب تلك الطيور المشاكسة على تجاسرها، غير أنه ما إن توقف صياح رفيقها، حتى عادت إلى صعود الأشجار، وقبل أن أعيد حشو بندقيتى كان كل واحد منها قد اختفى". وبالرغم من أن بيتس لم يكن عُرْضة للخطر من هذه الطيور، إلا إنها كانت كفيلة بإنقاذ رفيقها لو كان العدو هو أحد الضوارى الأصغر حجماً والأقل تسلُّحاً.

دعونا نتأمل فى ذلك الزعم الذى ورد فى أحد المقالات بقلم أمين متحف "سميثسونيان" عام ١٩٣٤، وهو يوجه كلامه إلى جمهور من المحللين النفسيين: "لا يوجد على حد علمي، أى سلوك شبيه بالرحمة والرأفة نحو الجرحى من الطيور من أى نوع... لكن هناك حالات مسجلة من آن لآخر، تعبر عن التعاطف أو الرحمة تجاه الطيور الأخرى. وهكذا، فإن بعض الببغاوات، التى تبدو اجتماعية فى عادات طعامها (أى تميل إلى نظام القطيع) تُظهر ما يشبه الارتباط القوى المتبادل

بيـــن أعضاء القطيع. فلو أن صياداً قتل أو جرح واحداً منها، فإن بقيتها تحلق فوق الطيـــر القـــتيل وتصـــيح بقوة (تصرخ كما عبر أحد الكتاب) لدرجة أنها قد تسقط ضحايا للصياد الذى يستمر فى الصيد، وذلك بدلاً من الطيران بعيداً فى ذعر. وكما يخـــبرنا الكـــاتب: "ليس هذا هو التعاطف أو الرحمة الصادقة بالمعنى الذى يفهمه الإنســـان". ولكـــنه شعور أقرب شبهاً "بالسلوك العُصابى الذى يظهر حين تتعرض أوكارها وبيضها أو صغارها للخطر". وتُعتبر معالجة الكاتب لهذا الأمر أقرب إلى التحـــليل النفسى منها إلى التحليل السلوكي، غير أن قوله بأن الطيور ليست رحيمة وإنما عُصابية، يشبه كثيراً قول من ينكر الانفعالات عند الحيوانات.

وثمـــة شكل آخر من أشكال الإيثار، أى الاهتمام غير الأنانى بالآخرين يتمثل فى تـــلك الحيوانات التى تطعم أو تتشارك فى طعامها مع غيرها من الحيوانات، وبذلك تتخلى عن قيمة واضحة ملموسة تماماً من مقوِّمات البقاء أو حفظ النوع. فكما أشار مراقـــبو الأســـود، لـــم تعد اللبؤات الطاعنات فى السن قادرة على حمل الأطفال، وأسنانها قد تآكلت أو خُلعت إلا إنها يمكنها، مع ذلك، أن تبقى لسنوات لأن الأسود الأصغر سناً تشركها فيما تفترسه.

ورغـــم أن دافيد ماكدونالد عالم الأحياء وأحد المهتمين بمراقبة الثعالب كتب مرة يقول: "لا يجب أن تتقاسم طعامك"، وكان هذا القول يبدو كإحدى الوصايا السلوكية للثعـــلب الأحمر، غير أنه قد رأى أيضاً بعض الثعالب وهى تحضر طعاماً لثعالب بالغـــة حيـــن تُجـــرح. إذ جرحت آلة درس إحدى إناث الثعالب، واسمها وايد آيز (العيون الواسعة) وأخذها ماكدونالد إلى طبيب بيطرى فوجد أن جراحها قاتلة. وفى اليوم التالي، تم إحضار أختها التى تسمى بيج إيرز (الأذن الكبيرة) إلى المكان الذى جُرحت فيه وايد آيز، فهمست بأصوات تُستخدم لاستدعاء الأشبال إلى الطعام رغم أن بيج إيرز لم يكن لديها أشبال. وتركت الطعام فوق البقعة الملطخة بالدماء حيث وقعـــت أخـــتها. وفى مـــرة أخـــرى، دخلت شوكة فى مخلب ثعلب أشبه بالكلب، فأحضرت له أنثى الثعلب المسيطرة على جماعته الطعام وتماثل هو للشفاء.

الرحمة عند المرض أو الإصابة بالجروح

لقد جُرحت تاتو، وهى أنثى نمس قزمة، سيأتى ذكر انفصالها العرضى عن أسرتها فى وقت لاحق من هذا الفصل، جُرحت فى كفها الأمامى جرحاً بالغاً أثناء معركة مع جماعة أخرى من حيوانات النمس. ولم تعد قادرة على القفز على كفيها لاصطياد الفريسة، كما كانت تريد. ونما الكف والأظافر نمواً كبيراً، مما جعله غير صالح للاستخدام، فأخذت تتحرك ببطء، وفقدت قدراً من وزنها. وأنفقت حيوانات النمس الأخرى مزيداً من الوقت مع تاتو، فى غسلها بعد أن توقفت عن فعل ذلك بنفسها. ولكنها لم تُحضر لها طعاماً قط. ولكن مراقبة الحيوانات آن ريزا تقول: "إنها بدأت فى البحث عن الطعام بالقرب من تاتو بمعدل متزايد. وحين كانت تصطاد شيئاً، تحبه تاتو، كانت بقية الأفراد تتنازل لها غالباً عنه. ولما كانت تاتو أنثى شابة، فقد كانت من "رتبة عليا" لذا لم يكن من المدهش أن تتخلى الأفراد عن الطعام لصالحها كما التزمت أفراد القطيع بالبحث عن الطعام بالقرب منها بحيث يسهل إعطاؤها الطعام". وتلاحظ ريزا، فى أول الأمر، أنها ظنت أن هذا محض صدفة، غير أنها سرعان ما اقتنعت، أن هذا كان اختياراً مقصوداً من جانب حيوانات النمس الأخرى. ومع أن تاتو كانت تحصل على نصف طعامها تقريباً بهذه الطريقة، إلا أن هذا لم يَحُل دون موتها بمرور الوقت. وحين لاقت حتفها، فى كومة للنمل الأبيض، توقفت الجماعة عن الحركة، ولم تواصل المسير إلا بعد أن تحللت جثتها.

وثمة حالة أخرى من الرحمة تجاه مرض أقل خطورة، حيث أُصيبت امرأة كانت تعمل مع كوكي، الغوريلا التى تعلمت الإشارة، ذات يوم، وسألت كوكى ماذا ينبغى لها أن تفعل من أجل "معدة متعبة" فأشارت كوكى "معدة أنت برتقال"، إذ إنهم كانوا يقدمون لها كميات إضافية من عصير البرتقال حينما كانت تمرض، وحين تجشأت المرأة، أشارت كوكى "المعدةُ هناك تشربين برتقال"، وبكلمة "هناك" كانت تشير إلى الثلاجة التى كان يُحفظ بها عصير البرتقال، فشربت المرأة بعض العصير، وأخبرت كوكى أنها تحس بالتحسن، وقدمت لها بعض العصير. عندها فقط، أظهرت كوكى اهتماماً بالعصير من أجل نفسها. وبعد ذلك بثلاثة أيام، حين قامت نفس المرأة بالزيارة مرة أخرى، وأعطت بعض العصير لكوكي، قدمته كوكى لها،

وكأن عليها أن تتأكد من أن المرأة تحس بصحة جيدة، قبل أن تشرع هى نفسها فى شرب العصير.

ولقد شُوهدت الأفيال الذكور تحمل أفرع أشجار طازجة لدنة إلى فيل ضخم طاعن فى السن وهو راقد على الأرض، فى حالة من المرض لا تسمح له بالبحث عن طعامه بنفسه. ويمكن مساعدة الحيوانات سواء كانت مريضة أو جريحة، بطرق أخرى بالإضافة إلى الإطعام. فكما لاحظنا، آنفاً، فإن الدرافيل والحيتان غالباً ما تساند عضواً آخر من نوعها وتحمله إلى السطح إذا ما واجه متاعب فى التنفس. وهذا هو بالضبط ما تفعله أم درفيل مع وليدها، وما يمكن أن تفعله "القابلات" من الدرافيل لإحدى الإناث وهى تضع مولوداً.

وقد عُرف عن الحيوانات أنها تخاطر بنفسها من أجل حيوانات من نفس نوعها، وإن كانت لا تربطها بها صلة قرابة. إذ أُطلق الرصاص على حوت مرشد بالغ وهو يسبح فى المحيط الهادئ، وقتله أناس على ظهر إحدى السفن فوراً. وبينما كانت جثته طافية نحو السفينة، ظهر حوتان مرشدان آخران، كل منهما على أحد جانبى الحوت الميت، وضغطا بأنفيهما فوق رأسه، وغاصا معه. وتمكنا بذلك من أن يبتعدا به مسافة كافية بحيث لم يتمكن أحد من رؤيتهما مرة أخرى. ومما يجدر ملاحظته هنا بصفة خاصة أن الضغط إلى أسفل بهذه الكيفية ليس من الأساليب المعروفة للحيتان. كما شُوهدت الدرافيل والحيتان وهى تساعد الجرحى من رفاقها على الابتعاد عن مهاجميها من البشر، بالاندفاع نحو الحبال التى تربط الشباك وعضها إذا وقع أحد الرفاق فى الأسْر.

وقد يؤدى إطلاق الطلقات المخدرة على الأسود إلى إثارة أنماط سلوكية متنوعة منها ما هو إيثاري، ومنها ما هو غير ذلك. فقد تهاجم الأسود جيرانها من الأسود الأخرى لأنها تشك فى أنها المسؤولة عما أصابها من ألم. وحين تغيب الأسود المخدَّرة عن الوعي، قد تقوم أسود أخرى بالهجوم عليها. وأحياناً تنظر إلى شجرة فوقها وكأن شيئاً قد سقط منها، وفى أحيان أخرى قد تهاجم السيارة التى يجلس فيها مُطلق النار. وقد تجرى لمسافة قصيرة. وقد تتسلق إحدى الأشجار. وفى كثير من الأحيان تجذب السهم بأسنانها بينما فى بعض المناسبات، تجذب الأسود الأخرى النصال بنفسها. لقد كتبت سينثيا موس عن حالة أنثى فيل صغيرة مصابة إصابة

بالغـــة فى ساقها الخلفية تجعلها تعرج، ذلك أنها كُسرت حين كانت طفلة. وما كان لها من الممكن أن تبقى فى قيد الحياة، ما لم تقم أمها وغيرها من أعضاء جماعتها بإطعامها، وقد وفرت لها بعض سبل الراحة، مثل تجنب المسالك الوعرة وانتظارها دائمـــاً حـــتى تلحق بها. كذلك، فإن الغوريلا تتنقّل ببطء كى تسمح للرفاق الجرحى بملاحقتها. ومن الصعب الاعتقاد بأن قراراً كهذا ليس مقصوراً أو قائماً على أساس من الوعي.

لقد أنفق رالف دينارد، وهو رجل لين الحديث، ذو هيئة عسكرية، أنفق ما يقرب من عشرين عاماً، فى تدريب الكلاب التى تتعلم بالسمع على مساعدة الصم والبكم. وتجـــرى هـــذه الكلاب بكل حيويتها وتستخدم الإشارة كى تنبه مالكيها حين تسمع جرس الباب، أو الهاتف أو جهاز التوقيت أو المنبه (جهاز الإيقاظ) أو جهاز الإنذار ضـــد الدخـــان. ويعتقد هذا المدرب أن الكلاب تحس ببعض الانفعالات، مثل الحب والخوف والأسى، والفضول، غير أنه يشك في أنها تحس بالرحمة.

وحصـــلت إحـــدى الأُسَـــر عـــلى كلب يفهم لغة الإشارة من دينارد لمعاونة والد الأســـرة. وكانت جيلي، وهى من كلاب الكولى الاسكتلندية التى لحقت بالأسرة قبل مولـــد طفـــلهم الـــثانى ببضعة أشهر، وكانوا يحسون بالقلق من أن تكون غيورة، وبالتالى عدوانية نحو الطفل الجديد. وفى أول ليلة للطفل فى المنزل، أيقظت جيلى الأم مـــن نـــوم عميق، وأخذت تروح وتجيء بين الفراش ومهد الطفل. فذهبت أم الطفل البالغ من العمر يوماً واحداً إلى المهد، فوجدته صامتاً وأزرق اللون. إذ خنقه المخـــاط فتوقف عن التنفس. وتمكّنت أمه من تنظيف مجراه التنفسى حتى يستأنف تنفســـه مـــرة أخرى. وبعد ذلك، اعتادت جيلى إخطار الأم حين يبكى الطفل. وفى حـــادث آخر، أيقظ كلب حاد السمع أماً حين قفزت قطة زائرة فوق الموقد، فملأت المطـــبخ بالغاز. "لماذا استجاب الكلب لذلك؟ هذا هو ما لا نعرفه". كما يقول دينمار وهـــو يشـــير إلى أنـــه لم يكن هناك أى صوت – رنة جرس أو إنذار صوتى ينبه الكـــلب حـــتى يحدث استجابة. ومن الواضح أن الكلب قد يتأفف من رائحة الغاز، ويريد من إنسان أن يفعل شيئاً ما حيال ذلك. ولكن فى حالة الطفل، ما الشيء الذى ضـــايق الكلب؟ ربما يكون الطفل قد أحدث أصوات اختناق، غير أن الكلب لم يكن مُدرَّباً على فعل أى شيء بخصوص الطفل. يبدو من الواضح أن الكلب كان يعرف

أن الطفل فى حاجة إلى مساعدة، وأنه كان يريد طلب تلك المساعدة. وهذا هو معنى الشعور بالرحمة فى نظر البشر.

كذلك أظهرت كلبة تتحدث بالإشارة اهتماماً بالأطفال. فحين كانت مسافرة مع أصحابها على متن طائرة، تكررت محاولات تشيلسي، لتلبية نداء طفل يبكي. وبمرور الوقت، وبعد عدد من الرحلات، تمكنوا من إقناع تشيلسى أن تدع الأطفال الذين يبكون ليعتنى بهم والداهم. وثمة قصة مؤثرة تُروى عن سلوك التعاطف، تقول إن توتو، وهى شمبانزى أسيرة، أُصيب صاحبها شرى كيرتون، بالملاريا. وحسب رواية كيرتون، التى كُتبت عام ١٩٢٥، كانت توتو تجلس بجانبه طوال النهار. واعتادت أن تُحضر الكينين والكوب. وحين كان كيرتون يطلب كتاباً، كانت توتو تضع إصبعها على كتاب تلو الآخر (ولم يكن هناك أقل من دستة) فيشير كيرتون بمعنى أن توتو لمست الكتاب المطلوب وعندئذ كانت تحضره إليه. وأثناء فترة النقاهة، كان كيرتون كثيراً ما يغفو بملابسه الكاملة. فكانت توتو تخلع له حذاءه الثقيل. فكتب كيرتون: "قد يقول بعض من سيقرأون هذا الكتاب، إن الصداقة بين القرد والإنسان من ضروب العبث، وإنه بما أن توتو ليس سوى حيوان، لا يمكن بحق أن تحس بتلك المشاعر التى نسبوها إليها. ولو كانوا قد أحسوا برقتها ورأوا عنايتها كما رأيتها وأحسست بها فى ذلك الوقت، لما قالوا ذلك".

وقد تبذل الراحة للحيوان المريض أو الجريح أو الحزين مثل تنظيف الجراح، كما حدث مع تاتو التى ذُكرت من قبل فى هذا الفصل. لقد شاهد الباحثون ليتل بي، وهى شمبانزى بالغة تتسلق هابطة من فوق إحدى الأشجار كي تحضر فاكهة لأمها، التى كانت قد بلغت من العمر والتعب حداً يمنعها من التسلُّق بنفسها. ولقد سبق أن أشرنا إلى أن نيم وهو شمبانزى تعلَّم لغة الإشارة كان شديد الرقة مع الناس الذين كانوا يبكون. كما كان يستجيب إلى غير ذلك من أنواع الأسى. بل إن أمه البديلة أعلنت أنه عندما كان أبوها فى المستشفى يُحتضَر بسبب السرطان، كان نيم أكثر مباشرة وعزاءً فى استجابته لحزنها من أى عضو من أعضاء عائلتها. وكانت كلمة نيم السادسة والثلاثين التى تعلمها هى آسف، وكان يستخدمها حين يغضب أحد رفقائه.

وقــد تظهــر الرحمة أيضاً عن طريق العزوف أو الإحجام. ففى إحدى التجارب المؤســفة الــتى لا تُغتفر، تدرب خمسة عشر من قرود الرايس على جذب أى من سلســلتين للحصول على الطعام. وبعد بُرهة، أُدخل تعديل جديد: بحيث يكون جذب إحدى السلسلتين سبباً فى تعريض قرد آخر لصدمة كهربية قوية. ففضل ثلثا القرود جذب السلسلة التى تجلب لها الطعام دون إحداث صدمة للقرد الآخر. وهناك قردان آخران امتنعا تماماً عن جذب أية سلسلة بعدما حدث. وقد لوحظ أن القرود قليلاً ما تــتجه لجــذب السلسلة عندما تكون الصدمة موجَّهة لقرود تعرفها، كما يقل أيضاً احتمال الجذب للسلسلة عندما تكون القرود نفسها قد سبق تعرُّضها للصدمة.

إن سلوك المقاومة هذا ليتناقض تناقضاً حاداً مع التجربة التى وصفناها من قبل، التى أُجريت على قرود الرايس التى تمت تربيتها فى عزلة، حيث تم تقييدها فى آلة على شكل الصليب ووُضعت فى قفص مع رايس تمت تربيتها فى أقفاص "عادية". وبمــرور الوقــت، أخذت القردة غير المقيَّدة فى أداء عمليات سادية متنوعة على القردة المقيدة. ولم تحاول القردة الطليقة لمس القيد أو عضه فاستنتج القائم بالتجربة أنها لا تحاول أن تحرر القردة المقيدة، حيث كانت تحرك الشريط أو القيد عدداً أقل مــن المــرات عما كانت تفعل عندما كان القيد خالياً، رغم إمكانية القول بأن القرد المقيــد يعجز عن طلب الرحمة أو تعجز القردة الطليقة عن فهم كيفية فك القيد عن قــرد آخــر، إلا أن غياب الرحمة فى موقف من مواقف القردة لا يعنى غيابها فى ظروف أخرى أو مع قردة أخرى.

مناقشة حول الإيثار

احــتدمت المناقشات حول وجود الإيثار عند الحيوانات، وتبنَّت مدرسة كبيرة لا يُســتهان بحجمها هذا السلوك عند الحيوانات. وتختلف فكرة الإيثار المطروحة فى هذا النقاش العلمى عن الإيثار المعروف فى الحياة اليومية، فهى تعنى السلوك الذى يفيــد فــرداً آخر، ويقلل فى الوقت ذاته من فرص البقاء عند من يسلكه. وقد كتب ريتشــارد دوكيــنز، عــلى سبيل المثال: "يمكن تعريف الإيثار، الذى نقصده، بأنه ســلوك لــتدمير الذات من أجل نفع الآخرين". فكيف يمكن للانتخاب الطبيعى الذى يعنى البقاء للأصلح، ويترتب عليه نقل الصفات الوراثية بنجاح إلى أجيال لاحقة أن يستمر لصالح حيوان يبدد طاقته ويجازف بحياته بالقيام بأعمال بعيدة كل البعد عن

وقـــد تظهـــر الرحمة أيضاً عن طريق العزوف أو الإحجام. ففى إحدى التجارب المؤســـفة الـــتى لا تُغتفر، تدرب خمسة عشر من قرود الرايس على جذب أى من سلســـلتين للحصول على الطعام. وبعد بُرهة، أُدخل تعديل جديد: بحيث يكون جذب إحدى السلسلتين سبباً فى تعريض قرد آخر لصدمة كهربية قوية. ففضل ثلثا القرود جذب السلسلة التى تجلب لها الطعام دون إحداث صدمة للقرد الآخر. وهناك قردان آخران امتنعا تماماً عن جذب أية سلسلة بعدما حدث. وقد لوحظ أن القرود قليلاً ما تـــتجه لجـــذب السلسلة عندما تكون الصدمة موجَّهة لقرود تعرفها، كما يقل أيضاً احتمال الجذب للسلسلة عندما تكون القرود نفسها قد سبق تعرُّضها للصدمة.

إن سلوك المقاومة هذا ليتناقض تناقضاً حاداً مع التجربة التى وصفناها من قبل، التى أُجريت على قرود الرايس التى تمت تربيتها فى عزلة، حيث تم تقييدها فى آلة على شكل الصليب ووُضعت فى قفص مع رايس تمت تربيتها فى أقفاص "عادية". وبمـــرور الوقـــت، أخذت القردة غير المقيَّدة فى أداء عمليات سادية متنوعة على القردة المقيدة. ولم تحاول القردة الطليقة لمس القيد أو عضه فاستنتج القائم بالتجربة أنها لا تحاول أن تحرر القردة المقيدة، حيث كانت تحرك الشريط أو القيد عدداً أقل مـــن المـــرات عما كانت تفعل عندما كان القيد خالياً، رغم إمكانية القول بأن القرد المقيـــد يعجز عن طلب الرحمة أو تعجز القردة الطليقة عن فهم كيفية فك القيد عن قـــرد آخـــر، إلا أن غياب الرحمة فى موقف من مواقف القردة لا يعنى غيابها فى ظروف أخرى أو مع قردة أخرى.

مناقشة حول الإيثار

احـــتدمت المناقشات حول وجود الإيثار عند الحيوانات، وتبنَّت مدرسة كبيرة لا يُســـتهان بحجمها هذا السلوك عند الحيوانات. وتختلف فكرة الإيثار المطروحة فى هذا النقاش العلمى عن الإيثار المعروف فى الحياة اليومية، فهى تعنى السلوك الذى يفيـــد فـــرداً آخر، ويقلل فى الوقت ذاته من فرص البقاء عند من يسلكه. وقد كتب ريتشـــارد دوكيـــنز، عـــلى سبيل المثال: "يمكن تعريف الإيثار، الذى نقصده، بأنه ســـلوك لـــتدمير الذات من أجل نفع الآخرين". فكيف يمكن للانتخاب الطبيعى الذى يعنى البقاء للأصلح، ويترتب عليه نقل الصفات الوراثية بنجاح إلى أجيال لاحقة أن يستمر لصالح حيوان يبدد طاقته ويجازف بحياته بالقيام بأعمال بعيدة كل البعد عن

الأنانيـــة؟ وهـــناك مـــن يقول إن الفائدة لا تتحقق للحيوان أو مورِّثاته إلا إذا كان الحيوان الذى يساعده أحد أقرِبائه. وهناك حسابات رياضية واسعة تهدف إلى تحديد مدى قوة صلة القرابة من الناحية الوراثية التى تجعل حيواناً ما جديراً بمساعدة من أحد أقربائه. وبموجب هذه القاعدة، يفقد الإيثار المعنى الذى أشرنا إليه سابقاً.

يحدد ريتشارد دوكينز فى بداية كتابه "المُورِّث الأناني" أنه يستخدم مصطلح إيثار إشـــارة إلى السـلوك وليـس "سيكولوجية الدوافع" ولكن السلوك والدوافع لا يمكن الفصـــل بيـنهما بسهولة، ومثل هذا العمل يُعتبر تحايلاً على قضية مهمة، كما أن إعـادة تعـريف هذا المصطلح الشائع تثير بلبلة فى المناقشة النفسية ــ البيولوجية. ولو افترضنا وجود التراحم بين الأقارب كدافع لا سلوك تكيفي، لكان التراحم ممكناً أيضاً بين غير الأقرباء.

ومن الأمثلة على الرحمة بغير الأقرباء رحمة الشمبانزى بشخص لم تكن معاناته شــديدة، وهو ما حدث حين كان الباحث جيزا تلكي يلاحق مجموعة من شمبانزى الجومــبي، عندما اكتشف أنه نسى وجبة غذائية فحاول إسقاط بعض الثمار بعصاه، بيـنما كــانت الشمبانزى تأكل فوق بعض الأشجار القريبة. وبعد عشر دقائق من الجهــود الفاشلة، جمع شمبانزى بالغ، اسمه سنيف ــ بعض الثمار، ونزل من فوق الشجرة، وأعطاها لتيلكي. ويُعدُّ هذا إيثاراً بكل التعريفات، حيث لا توجد أية قرابة بين البشر والشمبانزي.

وبعــد ذلــك ببضع سنوات تُوفِّيت أم سنيف، وتبنَّى سنيف أخته البالغة من العمر أربعة عشر شهراً، يتقاسم الطعام معها، ويأخذها إلى العش الذى ينام فيه، ويحملها حيــثما ذهب. ولما كانت لم تُفطم بعد، فلم يكن من الممكن أن تبقى دون لبن الأم، فماتت بعد ثلاثة أسابيع. ولا يعتبر علم الاجتماع سلوك سنيف نوعاً من الإيثار، بما أنها كانت تشارك سنيف بعض الجينات، لكنه الرحمة بالمعنى المعتاد للكلمة، كانت شــكلاً آخــر من أشكال الشعور يختلف من حيث الشدة، وهو الذى دفعه إلى تبنِّى أخته وحفزه إلى تقديم هدية من الثمار لإنسانٍ جائع.

إن بعض الأفعال التى قد يبدو أنها إيثارية بالنسبة للشخص العادى مثل المخاطرة لحماية نسل الفرد ــ على سبيل المثال ــ لا ينظر لها العلم باعتبارها أعمال إيثار.

ويضمن النجاح فى التناسل تعيين الجينات، أى تكرار عيناتها، فإذا ما لم يقم أحد الحيوانات بحماية نسله، فمن المستبعد تماماً أن يخلِّد جيناته، أى ينقلها عبر الأجيال. كما لا يُعتدُ بالإيثار إذا كانت المساعدة موجَّهة إلى قريب غير أطفال الشخص. ولقد تبين أن بعض الحيوانات ممن لا تتوافر لها فرصة التناسل يمكنها أن تضمن انتقال جيناتها بمساعدة الأقرباء الصغار، بنات الأخ والأخت، وأبناء الأخ والأخت، والوالدين وغير هؤلاء من الأقرباء، ورغم أنها تتقاسم بعض الجينات مع هؤلاء الأقرباء، فقد لا تتحسن لياقتها الفردية، إلا إن لياقتها الاندماجية المبنية على عدد جيناتها التى تخلد فى الأجيال اللاحقة، سوف تزداد. فكلما كانت للشخص جينات مشتركة، زادت ميزتها، بالمعنى الارتقائي، عند مساعدة أحد الأقرباء. ولقد استُخدم انتقاء الأقرباء هذا، لتفسير وجود الوالدية الإيثارية (أى أن يكون للشخص والد غير والده) حيث يساعد أحد الحيوانات فى تربية صغار ليست من صلبه (لا تحمل جيناته). ذلك أن الذئب – أو الذئبة – الذى يظل مع والديه، ويُعين على تربية نسلهما التالي، يُعدُ والداً أو والدةً بالإيثار. فقد لا تتوافر أرض لهذا الذئب الشاب كى يبدأ عليها أسرة خاصة به، لذا فإن الفرصة أمامه لنقل جيناته تكمن فى المساعدة على تربية إخوته الصغار التى يشاركها فى متوسط ٥٠ فى المائة من جيناته. أو ربما كان مجرد ذئب يهتم بالعناية، يُعين الأسرة.

وتهدف حسابات دوكينز إلى التنبؤ بإمكانية حدوث الإيثار بين الأقرباء. فهو يصف، مثلاً، حيواناً افتراضياً وقد عثر على كمية من عيش الغراب ويفكر فى النداء بنداء الطعام لكى يجذب أخاه، وابن عمه وعضواً من غير الأقرباء من نفس نوعه للمشاركة فى الطعام. فإذا فعل ذلك، فسيحصل على كمية أقل من عيش الغراب لنفسه، غير أنه أيضاً سوف يفيد الأخ وابن العم اللذين يشاركانه بعض جيناته. ومعادلة دوكينز الخاصة باستدعاء أقرباء الحيوان تجرنا إلى حسبة مفصلة من الفائدة – والتكلفة. فلا يدهشنا أن نجد دوكينز يرفض أن تكون لدى أى حيوان القدرة على مثل هذا الحساب. ويقبل بالفعل "أن وعاء الجينات يصبح غنياً بحيث يؤثر فى الأجساد بطريقة تجعلها تتصرف وكأنها قد حسبت هذه الحسبة".

ويناقش فى مثال آخر، إمكانية أن يهاجم فيل ذكراً شاباً لديه فرصة الوصول إلى الكثير من الإناث، أو ينتظر حتى تُتاح فرصة مواتية للهجوم. وبعد تصوُر الحيرة

الداخلية عند الفيل الشاب بخصوص هذا الموضوع، يقول دوكينز: "إن هذه المناجاة الداخلية ما هى إلا طريقة للإشارة إلى أن اتخاذ القرار بالقتال أو عدمه يجب – من الناحية المثالية – أن تسبقه حسبة فائدة وتكلفة معقدة، هذا ما لم تكن لا شعورية... ومن المهم أن ندرك أن رؤيتنا للاستراتيجية يجب ألا تتم باعتبار أن الفرد قام برسمها. وتذكروا أننا نتصور الحيوان باعتباره جهازاً صُمِّم ليبقى ومزوَّداً بحاسب آلى سابق البرمجة يتحكم فى العضلات. إن صياغة الاستراتيجية بصفتها تعليمات لغوية بسيطة هو أنسب أسلوب لتناولها. والحيوان يتصرف وكأنه يتبع هذه التعليمات بآلية غير محددة". غير أن تصوير الحيوان على أنه "إنسان آلى ميكانيكى صُمِّم ليبقى" يبدو أمراً شاذاً، إذ إنه من الواضح أنه مخلوق حى لديه شعور. ويجوز القول بأن "هذه الآلية غير المحددة" تشتمل على الانفعالات. وقد يكون الإيثار مصحوباً فى كل من الحيوانات والناس، بالانفعالات ومن ثَمَّ يجب النظر إليها فى هذا الإطار. ففى حالة السلوك الإيثاري، تشتمل هذه "الآلية" على الانفعالات الإيثارية الخاصة بالرحمة، والتعاطف، والكرم. وحتى إذا كانت هذه الانفعالات تخدم "جينات أنانية"، فقد تؤدى إلى إيثار صادق بالمعنى المعتاد.

وعند مناقشة الإيثار، يميل المنظِّرون إلى استخدام موقف فرضى مثالى وكأنها تنحصر فى إنقاذ الغير من الغرق. وفى مناقشة عن إمكانية انتشار جين لإنقاذ الأقرباء من الغرق، لاحظ عالم الأحياء ج. ن. س. هالدين، أنه قد أنقذ أناساً ربما من الغرق مرتين دون التوقف حتى للتفكير فيما إذا كان ذلك الفعل مفيداً من الناحية الجينية. كما يلاحظ ريتشارد دوكينز: "تماماً كما نستخدم مسطرة منزلقة دون أن ندرك بالفعل أنها، لوغاريتمات، هكذا يكون الحال مع الحيوانات التى قد تكون سابقة البرمجة، بطريقة تجعلها تتصرف وكأنها قامت بعملية حسابية معقدة".

هل تنقذ الحيوانات حيوانات أخرى من غير الأقرباء من الغرق، فى الحياة الواقعية؟. هناك حكاية قديمة عن الدرافيل التى أنقذت البشر من الغرق، ورغم قبول بعض هذه الحكايات، إلا أنها لم تُوثَّق أبداً. فهى تبدو مقبولة جزئياً لأن الدرافيل والحيتان لا تساند غيرها من الحيوانات المائية فحسب، ولكنها أيضاً تحمل الجماد فوق رؤوسها من وقت لآخر. وحين تفعل ذلك، تتصرف كأم درفيل تحمل طفلاً. وحين يموت أحد الصغار، فإن أمهات الحيتان والدرافيل قد تحمل جسده إلى

السطح لمدة تصل إلى عدة أيام. والعلماء الذين شاهدوا أنثى الدرفيل الأبيض تسند ألواحاً خشبية أو قطع خشب غارقة فوق رؤوسها بهذه الطريقة، يظنون أن هذه أمهات قد ماتت أطفالها حديثاً. إذ حمل درفيل من الدرافيل ذوات الانف الشبيه بالزجاجة فى المحيط الأطلنطى فرداً ميتاً من سمك القرش على أنفه البارز الطويل لثمانية أيام. ربما كان ذلك خُيَلاء النوع، إلا أنه يُحتمل أن يكون البشر، على الأقل جديرين بالفوز بهذا مثلهم مثل ألواح الخشب أو أسماك القرش الميتة.

لقد عاشت واشو، قردة الشمبانزى الشهيرة، والتى كانت أول من تعلم لغة الإشارة، فترة ما فوق "جزيرة للشمبانزي" فى أحد معاهد الأبحاث. وحين صار عمرها سبع أو ثمانى سنوات، قفز شمبانزى كان قد وصل تواً إلى المعهد مرعوباً من فوق سور كهربائي، فسقط فى بركة ممتلئة بالماء محدثة صوتاً مدوياً عند ارتطامه بالماء. وبينما جرى الأستاذ روجر فونس إلى موقع الحدث، وهو ينوى الغطس لإنقاذ القردة (وهى محاولة محفوفة بالخطر إذا ما أخذنا فى عين الاعتبار أن الشمبانزى أقوى بكثير من البشر) رأى واشو تجرى نحو السور، وتقفز من فوقه لتهبط على حافة ضيقة، وتقف على حافة الطين، متعلقة بالعشب بإحدى يديها، وجاذبة الشمبانزى باليد الأخرى. ويلاحظ فوتس أن قردى الشمبانزى لم يكونا قد تعارفا.

وحين سُئل فوتس عما إذا كان سلوك واشو قد أدهشه، فكر لبرهة ثم قال مشدوهاً: إنما اندهشت بعد ذلك فقط، حين خرجت علينا هذه النظرية التى تنكر وجود الإيثار. ولكن قبل ذلك، كما تعلمون أنى كنت على وشك أن أقوم بنفس الشيء وأنا أيضاً لم أكن أعرف ذلك الشمبانزي، وكنت متجهاً رأساً إلى الماء أيضا مخرجاً حافظة نقودى من جيبي، وأستعد للدخول وراءها. فسبقتنى واشو إلى هذا العمل. لذا؛ أعتقد أنى كنت صادراً عن نفس المؤثر الذى استجابت له واشو – وهى إنقاذ فرد يواجه متاعب". ومن سوء الحظ أننا لا ندرى كيف تصرفت القردة تجاه واشو بعد إنقاذها. ويذكر فوتس مثالاً آخر عن حالة سقطت فيها شمبانزى بالغة فى حديقة حيوان دترويت، فى بركة بها ماء. وكان الحراس يخشون الدخول وراءها لأن الشمبانزى البالغة تكون قوية جداً، ولكن أحد زوار الحديقة قفز وأنقذها.

يجب على المرء حتى يساعد الآخرين، أن يكون قادراً عادة، على إدراك احتياجهم للمساعدة. وهذه المعرفة يمكن أن تكون غريزية، أو معرفية أو كلتيهما معاً. ذات ليلة، فى أحد الخلجان القطبية، حيث تتجمع الحيتان البيضاء، حُشرت ثلاثة منها بالقرب من الأرض بسبب المد والجزر المنخفض وسد طريقها عائق من الحصى كانت تسبح فوقه عندما يكون المد عالياً. "فصرخت كل" الحيتان الثلاثة، وكان أحدها بالغاً والآخران صغيرين، أما الحيتان الأخرى الحرة، فسبحت جيئةً وذهاباً على جانبها من الحاجز، وأجابتها. فذهب أحد العلماء الأحياء إلى عائق الحصى، وهو أمر كان جديراً عادة بأن يجعل الحيتان تهرب. أما هذه المرة، ومع ما كانت تحس به من إثارة، فلم تُعر شيئاً أى اهتمام.

لم تكن الحيتان قادرة على إنقاذ أصحابها؛ ولكن مراقبي الحيتان حافظوا على ابتلالها فسبحت مبتعدة حين ارتفع المد والجزر بعد ذلك. تُعد هذه القصة نوعاً من الانفعال البدائي. إذ كانت الحيتان المحشورة فى حالة من الرعب وطلبت النجدة. وكانت الحيتان الأخرى قلقة، وحضرت لتقديم العون ولإظهار القلق. فالحيتان قادرة على طلب النجدة من بعضها البعض والاستفادة بالعون فى بعض المواقف. وهنا، بدا أن الحيتان تشعر بالخوف والتعاطف، رغم أن الحيتان الحرة لم تستطع بالفعل أن تساعد الحيتان المحشورة. يشير عالما الأحياء، كينيث نوريس وريتشارد كينور قائلين: "لو.. أن القصص التى تتحدث عن الدرافيل وهى تدفع البشر إلى الشاطئ صادقة، فيجب النظر إليها فى نفس السياق الذى يدفع فيه البشر الدرافيل المحشورة كى تعود إلى البحر". '

وتتمتع الحيوانات أيضاً بالقدرة على عدم الانفعال، مما يكاد يُغضب الناس. فهى تفعل عادة أفعالاً تسبب لنا الصدمة، مثل أكلها لأطفالها الميتة، أو تسمح لنسلها أن يأكل كل منها الآخر. إن اللبؤة التى فقدت كل ما أنجبته سوى واحد، غالباً ما تتخلى عن شبلها المتبقي. والوالد الذى اعتاد أن يدافع عن نسله ضد الضوارى بكل قوة قد يسير مبتعداً بعدم مبالاة واضحة، إذا نجّح أحد الضوارى أخيراً فى اصطياد الصغير، مع أن هذا السلوك قد يكون يأساً.

غير أنه كما يمكن أن تتعايش الرقة والقسوة معاً، فكذلك الأمر مع الرحمة وعدم الانفعال. فالأحداث التى توحى بوجود أحد هذين الانفعالين، لا تلغى وجود الآخر.

الرحمة بين الأنواع

كما هو الحال مع أى انفعال اجتماعي، من المحتمَل جداً أن يُظهر المخلوق رحمة نحو عضو من نوعه. وبعض الحيوانات تكوِّن نوعاً من العلاقات أوسع وأرحب من "رحمة عضو نوعي"، مثل "القط الرفيق.. الطائر الرفيق" أو "القشرى الرفيق". وبالنسبة لأى كائن بشري؛ فإن أعظم قدر من الإثارة يتيحه لنا الحيوان عندما يعاملنا كأفراد من نوعه. وهناك مثال ملحوظ على الشعور بالزمالة عند أسماك الأوركا التى تُسمى الحيتان القاتلة. فعلى النقيض من أسماك القرش البيضاء الكبيرة، لا يوجد مثال على حوت قاتل هاجم إنساناً فى الطبيعة الحرة، رغم أن آكلات اللحوم هذه تأكل أى شيء فى البحر من السمكة الكبيرة إلى الحوت العملاق، إلى الدرافيل إلى الأسماك، والطيور بل حتى الدب القطبى من آن إلى آخر. ومع أنه يسهل عليها افتراس الناس، إلا أنها تمسكت بالإحجام عن هذا الفعل. لذا؛ فبعد أن "عرفنا ما تأكله وامتناعها عن أكل الناس فإن هذا يوحى بزمالة المشاعر. فهل هذا الإحجام رحمة؟ وهل يعنى اعترافاً بالمشاركة؟ وإذا كان الأمر كذلك، فإن نوعنا لا يبادلها نفس الشعور".

وبالرغم من اختلافاتنا، فإن الدرافيل كثيراً ما تعامل البشر، من منطلق التساوى على بعض المستويات. بل حتى الدرافيل الطليقة غالباً ما تكون مهتمة باللعب مع البشر. إذ ظلت الدرافيل الشهيرة فى ميا بيتش بأستراليا تأتى لعدة سنوات للَّعب مع الناس. ورغم اعتياد الناس على تقديم السمك لها، إلا أن الدرافيل كانت ترفض السمك، غالباً أو تقبله ولكنها لا تأكله. ومما يمكن فهمه منطقياً بدرجة كافية، أن المخلوق الذى يمكنه اصطياد السمك الطازج بسهولة لا تغريه عيّنة ماتت منذ ساعة.

فما ذلك الشيء الذى يدور بخَلَد الدرفيل حين يتقبل سمكة ميتة ثم يدعها تنجرف بعيداً؟ لقد رأى صحفيان زارا "منكى مايا" درفيلاً يتقبل سمكة من أحد السياح، ثم يدفعها نحوهما. فتقبلاها بارتباك. وبينما كان الدرفيل يراقبهما شعرا بالحرج الاجتماعي وتساءلا عما إذا كان من المفترض أن يأكلا ذلك الشيء، أم يعيداه، أم يفعلا شيئاً آخر. وعندما سارا بعيداً اقترب الدرفيل، وأمسك بالسمكة مرة أخرى، وغاص إلى العمق تاركاً الاثنين يشعران أنهما قد ارتكبا زلَّة سلوكية مجهولة.

وهـناك طريقة أخرى قد يعامل بها الحيوان أحد البشر كأنه واحد منها، مثل طلب العـون مـنه. ذلك أن طلب العون والاسترحام يشير فى حد ذاته إلى القدرة على رحمة فرد من نفس النوع. إذ كيف يمكن للحيوان أن يطلب وأن يتلقى الرحمة، ما لـم يعـرف معنى هذه الكلمة؟ ولماذا تتوافر له قدرة كامنة على أن يلح فى طلب شـيء لا وجود له بين أفراد نوعه؟ ويروى ميك تومكينز عن إنقاذ حيوان من نوع الغُريـر: "لقـد فسـر ذلك كيف تحيا وحيدة، وربما بعد أن تعرفت على رائحتنا، وأحسـت بشـكل مـا أننا أصدقاء، اقتربت منا. وكان من الغريب عدد المخلوقات البرية المريضة، بما فى ذلك الغزال الأحمر المحتضر فى الشتاء، الذى اقترب منا، وكأنه يعلم أنه سيحصل على الحماية".

وفى كـتاب هوب ريدن "بحيرة ليلى"، تروى الكاتبة كيف سقطت إحدى القنادس المسـنة الـتى كانت تراقبها لعدة سنوات، فجرح كفها وما كان منها إلا أن اقتربت مـنها على غير توقُّع. فبينما كانت ريدن تجلس على ضفة البحيرة وتضع نظاراتها المائية سبحت القندس لِيلِى العجوز نحوها، وأخرجت نفسها من الماء، وتعثرت فى طـريقها إلى الضـفة، ونظرت فى عين ريدن ثم نطقت بالأصوات التى تصدرها صـغار القندس. فكان رد فعل ريدن هو إحضار أفرع أشجار الحور (وهى أفرع تقدرهـا القـنادس تقديراً كبيراً) وعادت إلى البركة كى تكمل القندس غذاءها. لقد قبـلت أفرع شجر الحور الرقراق ومع أن ريدن كانت تحضر الحور من قبل، إلا أنهـا كانت تفعل ذلك خلسة، وفى نيتها ألا تعرف القنادس أنها مصدر هذا الطعام. فـابن ليلى الكبير، هكلبري، ربما كان أقل رحمة وكثيراً ما كان يحاول أن يسرق أفرع الحور من يد أمه.

وكتـبت سـينثيا مـوس عن أنثى فيل برية مريضة جداً سارت متجهة إلى نافذة سـيارة اللاندروفـر الخاصـة بها، ووقفت هناك، "رافعة جفونها من وقت لآخر، وناظـرة إلىَّ. لست أدرى ما كانت تفعل ، غير أنى أحسست أنها كانت، بشكل ما، تحاول أن تنقل كدرها إلىَّ، وكانت شديدة التأثر، وقلقة". ويروى بارى لوبيز مؤلف كتاب (ذئاب ورجال) عن صياد اصطاد ذئباً ضخماً أسود فى فخ. وحين تَوجَّه إلى الفخ، كما قال الصياد، مد الذئب قدمه الواقعة فى الفخ إلى الصياد وعوى.

وفى بعـض الأوقـات قـد يكون مظهر طلب الرحمة خادعاً. فالأرنب يصرخ صـرخة خـوف مـرتفعة مفاجئة، سواء أكان طليقاً أم بين فكّى قيوط. وتتجاهل الأرانب الأخرى الصرخة، فهى لا تهب لترى ماذا حدث، ولا تستخفى هى نفسها. ويُعـتقد أن فـائدة الصـرخة، هـو جذب الضوارى الأخرى إلى الموقع، وتجذب صـرخات الخوف التى تصدرها الأرانب الضواري. وعلى ما يبدو، فإن الأرانب أحياناً تفر أثناء الصراع الذى ينشب بعد ذلك بين الضواري.

وهـناك ناحيـة من نواحي التقمُّص العاطفى لا تُعتبر محل اعتراض من الناحية الوراثيـة، وهى تلك التى تنتج عن التعاون فهو موقف يفوز فيه الطرفان. وهكذا، فـإذا ما أحس أحد الأسُود أن أسداً آخر يصيد جماعة من الثياتل، فينضم أو يساعد، ويشارك فى الفريسة المقتولة، فهذا يُعدُّ تعاوناً، وليس إيثاراً. ويبدو، فى الواقع، أنه حين تصطاد الأسود بطريقة تعاونية، فهى تصيد فرائس أكثر بكثير مما يحدث حين تصـطاد فرادى. فإذا ما ساعد أحد الأسود أسداً آخر على الصيد، ثم لم يشارك فى الوليمة، ولم يكن الأسد الآخر من نسله أو من أقرب أقاربه، فإن هذا يُعدُّ إيثاراً.

الرحمة نحو الخاصة

ممـا يدعـو للأسـف بالنسـبة لدراسة الإيثار نحو القريب وانتقائه، أن مراقبى الحيوانات يقضون وقتاً مملاً فى محاولة تصوُّر مَنْ قريب لمن. ذلك أنه حين يرى معظـم العلماء حيواناً برياً يساعد حيواناً آخر، لا تكون لديهم طريقة لمعرفة إذا ما كـان الإثـنان قريبين وإلى أى حد. وتُلقى الدراسة، طويلة المدى التى بدأتها جين جـودال فى جومبي، بعض الضوء على هذه الأمور. إذ ليس لدى معظم دراسات سـلوك الحيـوان وسيلة للتوصل إلى قدرٍ كافٍ من التاريخ. وحتى فى جومبي، قد يعـرف المراقـبون من هى أم أحد أفراد الشمبانزي، غير أنهم لن يكونوا قادرين سـوى عـلى تخميـن مـن يكـون أبوه. فحينما يعرفون كيف تكّون القرابة بين الحيوانـات، فهـم كـثيراً ما يجهلون ما إذا كانت الحيوانات أنفسها على وعى أن الآخـر ــ على سبيل المثال ــ أخ لها أو عم أو خال. ولقد بينت بضع دراسات أن بعـض الحيوانات، تبدو أحياناً وكأنها تفضل أقرباءها فى مواقف مدهشة. فصغار قـردة المكاك تُفضل اللعب مع مثيلاتها التى هى نصف أشقاء لها، بدلاً من اللعب

مـــع غير الأقرباء، حتى ولو كانت لم ترها من قبل. ولا نعرف علاقة هذا بالسلوك الإيثاري، أو تجنُب المحارم، أو غير ذلك من الوظائف.

ويمكـــن أن تخـــطئ الافتراضـــات الخاصة بالقرابة بين الحيوانات. فبين ماعز الجـــبال، يمكـــن أن تـــرى الحيوانـــات وهى تتبع الأمهات من الماعز التى كانت تصاحبها فى الصِّغَر كما تتبع الكثير من الحيوانات أمهاتها لعام أو عامين. وهكذا، حيـــن يـــرى المراقـــبون جماعة من الماعز تضم مربية وصغيراً يبلغ عاماً واحداً وآخـــر يبـــلغ مـــن العمر عامين، فربما يفترضون فى أغلب الأحيان أن هذه عائلة بيولوجية، وعلى ذلك، فقد اكتُشف أن الماعز الجبلية تميل إلى إيثار الأقرباء، وهذه الملاحظـــة تحظى باحترام علمى بما أنها يمكن أن تسهم فى بقاء جينات المخلوق. كمـــا أن الإيثار المتبادَل له احترامه طالما يسدى المخلوق معروفاً لغيره وأنه يفعل ذلك توقُعاً لتلقِّى المعروف تماماً كما يفعل الناس وهم ينتظرون شيئاً فى المقابل. لقد ظهر الإيثار المتبادَل بين الحيوان كما ظهر بين البشر. كذلك، فإن الحيوانات شأنها شـــأن البشر أولئك الذين لا تتوقع منهم المساعدة فى المقابل. وفى واقع الأمر، أن المجـــتمع يتوقع أداء الأعمال الصغيرة من هذا النوع يومياً، وحين لا يحدث ذلك، يسود الكثير من الحنق.

فى النموذج النظرى للإيثار المتبادل نجد الحيوانين يحصلان على ميزة مشتركة، فـــالحيوان الذى لا يرد المعروف يتعرف عليه الآخرون ولا يتلقى أى صنيع. فلقد سجل الذين يجرون التجارب على موضوع الإيثار المتبادل نداءات لقردة الفيرفيت (وهى قردة أفريقية صغيرة) على أجهزة تسجيل ـــ أى تلك النداءات التى تصدرها حيـــن تهدد فيرفيت آخر وفى نفس الوقت تطلب العون من مثلها من القردة ـــ وبعد ذلـــك، وهى مختبئة فى الشجيرات، أخذوا يذيعون صوت الأفراد المختلفة ولاحظوا كيفيـــة اســـتجابة قردة الفيرفيت لهذه التوسلات فوجدوا أن قردة الفيرفيت على تمام الاســـتعداد للاستجابة لنداءات القردة من غير الأقرباء لو كانت غازلتها مؤخراً أو اشـــتركت معـــاً فى ســـلوك جماعي. وعلى النقيض من ذلك، فإنها كانت تستجيب لـــنداءات الأقـــرباء الوثيقين، سواء أكانت قد قدمت معروفاً لبعضها البعض أم لا. وزعـــم البعض أن الضرورة التى تحس بها الحيوانات لإحصاء ما تدين به لبعضها البعض قد أسهمت فى تطور الذكاء.

العرفان

فى حين قد يحتفظ الحيوان بسجل حسابى غير انفعالى يوضح مَنْ مدين لمن بماذا، إلا أن سلوكاً كهذا يمكن أن تتدخل فيه العاطفة أيضاً بما لا يشمل الحب فحسب، وإنما العرفان والكراهية. للأسف، فإن العرفان هو أحد الانفعالات الزئبقية التى لا يمكن ضبطها والإمساك بها، إلى الحد الذى جعل الساخطين الذين لا يجدون خيراً فى أى شيء يزعمون أحياناً عدم وجوده بين الناس. فلو أن س. فعل شيئاً من أجل ص. وبالتالى يتصرف ص. بطريقة لطيفة مع س. يمكن القول إن ص. يشعر بالعرفان. ومع ذلك، يمكن للبعض أن يحتجوا بأن ص. يطمع فى المزيد من المعروف من س. أو أن ص. لم يجئ إلا ليستمتع بصحبة س. أو أن ص. يتصرف حسب ما يتوقع منه المجتمع. ويمكن إقامة نفس الحجج لو أن ص. كلب. ومعظم الناس يعتقدون أن العرفان شيء موجود لأنهم أحسوا به هم أنفسهم. فلماذا لا يمكن أن تحس الحيوانات هى أيضاً بالعرفان؟

إن تاريخ موضوعية الإنسان فى هذه النقطة ليس مشجعاً. وربما كان الشعور بالذنب هو الانفعال الذى يود الإنسان أن تشعر به بعض الحيوانات نحوه. إذ روى جوزف وود كرتش عن خطاب كتبه أحد الناس لإحدى الدوريات البريطانية باسم "كنترى مان" يتحدث فيه عن فراشة تحس بالعرفان. إذ رأى القارئ دودة طفيلية تعلق بعين فراشة، فأزالها برقة. ففردت الفراشة لسانها ولعقت يده. وظن القارئ أن هذا تعبير رقيق عن الشكر. وغالباً ما تلعق الفراشات الجلد الإنسانى كما أشار قراء آخرون. ويفترض أن هذا من أجل الملح. ذلك أنه لا يبدو من الوارد أن تفسر الفراشة لعقة باعتبارها لفتة للتعبير عن الشكر: فالفراش لا يلعق بعضه بعضاً كما تفعل الكلاب. ففرصة أن تعبر حشرة عن الشكر لأهم المخلوقات بهذه اللفتة تبدو ــ إلى حد ماــ فرصة ضئيلة. وأحياناً ما تُروى قصص لعلماء الطيور عن هذه المخلوقات تشير إلى العرفان عن أعمال طيبة قدمها البشر لهم وذلك عن طريق الغناء. وهذا، أيضاً، يبدو من غير المحتمل، طالما لا يوجد سبب يدعونا إلى الافتراض أن الطيور تعرف أن البشر يستمتعون بتغريد الطيور، غير أن الفكرة جذابة جداً.

في صـــحراء الـــنقب، أوقـــع ســـالم وهو قاطع أحجار بدوي كركالا وهي قطة صـــحراوية في الفخ، وقد دأبت القطة على الإغارة على عش دجاج. وانتوى سالم قتلها، إلا أنه قد رق قلبه، وتركها تذهب بعد ثلاثة أيام. فانطلقت وفي اليوم التالي، قتـــلت دجاجـــة أخرى. وكثيراً ما كانت القطة تأتي في الأشهر التالية بالقرب من مـــنزل ســـالم في الأمسيات، وترقد على فرع شجرة أكاسيا وتحملق في سالم الذي اعـــتاد الجـــلوس فوق صخرة وينظر خلفه. وحتى بعد أن قتلت القطة آخر دجاجة، اعتادت المجيء والحملقة في سالم. فربما كانت القطة تشعر بالفضول. وربما كانت تحس بالعداء نحو الشخص الذي نصب لها فخاً وأبقاها في الأسْر. وربما كانت فقط تصون صلتهما. وربما كانت تشعر بالعرفان.

يحـــاول مدربو الببغاوات أحياناً أن يعدّلوا اتجاه ببغاء عدواني وذلك بأن يختلقوا مأزقاً بحيث ينقذ الشخص الذي يكرهه الببغاء، هذا الببغاء من المأزق المخيف. لقد كتـــبت مـــاتي ســـو أثـــان، وهي مستشارة في السلوك عن موقف إنقاذ كهذا حدث بالصـــدفة. إذ كـــان الببغاء يعيش في مكان للحيوانات المدللة، وكان شديد العدوانية ومن نوع أفريقي، فخذل جميع محاولات المدربين للتقرب منه فلما أطلقته أثان من قفصـــه، قفـــز الببغاء من الممر إلى قفص ابن مقرض (حيوان شبيه بابن عرس). فأمســـك الحيوان بإصبع قدم الببغاء وعضّه عضة دامية وتعلق به بشراسة. فصرخ البـــبغاء ألمـــاً ورعباً حتى أبعدت أثان الحيوان عن طريق تقديم جائزة له. فصار الطائر في الحال، أليفاً ودوداً نحوها. إن طريقة الإنقاذ للفوز بحسن نية ببغاء يمكن الاعـــتماد عليها، وأحياناً ما يستخدمها المدربون عديمو المبادئ بصورة قاسية. أما مســـألة مـــا إذا كان الببغاء الذي يُنقذ يشعر بالعرفان نحو منقذه، أم أنه فقط يشعر بالـــثقة والإعجـــاب – فهذا هو نفس السؤال الذي يسأله الناس في حالة البشر عند إنقاذهم.

لقـــد تأكد علمياً عرفان الحيوانات بالمعروف نحو بعضها، غير أن العرفان نحو البشـــر لـــم يُوثّق. ففي ذات مساء، في أدغال كينيا، انفصلت تاتو، وهي أنثى نمس شابة قزمة بعد أن اقتحم ظبي خائف جماعتها. وعادت أفراد النمس عند الشفق إلى كـــوم الـــنمل الأبيـــض، غيـــر أن تاتو كانت في كوم على بعد خمس ياردات عن عائلتها، وهي تخشى أن تعبر الأرض الفاصلة. فنطقت: نداءات "أين أنتم؟" وأخذت

تخطـــو جيـــئةً وذهاباً فوق كومها. فردت عائلتها على ندائها مراراً وبصوت يزداد ارتفاعـــاً بصيحات "هانحن ذا"، غير أنها لم تتجاسر على العبور. وحين حل الظلام تقريـــباً، بُـــحَّ صوت تاتو وانكمشت على نفسها فوق الكوم. فانطلق والداها وأنثى نمس آخرى (ربما كانت أحتها) أخيراً نحوها، وهى تختبئ بقدر الإمكان، بينما كان بـــاقى الفـــريق يشاهد، ويتفحص الأرض والجو خوفاً من وجود أى ضوارٍ. وحين وصل الثلاثة، علقت تاتو نفسها فيهم، وهى تلعقهم وتتمسَّح فيهم. وحين تمسحت فى الثلاثة جميعاً (أولاً أبوها ثم أمها ثم أنثى النمس الثالثة) عادت الجماعة. فهل كانت تـــاتو تشـــعر بالعرفان، أم أنها كانت مسرورة، فقط إذ رأت عائلتها؟ ذلك أن أباها فعـــل شيئاً غير معتاد حين بدأت فى التمسح فيه، وهو أنه أخذ يحك غدة خده عليها وهـــو ما تفعله حيوانات النمس الأقزام حين تستعد للقتال. ومن المفهوم أن هذا يدل على الغضب، فأرادت تاتو أن تسترضى عائلتها. وتقول إليزابيث مارشال توماس، إن الضـــوارى قـــد تعبر عن العرفان نحو الفريسة، وهى تضرب مثلاً بجماعة من الأســـود قـــامت بقتل كود (ظبى وحشى أفريقي)، فأخذ أحد الأسُود وجه الكود بين مخالـــبه ولعقه برقة وعناية كما لو كان يفعل ذلك بوجه أسد آخر. وبينما كان يفعل ذلـــك، انضم إليه أسد آخر وغسل أيضاً وجه الكود. وفى مثال آخر، شُوهد كوجر يجـــثو ويـــربت برفق على أحد كباش الجبال الصخرية بعد قتله. ومن المستبعد أن يقدِّر الكود مثل هذا العرفان، لكن هذا لا ينفى شعور الأسد به.

الانتقام

من المؤكد، أن الانتقام هو نقيض العرفان. ومن الشائع عن الببغاوات أنها تشعر بالضـــغينة. ومـــن المؤكد أن حيواناً ما يمكن أن يحس ببغض نحو إنسان ويعامله بعدوانيـــة غيـــر معتادة. ولكى تحتفظ بعلاقة طيبة مع أحد الببغاوات، فخير لك ألا تكون الشخص الذى يقص أظافره أو تشذب منقاره. فإذا كان أحد الانفعالات ممكناً، فلم لا يكون الآخر كذلك؟

اعتادت "أولا" وهى أنثى حوت قاتل زائف، تعيش فى بيئة كالمحيط، على التعامل مـــع جماعة من البشر الغطاسين يعملون فى صهريجها. ولقد اعتاد أحد الغواصين أن يشـــاكس "أولا" خلســـة. وشعرت إدارة بيت الحيوانات بهذا لأول مرة فى أحد الأيـــام حيـــن وضعت أولا أنفها الطويلة فوق ظهر الرجل، ودفعت به إلى أرضية

الصـــهريج وأبقــته هناك (لم يغرق لأنه كان يرتدى ملابس غطس). وفى مسعى الغواصـــين كى يحـــرروا الغـــواص، بـــدءوا فى إصدار الأوامر لأولا، وحاولوا إزعاجهـــا بضوضــــاء مـــرتفعة، كما قدموا السمك بلا جدوى. وبعد خمس دقائق، أعتقت أولا الغواص. وأسفر التحقيق الذى تلا ذلك عما كان يحدث من مشاكسة.

إن العرفان والانتقام، أى انفعالات الدّقة بدقة أو الواحدة بواحدة – يمكن أن تكون وسـيطاً للإيـــثار المتبادَل. ومن الأدلة الجديرة بالمناقشة، أن الحيوانات يمكنها أن تمتلك القدرة على الشعور الرحيم الكريم، ومن ثَمَّ السلوك الإيثارى بالمعنى العادي، بحيـث إنـــه إذا نشـــأ هـــذا الشعورُ لميزة وراثية، فإنه يؤدى إلى سلوك لا يكون بالضرورة مفيداً دائماً. وفى بعض الحالات اعترف بعض المنظِّرين بإمكان وجود ســلوك لا يستهدف ميزة، وهو ما يوحى بأن ثمة قوى أخرى تقوم بعملها. وهكذا، فـــإن ريتشـــارد دوكيـــنز فى مناقشته لظاهرة تبنِّى القردة لأطفالٍ ليست أقرباء لها يقول: "فى معظم الحالات، نجد أنفسنا مضطرين إلى اعتبار التبنِّى مهما كان أثره، خطـــأ فى قـــاعدة ثابتة. ذلك لأن الأنثى الكريمة لا تفيد جيناتها عن طريق العناية باليـــتيم. إنهـــا تـــبدد الوقـــت والطاقة اللذين كان من الممكن أن تنفقهما على حياة أقربائها؛ وعلى الأخص أطفال المستقبل الذين يخصونها. وربما كان ذلك خطأ نادر الحـــدوث لا يؤثـــر فى الانتقاء الطبيعى ولا يصلح كقاعدة، بل استثناء لا يؤثر فى القـــاعدة". فمـــاذا يكـــون رد فعلـــنا على هذه العبارة لو لم نعلم أنها تناقش سلوك الحيـــوان؟ ذلـــك أن أنثى الحيوان الكريمة "ترتكب خطأ" لا يصلح دليلاً على وجود الإيـــثار والكرم بين الحيوانات. ومع ذلك، فإن إمكانية وجود الكرم والإيثار تختفى عادة، حتى إنه فى الصفحات الأخيرة من كتاب "المورِّث الأناني" يؤكد دوكينز: من الممكـــن وجـــود صفة فريدة أخرى في الإنسان وهى القدرة على الإيثار الصادق الـــنزيه... ويمكننا حتى أن نناقش طرقاً لتربية وتغذية الإيثار الأصيل النزيه بشكل غيـــر متعمَّد – وهى شيء لا حدود له فى الطبيعة، وكذلك شيء لم يحدث قط من قـــبل فى تـــاريخ العـــالم. لقـــد لاحظ تقرير علمى حديث يتناول تقاسم الطعام بين الخفـــافيش مصاصة الدماء، "أن الإيثار الصادق غير موثَّق، بين الحيوانات على ما يُفترض لأن هذا النظام ذا الاتجاه الواحد ليس ثابتاً بمنطق الارتقاء". ومع ذلك، فإن النـــتائج تختلف قليلاً عن ذلك. فالخفافيش مصاصة الدماء تتقاسم الطعام (دم غيرِها

مـــن الحيوانات، عادة الخيل) مع الخفافيش الأخرى فى أماكن تواجدها. وهذا أمر حيــوى للحفاظ على نوع الخفافيش، طالما أنها سرعان ما تموت جوعاً لو حُرمت الطعــام. لقــد أُنشئت مستعمرة صغيرة من الخفافيش الأسيرة لمعرفة ما إذا كانت تتقاســم الطعــام مع الأقرباء والأصدقاء (كما هو الحال فى الإيثار المتبادَل)، ومع الغــرباء. وحـــدث بالفعل أن الخفافيش التى نجحت فى الصيد تقاسمت الطعام مع الأقرباء ومع أصدقاء معينين. "غير أن هذا لم يحدث سوى مرة واحدة مع الغرباء" كما جاء فى التقرير. وهذا يبين أن الخفافيش يمكن أن تتصف بالإيثار حتى لو كان ذلك أمراً نادراً، ولم يثبت أن الخفافيش لا يمكنها أن تتصرف بإيثار على الإطلاق. غير أن تفسير الباحث هو أن اقتسام الخفاش الطعام مع الغرباء يُعدُّ خطأً.

إذ إنـــه حيـــن يـــتم تســـجيل أعمـــال الإيثار، يوجد ميل إلى معاملتها باعتبارها اســـتثناءات نـــادرة غيـــر جديـــرة بالملاحظة. فبالنسبة لبعض البشر، والكثير من العلماء، هناك ميل شديد للادعاء بأن العالم بأسْره تحكمه المصلحة الذاتية؛ محاولين إثـــبات أن العطـــف والتضـــحية بالذات، والكرم هى فى أحسن حالاتها تعبير عن الســـذاجة، وفى أســـوأ أحوالها أعمال انتحارية. وقد يكون إسقاط هذا الاعتقاد على الحيوانـــات واحداً من الأمثلة الكبرى على الأنسنة فى العلم. فتصرف بعض الناس على هذا النحو ليس معناه أن الحيوانات هى الأخرى تتصرف مثلنا. ومع ذلك، فإن ســـطوة العـــلم تتعرض للخطر عند إدعاء سلوك الرحمة عند الحيوان رغم تصديق الغالـــبية له من واقع التجربة أنه خطأ بيِّن. غير أن بعض الناس يحصلون على لذة مـــن نوع خاص، وهم يثبتون أن جميع أنواع السلوك أنانية حتى النخاع، فى نهاية الأمـــر. قـــال روبرت فرانك: "ليس هناك شيء أدعى للخجل من أن يطلق باحث واثـــق مـــن نفسه على تصرف ما صفة الإيثار، ثم يأتى باحث آخر ليثبت أنه ذو دوافع ذاتية. ولا شك فى أن هذا الخوف يزيد من كمّ الحبر الذى يهدره السلوكيون، فى محاولـــتهم للتنقيب عن دوافع أنانية لأفعال تبدو من قبيل التضحية بالذات". ولا شـــك فى أن هـــناك حاجة إلى لفظ أفضل، فإن اختيار سياسة معينة للدراسة يلعب دوراً مفيداً فى فهم السلوك.

وعـــادة مـــا يُســـتثنى البشر من هذه الحسابات، أو تتأخر المناقشة للإنسان لحين الوصول إلى حجة لا تحتمل سوى تفسير واحد تثبت أنانية المخلوقات بشكل جامع،

وعندها يعلن علماء الاجتماع فجأة إما أن السلوك البشرى تحكمه نفس القواعد إلى حد كبير، أو أن البشر هم استثناء فريد من هذه القواعد.

غير أنه لا يمكن القول بأن جميع العلماء يسقطون فى هذا الشَّرَك. إذ قد ناقش بعضهم إمكان وجود قدرة عامة على الإيثار. إذ تساءل ريتشارد كونر وكينيث نوريس عما إذا كان الإيثار المتبادَل يوجد بين الدرافيل وانتهيا إلى وجوده، غير أنهما انتهيا إلى أن المفهوم غير كافٍ لشرح سلوك الإيثار عند الدرافيل. إنهما يسلِّمان بوجود ميول للإيثار لدى الدرافيل بصفة عامة: "إن أعمال الإيثار تحدث بدون مقابل، وليس بالضرورة نحو الحيوانات التى يمكنها رد المعروف. وليست هناك حاجة بالضرورة إلى قصره على أفراد من الأنواع التى تصرفت بإيثار". ويشير كونر ونوريس إلى أنه فى مجتمع الدرافيل قد لا يقتصر الإدراك على قيمة إسداء المعروف للفرد نفسه، ولكن لغيره من الدرافيل عامة. وهما يتفقان مع عالم الأحياء، روبرت تريفرز فى أن "الحالات متعددة الأطراف تُعتبر سلوكاً إيثارياً عامةً، طالما يمكن للأفراد فى هذه الحالة أن يُنظر إليهم إما ككرماء أو غشاشين، فقد يختار فرد أن يتصرف بإيثار نحو آخر ولكن قد يعلم س. أن ص. لن يعوضه بالكامل، أو لن يعوضه مطلقاً، فى المستقبل، وبالتالى فإن ملاءمة الأفراد المنتقين ستكون نتيجة ميل متزايد لأولئك الذين تعلموا أن عليهم إذا شاءوا أن يستفيدوا من إيثار س. أن يتصرفوا بشكل إيثارى نحوه".

وبعد أن ناقشنا الكرم الممكن من الناحية النظرية فى الحيوانات، يمكن أيضاً القول بأن الكرم يمكن أن يكون ظاهرة حقيقية فى بعض الأنواع. ومن قبيل الفكر الارتقائي، فإن الحيوان لديه إمكانية أكبر فى تلقِّى الرحمة من الوالد أكثر من قريب أقل قرباً، ومن القريب أكثر من غير الغريب، ومن أحد المعارف أكثر من الشخص الغريب، ومن عضو من نوعه أكثر من عضو من نوع آخر. ومن الممكن أن يتوقع المرء تعاطفاً أقل من نوع لا يحرس بيضه. وحتى إذا صح ذلك، فإن الرحمة يمكن أن تكون أبهظ تكلفة من جدوى الإيثار السلوكى ولو بالمعنى الاجتماعى البيولوجي.

إن نسبة الإيثار إلى الحيوان قد يكون أمراً خاطئاً، كما فى أحد تفسيرات حادث ذبح الدرافيل الشهير فى جزيرة إيكى باليابان، حيث قتل الصيادون مئات من

الدرافيل لوقفها عن التنافس على السمك. حدث هذا القتل سنوياً لمدة خمس سنوات، ولـــم يعـــان الصيادون أية صعوبة فى جمع الدرافيل لعملية الذبح. وكان هذا أمراً محيـــراً بالنســـبة لجميـــع المراقبين الذين كانوا يحاولون وقف عمليات القتل؛ لأن أكـــثرهم كـــان يعتقد أن الدرافيل تتمتع بذكاء حاد ـــ ربما أكثر من البشر ـــ وإن إحـــدى الـــنظريات لشـــرح ذلك قالت، بما أن الدرافيل تتمتع بالإيثار، فهى تسمح لأنفســـها بـــأن تقع فى الشراك، وتُقتل على أمل أن ذعراً شديداً يعم العالم من هول المنظر (الذى حظى بتغطية واسعة من وسائل الإعلام العالمية)، مما قد يجعل ذلك سبباً فى اشمئزاز المشاعر ويؤدى إلى حماية الحيوانات الطليقة. فقد كانت حيوانات شـــهيدة. وبعـــد خمـــس سنوات، اختفت جماعة من الدرافيل ذات الإنوف الشبيهه بالزجاجة تحت القوارب التى كانت تحاصرها، ثم فرت ربما خوفاً من القتل.

كـــم من الحيوانات تساعد بعضها؟ وإلى أى حد يمكن أن يذهب الحيوان لمساعدة حيـــوان آخر؟ وما مدى المخاطرة؟ وكذلك، كم من الناس يساعدون الآخرين وضد أى نـــوع من الظروف الحرجة؟ فقد افتتحت حركة (ياد فا شيم) شارعاً لتخليد غير اليهـــود الذين دافعوا عن اليهود فى ذكرى الإبادة الجماعية وخاطروا بذلك بحياتهم. ومـــع اكتشـــاف أعمـــال جديدة من أمثلة الشجاعة، تُزرع أشجار تكريماً للمنقذين. فكيف يكون مقابل هذا البستان عند الحيوانات؟ ربما تُنشد الحيتان ملاحم عن أعمال الحب العظيمة المليئة بالتضحية التى قامت بها الحيتان فى غابر الأزمان.

الفصل التاسع

الخجل واحمرار البشرة والأسرار الخفية

زعم داروين أنه لا يوجد مخلوق على الأرض يشعر بالحياء سوى الإنسان. ومنذ تلك السنوات والانفعالات الاجتماعية مثل الخجل، والحياء والشعور بالذنب، والإحراج والشعور بالذات ـ أى جميع المشاعر التى تدور فى فلك إدراك الآخرين للذات ـ تُعتبر عادة مشاعر قاصرة على البشر. ومع ذاك، هناك الكثير من الأدلة على أن الحيوانات لديها هذه المشاعر، أيضاً، وربما أثبت الخجل أنه انفعال أساسى لديها وهو ما يدعو للدهشة.

وحين سُئلت جين جودال عما إذا كانت قردة الشمبانزى الطليقة تحس مطلقاً بالخجل أو الإحراج، ضحكت وقالت: "إنها تفعل ذلك حقاً فى حياة الطبيعة، وقد لا ترى ذلك مرات كثيرة. إن خير قصة أعرفها عن الخجل الواضح هى قصة فرويد الصغير حين كان فى حوالى السادسة من عمره. كان فى الواقع، يستعرض قوته، ولا يمكن أن نصف ما كان يفعله إلا بذلك - أمام العم فيجان، الذى كان سيد الذكور. كان فيجان يحاول أن ينظف فيفي، إذ كانت الطفلة الجديدة هناك، وكان فرويد الصغير يتقافز فقط حول المكان وأفرع الأشجار ويشعر بوجوده إلى حد كبير. اعتلى (شجرة موز الجنة) وهى شجرة قصيرة رقيقة الجذع بما يشبه الموز. وأخذ يهزها إلى الأمام والخلف وفجأة سقطت! فاصطدم بالأرض. وتصادف أن يهبط بالقرب مني. فكان فى مقدورى أن أرى وجهه، وكان أول ما فعله حين ظهر من بين العشب هو أن يرمق فيجان بناظريه ثم زحف بهدوء وبسرعة مبتعداً وبدأ فى الأكل. لقد كان من الواضح أن هذه كانت هزيمة كبرى بالنسبة له.

والخجــل هو واحد من المشاعر التى يتذكرها المرء بتفاصيلها الحية. فعند تذكر الســعادة أو الخوف أو الغضب، لا يتذكر الناس مثل هذه الانفعالات مرة أخرى إلا عــند محاولــتهم ذلك. أما أحداث الإحراج أو الخجل فيمكن أن تغمر المرء بشعور ساحق من الخجل يعاوده. ومن يشعر بالحياء قد تبعث الذكرى فيه هذا الشعور مرة أخــرى. ولقد نال الخجل قدراً قليلاً من الانتباه فى علم النفس والعلاج النفسى لعدة سنوات، غير أنه فى السنوات الأخيرة بدأت النظرة إليه باعتباره شيئاً مهماً. بل لقد سُــمى "سيد الانفعالات" الذى تستخدمه المجتمعات كى تدعم الأعراف وتجبر الناس عــلى اتــباعها. ويشــير الشعور بالذنب إلى حادث بعينه، أما الخجل، وهو أكثر عموميــة، فيقال إنه يشير إلى كل كيان الفرد. وهكذا، فمن الممكن أن يحس المرء بــالذنب لأنــه تخلى عن نظامه الغذائي. أما الخجل، فهو ما نشعر به حين نصاب بالســمنة. وقد ينشأ الشعور بالذنب نتيجة لحادث خاص، فى حين يحتاج الخجل إلى العلانية أمام الآخرين وتصور حكمهم فى الفرد.

ويــزعم البعض أن البشر فقط هم الذين يشعرون بانفعالات الشعور بالذات، وإن كــان هذا الزعم ليس قوياً حيث لم يلق معارضة كبيرة. إذ يُقال إن الحيوانات غير قــادرة عقــلياً على الوعى بالذات – مع أن المراد من هذا إثبات انخفاض مستوى ذكاء الحيوانات وليس إثبات الافتقار إلى الانفعال.

وفى حيــن أن المنطق قد يدفعنا إلى استنتاج أن انفعالات كهذه لا يمكن أن توجد دون فهــم عقــلى لــلكيفية التى تنظر بها بقية المخلوقات لنا، إلا أننا غير ملزمين بتطــبيق ذلك على هذه الحالة. فليس لدينا ما يحملنا على الافتراض بأن الحيوانات تعجز عن الشعور بالخجل ما لم تدرك سبباً لهذا الشعور. فكما لاحظ داروين، فإن البلبــلة العقلية تُعدّ عَرَضاً بارزاً من أعراض الخجل . كتب الطبيب النفسى دونالد ناثانسون يقول: "لا أستطيع أن أفكر تفكيراً واضحاً فى لحظة الإحراج، ولا أعرف أى شــخص يمكــنه ذلك". ومن ثَمَّ، فقد يوجد الخجل سواء مع فهم أسبابه أو عدم فهمهــا، ويحس أحد الحيوانات بالخجل أو الإحراج دون أن يكون واعياً وعياً تاماً بالسبب، وآخر قد يحس بالخجل والإحراج ويفهم سبب ذلك فهماً تاماً.

فالشعور بالذات ينطوى على كل من الحالة العقلية والحالة الانفعالية، فمن الناحية الانفعالية، قد لا يكون من المريح أن يحس المرء أنه موضع ملاحظة (أو يحس أنه

يـــراقب نفســـه)، وهـــو شكل من أشكال الإحراج. فهى تعكس عقلياً معرفة المرء بعقله، ووجوده، وأفعاله – أى أنها حقل ألغام فلسفي.

لقــد كـــانت دراســـات المـــرأة للحيوانات الرئيسة بؤرة النقاش حول ما إذا كان للحيوانات وعى بالذات أو يمكن أن يتوافر لها ذلك. والشمبانزى الذى يألف المرايا يبدو أنه يتعلم أن الصورة تخصه. فإذا تم تخدير هذه القردة ووُضعت على وجوهها نقطـــة مـــن الطلاء وقُدّمت لها مرآة عند يقظتها، فلسوف تلمس وجوهها بأصابعها حين ترى الطلاء فى الصورة المنعكسة على المرايا، وتتفحص أصابعها، ثم تحاول إزالـــة الطـــلاء. وتعلم إنسان الغابة أيضاً أن الصورة المنعكسة على المرآة تخص بعـــض المراقبين أنفسهم، وحتى الآن، لم تفعل القردة ذلك. ويرى بعض المراقبين أن هذا دليل على الوعى الذاتي. بينما حاول غيرهم من المراقبين أن يثبتوا أن هذا لا وجود له. ويوافق جون س. كيندى بعض النقاد فى الاحتجاج بأنه من الخطأ أن نفـــترض أن الشـــمبانزى "إنمـــا يربط فقط – بين الحركات التى يقوم بها وصورة المرآة". ويمنح هذا التفسير المؤلم للشمبانزى قوى عقلية تتساوى فى التعقيد – على الأقـــل – مع القول إنها ترى نفسها فى مرآة. وترجع جاذبيته ببساطة إلى أنه ينكر إمكانية الوعى بالذات فى أى كائن غير بشري.

ويـــراقب قـــردا الشمبانزى شيرمان وأوستن، فى تجربة لتعلُّم اللغة فى أطلنطا، بواســـطة كاميـــرات الفيديو، وقد تعلما استخدامها بعدة طرق. وبعد عدة أشهر من العـــرض أمـــام صورهما فى أجهزة مراقبة الفيديو، بدا فجأة أن كل قرد أدرك أن الصـــورة كـــانت صـــورته. ثم استعملا أجهزة المراقبة كى يشاهدا نفسيهما وهما يقطـــبان عـــلى ســـبيل المزاح، ويأكلان ويجعلان الماء يدور داخل فميهما. وتعلم كلاهما كيف يميز بين الصورة الحية، والصورة المسجلة لهما، وذلك بعمل اختبار هـــو أن يشـــاهدا هـــل تتضاعف أفعالهما على الشاشة. فى أحد الأيام كان شيرمان يستخدم مرآة يدوية كى تساعده فى وضع مساحيق الزينة، ولما ملّ من المرآة طلب بالإشارة أن يحصل على الفيديو، كى يستخدمه فى التصوير مصوّباً إلى وجهه بدلاً مـــنها. واستخدمه كى يحدد بالصورة أى شيء يلطخ أسنانه ويزيله. وذات يوم، قام أوســـتن بمحاولـــة جريـــئة لاستخدام جهاز المراقبة فى النظر إلى حنجرته بداخل فمه،بينما يضيء ومضات عليها فى نفس الوقت.

ومـن بيـن نواحى سلوك الشمبانزى عملية حفظ ماء الوجه، وهى تنطوى على الشـعور بـالذات. ففى حديقة آرنهيم، أُصيب الشمبانزى يروين بجرح طفيف فى معركة مع شمبانزى آخر، يُدْعى نيكي. ومما أدهش رجال الإنقاذ، أن يروين قضى الأسـبوع الـتالى وهـو يعرج بشكل مثير – ولكنه كان يفعل ذلك فقط أمام نيكي. وأحيانـاً، فإن الشمبانزى الراغب فى مسالمة شمبانزى آخر لا يفعل ذلك بالاقتراب المباشـر، وإنمـا يتصنَّع أنه قد عثر على شيء وهمي، ويستفيد من تجمهر أفراد كـثيرة من الشمبانزى فى الاتصال بخصمه السابق، ويعتقد فرانس دى وال أن هذه استراتيجية تُتَّبع لحفظ ماء الوجه.

وفى نطـاق متنوع من الحيوانات المختلفة، تعرف الحيوانات متى تكون موضع مشاهدة مما يوحى بالإحساس بالذات. وحين يتثاءب ذكر الرباح، فإن أسنانه المثيرة الـتى تشـبه أسنان الكلب تظهر بشكل استعراضي. ولقد وجد عالم الأحياء كريج باكـر، فى مراقبـته لحيـوان الرباح البرى أن الذكور التى لديها أسنان متآكلة أو مكسـورة تتـثاءب عـدداً من المرات أقل من تلك التى تتمتع بأسنان فى حالة جيـدة ـ مـا لـم يوجد أى ذكور أخرى فى المكان، إذ فى هذه الحالة تتثاءب كما تشـاء. ولقـد عـرف أن الشمبانزى تتجنب النظر إلى مصدر طعام تعرفه، ولكن الشمبانزى الأخرى لا تعرفه. وفى عدة مناسبات وُجد أن الأسود فى المحمية والتى أمسكت فريسة فى العشب المرتفع لا تلتزم بعادة الأسود المألوفة المتعلقة فى البداية بـالأكل فـوراً. وبدلاً من ذلك، يجلس الأسد وينظر حوله ربما لمدة خمس دقائق، وكأنمـا لم يصطد شيئاً. وحين تغادر الأسود الأخرى القريبة، يبدأ الأسد فى الأكل. وماعـز الجـبل التى ترى أحد الضوارى تسير فى هدوء وببطء، ثم، عندما تصبح خارج مجال رؤية الحيوان الضاري، تُقلع، وتجرى بكل ما أُوتيت من سرعة. هذه الحيوانات تتصرف وكأنها واعية بإدراك الآخرين لسلوكها، وتريد أن تؤثر فى هذا الإدراك، فهذا المستوى من الشعور بالذات قد لا يسمح للماعز الجبلى أن تنظر فى أحـدى المـرايا، وتفكـر: "هذه هى أنا" غير أنها قد تثبت الشعور بالذات مع ذلك. والوعى بالذات ليس بالضرورة وعياً بكل شيء أو عدم وعى على الإطلاق.

الحياء والتواضع والإحراج

الحياء والإحراج، تُعتبر أيضاً من انفعالات الوعى بالذات فهى خاصة بعدم رغبة الحيوان فى أن يظهر بصورة سيئة أو عدم رغبته فى الظهور على الإطلاق. وقد أظهرت غوريلا الإشارات كوكى لمحة مؤثرة من الإحراج. إذ توجد بين لعبها عرائس ودُمَى. ولقد شُوهدت فى إحدى المرات تُشير بمعنى "قبلة" لعروستها التى تمثل القاطور. وفى مناسبة أخرى، أشارت كوكى بما يعنى "قبلة" لغوريلّتها الزرقاء التى تمثلها دُمْية. ثم أشارت "قبلوا ودغدغوا" مغلقة الباب واضعة الدُّمَى معاً، وجعلتها تتصارع، وأشارت "حسن، ياغوريلا، حسن" وفى كل مناسبة، أو غيرها من المناسبات المشابهة، كانت تتوقف عن اللعب فى اللحظة التى ترى فيها أنها موضع مشاهدة.

ولا ترتدى الحيوانات ملابس لإخفاء أجزاء من أجسادها يعتبرها البشر فى الكثير من البيئات الثقافية أجزاء يتحتم على البالغين إخفاؤها، كما لا تحاول الحيوانات إخفاء الكثير من الأفعال التى تشبه أفعالاً يفضل البشر إخفاؤها. ولا يعنى هذا بالضرورة أنها ليست لديها ما تخفيه أو تجعل منه أمراً خاصاً. ويمكن أن نضرب مثلاً لتودُّد طير أسير لأنثى.

وهناك مثال أليكس الببغاء الأفريقى الناجح لغوياً. فطبقاً لما تقوله أيرين بيبرسبيرج، أنها حاولت التودد إلى الكثير من طلبتها من الذكور. قد تتقيأ أليكس بعض الطعام وتؤدى رقصة طقسية. وتقول بيبرسبيرج: "عندما تتودَّد إلىَّ إحدى طلبتى وأدخل عليها، تتوقف فى الحال". وربما تحس أليكس بالإحراج. وقد تكون، من ناحية أخرى، لا تطمع سوى فى بعض من الخصوصية، فلِمَ تريدها؟ ربما تحاول تجنُّب المنافسة. فهل هى تستحيي، وفى الحياء ظل من الخوف. الخوف من أن يرى المرء، وقد يتضح أن هناك علاقة بين الحياء والخوف.

إن جوهر الخجل هو الشعور غير السار الناتج عن رؤية فرد فى حالة سيئة، كالضعف والقذارة والضآلة والعجز وقلة الحيلة، وكذلك هو أيضاً الذعر من أن يبدو المرء على هذه الصورة. عند النظرة الأولى، ليست هناك حاجة إلى أن يكون الخجل مرتبطاً بالخوف. ففى إحدى المحميات البحرية، (حيث لم تُعاقب الحيوانات

قط) كان أحد درافيل أبى زجاجة يسمى ويلا، يتدرب على القفز خارج الماء ويأخذ سمكة من يد أحد الأشخاص. وذات يوم، حين كان العمل الاستعراضى يجري، تشتت انتباه المدربة كارين برايور، فنسيت أن تسقط السمكة كما كانت تفعل عادة. ونتيجة لذلك، حين أمسك ويلا بالسمكة، عض دون سابق إنذار، يد برايور. فذهب ويلا وقد بدا عليه "حرج قاتل" إلى عمق الصهريج ووضع أنفه فى أحد الأركان وأبى أن يخرج حتى دخلت برايور معه، وطيَّبت خاطره حتى هدأ. ويمكن مقارنة سلوك ويلا بسلوك أحد الكلاب ينبح ويهدد شخصاً ما قادماً إلى المنزل ــ فإذا به يدرك فجأة أن هذا الشخص القادم هو صاحب البيت. فيتحول الكلب من مخلوق ينبح ويهدد، وتهبط عُنجهيته إلى جرو يصدر صفيراً خفيفاً ويهز ذيله. ولطالما قيل إن هذا العكس المضحك للسلوك فى كلب كهذا لا يعنى الشعور بالإحراج، وإنما هو سعى لاسترضاء حيوان مسيطر ــ وهو ما يشبه، أكثر ما يمكن الشعور بالإحراج، وهو شكل من أشكال الخجل. إذ شُوهدت الشمبانزى واشو وهى تقع فى خطأ مشابه وهى تهدد صديقاً قديماً (قد نما فزاد أربع أو خمس بوصات منذ التقيا آخر مرة)، مما جعلها فى أول الأمر لا تدرك من هو، فتصرفت بما يمكن أن نطلق عليه إحراج لو أن واشو كانت من البشر. ربما يقول المرء، إن سلوكاً كهذا إن هو إلا خضوع طقسى غير أن نفس هذا الوصف يمكن تطبيقه على اعتذار إنسان محرج.

ويقول مدربو الكلاب فى مشروع الكلاب المرشدة للمكفوفين، إن الكلاب المسنة التى فقدت السيطرة على البول والبراز يبدو عليها الشعور بالإحراج أو الخجل. حيث رفضت كلبة تبلغ من العمر ستة عشر عاماً الدخول إلى المنزل كما اعتادت، رغم أنها ما عدا ذلك كانت سليمة وفى حالة جيدة.

ويتجنب أحد النصوص التى تتناول سلوك الحيوان الاعتراف بانفعال الحيوان؛ وذلك بالإصرار على القول: "بالتأكيد من المقبول أن كلبنا سيئ السلوك يتصرف وكأنه محرج. ولا يوجد أى أساس كليةً لأن نقول إنه محرج، رغم التسليم باحتمال وجود الانفعالات عند الحيوانات".

احمرار الوجه

إن احمــرار الوجــه، حياءً، يُعدّ دليلاً على الخجل بين الناس. ويبدو أن تشارلز داروين كــان محاطــاً بأناس يشعرون بالحياء لدى أقل استفزاز، رغم أنه درس ظاهــرة الحياء دراسة وافية. ولقد لاحظ أن الحياء عادة ما تصحبه علامات أخرى مــن الخجل، مثل تحويل العينين، أو الجسد كله. ولقد واجه صعوبة فى تفسير قيمة هــذه الظاهــرة، ففسرها تفسيراً متأثراً، إلى حد ما بــ"لامارك". إذ قال: "إن البشر يعتنون بمظهرهم الشخصي، كما يهتمون بآراء الآخرين. فحين يحس الناس بانتباه أحــد لهــم، وخاصــة حيــن يكون الانتباه نقدياً، فهذا ينشط ذلك الجزء من مركز الإحســاس فى الدمــاغ الذى يتصل بأعصاب الوجه الحسية، ثم يُحدث هذا رد فعل من خلال نظام حركة الأوعية على شعيرات الوجه. وعن طريق تكرار هذه العملية عــبر أجيــال لا حصر لها، تصبح عادة.. حتى إن مجرد الشك فى الحط من شأن الشخص يكفى لإرخاء الشعيرات، دون أى تفكير واعٍ بوجوهنا".

وبعــد أن سأل فرويد الإرساليات المستقرة فى أماكن مختلفة فى العالم، عن هذا الموضوع، استنتج أن الناس من جميع الأجناس تتورد حياءً، وأنه شيء لا يُكتسب بالتعــلُم، لأن مــن وُلــدوا مكفوفين تحمر وجوههم. (تتناقض هذه البيانات مع من يدافعــون عــن العــبودية، الذين زعموا أن الزنوج لا يتوردون حياءً، لأنهم غير قــادرين على الإحساس بالخجل ومن ثَمَّ فهم ليسوا بشراً بالمعنى الكامل). ولقد قال عــن الحياء إنه "أكثر التعبيرات الإنسانية غرابة وأكثرها إنسانية. فالقردة تحمر من الانفعال، غير أننا فى حاجة إلى قدر كبير من الأدلة يجعلنا نعتقد أن فى مقدور أى حيوان أن يحس بالإحراج".

ربما شعر داروين بالاهتمام لو كان قد عرف أن حيوانات أخرى يمكن أن يكسو جلدها الاحمرار. ذلك أن أذنى الشيطان التازاماني(*) فى حديقة حيوان فرانكفورت احمــرتا "أثناء حالة من الإثارة". وبعض الطيور يغلبها الحياء، كما يمكن أن نرى فى أجــزاء الجــلد غير المكسوة بالريش. فالطيور آكلة العسل ذات الترتر اللامع وكذلــك آكلة العسل الدخانية، لها زوائد لحمية خالية من الريش يظهر عليها الحياء

(*) التازاماني: حيوان جرابى صغير من أكلة اللحوم.

مثل الديوك الرومى "حين تستثار"، والمقاو(*) التى لديها جلد عارٍ على خدودها يمكن أن تُرى وهى تحس بالحياء. وهى تفعل ذلك، حين تستثار أو تغضب. وحسب ما تذكر عالمة سلوك الببغاوات ماتى سو أثان، أن الببغاوات قد شوهدت وهى تفعل ذلك إذا ما سقطت عرضاً، وهى تنزل من فوق إحدى الأشجار. ومن المؤكد أن هذا يشبه الإحراج. ومن ناحية أخرى، قد تشعر المقاو بالإحراج عندما تسقط، وقد يتضح أنه من الصحيح أن البشر هم الحيوانات الوحيدة التى تحس بالحياء بشكل واعٍ. فالبشر خالون، على غير المعتاد، من الفراء أو الريش، وغير ذلك من أنواع الغطاء، فى نهاية الأمر؛ لذا يكون إحساسهم ظاهراً للعيان.

ومن ناحية أخرى، ربما لا تكون وظيفة احمرار البشرة ظاهرة مرئية. إذ يحس الكثير من الناس بلذعة فى الجلد – والخجل – دون أن يبدو عليهم الاحمرار. ذلك أنه إذا احمر الناس حياءً وأصابهم الشحوب، واصفرَّ لونهم أو أزرق كما تحكى الروايات، فإن المجتمع سيصبح مكاناً أكثر تعدداً من حيث الألوان. وربما تشعر الكثير من الحيوانات بالحياء دون أن يلاحظها أحد. ذلك أن أحداً لم يفحص جلد الراكون ليرى ما تحته من قشعريرة موت، أو توهُّج بالفخر. ومن غير المعروف هل تحمر أجزاء جسد المقاو، أو هل تحس الببغاوات بالحياء تحت الريش. لكنه حتى لو لم يكن ذلك يحدث، فهذا لا يعنى بالضرورة أن عدم احمرار جلدها ناشئ عن عدم إحساسها بالخجل.

ميزات الخجل

لو تأكد لنا أن الخجل واسع الانتشار فى المملكة الحيوانية، فإن المنهج الارتقائى قد يتنبأ بأن له ميزة ما. لكن المقابل لاتهام الذات عند البشر فى المملكة الحيوانية لا يظهر بسهولة.

يبدو أن انفعالات الشعور بالذات تظهر فى وقت مبكر فى حياة البشر. ففى إحدى سلاسل التجارب، أعطى الباحثون الأطفال الصغار لعباً مصممة بخبث بحيث تتفكك، ثم صوروا لعبهم عن طريق الفيديو. وحين كانت إحدى اللعب تتحطم، كان

(*) المقاو: قرد أمريكى ضخم طويل الذيل.

بعض الأطفال يبكون، وكان البعض الآخر يبحث عن لعبة أخرى، وكان يبدو على البعض الخجل أو الشعور بالذنب. إذ كان بعض الأطفال ينظرون بعيداً، و"تنهار" أجسادهم فيما يُعتبر استجابة دقيقة للتعبير عن الخجل. فالطفل الذى بدا عليه التوتر، وحوّل نظره، ثم حاول بعد ذلك أن يصلح اللعبة، كان رد فعله يُفسر بالشعور بالذنب. وكانت هلن بلوك لويس ــ وهى من المنظِّرات البارزات في مجال الخجل ــ تعتبر الخجل البشرى والشعور بالذنب من عوامل ضبط التفاعل الاجتماعى التى تقاوم النرجسية وتعاقب الشخص على تعدياته على أخلاقيات الجماعة. فالحياء يعطى إشارة إلى أعضاء الجماعة الآخرين بأن الشخص آسف. ولا يعتبر الطبيب النفسي دونالد ناثانسون الخجل انفعالاً اجتماعياً. ويذكر تجربة استطاع فيها أطفال يتراوح عمرهم ما بين الثلاثة والأربعة شهور أن يتحكموا فى عرض وميض الأضواء الملونة عن طريق إدارة رؤوسهم. على ما يبدو كان الأطفال يحبون فعل ذلك، وكانوا يصيحون فى بهجة كلما أضاءت الأنوار. وحين قام من أجروا التجربة بتغيير الجهاز بحيث تفشل جهود الأطفال الصغار، طأطأوا رءوسهم وانحنت رقابهم وزادت سرعة تنفسهم، وازداد تدفق الدم إلى جلدهم، ففسر ناثانسون وغيره من المنظِّرين هذا على أنه رد فعل بدائي للشعور بالخجل، وهو مستقل عن وجود أشخاص آخرين أو غيابهم، ومن ثَمَّ يجادلون بأن الخجل ليس بالضرورة انفعالاً اجتماعياً. (وليس واضحاً كيف يمكن أن نستبعد خيبة الأمل والإحباط باعتبارها تفسيرات محتملة). يقول ناثانسون: "يُعد الخجل نظاماً بيولوجياً يتحكم به الكيان العضوى فيما يخرج عنه من سلوك مؤثر بحيث لا يظل الكائن العضوى راغباً فى شيء أو راضياً عنه، فى الوقت الذى يتحتم عليه أن يتجنبه، أو لكى لا يستجيب عاطفياً مع كائن يختلف عن الأنماط التى يحتفظ بها فى ذاكرته". ويعتقد ناثانسون أنه شعور حديث العهد نسبياً.

أما عن ميزات اتهام الذات، وهو شعور عام، فإن ناثانسون يجادل قائلاً: "لو فُرض أنك ستصمم نظاماً قادراً على التعلم بالتجربة (الخبرة) وتعليم نفسه، فيمكن أيضاً تزويده بالمقدرة على تكبير الفشل. فالخجل يضيف إلى ذاكرة الفشل، ويحمينا من أى خطر عندما نكون فى لحظة احتياج، ونجرب شيئاً خارج نطاق قدرتنا".

وثمة إمكانية أخرى، وهى أن الخجل قد يحمي الحيوانات من اجتذاب انتباه الضواري. ويشعر البشر بالخجل ليس فقط من أخطائهم الفعلية أو المتخيلَة، وإنما فى الكثير من الأحيان، يخجلون من اختلافاتهم مع الآخرين. ولو كانت هذه الفروق لا تأثير لها أو حتى إيجابية. فالمرء يفقد أعصابه إذا حملق الآخرون فيه، حتى لو كان هذا النظر مبعثه الإعجاب. وغالباً ما لا يحس الناس بالراحة حين يمدحهم أحد. فالتركيز على المرء وانتقاؤه بأية طريقة يمكن أن يكون محرجاً بشكل حاد – وقد يُشعر أيضاً بالخطر.

فالضوارى تستخير الفريسة. وبعض الضوارى تختار الفريسة على أساس من الحالة الجسدية، وهكذا تنتقى الحيوانات المريضة أو الجريحة، بالإضافة إلى الحيوانات الصغيرة. إذ قد تدرس قطعان من حيوانات الفريسة، وتطاردها وتبذل جهداً شاملاً لتصطاد القليل منها فقط. إذ كشف فحص لنخاع عظام ثيتل كانت الأسود قد قتلته، أن نسبة مئوية كبيرة كانت فى حالة سيئة. والضباع حين تصطاد تمر بشكل عشوائى على القطعان، أو تقوم بالالتفاف حولها بشكل حلزونى ثم تتوقف وتشاهدها وهى تجري، فتحول انتباهها من حيوان لآخر، على ما يبدو بحثاً عن ناحية ضعف محتملة. إذ وجد أحد من يجرون التجارب عند محاولته وضع علامات على الثياتل بعد تخديرها بسهام، أن عليه التزام الحذر، وإلا فإن الضباع ستقتل هذه الحيوانات على الفور، حالما يطلقها. فبالرغم من أنها بدت عادية للبشر، وبدت قادرة على الجرى كالمعتاد، إلا أن الضباع لاحظت فرقاً. فكان عليه أن يشتت الضباع بعيداً بمركبته حتى يمنح الثياتل مزيداً من الوقت؛ لتسترد أنفاسها.

كما تلاحظ الضوارى فروقاً أخرى. إذ وضع أحد الباحثين علامات فى إحدى المرات على بعض الثياتل؛ وذلك بطلاء قرونها باللون الأبيض. وفى خلال بضعة أشهر كانت الضباع قد قتلت معظم هذه الحيوانات. ولاحظ هانز كروك أمثلة طاردت فيها الضباع حيوانات يُفترض أنها فى حالة جسدية جيدة غير أن تصرفاتها كانت غريبة فرصدتها الضباع. وفى الليل حين تبرق أضواء السيارة الأمامية، أمام الثيتل، فإنه يجرى بطريقة غريبة. وعلى الفور تطارده الضباع. وعندما تبتعد الثياتل عن أضواء السيارة، فإنها تجمع صغارها بسرعة وتفر.

كمـــا رأى كــروك قطيعــاً يتألف من عدة مئات من الثياتل، كان بينها واحد فقط يـــتدحرج ويقترب فى جريه من الأرض. فسرعان ما جذبت هذه الأفعال (التى لا تســتحق الملاحظـــة فى ســياق آخر) أحد الضباع؛ مما جعله يطارده. وفر الثيتل بســهولة. وفرار الثياتل فى هذه الأمثلة، يؤيد الفكرة القائلة بأن الضباع تتبين فرقاً غير الضعف.

إن سلوك القطيع يمكن أن يخدع بعض الضوارى بشكل غاية فى البساطة: وذلك بمــنعها مــن الــتركيز على فريسة معينة بمفردها فحين تصبغ بضعة أعضاء من سرب من السمك الفضى باللون الأزرق، فهى لا تتعرض فقط للمزيد من الهجمات المــتكررة من جانب الضواري، وإنما تهاجم أيضاً الأسماك العادية الفضية القريبة مــنها. وحين عثر الحيوان الضارى على سرب من السمك المتطابق، لم يستطع أن ينتقى أحد أفراده؛ غير أنه تمكن من التقاط سمكة زرقاء أو السمكة التالية لها.

وغالــباً ما تبدو حيوانات الافتراس واعية بتقييم الضواري. ففى زائير، رأى بول ليهــاوزن ظــبيين كبيرين يبدو عليهما القلق بالقرب من أحد الأنهار. وعلى الفور رأى أســدين يتلكآن بالقرب من الظبيين، وهما يتحركان من خلف إحدى الشجيرات إلى شــجرة أخــرى. وبدا أن الظبى الأكثر قرباً من الأسدين يزداد هدوءاً وبدأ فى قطـــع العشب، أما الآخر فأخذ يجرى إلى الأمام وإلى الخلف فى انزعاج. وسرعان مـــا اتضـــح مـــن حركتيهما، حسب رأى ليهاوزن، أن الأسدين كانا يبغيان الظبى الأكــثر بعــداً، وأن كـــلا الظبيين عرف ذلك معرفة جيدة قبل أن يتصور المراقب البشـــرى أن الأســود ليســت مــتجهة إلى أقرب فريسة. ويبدو أيضاً أن حيوانات الافــتراس قادرة على أن تحدد متى تكون الضوارى فى عملية القنص ومتى تكون منكبــة على عمل آخر يختلف اختلافاً كبيراً، وهى تُكيف مسافات عَدْوِها طبقاً لتلك المعــرفة. إن الرغــبة فى إخفاء الضعف والاختلاف - سلوك ناتج عن الخوف أو كــراهية الافتضـــاح، ممـــا يمكن أن يؤدى بالحيوانات إلى اتخاذ إجراءات لتجنُّب الافــتراس. إذ يمكـــنها أن تتصنَّع القوة، وتقلل من الاختلافات الموجودة بينها، أو تختفى بعيداً عن نظر الضواري.

وليســت الضـــوارى هى المخلوقات الوحيدة التى يمكن أن تنتهز فرصة ظهور الحيوانـــات بمظهـــر ضـــعف. فجميع الحيوانات من نفس النوع من الوارد جداً أن

تكـــون متأهبة لإشارات تدل على مثل هذا الضعف واستغلاله. وحين أُطلقت السهام المخـــدرة على الأسود فى سيريلانكا، انتهزت بعض الأسود الأخرى هذه الفرصة لـــلهجوم عـــليها (ولم ينجح فى إبعادها سوى الباحثين). وهكذا، فإن الخجل قد يدفع بالحيوانات إلى إخفاء ضعفها عن أعضاء نفس قطيعها أو جماعتها. فإذا بدأت الرنة (نـــوع مـــن الغـــزال غريب المنظر فى شمال أمريكا وسيبيريا) ضعيفاً أو أعرج، فسيكون أول من يتعرض للهجوم فى القطيع من جانب الذئاب، غير أن الذئب الذى يـــبدو ضعيفاً، أو مريضاً قد يفقد مكانته بين الجماعة. وقد تكون لهذا الوضع تبعات خطيرة فيما يتعلق بالنسل.

فـــإذا كـــان مقدراً لحيوان ما أن يبقى، فلا يكفى أن يكون لائقاً بل يجب أن يبدو كذلـــك. ذلـــك أن الإحساس بالخجل ، وهو تجربة قاسية، قد يبرهن على أنه سبب انفعالى لإخفاء العجز.

فالمـــرض والجـــرح غالـــباً مـــا يتم إخفاؤهما. لذا؛ فإن ما يشغل مربى الحيوان والأطـــباء الـــبيطريين، أن الكثير من الحيوانات الأسيرة تبذل قُصارى جهدها فى إخفـــاء جميع علامات المرض إلى أن تبلغ أقصى حد من ضمان الأمان. والطيور، بصـــفة خاصة، بارعة فى ذلك، ذلك أنها أحياناً ما تخفى جميع الأعراض وتتحمل فى كـــتمان إلى أن تـــأتى الـــلحظة الـــتى تســـقط فيها، بالمعنى الحرفي، من فوق الأغصان.

والغـــزال الأحمر الاسكتلندى يغادر القطيع حين يُصاب بالمرض أو يُجرح. وقد قيـــل إنـــه يفعـــل ذلـــك لصـــالح القطيع، غير أنه ربما كان من الصعب أن تحدد الضـــوارى مكـــان الغزال الوحيد، عما قد يحدث مع القطيع من الغزلان – وإذا تم تحديـــد موقع قطيع منها، فمن المحتمل جداً أن تكون الغزالة الجريحة أو المريضة هى أول مـــا يُهـــاجم. وإذا تحقق الشفاء لغزالة، فإنها تعود إلى القطيع. وإذا كانت الضوارى تعتمد على الاختلاف وليس مجرد الضعف، فقد تحس الحيوانات بضعف موقفها أو تحس بالخجل من الأشياء التى قد تلفت نظر الحيوانات الأخرى.

قـــد يبدو غريباً أن يؤدى الخجل إلى ظهور الاحمرار. وقد يبدو ذلك ضد صالح الحيـــوان مـــن حيث التناسل؛ فالاحمرار الملحوظ أو الإحراج الظاهر على الجسد

ليس مظهراً جميلاً؛ أليس الهدف أن يبدو الحيوان جميلاً أو على الأقل متميزاً؟ لكن وخـــزة الاحمرار يمكن أن تعطى إشارة لمن يستشعرها بالاختفاء (أو إخفاء شيء)؛ ممـــا يؤدى إلى إخفاء موطن الضعف الأساسى الذى كان مبعثاً للخجل؛ لذا فأغلب الحيوانـــات لا يعلو بشرتها احمرار مرئي، إن لم يكن كلها، ولذا يزعم الإنسان (أو الـــبعض) أنه متميز عن باقى الكائنات بحمرة الخجل الواضحة، ولو لم يثبت حتى تفرده فى الشعور بالخجل.

وكثيراً ما يقول مالكو الحيوانات المدللة، إن كلبهم أو قطتهم تكره أن تكون مبعثاً للضـــحك. وذكر حراس الأفيال أن الأفيال التى تجد نفسها مثاراً للضحك، تستجيب بمـــلء خـــرطومها بالمـــاء وتغمـــر من يتهكمون عليها. وقد يبدو أمراً غريباً أن حيوانات لا تضحك يمكنها أن تتعرف على الضحك وتمقته. ولكن ربما كان لازماً اعتبار الضحك تعبيراً يعادل شيئاً تحس به بنفسها، وتستطيع ترجمته أفضل منا.

الذنب

إن الشعور بالذنب والندم على فعل معين – قد يكون أصعب فى بحثه من الخجل. ذلـــك أن الفعل المشوب بإحساس بالذنب، عادة ما يكون كذلكَ لأن ثقافتنا علمتنا أنه فعل خاطئ. ومن السهل الخلط بين الشعور بالذنب والخوف من الاكتشاف وما يتبع ذلك من استهجان أو عقاب. فكما رأينا أن الشمبانزى نيم تعلم علامة "آسف" وكان يســـتخدمها حين "يسئ التصرف"، تماماً كما قالت أليكس الببغاء: "إنى آسفة" بعد أن عضـــت مدربـــتها. إن أمثـــلة أفعال نيم السيئة التى ذُكرت مثل كسر إحدى اللعب والتقافز حول المكان أكثر مما ينبغى – لا يبدو أنها أشياء يعتبرها الشمبانزى سيئة بالطبع. لقد عرف أنها سوء سلوك مثلها مثل البشر الأطفال وهذا لم يحدث إلا لأنه تعلم ذلك. وأحياناً كان نيم يشير "آسف" قبل أن يلاحظ معلمه ما بدر منه. أما مسألة إحساس نيم بشيء غير الأشياء التى قد تثير غضباً، فتُعدُّ مسألة غير واضحة. لكن هذا غير واضح فى حالة البشر أيضاً.

لقـــد كان ابن واشو المُتَبنَى، لوليس، يشاكس روجر فوتس، فى أحد الأيام، "لأنه كـــان حيوانـــاً متعباً" فلكزه بقوة أكبر من المعتاد، جارحاً فوتس بظلفه. قال فوتس: "فضـــخَّمت الأمر، وأخذت أصيح وما إلى ذلك. فيما بعد، كلما أشرت إلى موضع

لكـــزته، كى أجعلـــه يحـــس بالذنب، فكان يغمض عينيه بشدة ويحول رأسه بعيداً. ودأب عـــلى رفـــض النظر إلىّ كلما حاولت أن أُبين له ذلك الخدش الذى طال به العهـــد أو أتحدث عنه". وتوجد تنويعة من التفسيرات الممكنة لهذا السلوك المألوف بشكل غير عادي، غير أن الذنب يُطرح بقوة.

يـــرى أغـــلب الناس، أن الكلب أكثر الحيوانات شعوراً بالذنب. إذ جادل ديزموند موريس بشكل مقنع أن الكلاب تشعر بالندم على أفعالها فى بعض الأوقات. ويقول موريـــس، إنـــه حينما يُحيِّى كلب، ارتكب عملاً سيئاً، إنساناً فهو يتصرف بطريقة خاضـــعة قـــبل أن يتوافر للشخص أى سبب لتخمين ما حدث، ولا يمكن القول إنه يحصل على مفاتيح من سلوك البشر. لكن "لديه فهم بأنه قد فعل شيئاً ما خطأ".

لقـــد اعتُـــبر الخجل حديثاً فقط ميداناً جديراً بالدراسة. إذ يروى دونالد ناثانسون كيـــف أنـــه نظم – فى وقت مبكر من حياته العملية – ندوة تتناول الخجل. وحين انـــتهت، أخـــذه أحد الأصدقاء جانباً، وأثنى عليه بسبب نجاح الندوة، وألح عليه ألا يقـــوم بالمـــزيد من العمل فى موضوع الخجل، حتى لا يُشتهر ذلك عنه. "فى هذه الـــلحظة، بالذات، علمت أن فكرة الخجل نفسها مصدر إحراج لمعظم الناس"، كما يقـــول ناثانسون. فهذه انفعالات ينبغى كتمانها. وربما نجحت الحيوانات فى إخفائها عن أعيننا.

وعندما يجعل الشمبانزى الصغير من نفسه أضحوكة، كما فعل فرويد فى الحادثة التى روتها جين جودال، قد تسخر منه الشمبانزى الأخرى، وتلفت انتباه رفاقها لهذا الموقف، وتبالغ فى ردود أفعالها. ولا يوجد دليل واضح على أنها فى الواقع تتهكَم عـــلى بعضها البعض بهذه الطريقة، ومن ثَمَّ، فهى تختلف، فى ذلك عن الحيوانات البشرية.

الفصل العاشر

الجَمَال، والدِّببَة والشمس الآفلة

فى أحـــد الأيام، فى فترة بعد الظهيرة، أثناء ملاحظة أحد الطلاب للشمبانزى فى محمية جومبي، أخذ استراحة وتسلق إلى حافة قمة كى يشاهد غروب الشمس فوق بحيـــرة تانجنيقا. وبينما كان الطالب جيزا تليكى يجلس، لاحظ واحداً من الشمبانزى ثـــم آخـــر يتسلقان نحوه. ولم يكن الذكران البالغان معاً ورأى كل منهما الآخر فقط حيـــن وصلا إلى قمة الحافة. ولم يريا تليكي. فحيَّا القردان بعضهما بعضاً بلهاث، وتشـــابك أيـــادٍ، وجلســـا معاً. وفى صمت أخذ تليكى وقردة الشمبانزي، يشاهدون الشمس وهى آخذة فى الغروب، وشاهدوا الشفق.

لا يُعـــرف الإحســـاس بالجمال باعتباره أحد الانفعالات. لكنه لا يبدو كأنه تجربة عقلية بحتة. فأحياناً ما يجعل الجمال الناس سعداء، كما يجعلهم أحياناً تعساء، فربما كانت التجربة معرفية، من ناحية، وانفعالية من ناحية أخرى. ومن المؤكد أن البشر آثروا نسبتها لنوعنا دون غيره من الأنواع.

وبعـــض الذيـــن شـــاهدوا الغروب فى الطبيعة الطليقة يتحدثون عن القردة وهى تجلس عند الغروب، وهى تحملق فيها، ويبدو عليها أنها غائبة فى حالة من حالات الـــتأمل. وتشـــهد كل الظواهر أن الدببة تستمتع بالغروب، وتستمد لذة من التجربة الجماليـــة. ويضحك العلماء من سذاجة هذا التفسير. إذ كيف يكون الدب قادراً على الـــتذوق الجمـــالي، والحالة التأملية، فى حين يعتقد بعض علماء الجمال أن بعض البشـــر عاجـــزون عـــن ذلك أو ما يماثله من شعور بالغ الرقي؟ وزعم الكثير من

عـــلماء القرن التاسع عشر أن الأجناس "الأدنى" ليس فى مقدورها الاستمتاع بنفس الانفعـــالات الجماليـــة، حتى إنهم (يرون أن **البعض** فقط ممن يمكن اعتبارهم من الأجناس "العليا" هم القادرون على ذلك). ومما لا شك فيه أن المرء يمكنه أن يذهب إلى أبعد من ذلك فى هذا الصدد، بأن يصغى – على سبيل المثال – إلى دب يرسل زفيـــراً ويـــزعم أنه يتنهد من الحزن العميق والوعى بزوال الأشياء؛ مراقباً عالمه ومفكـــراً أنه لن يعيش حتى يشاهد جمالاً كهذا – وكأنه شاعر على هيئة دب. ومن المســـتحيل تقريباً إثبات وجود وعى لدب فى أية لحظة بالفَناء، أما إثبات الإحساس بالجمـــال فهو أكثر يسراً. ما الذى يحتّم وجود الإحساس بالجمال عند أى مخلوق؟ لقـــد ادّعى الـــبعض أن الإبداع الإنسانى الفنى يستمد جذوره من الاستكشاف. ربما يكافئنا الإحساس بالجمال على أننا نشق طريقنا فى العالم موجهين أحاسيسنا نحوه. إن إحساســـنا بجمال أطفالنا وغيرهم ممن نحبهم، له قيمته. وبمعنى أوسع، قد نكون تطورنـــا فأصبحنا نرى العالم من حولنا جميلاً، ولكى نستمتع وأن نمتع النظر به، ونصغى إليه ونستنشقه ونحن نتحرك فيه، نتحسسه ونتذوقه. ربما كان ذلك لا يخدم أى غرض أكثر من مجرد الرضا الذى ينبعث من داخلنا، وهى قيمة فى حد ذاتها. وقـــبل أن يجـــد الحيوان أى جمال فى مجموعة من الحواس، أو الصور، لابد أن يـــتمكن مـــن إدراك هـــذه الأشياء بشكل فيزيائي، أى أن يراها وأن يدركها إدراكاً حسياً. وهناك فهم ضئيل بأحاسيس الحيوانات غير أنها تبدو شديدة التنوع.

وكـــثيراً ما يُقال إن الحيوانات، أو بعضها مصاب بعمى الألوان. ولقد أخذ الناس يرددون هذا الاعتقاد المناقض للحدس بشكل غريب وعلى نطاق واسع وكأنه حقيقة علمية، حتى وجدت طريقها إلى متون الكتب. وبالرغم من المقالات التى لا تُعدّ فى الصـــحافة العلمية والشعبية التى تتحدث عن الإبصار اللونى لدى الحيوان (بما فيها الكـــلاب)، فـــإن فكـــرة أن الحيوانـــات تميـــز الألوان مازالت تُوصف كثيراً بأنها "أسطورة".

والبشـــر يتمـــتعون بالفعل برؤية ممتازة. ومن بين الكثير من المخلوقات العليا، يصنفنا علماء البصريات بأننا ثلثصبغيين(*)، وهذا يعنى أننا نبنى مجال الألوان التى

(*) ثلثصبغى: ثلاثى الألوان.

نـــراها مـــن ثلاثـــة ألوان أساسية. فالشخص والقرد يمكنهما أن يريا بالضبط نفس الألـــوان حيـــن ينظران إلى الشمس الآخذة فى المغيب. والكثير من الثدييات، مثل القطـــط والكلاب، ثنائية اللون، أى تستخدم لونين أساسيين. فهى ترى باللون، رغم أنهـــا لا ترى بدرجة التنوع التى يرى بها البشر. وقليل من الحيوانات الليلية، مثل الفـــئران، قد تكون مصابة بعمى الألوان. وتستخدم بعض الطيور أربعة أو خمسة ألـــوان أساســـية، فـــلربما يرجع هذا إلى أن رؤيتها اللونية أفضل من رؤيتنا. ولقد عُـــرف لعقـــود أن بعـــض الحشرات يمكنها أن ترى الأشعة فوق البنفسجية، ولقد اكتُشِـــف حديـــثاً أن بعض الطيور والأسماك والثدييات يمكنها ذلك أيضاً. ويستطيع نوع واحد، على الأقل، من الطيور، وهو الطائر الأسترالى ذو اللون الفضى – أن "يرى" أى يميز، بمجالات العين المغناطيسية.

فـــلو كـــانت الحيوانات دون رؤية لونية، فما فائدة وجه الرباح زاهى اللون، أو ردفه أو ذيل الطاووس؟ مع أنه حتى بين أولئك الذين يسلمون بقدرة الطاووس على تمييـــز ألوان الريش، فإنه يوجد بعض منهم يجادلون بالقول بأن من غير المستبعد أن يـــتذوق هذا الطائر تلك الألوان. ولقد ورد فى كتاب حديث فى التاريخ الطبيعى لغيـــر المتخصصين: وما ذلك الشيء الذى يتمتع به الطاووس بحيث يجعل الأنثى فى حالـــة مـــزاجية للتناســـل، هل هو الألوان التى تشبه قوس قُزَح؟ أم هو الشكل الرشيق؟ أم البقع التى تشبه العيون؟ فى واقع الأمر، فإن ما يغرى البشر قد لا يؤثر أدنى تأثير على أنثى الطاووس. وبدلاً من ذلك، فإن مجرد حجم الذيل المروحى فى حد ذاته هو المظهر الذى لا يمكن لأنثى الطاووس مقاومته فى الذكر. أى أنه لو أن طائـــراً له ذيـــل مروحى كبير كُتب له البقاء إلى أن وصل إلى سن التناسل بالرغم من إعاقته التى تصعب السيطرة عليها، فلابد أن يكون قوياً وصحيح الجسم. وبنفس الطـــريقة قد لا تُقدِر الإناث الريش الملون لما به من جمال، ولكن لأن اللون اللامع يـــبين أن الطائر خالٍ من الطفيليات. وتحصل الإناث التى تستطيع تحديد مكمن هذه الخصال المتفوقة، على مكافأة بنقل جيناتها إلى نسلها بحيث تعنى أن "أباها المُعوَّق" سيبقى ويتناسل. إلى أى مدى يمكن أن يُحمل هذا محمل الجد؟ أما الفكرة القائلة بأن الدجاجـــة ذات الريش اللامع لا يمكن أن يجذبها الجمال، من ناحية، لكنها، تستطيع مـــن ناحيـــة أخـــرى الـــتفكير بمنطق: "إن الريش اللامع يعنى حملاً منخفضاً من

الطفيليات ــ لذا سأتناسل مع هذا الذكر حتى تستفيد أفراخى من جيناته"، فهى فكرة مستبعدة جداً. وإذا استندنا على هذه المزاعم فى الاستدلال على قدرة الدجاجة على الخروج باستنتاجات عقلية، لرُفضت على الفور. لكن عدم إحساس الدجاج بالجمال، يتناسب مع تأكيدات تتردد بشكل روتينى فى عالم سلوك الحيوان.

وإذا كنا نرفض فكرة أن الدجاجة تاجر حاسب للجينات، فكيف نفسر ما يحدث من منطلق المنهج الارتقائي؟ فلو كان أقرب الأسباب هو أنها تُعجب بذيل الطاووس لأنها ترى أنه جميل ــ وفى حالة البشر لا يحتاج الأمر إلى عقلية قوية ولا إلى تدريب جمالى واسع لفعل ذلك ــ ثم تتناسل معه، فإن هذا يؤدى إلى المراد من اختيار الذكر الذى تتوافر له أفضل الجينات. ورغم أن البشر يشيرون إلى القدرة الوراثية للآخرين أحياناً، لكن هذا لا يدور عادة فى ذهن الفرد عند خضوعه لشهوة، أو وقوعه فى الحب.

وإذا عدنا إلى قضية أحاسيس الحيوانات، فإن الناس يسلمون عادة بتمتّع بعض الحيوانات بحدّة السمع. ومع ذلك، فلقد تَطلّب الأمر من كارل فريش، الذى اشتُهر كثيراً ببحوثه عن لغة النحل، جهداً كبيراً لإثبات أن السمك يسمع، وذلك فى مقال بعنوان: قزم الصلور(*)، الذى يأتى حين تُطلق صفارة له. ولقد اكتُشف، فى الفترة الأخيرة، أن سمع عدد غير محدد من الأنواع يفوق ما نتمتع به من سمع: فالأفيال تتواصل على مسافات بعيدة بأصوات شديدة الانخفاض بحيث يستحيل علينا سماعها، وإناث النمور شأنها شأن الخفافيش، تمارس عملية تحديد موقع الصدى بواسطة أصوات شديدة الارتفاع بالنسبة للآذان البشرية، وفى حالة الطيور، يصعب إدراك أثر ذلك دائماً. فهى أفضل من البشر بعشر مرات فى التمييز بين الأصوات زمنياً. وهكذا، ففى الفترة الزمنية التى نسمع فيها نغمة واحدة، يمكن للطير أن يسمع عشر نغمات. إذ إنه حين تُدار تسجيلات لتغريد الطيور بسرعة منخفضة، يُكتشف أنها تستخدم هذه القدرة – فى التغاريد التى تحتوى غالباً على تتابعات للنغمات التى تمر بسرعة فائقة على الأذن البشرية. وأغنية العصفور الأسود التى تشبه صوت مفصلة صدئة، قد تبدو مختلفة تمام الاختلاف بالنسبة له. وحين يسمع

(*) الصلور: سمك ضخم له أدوات للمس عند الفم.

الـــناس تغـــريد الطيـــور أو يقلدونه، قد يعجزون عن تأمل هذه الدرجة الكبيرة من التعقيد.

وكـــثيراً مـــا يـــبدو أن الطيور المدللة تستمتع بموسيقى البشر. وقد تفضل أنواعاً معينة من الموسيقى أو تتخذ رد فعل مختلف حسب الموسيقى التى تُعزف. إذ كتب جيرالد داريل عن حمامة مدللة كانت تستمع بهدوء لمعظم أنواع الموسيقى وتجلس فى سَـــكِينة أمـــام الحـــاكي. وحين كانت تعزف موسيقى عسكرية، كانت الحمامة تضرب بقدميها إلى الخلف وإلى الأمام وتهدل بصوت مرتفع، أما بالنسبة لموسيقى الفـــالس، فكـــانت تنثـــنى وتنحنى وتهدل برقة. وأحياناً ما تهز الببغاوات الرمادية أجنحـــتها تعـــبيراً عـــن البهجة حين تسمع أغنيات مفضلة لديها. وإذا ما أخذنا فى الاعتـــبار اخـــتلاف حدة السمع، فإن المرء يتساءل ما إذا كان الكثير من الموسيقى البشـــرية تبدو بطيئة وجنائزية للعصافير، أم أنها تستمع إلى أصوات من الآلات لا يعرف الموسيقيون أنهم يعزفونها.

فالكـــثير من أنواع الحيوان تصدر نداءات مطوّلة ومعقدة يستمتع البشر بسماعها. وســـيكون أمراً غريباً لو كانت الحيتان الحدباء لا تستمتع بموسيقاها الخاصة بها أو كـــانت الذئاب لا تحب صوت عواءها. ولكى نتأكد من صدق ذلك، على المرء أن يتصـــور أن كـــل العناية التي يؤلف بها الحوت الأحدب، أغنيته ويؤديها ويغيرها، ليس لها أى مضمون سلبى أو إيجابى، وما هى إلا وظيفة تواصل لا يحس الحوت بـــأى شيء إزاءها، وأن الحيتان تستمع إلى أغنيات غيرها من الحيتان فقط لتخلص إلى معطيـــات منها. وهذا الرأى يرسم الحيتان وكأنها مخلوقات أكثر فقارية بكثير مـــن الناس، عقل خالص بلا قلب. كما أن نباح الكلاب ليس بإجراء عشوائي، فكما يعـــلم أى شـــخص شـــارك كلـــباً نباحه مع كلب، فإن الكلاب تكيف نباحها حسب الأصوات الأخرى التى تسمعها. فلقد لاحظ هوب ريدن اثنين من القيوط التى تعوى بدرجـــات مختلفة (فحين يصل عواء الذكر إلى درجة تكون الأنثى قد بلغتها، فإنها تخفـــض درجة صوتها على الفور، وحين ترفع صوتك على درجته، يتحول الذكر إلى الصـــوت المســـتعار). ويُعتقد أن مثل هذه الثنائيات تنقل المعلومات إلى حيوان القيـــوط الأخرى أن هناك اثنين من القيوط تعويان، وليس واحداً فقط، وبذلك تشير أن زوجـــاً من الحيوانات المتماثلة حاضر. هذا يبدو أمراً وارداً، ولكنه لا يعنى أن

القيـوط لا تشعر أن العويل يكون أفضل صوتاً بهذه الطريقة. ولا يوجد سبب يمنع من أن آلية الحصول على هذا السلوك المميز هى تذوُّق جمالى لأغنية.

وبالمثل، فإن نداءات الجيبون أو الشق(*) يبدو أنها تخدم وظيفة سيادية، غير أنها قد تنشأ أيضاً من حس موسيقى أو تعرضه. فهى تغرد معاً فى كل يوم. وفى معظم الأنـواع ـ وليـس جميعهـا ـ تختلف نداءات الذكور والإناث. فالثنائيات النغمية يمكـن أن تُغـنى تـلقائياً، أو استجابة لأغنيات غيرها. وفى معظم هذا النوع من الحيـوان، تغنى الذكور أغانى منفردة طويلة وتصدر الإناث "نداءات عالية" رنانة. وغالباً ما ينضم الصغار إلى الغناء.

ذهـب جيم نولمان إلى بنما، ومهنة هذا الرجل هى أن يعزف الموسيقى للحيوانات الطـليقة، وكـان ذلـك عـام ١٩٨٣، ليجـرب عزف موسيقى مع القِرَدة العوَّاءة الأمـريكية، التى تعيش فى جماعات عائلية ولذلك تنادى على نطاق واسع. وكتب نولمـان أن أحد علماء الحيوان "الذى استغرقت دراسته عن الحيوانات العواءة نحو عقـد من السنين" توقع أنها لن تهتم بما يقدمه من عزف ربما باستثناء العويل عدة مرات لتأكيد حقها فى الأرض. وحين وجد نولمان شجرة فوقها طيور عواءة، جلس تحـتها وعـزف عـلى الفـلوت الخاص به من نوع الشوكوهاشى(**) فى البداية، اسـتجابت كل العائلة بعواء مرتفع. ثم بدأ أحد القردة يعوى بين نغمات الفلوت، فى استجابة ظاهرة. وبعد ساعة أنهى حلول الظلام الحوار المتبادل. وفى الأيام التالية، لـم تعو العائلة مع عازف الفلوت، ولكنها نزلت إلى أفرع منخفضة وأخذت تراقبه بانتـباه، رغـم مـا اشتُهر عنها من حياء. وأياً كان ما اعتقدته القردة العواءة فى الموسـيقى الصـادرة عـن فلوت نولمان، فمن الواضح أنها وجدتها أخَّاذة، ورغم عـلمها بأنها غير صادرة عن واحد منها، إلا إنه يحتمل أن تكون قد أحبتها. وحتى لو كانت لم تحبها، فإن هذا يُعتبر رأياً جمالياً.

(*) الشق: قرد رشيق.

(**) آلة تخرج صوتاً أشبه بصوت الصفارة ولا تستخدم ضمن آلات الأوركسترا.

أمـــا مـــايكل، وهو غوريلا فى برنامج لتعلُّم لغة الإشارة، فهو مغرم بالموسيقى، ويســـتمتع بغـــناء مغنى التينور(*) لوتشيانو بافاروتى إلى حد أنه قد عُرف عنه أنه يـــتحيَّنَ الفرصـــة للخروج، عند عرض حفلة لبافاروتى فى التليفزيون. وأنه يحب النقر على المواسير ويحاول العزف على أوتار فى حقائب بالمعمل. ولسوء الحظ، فإن مايكل من القوة بحيث يصعب عليه أن يتجنب كسر أية آلة موسيقية.

ومـــن الأمـــور المجهولـــة تقريباً الدور الذى تلعبه لذة تذوق الطعام، إن وجدت، فهناك أنثى فيل هندية، حبيسة حديقة حيوان صغيرة، وتُدعى سيرى شُوهدت كثيراً وهى تـــدوس برفق على تفاحة أو برتقالة، وتشقها حتى تنقسم، ثم تخلط القطع مع التبن الخاص بها؛ مما جعل حارسها يظن أنها تفعل ذلك كى تعطى نكهة للتبن. إن الفيـــل البرى الطليق يأكل تشكيلة كبيرة من النباتات التى يُفترض أنها ذات مذاقات مختـــلفة. أما نظام الغذاء فى الأسر، فهو أكثر جلباً للملل. كما أن معظم الحيوانات، مثلـــنا لا تحـــب المذاق المر، وتستمتع بالمذاقات الحلوة، وهو تمييز له فائدة تتعلق بالبقاء فى بعض الأمثلة. وقد تكمن بدايات علم الجمال فى مثل هذا التمييز.

وإذا ما قُورن البشر مع الكثير من الحيوانات، نجد أنهم يجهلون الكثير عن مملكة حاســـة الشم. فنحن نملك هذه الحاسة القديمة، غير أنها ليست حادة عندنا، كما أننا قـــلَّما نســـتخدمها عن وعي. ويُعلِم القناصة أنفسهم كيفية تعويض تفوق الكثير من حيوانـــات الافتراس فى حاسة الشم عنهم؛ وذلك بالاقتراب منها من أسفل حيث تقل الـــرياح أو بإخفـــاء الرائحة البشرية بروائح أخرى. وإذا أخذنا فى الاعتبار حاسة الشـــم القويـــة لدى الكثير من الحيوانات، فمن الممكن أن تتمتع باستجابات جمالية لمؤثـــرات لا يتبينها البشر. فلقد قال أحد مراقبى الكوتيماندى فى الأريزونا، إن هذه الحيوانـــات تجـــلس فى اعـــتدال أو تســـتند إلى الخـــلف، وتستنشق الهواء بانتباه، ويُفـــترض أنهـــا بذلك تجمع المعلومات. كما علق قائلاً بأن إحدى الإناث المُسنَّات، واســـمها الساحرة، كانت تستيقظ أيضاً أثناء فترة من فترات استرخاء الجماعة على أحـــد الشعاب وتذهب إلى الحافة وتجلس مدة خمس دقائق تقريباً، وتستنشق بهدوء، وبـــبطء، وبعمـــق. وخطـــرت لمن يشاهدونها فكرة أنها ربما كانت تُقدِّر قيمة ما

(*) التينور: درجة غناء أوبرالى عميقة.

تستشعره، وأن عملها هذا لم يكن من قبيل تقييم العالم من حولها، فلم يستطيعوا مقاومة مقارنتها بمن يذهب إلى حفلة موسيقية أو يزور إحدى قاعات عرض اللوحات.

والادّعاء المتكرر بأن الطيور لا تتمتع بحاسة الشم هو ادعاء خاطئ ببساطة. ذلك أن بصيلات الشم فى مخ الطيور تعطيها هذه الحاسة. ودرجة الإحساس هى التى تتنوع تنوعاً كبيراً: فالعصفور المغرد والببغاء يبدو أن حاسة الشم لديها ضعيفة، بينما تُعتبر هذه الحاسة عند القطرس (طائر بحرى ضخم) والكيوى فائقة. ومما لا يثير العجب، اكتشاف أن بعض النسور لها حاسة شم فائقة، تستخدمها لتحديد مكان الجيفة. وقد تكون هذه الرائحة مصدر لذة أو مجرد اهتمام بالنسبة لحاستها الجمالية.

والثعابين مزودة "بأعضاء للإحساس بالحرارة" ولقد وُجد أن عدداً متزايداً من مخلوقات المحيطات لها حواس ملاحية كهرومغناطيسية. وهناك بعض الحواس، مثل القدرة على إدراك المجال المغناطيسي، لم يعرفها العلم إلا حديثاً، وقد يكون هناك المزيد. وأية حاسة يمكن أن تكون عُرضة لتفضيل شيء ما على سواه أو العكس. ومن ثم تُدرك الأشياء فى نطاق الجمال والقبح. وبعض الحيوانات يمكن أن تُعجب بجمال تحت صوتى أو أشعة تحت حمراء أو كهرومغناطيسى بل وتُوجِده. ذلك أن أحد العلماء جمع معلومات عن جوانب التفضيل فى الرؤية عند أحد ذكور الرايس الصغيرة فى الأَسْر، فوجد أنها تحب ضوء الموجات القصيرة. إذ كانت تفضل البرتقالى على الأحمر والأصفر على البرتقالى والأخضر على الأصفر، وكانت تستحسن مع ذلك الأزرق. كما كانت أكثر اهتماماً بصور غيرها من الحيوانات أكثر من اهتمامها بصور القردة، وإن كانت تفضل صورة القردة على صورة البشر. وتفضل النظر إلى الزهور على النظر إلى لوحة لمودرين (رسمت عام ١٩٢٠) وكانت أقل الصور إثارة لاهتمامها هى صور الموز. واعتادت على تفضيل كارتون متحرك عن فيلم الكارتون الدوَّار؛ غير أنها كانت تفضل الدوار على مشاهدة الصور الثابتة. كذلك كانت تفضل أن تكون أفلامها فى بؤرة الضوء وكلما قل تركيز البؤرة على أحد الأفلام، قلت رغبتها فى مشاهدته. ولقد صُنفت هذه التفضيلات على أنها "اهتمام" و"لذة" ويبدو أن جانب التفضيل الجمالى البحت،

كـــان تفضيل الألوان، بما أنه لم يكن هناك ما يدعو إلى الافتراض أن جداراً أزرق تمامـــاً يـــثير الاهتمام أكثر من جدار أصفر. وليست قردة الرايس، بأية حال، هى الوحيـــدة التى تهتم باللون الأزرق. ذلك أن عالم سلوك الحيوانات الألماني، بيرنارد ريـــنش، فحص مسألة تفضيل الألوان والأنماط عند الحيوانات الرئيسة وغيرها من الحيوانـــات. فوجـــد أن القـــردة بأنواعهـــا تفضل النمط المنتظم القياسى على غير القياســـى والتصميمات السيمترية (التى تتبع نسقاً) على غير السيمترية. لكن أذواقها لـــم تثـــبت: فـــبعد فـــترة، أُعيد فحصها وكانت النتيجة أن بعضها اختار اختيارات مغايرة. وحين اختبر رينش الغربان، والأكدو، اختارت هى أيضاً الأشكال المنتظمة غير أن الأسماك بدا أنها تنجذب أكثر إلى الأشكال غير المنتظمة.

وكـــثيراً ما تختار الحيوانات رفاق تناسل على أساس من عروضها أو أناشيدها. وأحيانـــاً تكون المعايير التى تستخدمها مبنية ببساطة على أساس الكمِّ: فهى تختار الأكـــبر والأعـــلى صوتاً أو الرفيقة الأكبر بدانة وتنجذب الأرامل من الطيور إلى الذكور الأرامل ذوى الذيول الطويلة، لذا حين لصق أحد علماء الطيور إضافة ذيلية من الريش فى طرف ذيول بعض الذكور اكتسب مزيداً من الشعبية. كما أنها تميل إلى تفضـــيل الحيوانـــات ذات المظهـــر السيمتري، وكذلك تفضل بعض البشر عن غيرهم. لكن أحياناً، يبدو أن الأمر ينطوى على اختيارات جمالية أكثر دقة.

إن طيـــور الآكـــام أو التعريش الجميلة وغير المألوفة وعصفور الجنة فى غينيا الجديـــدة مـــن الموضوعات المفضلة للدراسة فى مجال الطيور. فلا تشكل الأنواع المختـــلفة لطيور الآكام أزواجاً. وبدلاً من ذلك، تزور الأنثى مواقع الاستعراض أو أوكار ذكور عديدة، ويؤدى الذكر عروضاً بغرض خطب الود، فيغرى الأنثى على التناسل معه أو تُحجم عن ذلك. وبعض طيور الآكام ــ عامة أولئك التى لها ريش عـــادى للغاية ــ تبنى أوكاراً مُحكمة مُرتّبة تشبه الأزّقة أو الأنفاق، أو الأفنية، أو خيامـــاً تشـــبه خيـــام الهنود الأمريكيين، أو زينة منْ الأزهار وتزين هذه الأشكال بأشياء ملونة مثل الأزهار والفاكهة، أو أجزاء من الحشرات، أو آثار بشرية، بل قد تطـــلى أجـــزاء مـــن الآكام والأوكار بالفحم النباتى والحبوب المسحوقة، وتستخدم فرشاة من لحاء الشجر.

وتختلف تفضيلات طيور الآكام حين تقوم باختيار التحف الغريبة لتزيين تعريشاتها، حيث تكثر زيارتها لأعشاش طيور أخرى وسرقة زينتها. وعندما تختار أدوات الزينة فطير التعريش المعروف بالشيطان ــ وهو نوع أزرق العينين ــ يحب الأشياء الزرقاء. وحين يزين الذكر تعريشته وتتناسل الأنثى مع ذكر معين، فإنها تختار الذكر الذى تفضل تعريشته أكثر من جميع التعريشات، وكأنهما يعرضان نوعاً من الذوق. وحين يسرق علماء الأحياء المتطفلون وسائل الزينة من بعض التعريشات، فإن تفضيل الإناث لها يصبح أقل، وتصبح قدرة هؤلاء الذكور على التناسل أقل. وربما تتمتع طيور التعريشة المُحبة للون الأزرق بميزة تنافسية على التناسل، لأسباب متنوعة تتوافق مع اللياقة. وقد توحى المعالجة الارتقائية لهذا الأمر، أن الهدف الأسمى لما تفضله الطيور فنياً هو تمكين الذكر من إظهار مدى لياقته، وكم ينفق من وقت لجمع وسائل الزينة، والدفاع عنها ضد السرقة، وكذلك لتمكين الذكور من تقييم ذلك. لكن السبب المباشر، لا يمكن أن يكون شيئاً كهذا. فمن غير الوارد أن تقدر الأنثى عدد ساعات الطيران التى ضاعت بسبب تعريشة، ومدى دلالة ذلك بالنسبة لجودة الجينات. ولا يقرر الذكر استخدام أشياء زرقاء لأنها، فلنقل، نادرة الوجود، لأنه يعلم بأن هذا سيكون بمثابة دليل للإناث على أنه يتحكم فى منطقة واسعة بسبب جيناته الجيدة. والأمر الأكثر احتمالاً والنظرية الأقرب إلى الواقع والأبعد عن الشطح، هى أن كلاً من ذكر طيور التعريشة وأنثاه يحبان منظر اللون الأزرق.

ولقد لاحظ عالم الطبيعة، بروس بهلر، عريشات طيور التعريشة المخططة وهى الطيور التى لا تولد جميلة جداً، وإنما عليها أن تُوجِد جمالها الخاص بها، ومن ثم التعريشات. "وتشبه هذه التعريشات الخيام الهندية الأمريكية المخروطية الشكل مع وجود أعمدة فى المنتصف، ويبنى الطائر فى قاعدة العمود جداراً منسقاً من البوص مزيناً بأشياء ملونة. ويكون كل نوع من الزينة على قسم مختلف من الجدار، مما يترك أثراً فنياً شديد الجمال". ويستمر بهلر فى ملاحظاته: "يعتقد بعض علماء الأحياء أن التشييد المتقن لتعريشة الطير الذكر دليل على الحاسة الفنية. ويفضل الآخرون الاعتقاد أن هذه النتيجة لسلوك التناسل ما هى إلا انعكاس للتنافس الجنسى الملحوظ بين الذكور فى محاولاتهم للتناسل مع الإناث ــ وهى عملية أطلق عليها

تشــارلز داروين الانتخاب الجنسي". ولا يوجد تعارض بين هذين التفسيرين، بل إنهمـا متوافقان. غير أن التعليق بأن بعض علماء الأحياء "يفضل" الاعتقاد فى التنافس يوحى بشيء مهم. وهذه هى قضية ما يريد الناس أن يصدقوه أو يظنوا أن لابد من تصديقه فيما يتعلق بالحيوان.

وتنشـأ نفس القضية فيما يتعلق بعصافير الجنة، المشهورة بريش ذكورها الرائع. فـفى موقـع استعراضى لعصافير الجنة الصغيرة، يتجمع الكثير من الذكور. وقد تتناسـل كل الإناث التى تفد على المكان مع ذكر واحد فقط، وتساءل علماء الأحياء عن السبب، ويكتب بهلر فى هذا فيقول: "يعتقد بعض الباحثين أن هذا نتيجة التمييز الحـاد لدى الإناث، كما يعتقدون أن الإناث تختار "الأجمل" أو "الأقوى جنسياً" من بين الذكور. أما أنا فأميل إلى الاعتقاد بأن السبب فى هذا، يرجع جزئياً إلى سيطرة أقـوى الطيـور فى مجـتمعها؛ ممـا يسمح بوجود بناء هرمى يعتلى قمته الطائر المتسـيد. ذلـك أن المتسيد يكون قادراً، عن طريق العدوان الجسدي، من آنٍ إلى آخـر، والـتخويف النفسى المستمر، أن يتحكم فى التابعين له من ذكور الجماعة. وتـتمكن الإنـاث من فهم هذا البناء الهرمى داخل الجماعة، تماماً كما يدرك البشر جوانـب السـيطرة والخضـوع فى موقف اجتماعى معين. ومن الطبيعى أن تميل الإنـاث إلى الذكـر المتسيد، لأن مادته الوراثية يُحتمل بشدة أن تمنح الأنثى أفضل فرصـة فى إنجـاب نسل يتمتع بصفاته ـ أى الصفات التى قد تساعد نسلها الذكر على أن يسيطر على جماعة ما فى الجيل التالي".

وهذا التحليل مع ما يركز عليه من عدوان الذكور وما ينجم عنه من مكافآت، لا يفسـر تلك الذيول ذهبية الريش الضخمة التى تجرها الذكور فى عروضها، والتى يجـد البشر أنها من الجمال لدرجة تعرض بعض الأنواع للانقراض نتيجة الإفراط فى صـيدها للتصدير. فإذا كانت الإناث تستطيع إدراك شيء معقد كالبناء الهرمي، وتتناسل تبعاً له فكيف ننكر عليها أن تستمتع بالذهب اللامع وتنجذب إليه؟

ويوجد لدى قبائل البشر فى غينيا الجديدة طرازات مختلفة من الملابس الطقوسية تشـتمل كلها تقريباً على ريش عصافير الجنة المختلفة، وعادة تكون على رؤوس الرجال. كما تأخذ طيور التعريشة تذكارات بشرية مثل لفائف الحلوى ذات الألوان الـزاهية وأكيـاس الرصاص، أو المفاتيح اللامعة كى تزين تعريشاتها. ففى وسع

المرء أن يتصور الطيور وهى تزحف نحو أماكن سُكْنى البشر، كى تسرق الأشياء الملونة وكذلك البشر وهم يزحفون نحو مواطن الطير كى يسرقوا الريش الملون. وحين نفعل ذلك، فهذا من أجل الفن. أما حين تفعل الطيور نفس الشيء، فهو من أجل التنافس. وكلا الأمرين قد يكون صحيحاً. غير أن الشيء المزعج وغير المنطقى هو قرار تفسير السلوك البشرى بألفاظ روحانية عن الإحساس بالجمال، وتفسير سلوك الحيوان بألفاظ مادية عن الفتوة. ويظل الأمر، كما يبدو محصوراً فى نطاق تعريف البشر على أنهم أرقى وأكثر تفرُداً.

الإبداع الفنى

يُعدُّ موضوع الإبداع الفنى عند الحيوانات موضوعاً جذاباً، غير أن ما أُنجز بالفعل فى هذا الحقل من الدراسة، لا يزال قليلاً وهو أحد الأنشطة الكثيرة التى قيل عنها إنها تضع حداً فاصلاً بين البشر والحيوانات. وهناك قردة مختلفة، خاصة الشمبانزي، قامت بالرسم أو الرسم الزيتي، فى الأَسْر كما فعلت قردة "كبوتشين". وكان ألفا، الشمبانزى فى معمل يركس، يحب أن يرسم وكان يتوسل إلى الزائرين لإعطائه ورقاً وقلم رصاص ــ مفضلاً ذلك عن الطعام ــثم يلجأ إلى أحد الأركان، ويشرع فى الرسم. وحين كان ينقصه الورق، كان يحاول أن يرسم على ورقة شجر جافة، وحين كانوا يعطونه قطعة ورق عليها تصميمات هندسية كان رسمه يتأثر بما كان أصلاً على الورقة. فكان يملأ بعض الفراغات ويخط الأجزاء الناقصة فى أشكال أخرى، مثل دائرة بها وتر غير متصل بها، كما كان يضيف علامات "تحقق التوازن" مع الأشكال الأخرى. وكانت رسومه، تُؤخذ منه، على الفور؛ لأنه كان يضع الورق فى فمه بعد الرسم على وجهيه.

وبعد هذا العمل، لم يلق ديزموند موريس أدنى صعوبة فى إقناع قرد شمبانزى آخر، اسمه كونجو، بأن يرسم. وكان كونجو يصرخ إذا قاطعه أحد قبل أن ينتهى من رسم صورة، ويظل غاضباً إلى أن يُسمح له بإكمالها. وكان كونجو يغير رسمه تبعاً للتصميم الأصلى على الورقة المُعطاة له. وكان تصميمه أو موضوعه المفضل هو مروحة ذات خطوط إشعاعية، وكان يرسمها بطرق مختلفة، وليس بأسلوبٍ واحدٍ نمطي. وهناك غوريلات مثل كوكي، ومايكل رسمت الكثير من الأشياء. ولم تقدم القِرَدة، فى أى مرة رسوماً لأشياء غير مفهومة. إذ قدمت إحدى القردة،

واسمها موجا، رسماً بسيطاً جداً ذا أقواس أفقية متوازية وكتبت رمز طائر. وحين طُـلب مـنها أن ترسم ثمرة توت رسمت رسماً مضغوطاً فى أحد أركان ورقتها. وكـلا الرسمين مستساغ، ولكنه ليس بالضرورة معبراً عن شكل متفق عليه، ومع ذلك فإن الكثير من البشر يبدعون ويقدرون ضروباً من الفن غير التصويري.



(شـكل ١٠أ): كان ألفا، وهو شمبانزى حبيس القفص يبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً، فى معمـل يركس يبعد أى قرد آخر فى القفص بكـتفه ويتجه إلى أحد الأركان. وقد نفذ هذا الرسـم باستخدام اللون الأحمر والكوبية على ورق أبيض فى مدة ثلاث دقائق ولم يتلق ألفا أى مكافـأة عـلى الرسـم. بل اعتاد تجاهل الطعـام عندما تسنح له فرصة الحصول على ورق وقلم رصاص. (من صحيفة جمعية علم الـنفس وعـلم وظـائف الأعضاء المُقارَن الأمريكية).

وفى تجـربة لاحقـة، طُلب من موجا وواشو أن ترسما أشياء مثل كرة سلة، أو حـذاء طويل (بوت) أو موزة أو تفاحة، أو فنجان أو فرشاة، إما من الطبيعة أو من شـرائح ملونة. وفى جلسات لاحقة، طُلب من القردة أن ترسم نفس الأشياء وكانت الرسـوم تُفحـص من حيث المفهوم. فلم تكن رسومات الحذاء دقيقة، أما رسومات الفنجان والفرشاة فقد كان بها الكثير من أوجه الشبه. ولم تكن أى من هذه رسومات قابلة لأن يدرك الإنسان أنها فناجين أو فرش: فكانت طلبات رسم الفنجان تسفر عن رسـم مراوح رأسية مركزية بها خطوط، أما الفرشاة فهى خطوط رأسية متقاطعة مـع خطوط أفقية. وكانت رسومات الزهور تتمثل فى أشكال إشعاعية من الوسط، وكانت رسومات الطيور دائماً تحتوى على جسم "مدبب" فهل كان يُقصد به المنقار، أو وضـع الطيران، أو أى شيء آخر؟ الإجابة غير معروفة. وقال روجر فوتس: "إن الرسـم الـذى حيـرنا فى رسوم موجا هو كرة السلة فقد كانت (نغبشة) على

الــورق". ولكن بعد أن رسمتها موجا بنفس الطريقة ــ أى خطوط رأسية متعرجة عــلى الجــزء الأســفل من الورقة ــ على فترات تفصل بينها ستة أسابيع، أدرك الباحــثون أنهــا قد لا تمثل شكل الكرة بل حركتها. والأطفال الصغار قد يرسمون أحياناً لوحات حركية من هذا النوع".

ورغــم أن مــلل الأَسْر قد يكون دافعاً لجميع هذه الحيوانات، إلا إنه من الواضح أنها تجد الرسم عملاً مرضياً.



(شــكل ١٠ ب١): هــذا الرسم الموجود بألوان الماء على الورق نفذه الشمبانزى كونجــو. ويلاحــظ ديزموند موريس، الذى شجع كونجو على الرسم، أن أشكال المــروحة هذه كانت من الموضوعات الأثيرة لدى كونجو. وكان يرسم الخطوط عن طريق تحريك الفرشاة فى اتجاه جسمه.

تــرفض بعــض الحيوانــات رفضــاً مطلقاً أن ترسم وكأنها تذكِّرنا مرة أخرى باخــتلاف شخصــياتها عن بعضها، لكن فى عام ١٩٨٠، كُلِّف حارس جديد يُدْعى ديفيــد جوكوا برعاية أنثى فيل هندية، اسمها سيرى (وهى نفس الأنثى التى كانت تخلط الثمار فى تبنها). فلما لاحظ أن سيرى تقوم بالنغبشة على الأرض فى أَسْرها



(شكل ١٠ ب٢): قام كونجو برسم هذا النموذج فى نفس الجلسة التى رسم فيها النموذج السابق، غير أنه، مما يدعو إلى العجب، أنه نفّذ بطريقة تختلف تماماً. إذ كان يحرك الفرشاة عكس اتجاه جسمه، وكان يتنهد بهدوء كلما توقف ليدرس الخطوط. وتبيَّن حقيقة أن كونجو لم يكن يرسم أنماطاً مختلفة بطرق متشابهة، وأنه لم يكن ببساطة يعيد حركات ثابتة.

باستخدام حجر صغير – ثم "تغمز" الحجر بطرف خرطومها، بدأ جوكوا يُمد سيرى بقلم رصاص ودفتر للرسم (كان يمسك به فى حجره)، فكان رد فعلها أن نفذت عشرات من الرسومات التى يمكن تصنيفها جميعاً على أنها "تجريدية" أو نغبشة، غير أنها كانت جميعاً محددة بمساحة الورق وبدت شاعرية وغنائية، بالنسبة للعديد من المراقبين، بل بدت مليئة بالحيوية والجمال. ولمْ تُكافأ قط على الرسم، وربما وجدت فى اهتمام جوكوا مكافأة فى حد ذاته.

وأرسل جوكوا والصحفى جيمز إهتمان نسخاً من رسومات سيرى إلى العلماء، فأبى معظمهم التعليق كما أرسل نسخاً إلى الفنانين، فكان معظمهم متحمساً، وعلى الأخص، الفنانان إلين وولم دى كونينج، اللذان نظرا إلى الرسوم قبل قراءة الخطاب الذى يغطى الموضوع، فهزهما ما فى الرسومات من "تمييز وحزم وأصالة" فلما علم ولم دى كونينج بالرسام قال: "إنها أنثى فيل شديدة الموهبة" (وإذا عرفنا ظروف سيرى صعب أن ننتظر شيئاً) وعُرضت نسخٌ من رسوماتها على أصحاب حدائق حيوان آخرين فقالوا أنه لا جديد فى ذلك، ذلك أن أفيالهم تخط على الأرض بعصى أو أحجار طوال الوقت. فلماذا لم يكتب أحد، إذن من قبل؟

وحُرمت سيرى من فرصة الرسم على الورق بعد عامين نتيجة لخلافات بين جوكوا ومدير حديقة الحيوانات، وكذلك نتيجة نقلها إلى حديقة حيوان أخرى أثناء التجديدات. ولم تُعط أبداً ورق عليه تصميمات سابقة حتى نعرف تأثير ذلك على رسمها. ولكنها فى عدة مناسبات، قامت بتنفيذ عملين على رقعة (فرخ) واحد من الورق، وواضح أنها رسمت الثانى بالإشارة للأول. ونحن لا نعرف ما إذا كانت سيرى تكره أياً من أعمالها ــ أو هل حدث أن مزقت شيئاً؟ ذلك أن جوكوا كان يأخذ رسوماتها على الفور، حتى لا تلطخها بخرطومها الرطب وهى "تتحسسها". ولو كانت هناك أفيال أخرى تحب الرسم، فهل سيكون لها أى رد فعل على رسم كل منها؟

لقد قامت أفيال أخرى برسم صور على الورق أو قماش الرسم، ولكن ربما بشيء من التوجيه، بخلاف سيرى التى لم يوجهها أحد.

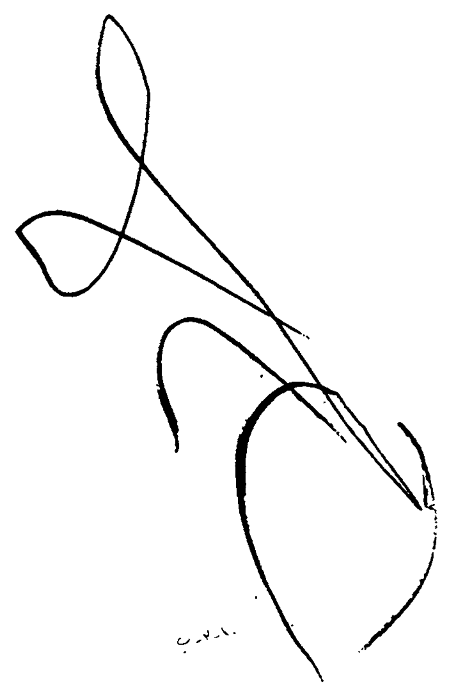
لقد تعلمت أنثى فيل هندى اسمها كارول فى حديقة حيوان سان دييجو الرسم كعامل جذب للزوار، وكانت تتلقى الأوامر من مدربها، الذى كان يحدد متى تلتقط الفرشاة، ويمدها بالألوان، ويحرك لوحة الرسم بحيث تذهب خطوط الفرشاة إلى اتجاهات مختلفة، كما يكافئها بالتفاح. ولكن رغم أن هذه الطريقة فى الرسم الشبيهة بتكوين أشكال من قطع مرقمة لا تنطوى على أصالة فنية، فإن رسوم كرول الروتينية لا تبطل تأثير رغبة سيرى المتحمسة فى ممارسة الرسم.



(شــكل ١٠ ب٣): رســم قامت به سيري، وهى أنثى فيل هندية، بقلم الرصاص على الورق. إذ كانت ترسم على دفتر شيكات كان ديفيد جوكوا يمسك به فى يده. ووضع جوكوا عنواناً لذلك "أتذكر البجع" ووضع هذا مع صور أخرى أُرسلت إلى إليــن وولم دى كونينج. وحين عرف شخصية الرسام، قال كونينج متعجباً: "إنها أنثى فيل شديدة الموهبة".

وحديــثاً جــدا شُــجِّعت روبــي، وهى إحــدى أفيال حديقة الحيوان فى فينيكس بأريزونا، على الرسم. وسببُ اختيارها أنها كانت الأنشط وليس لأنها كانت الوحيدة القــادرة على الرسم بتركيز بين الأفيال فهى تحب أن ترسم وتحس بالنشوة لمجرد ســماع كــلمة الرســم. وحــتى ذلــك الوقت كان اللونان الأحمر والأزرق لونيها المفضلين. ويقول عالم الأحياء دوجلاس تشادويك، إنها قد تختار غير هذين اللونين لكى تتواءم مع شيء جديد قريب منها، بحيث إنه لو توقفت عربة لنقل البرتقال أمام عينيها لاختارت اللون البرتقالي.

فى إحــدى المرات، هاجم المرض أحد الزوار أثناء مشاهدته لسيرى وهى ترسم، فحضــر رجــال الإسعاف السريع إلى المكان. وكانوا يرتدون حللاً زرقاء. وربما كــان مــن قــبيل اتفاق الأحداث، أنه بعد تركهم للمكان رسمت سيرى بقعة زرقاء محاطة بدوامة حمراء. وأخذت تعبس فى القذارة فى مكانها. ويعتقد أحد المسئولين



(شكل ١٠ ب٤): هذا الرسم بقلم الرصاص على ورق ٩ × ١٢ بوصـــة وضع له جوكوا عنوان "إيــريس"(*) كـــان أيضاً من بين الرسومات التى أثـــنت عـــليها أســـرة كونينج. قبل أن تُتاح لها الفرصـــة أن تستخدم القلم والورق، كانت ترسم عـــلى التراب حيث كانت حبيسة، وتخط تصاميم على الخرسانة بالعصى والزلط. ولم يكافئها أحد على الرسم.

عـــن الأفيال، أن الأفيال الأفريقية التى تشارك روبى فى المكان تحس بالغيرة مما تحـــظى بـــه من اهتمام، لأنها بدأت فى رسم لوحات واضحة تماماً على الجدران مستخدمة أطراف الأخشاب.

ولُوحـــظ نـــوع آخر من الإبداع عند الدرافيل. حيث بذلت المدربة كاربن برايور أقصـــى ما فى وسعها كى تجعل الدرافيل تؤدى حركات فى العروض، وقررت أن تكـــافئ إحداها، وهى ميليا فقط لأنها أدت حركات جديدة وكافئوها عن طريق النفخ فى صـــفارة وإلقاء سمكة لها. فتعلمت ميليا بسرعة المطلوب منها فى ذلك اليوم ــ الضـــرب بالذيل على الوجه والسير إلى الخلف بالذيل وأدت هذا الفعل. وفى بضعة أســـابيع نَفـــد ما لديهم من حركات جديدة يطلبون من الدرافيل أداءها. وفجأة بدأت

(*) إيريس: ربة الشقاق عند الإغريق.

ميليا فى أداء مزيج من الأنشطة الجديدة تماماً، وكان بعضها شديد التعقيد. إذ كانت تسبح على ظهرها وذيلها فى الهواء، أو تدور كفتاحة فلّين، أو تقفز خارج الماء وهى مقلوبة أو تخط خطوطاً على أرضية الصهريج بزعنفتها العلوية. وعلمت أن مدربيها لا يريدون منها إلا الابتكار. وأحياناً كانت تحس بالنشوة قرب بدء التدريب، ولم يستطع مدربوها منع أنفسهم من التفكير فى أن "ميليا كانت تَجلس فى صهريجها طول الليل تفكر فى أشياء، ثم تندفع فى أول عرض ولسان حالها يقول: "انتظروا حتى تروا هذه".

وصمم المدربون على إعداد سجل علمى لهذا السلوك الهام، فقاموا بتصوير نفس العملية مع أنثى درفيل أخرى اسمها "هُو". وكانت أقل تفاؤلاً وأقل حماساً فاستغرقت وقتاً طويلاً لتواكب الأحداث، غير أنها بدت فى التدريب السادس عشر وكأنها بركان من حركات جديدة مبتكرة وظلت تأتى بالأعاجيب تدريباً بعد آخر. وتقول برايور إن هذه التجربة غيرت تفكيرها تماماً "من حيوان ساكن وديع إلى حيوان نشط قوى الملاحظة شديد القدرة على المبادرة". كما أن "هُو" كانت تُكثر من إشارات الغضب، وكأنها اكتسبت شخصية فنية. وظل كلا الدرفيلين يقوم بحركات جديدة خارج نطاق التدريب، بما فى ذلك فتح البوابات بين الصهاريج، والقفز من فوق البوابات، والقفز خارج الماء، والتزحلق فوق المكان على الأرض كى يضربا المدربين برقة على مفاصل الأقدام. ورغم رؤية البعض لهذه العروض بصفتها دليلاً على مدى ذكاء الدرافيل، إلا أن برايور لم توافق على ذلك. إذ طبقت نفس التجربة مع الحمام، وانتهت بالطيور التى ترقد على ظهرها بشكل تلقائي، وتطأ أحد أجنحتها وهى تقف بقدم واحدة أو تطير فى الهواء على ارتفاع بوصتين وتثبت على وضعها. ومثل هذا الإبداع ليس متوقعاً من كائن لم يُعرف عنه التفوق العقلى لكنه يثبت ببساطة أنه أحَدُّ ذكاءً مما نعتقد، إذا أُتيحت له الفرصة للإبداع.

الثقافة ومفهوم الجمال

تظهر انفعالات البشر فى سياق بيئاتهم الثقافية، وليس معنى هذا أن هذه الانفعالات توجد بسبب الثقافات. ويتأثر إحساسنا بالجمال تأثراً شديداً بالثقافة، فالثقافات البشرية المختلفة تُوَلِّد نوعاً من الأفكار المختلفة عن الجمال، فالموسيقى التى تُدخل البهجة على جماعة معينة من الناس مثلاً، قد تصدم أعضاء ثقافة أخرى

أو ثقافــة أدنى باعتبارها غير متناغمة (نشاز) وباعثة على الاكتئاب وقبيحة. وثَمَّة ما هو أكثر من الثقافة فى إدراك البشر للجمال، لكن ليس من الواضح أكثر إلى أى حــد عــلى وجه الدقة. ومن ثَمَّ، فإن فكرة إدراك الحيوانات للجمال وقدرتها على إبداعه تقودنا إلى التساؤل عما إذا كان إدراكها الجمالى مرتبطاً، بشكل ما بالثقافة.

ذلك أن النقل الثقافى ينطوى على عوامل إدراكية كثيرة، وهذا ليس محل دراستنا فى هــذا الكــتاب. لكــن مــن الجدير بالملاحظة أن هناك أمثلة كثيرة على ثقافة الحيــوان. فــفى فرق القردة اليابانية، لُوحظت تقاليد مختلفة بين الجماعات. فبعض الفــرق تأكل قواقع الأسماك، وبعضها لا يفعل ذلك. وبعض الفرق تأكل بذور ثمار إحــدى الفواكه وبعضها يلقى به بعيداً، وبعضها تجلس لرعاية أطفال البعض الآخر والــبعض الآخر لا يفعل ذلك. وأشهر مثال على النقل الثقافى يوجد فى قصة إيمو، "القــرد العــبقري" الــذى اخترع عدة طرق فنيةٍ للحصول على الطعام، مثل إلقاء الحبوب المختلطة بالرمل فى الماء حتى يغوص الرمل ويمكن استخلاص الحب من ســطح المــاء وأَكْلــه. وبالتدريج، قلد مزيد من القردة فى فرقة إيمو طريقته حتى مارستها جميعاً.

لقــد كتــبت إليزابيث مارشال توماس عن تكبُّر الأسود فى صحراء كلهارى فى أفــريقية الجنوبية، والتى كان لديها تقليد (اختفى فيما بعد) بالتعايش مع البشر. ففى الخمســينيات، عندما ذهبت إليزابيث إلى كلهاري، لأول مرة، كانت الأسود تعامل البشر ــ عشائر جوا وجيكو والبوشمن غالباً ــ باحترام مشوب بالامتعاض. فكانت تســمح للبشــر على مضض بإبعادها عما تريد افتراسه كما لم تكن تهاجمهم. وفى الســتينيات، طُــردت عشــيرة البوشــمن مــن المنطقة. وحين عادت توماس فى الثمانيــنيات، وجــدت أن الأسود تتصرف بطريقة مختلفة. فهذه الأسود التى لم تَعُد تعيــش مــع البشر، فقدت تقاليدها الثقافية نحوهم وبدت على استعداد تام للنظر فى فكــرة اتخــاذ البشر فرائس. كما كتبت توماس، أن الفهود فى مناطق مختلفة كانت تســتخدم طــرقاً مختلفة لقنص الفريسة البشرية. وكذلك لوحظت جماعة من رباح الزيــتون فى كيــنيا يــتحول البالغون فيها عن العزوف عن أكل اللحوم أحياناً إلى اكتســاب الجماعــة كــلها عادة قنص وأكل الفريسة، بما فيهم من الذكور والإناث والصغار، فيما يمكن وصفه بأنه نقلة ثقافية. هناك مثال فى الأسر لشمبانزى حديقة

حيوان آرنهيم. إذ جَرح ذكر مسيطر يده فى قتال، فأصبح مضطراً إلى التوكؤ على رسغه أثناء المشي، فبدأت صغار الشمبانزى تتقافز على رسغها هى أيضاً.

وفى جماعة القردة التى تتحدث بالإشارة فى جامعة واشنطن حيث نشأت لوليس، كان ألان وبياتريكس جاردنر يتوليان تربية القرود البالغة، التى لم تقابلها القردة لوليس الصغيرة قط. وفى أحد الأيام، أتى آل جاردنر للزيارة، وهو حدث لم يُعلن للشمبانزي. ولم يكن أحد من القردة قد رأى آل جاردنر لمدة عام على الأقل، أما واشو فلم ترهما لما يزيد عن أحد عشر عاماً. ودخل آل جاردنر. وحين رأتهم القردة جلست ببساطة، وحملقت ــ وهو سلوك غير معتاد تماماً. ولم تقدم التحية الودية المعتادة ــ من إشارات، ولمسات، والعناق – التى تُقدم للبشر الذين تعرفهم، كما لم تقدم عروضاً كما تفعل أمام الغرباء، وإنما حملقت وكأن الموقف قد أخرسها. فيما عدا القردة لوليس الصغيرة التى بدأت تستعرض أمام هؤلاء الأغراب؛ فأخذت ترفع شعرها وتتأرجح وتضرب الجدار. وعلى الفور، أمسك به واشو ودار، اللذان كانا يجلسان على جانبيه. وأطبق دار بيد على فم لوليس. أما واشو، فأخذت ذراعه وجعلته يجلس، ففعل ذلك والدهشة على وجهه. ذلك أن مثل هذه المعاملة كانت جديدة عليه. وبعد لحظة، ذهبت واشو إلى آل جاردنر، وأشارت باسميهما، وقادت بياتريكس جاردنر إلى داخل حجرة أخرى، وبدأت تلعب معها لعبة كانا يلعبانها معاً أثناء طفولة واشو. فى هذا المثال، انتقلت معلومة إلى لوليس. حيث لم تصل قدرة الشمبانزى على الإشارة إلى حد قول: "هؤلاء أناس نعاملهم بعاطفة، واحترام، غير أنه من المؤكد أن لوليس تلقَّى هذه الرسالة. ومع ذلك، اقتصر تعريف الثقافة على أنها عامل من عوامل تجعل البشر متفردين. والأمثلة على النقل الثقافى للسلوك مثل تلك المذكورة سلفاً، لا يُنظر إليها إلا باعتبارها "أشياء غريبة تثير الاهتمام" وهى قد تكون أكثر من ذلك. وربما كان النقل الثقافى أوسع انتشاراً بين الحيوانات مما يُعتقد عموماً. ولم يزعم أحد بأن هناك نوعاً حيوانياً يحيا فى ظل ثقافةٍ مقاربة لتعقيد أية ثقافة إنسانية. لكن الجدل دفاعاً عن الرأى القائل بعجز الحيوانات عن الإحساس بالجمال لأن الجمال يرتبط بالثقافة لا دليل عليه، بل هناك كثير من الأدلة تؤيد العكس.

وكمـــا لا يتفق اثنان من البشر على جمال جميع الأشياء، كذلك الإنسان والحيوان يمكـــن أن يختلفا. لكن استبعاد قدرة الحيوان على الإحساس بالجمال، على الإطلاق تُعدُّ ضرباً من ضروب ضيق الأفق. وفى مناقشته لغناء الطير، كتب جوزيف وود كرتش يقول:

"افترض أنك قد استمعت فى الأوبرا إلى بريما دونا شهيرة جداً وهى تغنى إحدى مقطوعـــات موتســـارت، فـــإنك تفترض أنها تحب الموسيقى حقاً وتمر بانفعال ما مرتـــبط بذلـــك الذى تعبر عنه المقطوعة التى كتبها موتسارت.. غير أن عالماً من نـــوع آخـــر ــ اقتصادى ــ يأتى ليقول: "لقد درست الظاهرة... إن المؤدية تغنى مقـــابل آلاف الدولارات فى الأسبوع. والحقيقة أنها ما كانت لتغنى علناً ما لم يُدفع لها مبلغ كبير... يمكنك أن تغنى فى الحمام لأنك سعيد وتحب أن تفعل ذلك. ولكن حـــتى الآن، عـــلى الأقـــل، بالنسبة للمغنين المحترفين فإنهم لا يغنون إلا من أجل النقود". ولكن المغالطة ــ وهى مغالطة يدعمها عدد مخيف من "التفسيرات" النفسية والاجتماعية والاقتصادية لسلوك الإنسان هى بالطبع "إلا من أجل". إذ لا يوجد فى الخـــبرة الإنسانية أو المعرفة ما يستبعد أن يكون الكردينال[*] فى غنائه على فرع إحـــدى الأشـــجار مطالـــباً بحقه فى أرض ما يكون فى الوقت ذاته شديد السرور والفرح بصوته وقوته ومهارته الفنية... ومن ذا الذى يستمع إلى غناء أحد الطيور فيقـــول: "لا أظنه فرحاً أبداً" إن من يقول ذلك لا يتحدث عن بلسان الطيور. ولكنه يكشـــف عـــن نفسه. إنْ الباحثين الذين يقومون بدراسة الأفيال فى كينيا يعسكرون وســـط شـــجيرات شـــرق أفريقيا. وأحياناً يغنى الناس ليلاً ويعزفون على الجيتار فتقـــترب الأفيال كى تصغي. وربما كان هذا مجرد فضول، ولكن ربما أيضاً تشعر الأفيـــال بالســـرور لســـماع الموسيقى. لذلك، يجب أن يسمح لنا الفضول البشرى بالسؤال هل الأفيال تجد جمالاً فى الموسيقى، تماماً كما يسمح لنا الإحساس الجمالى عند البشر بأن نتذوق صورة هذه الحيوانات الضخمة وهى تتهادى ببطء تحت ستر الظلام لتصغى للغناء.

---

[*] الكردينال: طائر أمريكى مغرد ذو عرف وذكره ذو ريش أحمر أساساً.

الفصل الحادى عشر

الوازع الدينى والعدالة وما لا يمكن التعبير عنه

رغم وجود أدلة واضحة على أن الحيوانات غير البشرية تحيا حياة وجدانية، إلا أن هذا لا يعنى تطابقها وجدانياً تماماً مع البشر. فهذا من أخطاء الأَنْسَنَة ومن الإسقاطات غير الدقيقة. فنحن جميعاً كائنات حية ولكننا لسنا نفس الشيء. ونحن لسنا أرقى ولسنا أدنى لكن مختلفين عن بعضنا.

كثير من المناقشات فى الماضى عن الحيوانات وانفعالاتها كانت مُنصبَّة أساساً على الزعم بقصر انفعالات معينة على البشر وحدهم. وإثبات أن بعض الحيوانات، على العكس، من ذلك تشعر بانفعالات معينة يفرض علينا سؤالاً لا مفر من طرحه فى أمثلة معينة. فلو قلنا إن فرداً معيناً من أفراس النهر يشعر بالرحمة، فهذا لا يعنى أن أى فرد منها سيشعر بالرحمة فى وقت معين، وبالمثل إذا كان الجاموس لديه القدرة على الحب، فهذا لا يعنى بالضرورة أن لديه القدرة على الشعور بالخجل. لذلك، فمن الممكن وجود انفعالات يحس بها الناس ولا يحس بها أى حيوان آخر. وإذا ما نحَّينا جانباً ذلك التاريخ غير المثير، أى تاريخ محاولات البشر ادعاء التفرُّد، تعين علينا التنازل والتسليم بأن الكثير من الأنواع لديها خصال لا تتوافر لغيرها. فطائر البطريق له منقار غير عادى والأفيال لها خراطيم، والبلاتيبوس(*) له مهماز سام، لكن قد يدَّعى البشر تفردهم فى الوازع الديني.

(*) البلاتيبوس: حيوان ثديى أسترالي، له منقار كمنقار البط.

الدين والروح

للـــناس أرواح خـــالدة أمـــا الحيوانات فليس لها ذلك، حسب ما تقول به كثير من الديانـــات الغـــربية. ويقـــاوم محبو الحيوانات هذا الرأي، بذكر فضائل الحيوانات ويؤكـــدون أن الحيوانات لابد وأن تكون لها أرواح، وأن السماء ستكون مكاناً رديئاً بدون كلاب. ومسألة من يملك روحاً ومن لا يملك أشد استعصاءً بكثير من السؤال المقـــابل المتعـــلق بالانفعالات. فالعلم لا يفيد فى هذا الصدد. غير أن وجهة النظر اللاهوتيـــة تشير إلى خلاف بين حياة البشر الانفعالية وحياة غيرهم من الحيوانات. إذ لا يبدو أن الحيوانات فى حاجة إلى الاعتقاد بالقوى العليا؛ إذ لم يُلاحَظ عليها أن لديها ممارسات دينية، بينما الناس لهم مثل هذه الممارسات.

وبعـــض القـــبائل التقليدية فى مدغشقر تقول، إنه حين يرقد الليمور(*)على أفرع عالية فى الصباح، فى مواجهة الشمس، وعيونه مغمضة، فإنه يعبد الشمس. ويقول الـــبعض إن هـــذا الحيـــوان تجسيد لأجدادهم أنفسهم الذين كانوا من عَبَدة الشمس. وعـــلقت عالمة الحياة البدائية، أليسون جولي: "من الصعب أن تشاهد الليمور وهو تحـــت الشـــمس دون أن تتأنْسَـــن، غير أن هذا، فى النظرة الغربية، يبدو أقل من الجـــذوة الدينية وأقرب إلى تكاسلنا فى أيام الآحاد على الشواطئ". وليس هناك ما يحملـــنا على الاعتقاد بأن الليمور نفسه يستثمر الشمس بصفات المخلوق، رغم أننا لا نســـتطيع أن نثبت أنه لا يفعل ذلك. أما التفسير القائل بأنه يستمتع بالدفـء، فيبدو تفســـيراً كافيـــاً لشرح سلوكهم، غير أن التفسير التقليدى الذى يقدمه شعب مدغشقر يتسم بميزة الشاعرية.

فـــالدين، شـــأنه شـــأن الفـــن، ليس خالياً من الانفعال أو عقلياً محضاً. فالخشية والإيمان، والصلاح، والتواضع والعبادة والسعى إلى الإخلاص، ــ يوجد بها جميعاً مُكوِّنـــات انفعالية، وبعض المنظِّرين يعتبرون الخشية شكلاً من أشكال الخجل. فهل الانفعـــالات الدينية مجرد انفعالات لا تحس بها الحيوانات؟ أم هى انفعالات خاصة بأجـــزاء أخـــرى مـــن الحياة بحيث تتركز فى البشر على الوازع الديني؟ فقد تُلقى انفعـــالات الحيوانـــات بعـــض الضوء على هذه المسألة. ذلك أن إليزابيث مارشال

(*) الليمور: حيوان طويل الذَّنَب من فصيلة القِرَدة.

توماس تقارن سلوك الشخص الذى يركع بتواضع للصلاة بكلب يكشف بطنه ليظهر الخضوع ـ لشخص. وتلاحظ أن كلب زوجها يكشف بطنه بطريقة طقوسية كأول شـــيء يفعلـــه فى الصـــباح، مثل صلاة الصباح. وتستنتج توماس، فى النهاية، أن الـــتوازى ليس دقيقاً وأن الكلاب لا تفكر فى البشر باعتبارهم آلهة، ومع ذلك، "بما أنـــنا نحـــتاج إلى الله أكثر من حاجته إلينا، فإن الكلاب تحتاج إلينا أكثر من حاجتنا إليهـــا، وهى تعرف ذلك". والمزيد من الدراسة لهذه الحركات يمكن أن يُلقى ضوءاً كبيراً بالمقارنة بطقوس البشر الدينية.

الأخلاق والإحساس بالعدالة

لقـــد قيل، إن الإحساس بالعدالة شيء يتفرَّد به البشر. فهل به مُكوِّن انفعالي؟ إن إحساس البشر بالعدالة يكون مصحوباً بالكثير من الانفعالات: الغضب والحَمِّية ضد الظـــلم والرغـــبة فى الانـــتقام، وكذلك الرحمة. وقصة برلمانات الغربان التى تُعقد وتصدر أحكاماً على أعضائها هى محض خيال، غير أن الانعكاسات غير المنظمة لمـــا قد يكون إحساساً بالعدالة توجد فى الكثير من قصص الشمبانزى الحانق بحق، مـــثلاً. لقـــد تعلم نيم تشيمسكى متى يتوقع الثناء ومتى يتوقع التأنيب، ورضى بهذه المعاييـــر المصطنعة. فلم تفاجئه العقوبة لو كسر إحدى اللعب، بل يتقبلها. ولكن إذا عاقـــبه أحد مدرسيه على شيء كان الآخرون يتجاهلونه، أو إذا ما قَصَّر أحدهم فى الثناء عليه لِفعْله شيئاً كان الآخرون يكافئونه عليه اعتل مزاجه.

ربما كان مصدر الضيق عند نيم منحصراً فى افتقار عالمه إلى صدق التوقع، أو لأن توقعاتـــه المستقرة قد انتُهكت. ولكن هذا جزء كبير من أجزاء العدالة القانونية بيـــن البشر. ويبدو أن قردة الشمبانزى فى مستعمرة آرنهيم يكون لها رد فعل إزاء معامـــلة ظالمـــة مـــن جانب الآخرين. ففى إحدى المناسبات، "اختطف" الشمبانزى بويســـت قـــرداً طفلاً يبلغ من العمر عاماً واحداً من أمه، وحمله فوق شجرة، حيث صرخ رعباً. وبعد أن استخلصت الأم طفلها هاجمت بويست، ومع أن بويست كان أضـــخم مـــنها ورغم أنه كان ذكراً وأكثر سيطرة، إلا أن يروين ـ أحد الذكور ـ اندفع نحوهما وأوقف القتال بأن أمسك ببويست وألقى بالأم بعيداً. لقد كان هذا شيئاً عادياً لأن بويست ويروين كانا حليفين، وفى جميع المناسبات كان يروين ينحاز إلى

بويســـت. ويستنتج فرانس دى وال أن يروين كان متفقاً مع الأم، الشمبانزى فى أن لديها سبباً للشكوى.

وفى مناســبة أخرى، بدا بويست حزيناً من أجلها، وهى تساند لويت فى نزاع مع ذَكَر كبير. فقام الذكر باستعراضات تهديدية فى وجه بويست، الذى مد يده استنجاداً بلويت. فلم تستجب لويت، فجرى بويست على الفور نحوه، وهو يصرخ فى وجهه ويضــربه، ربمــا لأنه انتهك التقليد بأن يساند الشخص من يسانده. ويُعدُّ هذا النوع من التضامن جزءاً من أفكار البشر الكثيرة عن الإنصاف.

وتضــرب إليــزابيث مارشـــال توماس مثالاً قد يوضح إحساساً بالعدالة أو ربما إحساســاً بحُسْن التصرف، يحمل فى داخله النزاهة وسلامة التصرف. إذ اكتشفت يومــاً مــا، ماريا الببغاء الخاصة بها، ذات الصوت الأجش، أنها يمكنها أن تجعل الفــئران والببغاوات الصغيرة النحيفة فى حالة من الهيستيريا، عن طريق الاندفاع إلى أقفاصها والنفخ فيها. فجرى الكلب بينجو نحوها واصطدم بها رغم فارق الحجم لصـــالحها، وحين تنفست فى القفص مرة أخرى، أطلِق نباحاً مرتفعاً واندفع نحوها مــرة أخرى. فغادرت ماريا الحجرة. وكانت دهشة توماس كبيرة؛ لأن بينجو كان خاضــعاً لماريــا ولم يعارضها عادة بأية حال. وسواء كان دافع بينجو هو الرحمة بالفــئران، والببغاوات الصغيرة أو الملكية المتبادلة لها، أو الاعتراض على طيش ماريــا، فإنــه يــبدو من المؤكد أنه كان يريد أن يوقف عدوانها ويجعلها تتصرف بطريقة أفضل مع الحيوانات الأخرى.

ويوحى مراقبو القوطي(*) فى أريزونا، أن لديها نظام تفويض تعبر عنه بصرخات مختــلفة تصــدر عــن الشبل. فحين يضرب حيوان أكبر شبلاً بسبب تلكؤه وراء الفرقة، ينكمش الصغير بخضوع، ويصدر صرخة "لاْ تضربني" التى ربما لا تشير إلى أية مقاومة. وفى مناسبات عدة، حين يرتكب حيوان دون البلوغ التصرف غير المعتاد، وهو محاولة أخذ أحد الأشبال وصفعه، فإن الشبل يطلق صرخة مختلفة ــ فــتأتى أنثى بالغة وتبعد الحيوان غير البالغ بعيداً، وهى بذلك ــ على ما يبدو ــ تؤكد على تقليد بالمساواة نحو الصغار. وقد تكون هذه مجرد مشاعر أشبال مختلفة

(*) القوطي: حيوان أمريكى صغير من أكلة اللحوم.

يتم التعبير عنها فى مواقف مغايرة من التهديد، غير أنها تشير إلى وجود فرق ما. كذلك يلعب فرض البناء الهرمى ومساندته دوراً فى نظم العدالة البشرية.

الرغبة فى السرد

من بين سمات البشر الأخرى هناك الرغبة فى رواية القصص. فالناس يحبون أن يرووا الأحداث، ويسعون بالنميمة ويقومون بالتحليل. كذلك يتحدث البشر إلى الحيوانات وإلى أنفسهم. فهل اللغة فى حد ذاتها تخلق الدافع على السرد، أم أن هذه الحاجة موجودة لدى البشر ولو فى غياب اللغة؟

قيل، إن الحيوانات التى تعلمت لغة الإشارة لا تبدى سوى القليل من الرغبة فى السرد. ذلك أن هيربيرت تيراس قام بإجراء الترتيبات من أجل أن يتعلم الشمبانزى نيم تشيمسكى الإشارة، وقال إن معظم ما كان ينطق به نيم كان عبارة عن تقليد أو شذرات من أشياء كان مدرسوه قد قالوها وأشاروا بها، وزعم أن نفس الشيء يصدق فى حالة جميع القردة التى تتحدث بالإشارة. كما زعم أن قسماً كبيراً من إشارة القردة يتألف من المطالبة بالطعام أو اللعب أو اللفتات العاطفية، مثل الدغدغة والعناق. وهذا العمل، بالإضافة إلى ندرة التواصل اللفظى التلقائي، يمكن أن يدل على قلة الحافز على السرد. وفى مناسبات أخرى، قد يشير نيم إلى أسماء أشياء رآها دون أن يطلب أحد منه ذلك، وغالباً ما يشير تلقائياً إلى أسماء أشياء تعرَّف عليها فى الصور حين كان يتصفح الكتب أو المجلات. وربما كانت هذه أوليات الحافز للسرد، وهى تنتظر التشجيع والتلقائية.

لقد كانت دروس نيم اللغوية مبنية على مكافأته بالطعام وغير ذلك من المكافآت، (كما هو الحال فى معظم هذه التجارب)؛ لذا فليس من المدهش أنه عَبر عن الكثير من مثل هذه الطلبات. ومن الجدير بالملاحظة، أيضاً أن مدرِّسى نيم الأوائل لم يكونوا من الفصحاء فى لغة الإشارة. فكانت غالبيتهم لا تستطيع سوى ارتجال بضع جمل فى أى موضوع مطروح ــ إذ لم يستطيعوا أن يرووا قصة لنيم، أو يحكوا الأحداث التى حدثت لهم فى يومهم، أو يشيعوا نميمة لافتة للانتباه. لقد بدأ نيم فى تعلم لغة الإشارة حين كان عمره خمسة أشهر، لكن لم يتوافر له مدرس طليق (ولم يستمر المدرس الذى حصل عليه بعد ذلك لفترة طويلة) حتى بلغ عمره

ثــلاث سنوات ونصفاً. وليس هذا أمراً غير عادي. فالقردة التى تتبادل لغة الإشارة تربَّت وتعلمت بواسطة بشر يستخدمون لغة إشارة بدائية إلى حد كبير. ولم ينشأ أى منها فى بيئة تتمتع بالفصاحة فى الإشارة. افترض أن طفلاً تمت تربيته عن طريق إنـــاس يـــتحدثون لغة البدجين[*]، وافترض أن هذا الطفل ليس لديه رفاق لعب أو زمـــلاء دراســـة يمكـــنه التحدث معهم. مثل هذا الطفل قد يرسب لغوياً بين أطفال يـــتحدث آبـــاؤهم بحـــرية وفصاحة إلى بعضهم البعض وإلى غيرهم بالإضافة إلى تحدثهم مع الأطفال. فالطفل الذى لم يشاهد قصة تُروى، قد لا يروى قصصاً، غير أن هذا لا يدلل على حدود القدرة البشرية على رواية القصص.

ويذكر تيراس أنه حين كان نيم يتقابل مع متحدثين فصحاء بالإشارة، كان يتصلب فى مكانه. إذ كان يحملق كالمسحور لمدة تقرب من خمس عشرة دقيقة (وهذا وقت طويل بالنسبة لشمبانزى صغير) حين كان يشاهدهم يتحاورون. وعلى النقيض، فإن الـــلغة المنطوقة لم تكن تلفت انتباهه لأكثر من بضع ثوان. ويلاحظ تيراس، أن نيم حيـــن بـــلغ مـــن العمر ثلاث سنوات ونصفاً، حصل أخيراً على مدرس طليق فى الإشـــارة ــ وكـــان مدرســـه الـــرابع والخمسين تقريباً ــ وكان يمر بالفعل بسنى المـــراهقة. ويعـــتقد تيراس أن قدرة نيم على التحدث بالإشارة ربما كانت قد حققت تقدمـــاً أسرع، لو أنه تعايش أكثر مع متحدثين طلقاء بالإشارة فى سن مبكرة. فلقد تبـــنت واشو ابناً، وكانت أول من تعلم لغة الإشارة من بين القردة، وهذا الابن هو لوليـــس، الذى تعلم لغة الإشارة، ليس على يد مدرسين من البشر، وإنما من واشو وغيـــرها مـــن القـــردة فى مستعمرتها. غير أن واشو نفسها لم تتعلم الإشارة من مـــتحدثين طلقاء. ويجوز أن القردة لم تواجه قدراً كافياً من التحدى يجعلها تكتسب الطلاقـــة فى لغة الإشارة. فإذا كان الأمر كذلك، فلا يوجد بعد اختيار لدرجة وجود الرغـــبة فى الســـرد لديها. ولقد شوهدت شمبانزى تتحدث بالإشارة، باستثناء نيم، وهى تشـــير إلى حـــد كبير فى بدائيات السرد (كما تشير إلى بعضها البعض حتى حين لا يوجد بشر فى المكان كما تتحدث إلى نفسها، مثل البشر الذين تم تصويرهم عن بُعد بالفيديو). لقد التُقط فيلم لواشو وهى فى أعلى إحدى الأشجار، وهى تختفى

---

[*] البدجين: لغة بسيطة للتواصل بين أشخاص يتحدثون لغات مختلفة.

عن رفاقها من البشر، وتشير "هدوء" إلى نفسها. وقد تصف نشاطها لنفسها، مشيرة "أنا فوق" ثم تجرى فوق أحد الجدران. كما شوهدت وهى تتحدث حديثاً خيالياً حين تلعب وحدها. فموجا التى تعرف كلمة كيس أو حافظة نقود معرفة تامة، وضعت فى إحدى المرات، كيساً على قدمها وأخذت تدور حول المكان وهى تشير "هذا حذاء" وهكذا تبدأ أوّليات المجاز.

ويُعتبر النحل، بمعنى ما، قصّاصاً بارعاً، حيث تجعل أعضاء الخلية الآخرين تعرف أين توجد أفضل الزهور، وكيف تصل إلى هناك. ومن الاكتشافات التى أحدثت انقلاباً، ما قام به كارل فون فريش عن التواصل الرمزى الذى يستخدمه نحل العسل:

فالنحلة التى تجد أزهاراً تؤدى رقصة حين تعود إلى الخلية، وهذه الرقصة تُخبر غيرها من النحل مدى بُعد الزهور، وفى أى اتجاه. يكتب دونالد جريفين قائلاً: "فى مناخ الرأى العلمى الذى كان سائداً منذ أربعين عاماً كان الشخص يُصاب بالذهول وعدم التصديق، إذا ما قال له أحد إن مجرد حشرة يمكنها أن تنقل لرفاقها اتجاه شيء ما ومسافته وقيمته". غير أن هذا هو بالضبط ما يفعله النحل.

ولقد تعلم قردا الشمبانزى شيرمان وأوستين، التواصل عن طريق رموز مضاءة على إحدى اللوحات. وتلاحظ الباحثة سو سافيجر إمبو أنهما يستطيعان استخدام هذه الرموز للادلاء بتعليقات تلقائية عن أفعالهما القادمة وعن الأحداث التى تجرى من حولهما، غير أنهما قليلاً ما يفعلان نوعاً ما. وتكتب رامبو: "إن سلوكها يوحى بأنه من الصعب عليها أن تفهم أن الآخرين ليست لديهم إمكانية التوصل لنفس المعلومات التى توصلت هى إليها. ففى النماذج اللغوية المستعملة للتشجيع على التواصل بينها، كان من الضرورى دائماً بالنسبة إليها أن تمر بأدوار المتحدث والمستمع لعدة مرات قبل أن يوحى سلوكها، كمتحدثة، أنها تعلم أن المعلومات التى لديها ليست لدى المستمع". وبينما عرف شيرمان وأوستين جهل المستمع فى مواقف معينة، إلا أنهما على ما يبدو لم يُعمّما ملاحظاتهما، وإن كان هذا ممكناً. إذ إنهما تعلما أن يشارك كل منهما الآخر الطعام، بطريقة بعيدة جداً عن طريق الشمبانزى وصارا يستمتعان بذلك استمتاعاً عظيماً، رغم ما كان يُعتقد بادئ الأمر من صعوبة تعليمهما ذلك. وربما أمكن تعليمهما السرد بطريقة مشابهة.

وقـد لا تُظهر القردة العليا مطلقاً قدرات لغوية تزيد عما لديها الآن، وربما كانت هذه آخر حدودها اللغوية. ولعل الدافع إلى إفشاء السر، أو الزَّهو أو إعادة السرد أو اختلاق الأساطير، خاصية بشرية حتى الآن، لكن ما نعلمه من الضآلة بحيث لا يجوز الاعتماد عليه. فلو حدث أن ذهب البشر بهدوء إلى الغابة وأصغوا لما يتم تناقله بالفعل، لعرفوا المزيد، بدلاً من خلق ظروف معملية لتعليم القردة التواصل فى ظلها مع البشر بلغتهم أو أية لغة بديلة مشتقة منها. وبعض أكثر الحيوانات إصداراً للأصوات قليلاً جداً ما تفهم. إذ إن بعض أنواع الحيتان صاخبة، لا تتوقف على الصراخ بشتي أنواعه، من الزمجرة إلى النخر إلى الارتعاش والخوار والسقسقة والأنين والنُباح والصفير، بالإضافة إلى الطرقعة مع الصدى لتحديد المكان والأزيز. وقد يكون معنى هذا "هأنذا، فأين أنت؟". ويطرح جيم نولمان رؤية بديلة تعليقاً على اكتشاف العالم د. روجر باين أن الحيتان الحدباء قد تعيد ترديد أغنيتها كاملة عاماً بعد عام، "مع فروق ضئيلة لكن واضحة ويمكن تمييزها. وفى هذا مثال واضح كل الوضوح على التراث الصوتي. وينطوى على حقيقة أن الحيتان الحدباء تملك ـ على الأقل ـ أوّليات الثقافة المكتسبة". ولعلها تصدر فى أصواتها عن تواريخ أنواعها.

إن البحث عن انفعالات يشعر بها البشر ولا تشعر بها الحيوانات الأخرى بحث قديم. والسير فى الاتجاه المعاكس، أى البحث عن انفعالات تخص الحيوانات ولا تخص البشر، يناقض الافتراض المألوف بأن الإنسان هو أكمل ما وصلت إليه عملية النشوء والارتقاء وأكثر مُتلقِّى هبات الطبيعة حظاً. غير أنه من المستحيل تجاهل الكثير من الأشياء التى تملكها بعض الحيوانات ولا نملكها نحن. وبعضها نعتز بعدم وجوده: كالذيول والفراء والقرون، وبعضها لا نبالى به مثل حاسة الشم القوية، وبعضها نحسد الحيوان عليه كالأجنحة.

الانفعالات الخاصة بالحيوانات

تملك بعض الحيوانات حواس لا يملكها البشر، وهى قدرة لم تُكتشف سوى حديثاً. وثمَّة حواس حيوانية أخرى مازالت لم تُكتشف. ومن ثَمَّ، هل توجد مشاعر تحسها الحيوانات ولا يحسها البشر؟ وإذا كان الأمر كذلك، فكيف لنا أن نعرف؟ الأمر فى حاجة إلى التواضع العلمى والإبداع الفلسفى ولو لفَتْح الطريق أمام الإجابة.

لاحـظ جـورج شالر أن لبؤة تركت أشبالها الصغار الثلاثة تحت شجرة ساقطة. وبينما كـانت بعيداً، قتل أسدان من جماعة أخرى تلك الأشبال. فأكل أحد الذكور جـزءاً مـن أحدها. وحمل الآخر الثانى بعيداً، وأخذ يمسك به وكأنه يمسك بوجبة وليـس بشـبل. وكان يتوقف من وقت لآخر كى يلعقه، ثم آواه بعد ذلك بين فكيه. ومرت عشر ساعات، دون أن يأكله. وعندما عادت الأم ورأت ما حدث ، تشمَّمت آخر شبل ميت، ولعقته، ثم جلست وأكلته كله، عدا الرأس والمخالب الأمامية.

لقـد تصـرفت هذه اللبؤة كواحدة من الأسود. وليس كالبشر. ولكن فَهْم ما تفعله الحيوانات، يجعل تصرفها جزءاً من الصورة. لعلها أحست بأنها اقتربت من نسلها الميت حين عاد جزءاً من جسدها مرة أخرى. أو أنها تكره المُخلَّفات، أو تزيل كل الفوضـى التى نتجت عن أشبالها، كجزء من حبها لهم. وربما كان هذا الفعل طقساً من الطقوس الجنائزية عند الأسود. أو لعله شيء لا يحس به سوى الأسود.

وتسـلك الأفيال سلوكاً يُسمى "الصخب التناسلي". فحين تكون أنثى الفيل فى حالة شـبق، تُطلق نداءً مرتفعاً من حيث القياس الصوتى شديد الانخفاض بالقياس للأذن البشـرية. وحيـن يسـمع أقربائها النداء تُهرع إلى موقع الحدث وتصدر أصواتاً مـرتفعة، ويـبدو عليها الهياج والإثارة، فيتبع ذلك الضجيج والفوضى وقد تنجذب أفيال أخرى من الذكور. أما الجماعات الغريبة عنها، فإنها تتجاهل النداء أو تغادر المـنطقة. وتعلق المراقبة جويس بول قائلة: "بيولوجياً، نستطيع القول إن الصخب التناسلى يفيد فى جذب المزيد من الذكور إلى الأنثى الشَّبِقَة... مما يزيد من فرصة قـدوم فحل أكثر سيطرة وإبعاد الفيل الذى يحرسها، فينتهى الأمر إلى أن يكون هو الفيـل الـذى يقـوم بالفعل بإخصابها. وقد خطر لى أن الصخب التناسلى أكثر من مجـرد ذلك، ولكن تحديد ما إذا كان لهذا علاقة بالتبعية الإقليمية لعملية التناسل أو كان نوعاً من المساندة للأنثى الشبقة أو شيئاً آخر تماماً، فهذا ما لا أستطيع أن أدلى بـرأى فيـه". فما انفعالات أقرباء الأنثى، أى التى تحدث الصخب؟ لا توجد إجابة واضـحة على هذا السؤال. وربما كان الشعور مزيجاً من الانفعالات الكثيرة، منها المعروف ومنها المجهول.

وبعـد ثلاثين عاماً من العمل مع الشمبانزي، لا يزال روجر فوتس يشك فى أن لديهـا انفعـالات ليسـت لدى البشر. وفى الحقيقة، لو تم اكتشاف انفعالات جديدة

مجهولـــة، فالأرجح أن تُكتشف فى الحيوانات الأقل شبهاً بنا من القردة العليا. ففى إحـــدى أمســـيات الـــربيع، راقب جورج شالر حيوان باندا(*) صينية برية عملاقة أسماها زهين ــ زهين، وهى تأكل وبالرغم من أنها أحست به، إلا أنها اتكأت على بعـــض أعـــواد البامبو وأصدرت "أصواتاً كالنفير" وراحت فى نوم عميق. فذُهش لمظهرها غير المبالي:

حيـــن أقـــابل غوريلا أو نمراً أستطيع أن أشعر بالعلاقة التى تربطنا عن طريق الانفعـــالات التى تعبر عنها هذه الحيوانات، من فضول، وود، وغضب، وتوجُّس، وحنق وخوف وكلها انفعالات ينم عنها الوجه، والجسد. وعلى النقيض من ذلك، كنا أنا وزهين، حيوان الباندا، معاً ولكن يفصلنا عن بعضنا فراغ هائل لا أمل فى ملئه. فمشـــاعرها مـــنيعة يصـــعب اختراقها، وسلوكها يستعصى على التأمل. والتجارب الانفعاليـــة لا يثريها إلا الرؤية الذهنية النافذة. لكن مع زهين، فأنا أكاد أعود خالى الوفاض من جبل مليء بالكنوز.

وليـــس معنى هذا استحالة فهم حيوانات الباندا: ومازال شيلر يؤمن بأنه يستطيع اكتساب الفهم "ولكي أفهمها سأكون فى حاجة إلى تحويل نفسى إلى باندا، غير واع بنفســـي، مركـــزاً عـــلى أفعالها وروحها لسنين عديدة، ولعلّى فى النهاية، أستطيع الحصـــول عـــلى أفكـــار جديدة"، وهو يخشى ألا يطول البقاء بالباندا حتى يفهمها البشر.

الانفعالات اللاشعورية

حـــتى إذا كـــان لـــلحيوانات انفعـــالات، فإن البعض يجادلون بأنها لا تحس بها بالطريقة التى يحس بها البشر، لأنها تعجز أن تكون واعية بها، أو أن تخرجها إلى حيِّز الشعور وتعبر عنها لأنفسها. فقد يكون أحد الأفيال حزيناً، كما يقولون لكنه لو عجـــز عن أن يقول حتى لنفسه، "إنى حزين"؛ فلن يكون حزيناً بنفس الطريقة التى يحـــزن بهـــا أحد الأشخاص ــ الذى يستطيع أن يصف الحزن، ويتوقعه، أو يخسر جـــدالاً فيحـــزن. ولـــو صـــح هذا، لكانت اللغة سبب ارتباطهم الكبير بمشاعرهم

(*) باندا: حيوان ثديى ضخم من حيوانات التبت.

وضعفهم نحوها. ومن العبث عندئذ أن نجزم تماماً بأن الانفعال الذى لا يمكن التعبير عنه بلغة نعرفها، لا يمكن الإحساس به بنفس الحُدَّة.

ويعتقد البشر أنهم يعلنون من انفعالات لا واعية ولا يمكن تحديدها، ولا يعنى هذا عدم أهمية هذه الانفعالات أو عدم إمكانية الشعور بها حقاً.بل من الوارد القول بأن اللغة تضع الانفعال على مسافة معينة، وأن مجرد القول "إنى حزين" فى حد ذاته بكل ما للكلمة من معانٍ، يدفع ذلك الشعور بعيداً ولو مسافة قصيرة، وقد يجعله أقل وطأة وأقل خصوصية. ويصف هيربرت تيراس ما يمكن أن يكون مثالاً حقيقياً على دفع اللغة للشعور بعيداً فى حالة الحيوان:

ظهرت استخدامات غير متوقَّعة لبعض إشارات نيم. وهناك إشارتان منها على الأقل، وهما: (يعض، وغاضب)، كانتا كأنهما بديل عن التعبير الجسدى عن هذه الأفعال والانفعالات. ذلك أن نيم تعلم (يعض وغاضب) من صورة فى أحد الكتب بها حيوان يعض يداً ويُظهر وجهاً غاضباً. وفى أثناء سبتمبر، عام ١٩٧٦، بدأت إيمى ما يُعتقد أنه تحوّل طبيعى إلى لورا. ولسبب ما، رفض نيم التخلّى عن إيمى فحاول إبعاد لورا. وحين أصرت لورا على محاولة التقاطه، تصرف نيم وكأنه على وشك العض. إذ انسحب فمه إلى الوراء فبدت أسنانه العارية، واقترب من لورا وقد (وقف) شعره. لكنه بدلاً من العض استخدم إشارة العض عدة مرات، مقترباً منها وعلى وجهه تعبير شرس. وبعد هذه الإشارة، بدا عليه الاسترخاء ولم يعد مهتماً بمهاجمة لورا. وبعد ذلك ببضع دقائق، تحول إلى لورا دون أية علامة على العدوان. وفى مناسبات، شُوهد نيم يستخدم إشارات (يعض وغاضب) كتحذير.

وعالم الانفعال ـ حين تنحى اللغة المشاعر بعيداً ـ يُعتبر عالماً غريباً من البشر أحياناً، لكنه قد يكون عالماً تحيا فيه الحيوانات حياة أكثر اكتمالاً.

كثافة الانفعالات

إن مسألة ما إذا كانت بعض الحيوانات تشعر بالانفعالات بشكل أكثر كثافة أو أقل من البشر، تعتمد على الانفعال موضع التساؤل. فمما لا شك فيه، أن الحيوانات تحس بالشفقة نحو بعضها البعض، بل أحياناً تتجاوز حاجز النوع، لكن من

المُستبعَد ــ وإن لــم يكن من المستحيل ــ أن تشعر الحيوانات بهذا الشعور بنفس الكثافة كمــا يفعــل البشر. ومما يُشك فيه، أن تعبأ الدرافيل كثيراً ببشر يذبحون بعضهم بعضاً كما يهتم البشر بذبح البشر للدرافيل. غير أن السبب فى هذا قد يرجع إلى انعــدام الوسيلة عند الدرافيل للتوصل إلى المعلومات ذاتها التى تتوافر للبشر. وربمــا كانت تعلم لكن لديها قواعد عدم تدخل فى شئون البشر. أو لعلها حقاً غير مبالية، أو تستغرق وقتاً فى تكوين رؤيتها.

ومــن ناحية أخرى هناك بعض الانفعالات، التى يستشعرها البشر بحدَّة أقل منها عــند بعــض الحيوانات. ويوجد الكثير من الناس لديهم إحساس بأن قدرة الحيوان عــلى الفــرح، أكــبر مــن قدرة البشر. ومن بين تفسيرات شيوع مشاهدة الطيور والاستماع إليها الرغبة فى الاستمتاع بتغريدها، فهى تبدو فَرِحَة. كما كتب جوليان هكسلى فى معرض وصفه لتودُّد طيور مالك الحزين إلى بعضها، وهى تلف رقابها الطويلة معاً: "عن هذا لا أستطيع إلا القول بأنها بدت وكأنها وصلت إلى درجة من الانفعال جعلتنى أتمنى أن أكون مالك الحزين حتى أمُرَّ بهذه الخبرة الانفعالية".

لقد كانت كثافة الانفعالات بين الحيوانات مصدراً دائماً لحسد البشر لفترة طويلة. إذ يكــتب جوزيــف وود كرتش: "من الصعب أن أفهم كيف يمكن للمرء إنكار أن الكــلب إلى جــانب تطلُّعه للنزهة مع سيده، يمر بتجربة من الفرح ليس فى إمكاننا تصــورها نــاهيك عن أن نشاطره فيها. وبالطريقة نفسها، فإن حزنه لا يمكن أن يكــون أقل عمقاً. إن نوع التفكير الذى نقدر عليه يظلم كلينا فى الوقت نفسه بحيث لا يجعلــنا ضحايا لأى من الفرح أو الحزن. ويتساءل المرء: هل هناك أى إنسان يكون فى حالة كآبة كلب تائه؟ ربما كانت هناك حيوانات معينة يمكن أن تكون أكثر فرحاً وأشد اكتئاباً من أى إنسان".

ولفحــص مسائل كهذه، يجب على المرء أن يعامل الحيوانات كأعضاء من نوع آخــر. ذلــك أن معاملــتها كآلات أو أناس، تحط من شأنها. فالخطوة الأولى هى الاعتراف بحياتها الانفعالية، كما أن إدراك أن حياتها الانفعالية شيء خاص بها ولا ينطــبق علينا هى الخطوة الثانية. وفى الوقت نفسه، رغم عدم وجود مثيل للإنسان مــن حيث إدراكه، وكونه مخلوقاً ذا ثقافات محكمة، إلا إننا من الناحية الانفعالية لا نقف وحدنا بأية حال. فهل هناك ما يدعونا إلى فهم عالم انفعالات الحيوان، ذلك أن

العالم الذى يحتل مستوى غير محسوس فى مكان ما بين العوالم القابلة للقياس، بين مستوى الأوكسيتوسين فى دم القطة وصوت الخرخرة الصادر عنها؟ ولم لا نتوقف عن الافتراضات التى نفترضها عن أسباب سعادة القطة؟

الإجابـــة على ذلك هى أن الانفعالات، بمعناها الحقيقي، موجودة فى عالمنا وفيما نهـــتم بـــه ونحـــبه. ولا يمكن فهم حياة البشر دون فهم الانفعالات. ومن هنا، فإن العـــزوف عـــن قضـــايا انفعالات الحيوانات عزوفاً مطلقاً بصفتها مناطق لا يجوز الاقتراب منها ولا يمكن قياسها بدقة، إن هو إلا عجز فكرى غير منطقي.

عبر حواجز الأنواع

فى يـــناير عـــام ١٩٩٨، وجـــد بعـــض رواد الغابـــات عند تجوالهم فى غابات ميتشـــيجان، دبـــة سوداء وصغيرين، خرجت حديثاً من البيات الشتوي، وانكمشت تحـــت الأشـــجار. فبدءوا فى التقاط الصور الفوتوغرافية، وحين بدا أن الدبة ليست نشـــطة بالقدر الكافى لتحقيق أغراضهم الفنية، صاحوا، ولكزوها بالعصي. فجرت بعيداً تاركة خلفها طفليها البالغين اثنى عشر أسبوعا.

فاقـــتفى حراس الغابة الدبة وانتهوا إلى أنها لن تعود. ووافق عالم الأحياء البرية الطـــليقة ليـــون روجرز، فى غابة سوبرناشونال بمينيسوتا، على أن يحاول إيجاد أبوين للصغيرين. فحمل روجرز جيري، الدبة الأنثى الصغيرة وسار فى الغابة مع أحد المصورين حتى عثروا على تيري، وهى دبة برية لها صغيران ومعتادة على وجوه البشر. فأظهر روجرز لها الأنثى الصغيرة وهى تبكى بحرقة. ويتذكر قائلاً: "ألقيـــت بها إليها فأرادتها على الفور". فجرت الدبة الصغيرة من الدبة الغريبة إلى البشـــر، ومما أخاف المصور، أن الدبة تسلقت ساقيه وكأنها تتسلق إحدى الأشجار. وبيـــنما كان يقف متجمداً من فرط الرعب، وقفت تيرى وأخذت الدبة الصغيرة فى فمها، وانتزعتها من ساقه وحملتها عائدة إلى العرين. وكذلك نجح تبنّى أخى جيرى مـــع دبـــة أخـــرى. لقد كانت تيرى أماً طيبة، وجالت جيرى فى الغابات الشمالية وتعـــلمت أن تبحث عن الطعام وتدخل تلال النمل وتسافر لمسافة أربعين ميلاً إلى مكـــان بـــه فستق، وتأكل النباتات المائية وتنام تحت شجرة صنوبر. وكبرت وهى تستخدم جزءاً من أرض تيرى وصار لها أطفال من صلبها.

وأثناء فترة خلاف بين روجرز والجهات الحكومية، اتهم المسئولون جيرى بمهاجمة البشر. فأُسرت ومعها صغير واحد. ولما وُضعت جيرى فى أحد الأقفاص، ظلت تئن بلا توقف. ويقول روجرز: "لقد كانت تبكى طوال الوقت، ثم حين أمسكنا بالصغار الآخرين ووضعناها فى القفص معها، تحسنت حالتها منذ هذه اللحظة". وخطط المسئولون لشحن الدبة إلى مزرعة لتربية الدببة، حيث يمكن استخدامها فى تربية الصغار للبيع، وحيث تُقلم أصابع أقدامها لدواعٍ أمنية. وفزع روجرز لذلك، وتمكن من تدبير إلحاقها بحديقة حيوان صغيرة، حيث تعيش على قطعة أرض مغلقة صغيرة. وقد أُطلق سراح صغارها فى غابة من غابات نورث كارولينا، بعد أن بلغت الصغار عمراً يؤهلها لذلك.

ويقول روجرز فى نبرة حزينة: "لقد كانت هذه دبة جديرة جداً بالثقة حتى مع الصغار، وكنت أحتضنها بين ذراعيّ... فلا تفعل سوى الاسترخاء والنظر حولها" أما تيري، فقد ذهبت إلى غابة غير محمية ترعى فقنصها أحدهم ببندقية. فى هذه القصة لا علاقة بين مصدر المأساة وبين الدببة، إنما هى أخطاء البشر. إن الحياة الانفعالية لهذه الحيوانات ليست بعيدة عن متناولنا. فإنكار رعب الدب الصغير المهجور، والترحيب العاطفى للأم المتبنّية تيري، ويأس جيرى حين فقدت اثنين من صغارها يُعتبر تحدياً للمنطق والمصداقية.

إن الفضول حول مشاعر الحيوان، الذى يحاول العالم تدريب طلابه عليه، يمكن أن ترد عليه الحيوانات عملياً بالمثل. فحين كانت إليزابيث مارشال توماس تمعن فى مراقبة الأسود البرية، كانت الأسود تمعن فى مراقبتها أيضاً. ففى أثناء النهار، كان العلماء يراقبون الأسود وهى نائمة. وفى الليل، دلت الآثار على أربعة أسود اقتربت من السياح وأخذت تحملق فى العلماء النائمين. وعندما فحص الناس فضلات الأسود، حفرت الأسود بدورها المراحيض التى يستخدمها البشر وأخرجت ما تحتويه، وفى بعض الأحيان كانت تضيف إليها من فضلاتها. والشمبانزى التى تتغلب على خوفها من البشر، تُظهر فضولاً كبيراً لمعرفة سلوكهم، وإن كانت لا تتفرغ تماماً لهذا العمل وتتخصص فيه.

وفى النهاية، عندما نسأل عن إمكانية نسبة الانفعال للحيوان فلا يجب أن يكون سؤالنا: "هل نستطيع إثبات أن كائناً آخر يستطيع الشعور بانفعال ما أو أى

انفعـــال؟"، وإنما يجدر بنا أن نسأل: "هل هذا الحيوان بالتحديد يشعر بهذا الانفعال بالتحديد هذهٌ اللحظة بالذات؟" فإذا رأينا فيلاً بجوار فيل يُحتضَر، فلا يجب أن يكون رد فعلـــنا أن نقول إننا لا نملك طريقة نقيس بها الأسى، وعليه فلا يصح أن نتحدث عــن الحزن عند الأفيال. ويمكننا، بدلاً من ذلك، القول بوجوب مراقبة سلوك الفيل ـــ مـــن حيـــث نداءاتـــه ولغته الجسدية، وأفعاله، ونتساءل عما إذا كانت تدل على تعاسة الفيل. والتاريخ الشخصى لهذا الحيوان يرتبط بهذا التساؤل، فهل كان الفيلان غريـــبين عـــن بعضهما، أو قريبين لبعضهما، أو من أسرة واحدة؟ وحتى لو كانت الحيوانـــات عـــلى حد علمنا لا تروى القصص، فهى تحياها بكل ما فيها تماماً كما نفعـــل نحـــن البشـــر. ويوحى التواضع العلمى بأن الفهم التام للحيوانات قد يكون مســـتحيلاً. غيـــر أنـــنا نستطيع الاقتراب كثيراً من ذلك لو لم نصر بداية على أننا نعـــرف مـــن خصائصها أكثر مما نعرفه عن خصائص لا تتوافر لها. ولكى نتعلم شـــيئاً عـــن الحيوانات فلابد أن نتقبلها، كما هى وفقاً لطبيعتها الخاصة؛ وطبيعتها الخاصة تنسحب على مشاعرها أيضاً.

الخاتمة

الحياة فى العالم مع مخلوقات ذات مشاعر

جيفرى موسابيف ماسون

مـــاذا يعـــنى اكتشاف أن الحيوانات تعيش حياة انفعالية؟ هل يجب علينا أن نغير علاقتـــنا بهـــا؟ وهـــل لدينا التزام نحوها؟ وهل اختبار المنتجات المعدة للبشر على الحيوانـــات شـــيء يمكـــن الدفاع عنه؟ وهل إجراء التجارب على الحيوانات شيء أخلاقـــي؟ هل نستطيع أن نقيدها لتعليمنا؟ أو نقتلها لاستخدامها غطاءً لنا أو صيانة أو زينة؟ وهل يجب أن نتوقف عن أكل الحيوانات التى تحيا حياة اجتماعية معقدة، والقادرة على الحياة العاطفية معاً، وتحب أبناءها حباً شديداً؟

يتصـــرف البشـــر غالـــباً على أن الاحترام شيء لا يستحقه سوى من هو مثلنا. ويمكـــن وصف العنصرية نوعاً ما بهذا الوصف لو لم نتوسع فى شرحها. فالرجال يعاملون غيرهم من الرجال أفضل من معاملتهم للنساء، وهذا قائم ـــ جزئياً ـــ على نظـــرتهم بـــأن النساء لسن مثلهم. والكثير مما يُسمَّى فروقاً ما هو إلا أقنعة لفرض السيطرة.

ويـــبدو أن الفكرة الأساسية أنه إذا كان هناك شيء لا يستشعر الألم بالطريقة التى لا يستشـــعره بها البشر، فمن المسموح به إيذاؤه. وبالرغم من أن هذا ليس صحيحاً بالضرورة، فإننا نحافظ على وهم وجود فرق خوفاً من أن تؤدى رؤية التشابه إلى خـــلق الـــتزام بالاحترام، بل وربما المساواة. ويبدو أن هذه هى الحالة خاصةً حين

يكــون الأمر متعلقاً بالمعاناة، والألم، والحزن والأسى. فنحن لا نريد أن نحدث هذه الأشــياء فى الآخــرين لأنــنا نعرف الإحساس الذى تسببه لنا إذا ما حلت بنا نحن أنفســنا. فــلن يدافع أحد عن المعاناة بهذا المعنى. فماذا عن إجراء التجارب على الحيــوان؟ هــنا يدور الجدال حول المنفعة، أى تقديم المصلحة العامة على المعاناة الخاصــة وهذا يعنى ضمنياً عادة أن من يجنى المنفعة أجدر بالاهتمام ممن يتحمل العــبء (كالعلماء الذين تستخدمهم شركات مستحضرات التجميل أو المستحضرات الطبية لإجراء التجارب على الأرانب).

وفى أغــلب الأحيــان ينفى من يجرى التجارب على الحيوان حتماً أن الحيوانات تعــانى كما يعانى البشر وبالطريقة نفسها.وإلا فإنه يكون قد سلم بقسوته. والمعاناة التجريــبية لا تُفــرض عشــوائياً دون رضاء البشر، بل هناك من يدافع عنها من مــنظور أخــلاقى بدعــوى أنهــا تجلب نفعاً كبيراً للآخرين. (لعلها لم تعد كذلك) فالحيوانــات تعاني. فهل نستطيع، أو هل يجب علينا قياس هذه المعاناة، ومقارنتها بمعاناتــنا، وإذا كــانت مــثل معاناتنا، فهل يصح أن تستمر؟ فكما كتب روسو فى حديث عن أصل الظلم عام ١٧٥٥، "يبدو أنى إذا التزمت ألا أجرح أى كائن مثلي، فــليس هذا راجعاً إلى حد كبير إلى حقيقة أنه كائن عاقل، بقدر ما يرجع الأمر إلى أنه كائن حساس". وفوق ذلك، لماذا يجب أن تكون المعاناة مثل معاناتنا حتى نبرر منعها، فلقد قيل إن البشر يحسون بالآلام بشكل أكبر، لأننا نتذكره ونتوقعه، وحسب تعبير روسو نحن "عاقلون". لكن لم يثبت بعد عجز الحيوانات عن التذكر والتوقُّع.

ولكــن حتى إذا كانت الحيوانات لا تستطيع أن تتذكر الألم أو تتوقعه، فليس هناك مــا يدعونا إلى افتراض أن معاناتها أقل من البشر ــ فهى "حساسة"، بل هناك ما يبرر افتراض أن بعضها قد يعانى معاناة أكبر. فعلى سبيل المثال، يشير الفيلسوف الــبريطانى بــريجيد بروفى إلى أن: "الألم من المحتمل أن يشحن قدرة الغنم على اكتســاب الخبرة بطريقة نادراً ما تحدث معنا، ذلك أن عقلنا وخيالنا يمكن أن يَحُولا جــزئياً دون الاتصــال المباشــر بمشاعرنا". ولكن أليست حقيقة أنها تعانى بالقدر الكــافي؟ وحيــن كان داروين يتحدث عن الصلة بين المعاناة والإيثار عند الحيوان كــتب يقول: "فى آلام الموت، يُعرف عن الكلب أنه يعانق سيده، ولقد سمع الجميع عــن الكلب الذى كان يعانى تحت وطأة التجارب، ومع ذلك لعق يد عامل المعمل،

وكان يجدر بهذا الرجل أن يشعر بالندم بقية حياته ما لم يكن هناك مبرر قوى جداً لما يفعله بدافع من زيادة معرفتنا، وإلا كان قلبه كالصخرة الصماء". كان داروين يتحدث عن الحيوان. من واقع الملاحظة. أما فيما يخص البشر، فقد كان متفائلاً.

وكثيراً ما قيل، لو كانت المذابح من الزجاج لصار معظم الناس نباتيين. كذلك لو عرف الجمهور ما يجرى داخل معامل التجارب على الحيوانِ، لأُلغيت هذه المعامل. وعموماً، فإن التوازى ليس دقيقاً. فالمذابح خفية لأن الجمهور هو الذى لا يريد أن يراها. والجميع يعرف ما يجرى داخلها، وإنما هم لا يريدون أن يواجهوا ذلك ببساطة. غير أن معظم الناس يعرفون كيف تُستخدم الحيوانات فى التجارب. كما أن المذابح تسمح بدخول الزوار. بينما المعامل التى تُؤدى فيها التجارب على الحيوان شديدة التكتم، وبعيدة عن أعين الزوار. وربما يعرف أولئك الذين يديرون التجارب أنهم عُرْضة للإيقاف لو عُرِفَ ما يقومون به حتى من جانب علماء آخرين. ولعلهم أيضاً يشعرون بالخجل. يُعدُّ د. رُوبرت هوايت مدير معمل أبحاث الأعصاب والمخ بمستشفى كليفلاند العام شخصية رائدة فى مجال أبحاث زرع المخ. وهو يصف أبحاثه فى مقال مؤثر تحت عنوان "الدفاع عن إجراء التجارب عن الحيوان" فيقول: "فى عام ١٩٦٤، نجحنا لأول مرة، فى تاريخ الطب، فى العزل الكامل لمخ المخلوقات الأدنى من الإنسان عن جسدها والاحتفاظ به فى حالة جيدة، وذلك بتوصيله بالجهاز الدورى لقرد آخر أو بدائرة آلية تشمل وحدات هندسية مصممة للقيام بوظائف القلب والرئتين والكُلَى، بينما كنا نجرى الدم — فى الوقت نفسه — من المخ وإليه. لقد كانت فرحتنا تفوق الوصف؛ لأن العلماء حاولوا بناء مثل هذا النموذج جراحياً دون أن يحالفهم النجاح على مدى المائة سنة الأخيرة". وفى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن، استطاع د. أليكسيس كاريل الحاصل على جائزة نوبل، مناصفة مع كولونيل تشارلز ليند بيرج، إثبات إمكانية عزل جميع أعضاء الجسم عنه خارجياً... ويجب ألا نغفل أنه عانى من مشاكل مع معارضى إجراء التجارب على الحيوان الذين كانوا يعيشون فى زمانه.

نشرت إحدى جماعات التجارب على الحيوان إعلاناً مدفوع الأجر فى إحدى الصحف رأته إعلاناً جذاباً مشجعاً على التبرع، كان نصه "ألحِق فأراً بالكلية" وتخفى اللغة الغرض من وجود الفئران فى الجامعة، إذ لا يجرؤ مجرو التجارب

على القول: "ازرعوا ورماً فى جسد فأر" كما لا يجرؤون على القول: "أرسلوا قطة أو كلباً إلى الكلية" بما أن الناس لا يحبون التفكير فى الحيوانات المدللة كحيوانات تجارب. ذلك أن الفئران والجرذان لا تُعتبر عموماً حيوانات مدللة بل تعتبر حشرات، لذا فإن أنصارها قلة. غير أن الألم الذى يحسه الفأر أو الجرذ حقيقى تماماً كالذى يحس به أى حيوان مدلل.

فهي، تعانى تماماً فى المعمل ويعرف ذلك كل من سمعها وهى تئن، أو تصيح أو تتقلب، بل وتصرخ. بينما يقول أحد العلماء: "إنما هى تصدر أصواتاً فحسب". وكأن ديكارت لا يزال حياً!!

ربما تعجز هذه الأصوات عن الوصول إلى آذان العلماء، لأنها ليست شكلاً مباشراً من أشكال الاتصالات المعروفة. فحين نتأمل رأى البشر فى الفروق الموجودة بينهمَ وبين الحيوانات، نجد أن البشر يعطون أهمية أُولى للقدرة على الحديث. والكثير من الفلاسفة، يزعم أن تفرُدنا الأرقى يكمن فى قدرتنا على أن نتحدث إلى بعضنا البعض. وهكذا، كان مما صدمهم أن يَعلموا أن ببغاء أفريقية رمادية اللون بسيطة لم "تبغبغ" بالحديث البشرى فحسب، وإنما تكلمت وتواصلت — أى أن الكلمات المستخدمة كانت ذات مدلول. فحين استدارت عالمة نفس الحيوان إيرين بيبربيرج تاركة ببغاءها، فى عيادة أليكس لجراحة الرئة نادتها: "تعالى هنا. أنا أحبك. إنى آسفة. سوف أتراجع". وهو يعتقد أنه أتى عملاً سيئاً وأنه سلم على سبيل العقاب. تصور ماذا يمكن أن يحدث لو أن حيواناً وجَّه الحديث إليك قبل سفك دمه. لو أنه فى أحد المذابح صاح خنزير: "أرجوك لا تقتلني" أو أن غزالة تحدثت فجأة، والقناص يستعد لقنصها: "أرجوك أريد أن أعيش. لا تطلق النار على أطفالى يحتاجون إلىّ". هل سيضغط القناص على الزناد؟ أو أن قطة فى أحد المعامل صاحت: "أرجوك، توقف عن المزيد من التعذيب"، فهل سيكون العالم قادراً على الاستمرار؟ مثل هذا الحديث لم يحل دون قتل سجناء المعسكرات الجماعية أثناء الإبادة النازية، فهناك، كما يُقال، كان البشر قملاً وفئراناً.

ولا يفترض أحد أن الخنزير لا يريد أن يموت. إذ إنه لو تمكن من تجنُّب الذبح لفعل. وهو يحس بالرغبة فى الحياة ويعانى ألم القتل كما يفعل البشر. والفرق الوحيد هو أنه لا يستطيع أن يقول ذلك بالألفاظ. وصرخة الخنزير وهو يُذبح

مرعبة. ويقول الناس إنه يصدر صوتاً أشبه بصراخ البشر. فالخنازير توصل خوفها المرعب إلينا. ولقد قيل حديثاً إن جدياً تصلّب فى طريقه إلى المذبح حين كان على مسافة قريبة منه تسمح له بسماع صيحات الحيوانات. وفر فى المدينة كسجين محكوم عليه بالإعدام. وجعلت رغبته المفاجئة فى الحرية الجميع يتوقفون، حتى حادى قافلة الموت. هل من حق أحد أن يرسل حيواناً للذبح وهو يتمنى من كل قلبه أن يعيش؟ ربما يمكن إنقاذ هذا الحيوان بالذات لكن ماذا عن الآخرين؟ هل لديهم الإحساس نفسه بالطريقة نفسها؟ ولو كان للمقاومة تأثير يُحترم، فهل نقص المقاومة يعطى الحق فى القتل؟ فنحن نعرف ما تريد البقرة؟ إنها تريد أن تعيش. وهى لا تريد أن تُضحى بنفسها لأى سبب. أما عن استعداد البقرة أن تُضحى بنفسها كطعام، فهذا من ضروب الخرافة.

وحين يرفض البشر إيقاع الآلام بغيرهم من البشر، فمن المؤكد أنهم يفترضون أنهم يشعرون. وليس لأن شخصاً آخر يمكنه أن يفكر، أو لأنهم يستطيعون إعمال عقولهم، وليس لأنهم يستطيعون التحدث، فنحن نحترم حدودهم الجسدية، ولكن لأنهم يشعرون. والحيوانات أيضاً تشعر بالآلام، والأسى والإذلال وغير ذلك من الانفعالات، ربما لم نتعرف على بعضها بعد. ونحن لا نريد أن نتسبب فى المعاناة. فإذا كانت الحيوانات ــ كما أعتقد ــ تُحس بالآلام والأسى وغير ذلك من الانفعالات، فلا يمكن تجاهل هذه المشاعر فى سلوكنا نحوها. إذ إن الدب لن يقوم بتأليف سيمفونية بيتهوفن التاسعة غير أن جارنا لن يفعل ذلك أيضاً. ولا يعطينا هذا الحق فى أن نجرى تجارب عليه، أو نقتنصه على سبيل الترويض، أو نتناوله كطعام.

ويبدو أن الفلاسفة المحدثين أكثر استعداداً ــ إلى حد ما ــ من علماء الأحياء للنظر إلى انفعالات الحيوان، بل أصبحوا منشغلين بقضايا حقوق الحيوان. فثمة فلاسفة، مثل ميرى ميدجلي، وبرجيد بروفي، فى انجلترا، وبيتر سنجر فى أستراليا وتوم ريجان، وبيرنارد رولين فى الولايات المتحدة، كل هؤلاء يتخذون موقفاً قوياً مؤداه أن الحيوانات قادرة على الانفعالات المعقدة. وفى عام ١٧٨٩، ربط جيرمى بينثام فى نص مؤثر بين مشاعر الحس والحقوق بهذه الطريقة:

"ربما يأتى اليوم الذى تكتسب فيه بقية الخليقة الحيوانية تلك الحقوق التى ما كان لأحد أن يحرمها منها سوى يد الطغيان. لقد أدرك الفرنسيون بالفعل أن سواد الجلد ليس سبباً كافياً لإهمال الكيان البشرى وتَركه لنزوة أحد المعذبين دون إنصاف، وسيأتى اليوم الذى نعترف فيه بأن عدد الأرجل، أو امتلاء الجلد بالزغب، أو الذيل فى نهاية العجز ليست بالمثل مبرراً لترك كائن حساس يعانى هذا المصير. وما ذلك الشيء الآخر الذى يمثل حداً منيعاً بيننا وبينهم: أهو مَلَكة التفكير، أم، هو ربما، مَلَكة التحاور؟ ولكن الحصان كامل النمو أو الكلب، حيوان أعقل وأكثر قدرة على التحاور من طفل يبلغ من العمر يوماً أو أسبوعاً، أو حتى شهراً بلا شك ولكن لو كان الأمر غير ذلك، فما الذى سيتغير؟ القضية ليست، هل يمكنها أن تفكر؟ أو هل يمكنها أن تتحدث؟ وإنما هي: هل تستطيع أن تعاني؟

ويدافع بيتر سنجر فى "تحرير الحيوان" القائم على مذهب بنثام النفعي، فى القرن التاسع عشر عن مبدأ هو: أن المخلوقات التى يمكنها أن تستشعر الألم، تستحق الحماية من ذلك الألم، وخاصةً من التجريب العلمي، والطرق المؤذية الضارة، وحجة هذه العبارة، أن القدرة على اكتساب خبرات واعية تحتاج إلى الاهتمام بمصالح جميع المخلوقات على حد سواء.. ومع أن هذا يمثل أحد الأسس الأخلاقية، إلا إنه لا يشمل صراحة حقوق الحيوان.

ويذهب توم ريجن إلى أبعد من ذلك، فى كتاب "قضية حقوق الحيوان"، بالدفاع صراحةً عن حماية حقوق الحيوان، "القادرة على أن تكون موضوعاً لحياة ما" إن كل حيوان يُستخدم فى كل تجربة فى كل معمل له قصة حياته الخاصة. ذلك أنه أحس بانفعالات قوية، وأحب وكره، وكان مخلصاً وفياً لآخرين من نوعه. فهو ذات، ومن ثَمَّ فإن معاملته كجماد تُعدُّ انتهاكاً له. فهل لدينا الحق فى نزع هذا الكائن بعيداً عن رفاقه، وعن كل ما يسبغ معنًى على حياته، ونضعه فى بيئة معادية معقمة خالية من الحيوية لكى يتم تعذيبه، وتشويهه وتحطيمه فى النهاية، باسم أى شيء، هل من أجل أداء خدمة لنوعنا؟ أو لأنه يفتقر إلى الحق، هل نكون نحن أصحاب السلطة؟

إن ما نتعلمه من هذه التجارب ليس مفيداً دائماً، للبشر. لقد ذُكر حديثاً فى صحيفة ألمانية للطب النفسى أن أحد الباحثين قد أعطى عقار اللارجاكتيل، وهو مُهدِّئ يؤثر

على تقلص الأعصاب، لحشرة العنكبوت، ونجح إما فى الإنقاص من حجم نسيجها، أو درجـــة تعقده، أو فى إيقاف العنكبوت عن نسج نسيج على الإطلاق. واعتبر هذا المقـــال دليـــلاً عـــلى القيمة العظيمة لأبحاث الحيوان فى مجال علم النفس. فهى تعـــنى ـــ كما قال الباحث ـــ أن العقاقير المضادة للذهان يمكن إعطاؤها للمصابين بالانفصـــام لمـــنعهم مـــن نســـج أنسجة، أى من خلق تخيُّلات فى رؤوسهم. ولكن السـؤال، لماذا يُفرض على العنكبوت، أو البشر، فى هذه الحالة، ألا ينسجوا أنسجة مـــا دامـــوا يميلون إلى ذلك؟ ومن الذى منحنا الحق فى التدخل وإقحام أنفسنا حتى نحطـــم فى النهاية، المنتج الرقيق القادم من أعماق أى كائن؟ ومن الأمور المشكوك فيهـــا أيضاً هو هل ممارسات كهذه تفيد الإنسانية؟ وتستنكر عالمة الكائنات الدقيقة كاثـــرين روبـــرتس تجـــارب هارى هارلو "الشاذة" على قردة الرايس (التى تمت مناقشـــتها فى الفصـــل الرابع)، وتشير إلى أنها "تحط من إنسانية أولئك الذين قاموا بتصميمها وارتكابها". كما أن د. كاثرين لديها تعليق عن تجارب د. هوايت الخاصة بنقل المخ. إذ قالت: "إن تفاصيل تجاربه من البشاعة، حتى إنها تبدو وكأنها وصلت إلى حدود الانحطاط العلمي".

قـــد يكون من العسير تصوُّر العالم الحسى الخاص بنوع آخر، غير أن هذا ليس بمســـتحيل عـــلى الإطـــلاق. ذلـــك أن حاســـة شم الكلب الحادة، توحى أنها تلتقط وتســـتجيب لشـــيء خارج حدود علمنا. فقدرتها على استيعاب معلومات خافية عنا قـــدرة باهرة. كذلك تُعتبر التحولات المزاجية الناتجة عن ذلك محل احترام. فنحن نعلم أننا فى حضور شيء مختلف عنا، ولكنه جدير باحترامنا. فمن أكثر الانفعالات شـــيوعاً والـــتى يشـــعر بها البشر فى حضور نوع آخر هو الرهبة. ذلك أن قدرة الصـــقر عـــلى التحـــليق والسمكة على شق الأمواج، هى قدرة رائعة وباعثة على التواضع.

ومـــن الواضـــح أن الحيوانات تقيم صداقات دائمة، وتخشى القنص، وتفزع من التشـــوه، وتتمنى أن تعود إلى أمان عرينها، وتحس بالبأس من أجل رفاقها، وتبحث عـــن أطفالهـــا وتحميهـــا لأنها تحبها. وكما قد يقول توم ريجن، فى هذا المقام إنها موضـــوعات حياة مثلنا. فمع أن الحيوانات لا تقوم بكتابة سير ذاتية، بالمعنى الذى نفهمها به، إلا أن سير حياتها يمكن أن تُكتب. فهى أفراد وأعضاء فى جماعة، ذات

تواريــخ تفصــيلية مخططة تحدث فى عالم ملموس، وتنطوى على عدد معقد من الحالات الانفعالية. وهى تشعر طوال حياتها تماماً كما نفعل.

وتشـــير جيـــن جودال إلى أن "قردة الشمبانزى تختلف وراثياً عن الإنسان العاقل بدرجـــة لا تـــزيد عـــن واحد فى المائة، وأنها رغم عجزها عن التحدث، إلا أنها تتصرف بأسلوب يشبه أسلوب البشر، ويمكنها أن تُحس بالألم، وتشاركنا انفعالاتنا، ولهـــا قـــدرات عقلية معقدة. وهى تتوسل إلينا كى نتوقف عن استعبادها، وسَجْنها وإيلامهـــا وتعذيبها وأن نحميها بدلاً من ذلك من الاستغلال، ويكتب العالم دوجلاس تشـــادويك: "لـــو كنت قد تعلمت أى شيء من الوقت الذى قضيته بين الأفيال، لكان هـــذا هـــو مـــدى قربنا منها. فدفـء عائلاتها يبعث على الدفـء فى نفسي. كما أن قدرتهـــا على الابتهاج تجعلنى أُحس بالفرح. وقدرتها على تعلُّم الأشياء وفهمها تُعدُّ كشـــفاً مســـتمراً بالنسبة لي. فإذا عجز شخص عن إدراك هذه الملكات عند مراقبة الأفيال، فالسبب هو أنه لا يريد ذلك".

لقـــد عـــرف البشـــر منذ وقت طويل أن الحيوانات لديها القدرة على أن تتواصل انفعالياً معهم. فمن أقدم الحكايات الهندية وأكثرها شيوعاً حكاية تتناول رابطة الحياة والمـــوت بين أحد البراهمة وأحد حيوانات النمس. وهذه هى القصة كما وُجدت فى "محيـــط القصـــص" العظيـــم، الذى كُتب حوالى عام ١٠٧٠ ق. م. وهى مجموعة كشـــميرية: "كـــان أحـــد البراهمة اسمه ديفا مارشان يعيش فى قرية ما. وكانت له زوجة من عائلة ذات شأن، مثله، وكان اسمها ياناداتا. وحملت الزوجة، وفى الوقت المعـــلوم ولـــدت ابناً. ورغم أن البرهمى كان فقيراً، إلا أنه شعر بأنه حصل على جوهـــرة عظيمـــة. وبعد أن وضعت زوجة البرهمى الطفل، ذهبت إلى النهر كى تســـتحم. وبقى ديفا شارمان فى المنزل، يُعنَى بابنه الطفل. وفى تلك الأثناء، جاءت امرأة من ساكنات القصر كى تستدعى البرهمى الذى كان يعيش على هدايا تُقدم له عـــلى أداء خدمـــات ديـــنية..ولكى يحرس الطفل، ترك نمساً ــ وهو أحد الرموز الدينية ــ وكان يربيه فى المنزل، منذ ولادته. وبمجرد أن زحف ثعبان نحو الطفل، رآه النمس فقتله حباً فى سيده.

وعـــلى الـــبعد، رأى النمس ديفا شارمان فجرى نحوه سعيداً برؤيته ويده ملطخة بـــالدم. ولكـــن حيـــن رأى ديفا شارمان الدم، قال لنفسه: "من المؤكد أنه قتل ابنى

الصغير" وفى ثورة غضب وهياج قتل النمس بصخرة. وحين عاد إلى المنزل رأى أن الـــنمس قد قتل الثعبان وأن طفله حى يُرزَق. فأحس بحزن عميق داخلي. وحين عادت زوجته وعلمت بما حدث، وبَّخته قائلة: "لِمَ لَمْ تفكر قبل قتل ذلك النمس الذى كان يوماً ما صديقاً لك؟".

هـــذا هـــو مـــا يسميه جان هارولد (فى كتابه الدوبرمان(*) المختنق) "الأسطورة المدنيـــة"، فهـــو يحكى عن القصة المجازية الشعبية القديمة والتى تتناول الحيوانات الـــنافعة: "مـــن النظائر الأوروبية الكلاسيكية القديمة لهذه الأسطورة حكاية "لولين وجيلـــبرت"، الويـــلزية (نســـبة إلى مقاطعة ويلز) وفيها يوجد كلب الصيد الأمين جيلـــبيرت ملطخاً بالدم ويلهث فى قاعة منزل الأمير لولين. ويُفترض أن الكلب قد قـــتل الطفـــل الذى تُرك ليحرسه، إذ يرى مهده المقلوب من خلال الباب المفتوح. فيذبـــح الكـــلب، غير أنه يعثر على الطفل ولم يمسسه ضرر، أما الدخيل المجهول الـــذى حمى الكلب الطفلَ منه ــ فهو ذئب ضخم عُثر عليه ميتاً داخل البيت نتيجة جهـــود الكلب الدفاعية". ثم يقول ملاحظاً: "مع أن هذه الحكاية موضع تقدير الكثير فى ويـــلز باعتبارها حكاية قومية قديمة ــ أو حتى باعتبارها تاريخاً ــ فإن هذا لا يمـــنع كونهـــا محض افتراء وخيال، أو بالأحرى إعداد ماهر لقصة شعبية عالمية شهيرة جداً كما ذكر المؤرخ بريس مورجان".

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن الأحداث قد وقعت بالفعل. لكن القصة ليست بعيدة الاحـــتمال إلى هـــذا الحـــد. ففى الهند، كثيراً ما يُحتفظ بحيوانات النمس كحيوانات مدلـــلة، كمـــا أنهـــا فى الواقع تفترس الثعابين، بالفعل، بما فى ذلك ثعابين الكوبرا وغيرها من الأنواع الأكثر سُمِّية. ولكن سواء أكانت هذه الأحداث مبنية على حقيقة أم لا، فـــهى تسيطر على خيالنا فى الكثير من الثقافات المختلفة: وهناك نظائر لها فى اللغات المنغولية والعربية والسريانية والألمانية، وفى أغنية إنجليزية لويليام ر. سبنســـر وغيـــرها، تـــتحدث عـــن الإحساس بوفاء الحيوان ووضوحه وبعده عن العجرفة. والإحساس بالذنب، والوعى باختلال الأحكام البشرية. فهل نحن جديرون بحسن الظن فى سلوكنا بحيث نحترم الرباط العميق الذى يستطيع كلب أو نمس أن

(*) دوبرمان: نوع من الكلاب يشتهر بشراسته.

يكوّنـــاه معـــنا. ومـــادام الأمـــر كذلك فالحكاية تعبر، بشكل أفضل من البشر عن الحيوانـــات. وربما كان أشهر القصص الذى يشهد، على الأقل، على الأمل، وربما حقيقة وجود رباط من الصداقة والعرفان، والتراحم بين شخص وحيوان هو القصة القديمـــة أندروكـــليس والأسد. وهى قصة ظهرت قديماً مسجلة باللاتينية فى الليالى الأتيكيـــة لـــ"إيولوس جيليوس" فى القرن الثاني. ومقدمة القصة تدَّعى أنها قصة واقعيـــة: "قصـــة أبيـــون، الرجل المتعلم، الذى لُقِّب باسم بلاستونيكيس، وهى عن العـــرفان المتـــبادل، حيث رأى فى روما أحداث علاقة قديمة بين رجل وأسد وهو يروى هذه الأحداث فى الكتاب الخامس عن عجائب مصر ويعلن أنه لم يسمعها أو يقـــرأها، ولكـــن رآها بنفسه فى مدينة روما". ويحكى جيليوس قصة أبيون، قائلاً: "اعـــتاد الـــناس عـــلى مشاهدة الصراع بين الوحوش على نطاق واسع فى السيرك العظيـــم. وقد كنت شاهد عيان حيث تصادف وجودى فى روما آنذاك. وكان هناك وحـــوش بـــرية ذات مظهر شرس وأحجام عملاقة ووحشية رهيبة. غير أن حجم الأسود الضخم أثار الإعجاب أكثر من غيرها، وتفوّق أحد هؤلاء الأسود، بالتحديد، على غيره بجسمه الضخم.. وأحضر عبد لقنصل(*) سابق.

وكـــان اسم العبد أندروكليس. وحين رآه ذلك الأسد من بعيد توقف وكأن الدهشة قيدتـــه، ثـــم اقترب من الرجل ببطء وبهدوء، وكأنه تعرف عليه. ثم أخذ يهز ذيله بطـــريقة معتدلة ومرحبة على طريقة الكلاب وأسلوبها، واقترب من الرجل، الذى كـــاد يموت، فى تلك اللحظة، بسبب الخوف، ولعق قدميه برقة، وكذلك يديه. عندها كـــان بوســـعك أن تـــرى رجلاً وأسداً يتبادلان التحيات المرحة، وكأنهما قد عرفا بعضهما. فأراد الامبراطور كاليجولا أن يعرف لماذا أبقى الأسد على حياة الرجل. فـــروى أندروكليس كيف أنه فر من سيده فى الصحراء الموحشة واختفى فى كهف بعيـــد. فجاء أسد إلى الكهف بمخلب ينزف دماً، وهو يئن ويتوجع من الألم. ويقول إن أندروكـــليس روى: أن الأســـد "اقترب منى وأظهر المخلب بهدوء ورقة، ورفع قدمـــه إلى وكأنـــه يطـــلب المساعدة". فعالجت جرحاً عميقاً واهتممت بالقدم. "ولما اســـتراح إلى ما أوليته من اهتمام وعلاج، راح الأسد فى نوم عميق، بعد أن وضع

(*) قنصل: قديماً فى روما كانت تعنى مستشاراً لمجلس الحاكم.

مخلبه فى يدي". وعاشا فى الكهف، لثلاث سنوات، والأسد يقتنص لكليهما. ثم أُعيد القبض على أندروكليس، وأُعيد إلى روما وحُكِم عليه بالموت فى الحلبة. وبمجرد أن سمع كاليجولا بهذه القصة، بعد أن أخذ أصوات الشعب، أطلق سراح الأسد والرجل. فسارا فى الشوارع معاً: "وكان أى شخص يلقاهما فى أى مكان، يقول متعجباً: هذا هو الأسد الذى كان صديقاً لرجل وهذا هو الرجل الذى كان طبيباً لأسد".

فهل هذه الرواية الخيالية، شهادة على شوق قديم فى قلب الإنسان إلى أن يحب حيوان حيواناً آخر وأن يبادله ذلك الحيوان الحب، كما يشتاق المرء إلى حب شخص ما وأن يبادله ذلك الشخص الحب؟ وليست هذه القصة بعيدة جداً عن رواية جوى آدمسون عن اللبؤة إلزا، التى قامت بتربيتها، ثم أطلقتها، وظلت إلزا لسنوات تعود من الطبيعة الطليقة كى تزور صديقتها مع أبنائها ورفيقها.

قد يكون حلم المشاركة فى المشاعر هذا غير متاح لنا الآن. ولكن سواء أكان يمكن تحقيقه أم لا، فنحن ندين بشيء للحيوانات. إذ يجب أن يكون التحرر من الاستغلال وإساءة المعاملة من جانب البشر حقاً لا يتجزأ لكل كائن حي. فالحيوانات لم تُخلق حتى نحفر فيها الثقوب، ونضربها ونشرّحها ونفصل أجزاءها عن بعضها، ونحولها إلى مخلوقات عاجزة، وخاضعة للتجارب المؤلمة، لقد ذُكر عن جون لِيلي، وهو واحد من أوائل الذين تعاملوا علمياً مع الدرافيل قوله إنه لم يعد يعمل مع الدرافيل لأنه "لم يعد يريد أن يدير معسكر اعتقال جماعى لكائنات شديدة التطور". فالحيوانات، مثلنا، أنواع معرضة للخطر فوق كوكب معرض للخطر، ونحن الذين نعرضها للخطر، ونعرض الكوكب وأنفسنا معاً. فهى كائنات بريئة تعانى جحيماً خلقناه نحن. لذا، فنحن مدينون لها، بأن نحجم عن إيذائها أكثر من ذلك ــ وهذا هو أضعف الإيمان ــ وإذا لم نكن قادرين على فعل ما هو أكثر من ذلك، فبمقدورنا أن نتركها تعيش. وعندما نكف عن وضع الحيوانات فى مستعمرات والتدخل فى نظامها، ربما ننجح فى التواصل مع أبناء عمومتنا فى النشوء والارتقاء. حينئذ قد يتحقق الأمل فى تواصل انفعالى أعمق عبر حاجز الأنواع، من أجل التقارب والمشاركة فى عالم من الشعور هو الآن بعيد عن تصورُنا.

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

ليونارد كوتريل، **الموسوعة الأثرية العالمية**

ويليام بيتر، **معجم التكنولوجيا الحيوية**

ج.كارفيل، **تبسيط المفاهيم الهندسية**

ب. كوملان، **الأساطير الإغريقية والرومانية**

و. د. هاملتون وآخرون، **المعجم الجيولوجي المصور في المعادن والصخور والحفريات**

حسام الدين زكريا، **المعجم الشامل للموسيقى العالمية (ج١)**

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

د.محمد نعمان جلال، **حركة عدم الانحياز في عالم متغير**

إريك موريس؛ آلان هو، **الإرهاب**

ممدوح عطية، **البرنامج النووي الإسرائيلي**

د. لينوار تشامبرز رايت، **سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر**

إزرا .ف. فوجل، **المعجزة اليابانية**

د. السيد نصر السيد، **إطلالات على الزمن الآتي**

بول هاريسون، **العالم الثالث غداً**

مجموعة من العلماء، **مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء**

و. مونتجمري وات، **الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر**

بادي اونيمود، **أفريقيا الطريق الآخر**

فانس بكارد ، **إنـــهم يصنعون البشر (٢ ج)**

مارتن فان كريفلد،**حرب المستقبل**

الفين توفلر ، **تحول السلطة (٢ج)**

ممدوح حامد عطية ، **إنهم يقتلون البيئة**

د.السيد أمين شلبي، **جورج كينان**

يوسف شرارة ، **مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية**

د. السيد عليوه، **إدارة الصراعات الدولية**

د. السيد عليوه، **صنع القرار السياسي**

جرج كاشمان، **لماذا تنشب الحروب(٢ ج)**

ايمانويل هيمان، **الأصولية اليهودية**

ثالثاً: العلوم والتكنولوجيا

ميكائيل ألبي، **الإنقراض الكبير**

فيرنر هيزنبرج، **الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية**

فريد هويل، **البذور الكونية**

ويليام بينز، **الهندسة الوراثية للجميع**

د. جوهان دورشنر، **الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد**

اسحق عظيموف، **الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)**

روبرت لافور، **البرمجة بلغة السي باستخدام تيربوسي (٢ ج)**

ادوارد إيه فايجينباوم، **الجيل الخامس للحاسوب**

د. محمود سري طه، **الكمبيوتر في مجالات الحياة**

د. مصطفى عناني، **الميكروكمبيوتر**

ي. رادو نسكاياي ، **الإلكترونيات والحياة الحديثة**

جلال عبد الفتاح، **الكون ذلك المجهول**

فرد س. هيس، **تبسيط الكيمياء**

كاتى ثير، **تربية الدواجن**

د.محمد زينهم، **تكنولوجيا فن الزجاج**

لارى جونيك ومارك هوبليس، **الوراثة والهندسة الوراثية بالكاريكاتير**

جينا كولاتا، **الطريق إلى دوللى**

دور كاس ماكلينتوك، **صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا**

اسحق عظيموف، **أفكار العلم العظيمة**

د.مصطفى محمود سليمان، **الزلازل**

بول دافيز، **الدقائق الثلاث الأخيرة**

ويليام هـ... ماثيوز، **ما هى الجيولوجيا؟**

اسحق عظيموف، **العلم وآفاق المستقبل**

ب. س. ديفيز، **المفهوم الحديث للمكان والزمان**

محمود سرى طه، **الاتجاهات المعاصرة للطاقة**

بانش هوفمان، **آينشتين**

زافيلسكى ف. س.، **الزمن وقياسه**

ر .ج. فوربس، **تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ج)**

د.فاضل أحمد الطائى، **أعلام العرب فى الكيمياء**

رولاند جاكسون، **الكيمياء فى خدمة الإنسان**

إبراهيم القرضاوى، **أجهزة تكييف الهواء**

ديفيد الدرتون، **تربية أسماك الزينة**

أندريه سكوت، **جوهر الطبيعة**

إيجور إكيموشكين، **الإيثولوجى**

بارى باركر، **السفر فى الزمان الكونى**

ديمترى ترايفونوف، **ظلال الكيمياء**

جيفرى ماوساييف ماسون، **حين تبكى الأفيال**

ليونارد أ. كول، **السلاح الحادى عشر**

و. جراهام ريتشاردز، **أسرار الكيمياء**

رابعاً: الاقتصاد

د. نورمان كلارك، **الاقتصاد السياسى للعلم والتكنولوجيا**

سامى عبد المعطى، **التخطيط السياحى فى مصر**

جابر الجزار، **ماستريخت والاقتصاد المصرى**

ولت ويتمان روستو، **حوار حول التنمية الاقتصادية**

فيكتور مورجان، **تاريخ النقود**

خامساً: مصر عبر العصور

محرم كمال، **الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء**

فرانسوا ديماس، **آلهة مصر**

سيريل ألدريد، **إخناتون**

موريس بيرابر، **صناع الخلود**

بكـنت أ. كتشن، **رمسيس الثانى: فرعون المجد والانتصار**

ألن شورتر، **الحياة اليومية فى مصر القديمة**

ونفرد هولمز، **كانت ملكة على مصر**

جاك كرابس جونيور، **كتابة التاريخ فى مصر**

نفتالى لويس، **مصر الرومانية**

عبده مباشر، **البحرية المصرية من محمد على للسادات (١٨٠٥ ــ ١٩٧٣)**

د. السيد طه أبو سديرة، **الحرف والصناعات فى مصر الإسلامية**

أ. أ. س. ادواردز، **أهرام مصر**

سومرز كلارك، **الآثار القبطية فى وادى النيل**

كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية
بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام
جيمس هنرى برستد، تاريخ مصر
د. بيارد دودج، الأزهر فى ألف عام
أ. سبنسر، الموتى وعالمهم فى مصر القديمة
ألفريد ج. بتلر ، الكنائس القبطية القديمة فى مصر (ج٢)
روز اليندم؛ الطفل المصرى القديم
ج. و. هكفرسون، الموالد فى مصر
جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية
سوزان راتيه، حتشبسوت
مرجريت مرى، مصر ومجدها الغابر
أولج فولكف، القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة
د. محمد أنور شكرى، الفن المصرى القديم
ت.ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة
إيفان كونج، السحر والسحرة عند الفراعنة
تشارلز نيمس، طيبة (آثار الأقصر)
رندل كلارك، الرمز والأسطورة فى مصر القديمة
ديمترى ميكس، الحياة اليومية للآلهة الفرعونية
محمد عبد الحميد بسيونى، بانوراما فرعونية

سادساً: الكلاسيكيات

جاليليو جاليليه ، حوار حول النظامين الرئيسين للكون (ج٣)
وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (ج٣)
أبو القاسم الفردوسى ، الشاهنامة (ج٢)
إدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (ج٣)
ناصر خسرو علوى، سفر نامة
فيليب عطية، ترانيم زرادشت

سابعاً: الفن التشكيلى والموسيقى

عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمى ومنطق
ألويز جرايتر، موتسارت
شوكت الربيعى، الفن التشكيلى المعاصر فى الوطن العربى
ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير
د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتى فى الفن التشكيلى
روبين جورج كولنجوود، مبادئ الفن
مارتن جك، يوهان سباستيان باخ
ميخائيل ستيجمان، فيفالدى
هيربرت ريد، التربية عن طريق الفن
أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف
حسام الدين زكريا، أنطون بروكنر
جيمس جينز، العلم والموسيقى
هوجولا يختنتريت، الموسيقى والحضارة
محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الأوركسترالى
د.صالح رضا، ملامح وقضايا فى الفن التشكيلى المعاصر
إدموندو سولمى، ليوناردو
سيوناند ميرى روبرتسون، الأشغال الفنية والثقافة المعاصرة

ثامناً: حضارات عالمية

جاكوب برونوفسكى، التطور الحضارى للإنسان
س. م. بورا، التجربة اليونانية
جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام

أ. د. جرنى، الحيثيون
ل. ديلابورت، بلاد ما بين النهرين
ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية
آدم متز، الحضارة الإسلامية (ج١)
جوزيف نيدهام، تاريخ العلم والحضارة فى الصين
ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية
سبتينو موسكاتى، الحضارات السامية

تاسعاً: التاريخ

جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى
هنرى بيرين، تاريخ أوربا فى العصور الوسطى
أرنولد توينبى، الفكر التاريخى عند الإغريق
بول كولز، العثمانيون فى أوربا
جوناثان ريلى سميث ، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية
د. بركات أحمد، محمد واليهود
ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)
و. بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى
فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوربا الشرقية
د.البرت حورانى، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)
نويل مالكوم، البوسنة
جارى. ب . ناش، الحمر والبيض والسود
أحمد فريد رفاعى، عصر المأمون (٢ج)
آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشرة ويهود اليوم
ناجاى متشيو، الثورة الإصلاحية فى اليابان
محمد فؤاد كوبريلى، قيام الدولة العثمانية
د. إبرار كريم الله، من هـم التتار؟
ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية
آلبان .ويد جرى، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)
جوسيبى دى لونا، موسولينى
جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية
هـــ ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)
يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى
هـــ ج ويلز، موجز تاريخ العالم
لورد كرومر، الثورة العرابية
حمدى عثمان، هؤلاء حكموا مصر
جوزيف دلى، العمارة العربية فى مصر
و. مونتجمرى وات، محمد فى مكة

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

ت.و. فريمان، الجغرافيا فى مائة عام
ليستردبل راى، الأرض الغامضة
رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
اميليا ادواردز، رحلة الألف ميل
رحلات فارتيما (الحاج يونس المصرى)
رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
رحلة عبد اللطيف البغدادى فى مصر
رحلة الأمير رودلف إلى الشرق (٣ج)
يوميات رحلة فاسكو داجاما
س . هوارد، أشهر الرحلات إلى غرب أفريقيا
إريك أكسيلون، أشهر الرحلات فى جنوب أفريقيا

حادى عشر: الفلسفة وعلم النفس

جون بورر، الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)
سوندراى، الفلسفة الجوهرية
جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
سدنى هوك، التراث الغامض:ماركس والماركسيون
ايفرى شاتزمان، كوننا المتمدد

ادوارد دو بونو، التفكير المتجدد

رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة

د.توماس أ. هاريس، التوافق النفسي: تحليل المعاملات الإنسانية

د. أنور عبد الملك، الشارع المصرى والفكر

نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل فرويد

أنطونى دى كرسبنى، أعلام الفلسفة المعاصرة

جين وروبرت هاندلى، كيف تتخلصين من القلق؟

هـ ج. كريل، الفكر الصينى

د. السيد نصر السيد، الحقيقة الرمادية

برتراند راسل، السلطة والفرد

مارجريت روز، ما بعد الحداثة

كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل

ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة

جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين فى العصور الوسطى

د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال؟

إريك برن، الطب النفسى والتحليل النفسى

بيرتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ج)

فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربى الحديث (٤ج)

هنرى برجسون، الضحك

أرنست كاسيرر، فى المعرفة التاريخية

و. مونتجمرى وات، القضاء والقدر

إدوارد دو بونو، التفكير العملى

ثانى عشر: العلوم الاجتماعية

د.محيى الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار

م. و ثرنج، ضمير المهندس

رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع

روى روبرتسون، الهيروين والإيدز

بيتر لورى، المخدرات حقائق نفسية

د.ليو بوسكاليا، الحب

برنسلاو مالينوفسكى، السحر والعلم والدين

بيتر ر.داى، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعى

بول جيرهارت، تعليم المعوقين

أرنولد جزل، الطفل من الخامسة إلى العاشرة

رونالد د. سمبسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

لويس فارجاس ، المرشد إلى فن المسرح

برونو باشينسكى ، حفلة ماتيكان

جلال العشرى ، فكرة المسرح

جان بول سارتر ؛ جورج برناردشو؛ جان أنوى مختارات من المسرح العالمى

د.عبد المعطى شعراوى ، المسرح المصرى المعاصر: أصله وبدايته

توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم

زيجمونت هبنر، جماليات فن الإخراج

أوجين يونسكو، الأعمال الكاملة (٢ج)

الان ماكدونالد، مسرح الشارع

نك كاى، ما بعد الحداثية والفنون الأدائية

بيتر بروك، التفسير والتفكيك والإيديولوجية

رابع عشر: الطب والصحة

بوريس فيدوروفيتش سيرجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء

١ - جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما فى السنة
د.ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب
م. هـ. كنج، التغذية فى البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى
ألدس هكسلى، نقطة مقابل نقطة
جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية
د.أنور المعداوى، على محمود طه: الشاعر والإنسان
جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصى
تاجور شين ين بنج وآخرون، مختارات من الأداب الآسيوية
محمود قاسم، الأدب العربى المكتوب بالفرنسية
جابرييل جارسيا ماركيز، الجنرال فى متاهة
سوريال عبد الملك، حديث النهر
د.رمسيس عوض، الأدب الروسى قبل الثورة البلشفية وبعدها
مختارات من الأدب اليابانى: الشعر، الدراما، الحكاية، القصة القصيرة
ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر
نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى
رالف ئى ماتلو، تولستوى
والتر ألن، الرواية الإنجليزية
هادى نعمان الهيتى، أدب الأطفال
مالكوم برادبرى، الرواية اليوم
لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة
ب. إفور إيفانز، موجز تاريخ الدراما الإنجليزية
ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه (٢ج)
جورج ستاينر، بين تولستوى ودستويفسكى (٢ج)
ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية
فيكتور برومبير، ستندال
فيكتور هوجو، رسائل وأحاديث من المنفى
يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية
د.نعمة رحيم الغزاوى، أحمد حسن الزيات كاتباً وناقداً
ف.برميلوف، دستويفسكي
لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، الدليل البيليوجرافى:روائع الآداب العالمية (ج١)
محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية : مقال من النوع الأدبى
هنرى باربوس، الجحيم
ميجيل دى ليبس، الفئران
روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمى
يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)
ب. إفور ايفانز، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزى
فخرى أبو السعود، فى الأدب المقارن
سليمان مظهر، أساطير من الشرق
ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائى عند تولستوى
د. صفاء خلوصى، فن الترجمة

سادس عشر: الإعلام

فرانسيس ج. برجين، الإعلام التطبيقى
بيير البير، الصحافة
هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

هاشم النحاس، الهوية القومية فى السينما العربية

ج.دادلى أندرو، **نظريات الفيلم الكبرى**

روى آرمز ، **لغة الصورة فى السينما المعاصرة**

هاشم النحاس، **صلاح أبو سيف (محاورات)**

جان لويس بورى وآخرون ، **فى النقد السينمائى الفرنسى**

محمود سامى عطا الله ، **الفيلم التسجيلى**

ستانلى جيه سولومون ، **أنواع الفيلم الأمريكى**

جوزيف وهارى فيلدمان، **ديناميةالفيلم**

قدرى حفنى، **الإنسان المصرى على الشاشة**

مونى براح، **السينما العربية من الخليج إلى المحيط**

حسين حلمى المهندس، **دراما الشاشة :بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ج)**

إدوارد مرى، **عن النقد السينمائى الأمريكى**

جوزيف م. بوجز، **فن الفرجة على الأفلام**

سعيد شيمى، **التصوير السينمائى تحت الماء**

دوايت سوين ، **كتابة السيناريو للسينما**

هاشم النحاس، **نجيب محفوظ على الشاشة**

يوجين فال، **فن كتابة السيناريو**

دانييل أريخون، **قواعد اللغة السينمائية**

كريستيان ساليه ، **السيناريو فى السينما الفرنسية**

آلان كاسبيار، **التذوق السينمائى**

تونى بار، **التمثيل للسينما والتلفزيون**

بيتر نيكولز، **السينما الخيالية**

بول وارن، **خفايا نظام النجم الأمريكى**

دافيد كوك، **تاريخ السينما الروائية**

ثامن عشر: كتب غيرت الفكر الإنساني

سلسلة لتلخيص التراث الفكرى الإنسانى فى صورة عروض موجزة لأهم الكتب التى ساهمت فى تشكيل الفكر الإنسانى وتطوره مصحوبة بتراجم لمؤلفيه وقد صدر منها ٩ أجزاء.

تاسع عشر: الأعمال المختارة

يوهان هويزنجا، **أعلام وأفكار**

د.مصطفى طه بدر، **محنة الإسلام الكبرى**

ت. كويلر ينج، **الشرق الأدنى**

جيمس نيومان؛ ميشيل ويلسون، **رجال عاشوا للعلم**

ابن زميل الرمال، **آخرة المماليك**

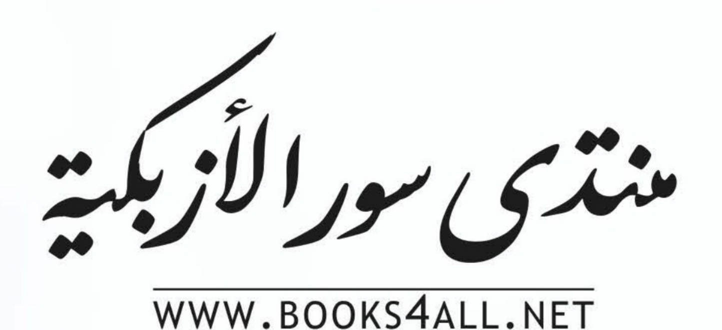
د. محمد عوض محمد، **نهر النيل**

أرثر كريستنسن، **إيران فى عهد الساسانيين**

أوجست دييس، **أفلاطون**

يعقوب فام، **البرلجماتية**

بلوطرخوس، **العظماء**



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٤٤٩ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 7075 - 5